وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
وولاية بسكرة

## أشغال الملتقى الدولي الثالث حول
## الفاتح عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه

# الحواضر العلمية الجزائرية وإفريقيا

أيام 08 – 09 – 10 مارس 2014
بمدينة سيدي عقبة

منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

# مقدمة
# الجزائر وإفريقيا: نحو استراتيجيه أمنية في الدين والثقافة والسيّاسة

**أ.د/ بومدين بوزيد**

نضع بين يدي القارئ أعمال الملتقى الدولي الثالث: سيدي عقبة بن نافع الفاتح والذي اختار موضوع: «الجزائر والحواضر الإفريقية» سنة 2014، وقد حضره بعض باحثي وممثلي الهيئات الدينية من دول الساحل الإفريقي، هكذا تحول ملتقى بسكرة إلى الاهتمام الحضاري والاستراتيجي للمنطقة والجزائر، فسيدي عقبة رمزية وطنية وتاريخية ـ روحية، ونفوس الأفارقة تهفوا إلى زيارة المكان واستحضار الزمان، فقد كان انتشار الإسلام في إفريقيا رحمة وتحريراً لشعوبها من التخلّف والاستعمار، وهناك قبائل وطرق صوفية ترى الانتساب إلى سيدي عقبة بن نافع الفهري مزيّة ومفخرة تاريخية ومنها «الطريقة القادرية الكنتية»، وعلينا اليوم استثمار هذه الرمزية المكثفة في تجديد العلاقة مع إفريقيا وحواضرها، مع امتدادنا الطبيعي والجغرافي والتاريخي، فللأسف في تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011 تذكرنا فاس المغربية والقيروان التونسية، ونسِينا تمبكتو المالية الحاضرة الإسلامية التاريخية التي كانت تنتظر مصيراً مأساوياً في نهب مكتباتها والعبث بمخطوطاتها النادرة وتهديم قباب علمائها وأوليائها، لقد ظلّت تمبكتو قلعة علمية وفضاء للتسامح والتعايش بين المسلمين رغم اختلاف أجناسهم وألوانهم وأعراقهم، كما استقبلت العلماء والفارّين من الظلم والطغيان، ورحَلت مكتبات إلى تمبكتو منها مِئات

المخطوطات التي قدم بها القوطيون من طليطلة بعد سقوطها، ومن أشهر علماء هذه الحاضرة العلمية الإفريقية ـ العربية أحمد بابا التمبكتي صاحب كتاب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» في التراجم إذ تعرّض فيه لعلماء جزائريين ومغاربة وأفارقة، وقد أسهم علماء أفارقة من السينغال والنيجر ونيجيريا والسودان في نشر الثقافة العربية ـ الإسلامية، ويتحدّث بعضهم أنهم من السّلالات العربية مثل الكنتيين الذين هم من أحفاد عقبة بن نافع الفاتح –كما ذكرت ذلك آنفاً –، وأحفاد الشيخ عبدالكريم المغيلي، هذه المصاهرة النّسبية والعلمية والحضارية بين الأمازيع والعرب والأفارقة في ظلّ الإسلام هي التي كانت وراء تأسيس دولة المرابطين «الملثمين» التاريخية القويّة، وهي التي شكّلت حركات التحرير في البلدان الإفريقية المستعمَرة من طرف الفرنسيين والأسبانيين والبرتغاليين، كما امتدت طرق صوفية في رمال هذه الصحراء وأدغال إفريقيا من تيجانية وقادرية وسنوسية ورحمانية لمواجهة التبشير والتمييز العرقي، إن نسيان بُعدنا الإفريقي وإغفاله ليس في مصلحتنا السياسية والثقافية والاقتصادية، وليس تذكرنا للسّاحل الإفريقي هو في دعوة كتاب رواية وشعر بالفرنسية أغلبهم يعيش منقطعاً عن بلدانهم وهويتهم الثقافية، بل في التركيز على التواصل الحضاري والثقافي واستمراره الذي كان بين حواضر السّاحل مثل تمبكتو وغاو وشنقيط «موريتانيا»وتوات وتلمسان وعين ماضي وتماسين، وإعادة ربط أتباع الطرق المشار إليها بمراكز المشيخة الأولى، وقد تبيّن بعد انتشار الجماعات المسلّحة الإرهابية في السّاحل أننا نفتقد في الجزائر لمركز بحث في الدراسات الإفريقية، فأزمة مراكزنا البحثية بادية للعيان حين تحوّل بعضها إلى مراكز نشاط ثقافي والابتعاد عن التخصصّ الدقيق المنشأة لأجله، إن التّحالف بين الفكر المتطرف وأصحاب المال من المهرّبين وتجّار المخدرات يُظهر مدى التدمير الذي سيلحق بالسّاحل والتهديد المباشر على حدودنا، كما أنّ ذلك يُسهم في

إحياء النّعرات العرقية واللغوية، من هنا يصبح الاهتمام ببعدنا الإفريقي وبتراثنا المشترك مع غرب إفريقيا بالخصوص، والاهتمام بحواضرنا في الجنوب وإعادة الريادة الحضارية **لعواصم المشيخة الصوفية والثقافية الجزائرية** مثل توات وعين ماضي وغرداية وبسكرة **ضمن إستراتيجية ثقافية واقتصادية وأمنية يشكّل حزاماً أمنياً ثقافياً وسياسياً واستباقاً هجومياً ضدّ التطرف الديني والثقافي والعرقي واللغوي.**

نجاح ملتقى سيدي عقبة يعود فيه الفضل أساساً إلى السيّد والي الولاية الأستاذ جاري مسعود الذي يتابع التحضيرات العلمية والتنظيمية باهتمام بالغ والزميل نورالدين عميرة مدير الشؤون الدينية والأوقاف بالولاية، وشيخ زاوية طولقة الفاضل الذي تفضل بالإشراف على بعض اجتماعات اللجنة العلمية، والباحث المؤرخ العربي الزبيري وإلى أصدقائنا الباحثين من جامعة بسكرة وجامعات الولايات المجاورة بالخصوص الزميل الدكتور زمام نورالدين عالم الاجتماع، والدكاترة، نصر الدين مصمودي، وخميس فريح، وبولطيف لخضر، وإمام مسجد سيدي عقبة عبدالرحمان بوعشة، ورئيس فرع المركز الثقافي السيح عبدالقادر.

بفضل حرص هؤلاء وجهدهم تتقدم وزارة الشؤون الدينية والأوقاف في تأسيس لمحافل علمية سنوية ببعض ولايات الوطن، وهذا تطوير وتنويع للملتقى الدولي الذي اشتهرت به الوزارة في السنوات التي خلت الخاص بـ»الفكر الإسلامي» فعين الدفلى تخصّصت في ملتقى «المالكية» وغليزان «في التصوف» وسطيف في «الاجتهاد» وقسنطينة في «السنة النبوية» وأسبوع القرآن الكريم في «الجزائر العاصمة»، إضافة إلى القوافل العلمية وملتقيات أخرى تنظمها الوزارة ومشاركة مع الجامعات والمخابر العلمية، والاهتمام بأعلام الجزائر وحواضرها، وبمناسبة تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015

ستكون حاضرة مثل تظاهرة تلمسان 2011 بملتقيات علمية متميّزة وبنشر كتب في مجال تخصّصها تنشر لأوّل مرّة، وهذا بفضل حِرص معالي الوزير السيد الدكتور محمد عيسى وتوجيهاته نحو نشر ثقافة دينية علمية وإستراتيجية في نفس الوقت، تحفظ لشبابنا مرجعيته من الزيغ والتطرف وتوفير الوسائل الآمنة للإفتاء وإنتاج ثقافة الاعتدال والمواطنة والسّلم.

**مدير الثقافة الإسلامية**

**بوزارة الشؤون الدينية والأوقاف**

# كلمة السيد والي ولاية بسكرة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

السيد معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف ممثل فخامة السيد رئيس الجمهورية

السيد رئيس المجلس الشعبي الولائي

السادة أعضاء البرلمان بغرفتيه

السادة أعضاء لجنة الأمن

السادة الإطارات

فضيلة المشايخ والأساتذة والباحثين

الأسرة الإعلامية

السادة الضيوف الكرام

السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتجدد سعادتي، للقاء بكم في هذه المناسبة المباركة، الملتقى الدولي الثالث للفاتح عقبة بن نافع الفهري، لأقدم خالص شكري وبالغ امتناني للسيد فخامة رئيس الجمهورية لرعايته السامية الدائمة لهذا الملتقى الدولي،الذي

يولي الاهتمام البالغ لتاريخنا وتراثنا وديننا وأصالتنا، ورعايته السامية تزيدنا يقينا، أن هذا الملتقى الدولي سيدوم وسيبقى جزءا من تاريخ مدينة الفاتح وولاية بسكرة، ويعيد لها أمجادها لتبقى أبديا من الحواضر العلمية الإسلامية بالجزائر، ونيابة عن سكان ولاية بسكرة أتقدم للسيد معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف بأحر آيات الترحاب والشكر، الذي يصر رغم التزاماته الكثيرة على حضور الملتقى ومشاركتنا هذه الفرحة، إيمانا من معاليه بأهمية هذا الملتقى وترسيخه وتثبيته ليقوم بدوره الحضاري، ولضيوفنا الكرام أصحاب الفضيلة المشايخ والأئمة، والأساتذة الأجلاء والباحثين، الذين قدموا من كل مكان يجمعهم البحث العلمي لإحياء أمجادنا، متمنيا لكم جميعا طيب الإقامة بجوار المقامات الطاهرة للفاتحين الكرام بهذه الولاية المجاهدة والمدينة التاريخية التي خلدت اسم الفاتح عقبة بن نافع، كما أوجه تحياتي الخالصة للساهرين على التنظيم الجيد المحكم لهذا الملتقى الذي يجمعنا سنويا في هذا الصرح التاريخي الطاهر.

السادة الحضور :

إن الجزائر التي بلغتها رسالة الإسلام بفضل الفتوحات، تشرفت باحتضان الفاتحين في ثراها بولاية بسكرة وبمدينة الفاتح عقبة بن نافع، التي أصبحت فيما بعد قبلة للعلماء العظام، ومهوى أفئدة الأولياء الكرام، وملهمة قريحة الشعراء، فشد إليها الرحال المؤرخون والباحثون والرحالة وطلبة العلم من كل حدب وصوب، فأصبحت بسكرة من أوائل الحواضر العلمية بالجزائر التي انتشرت بها الكثير من هذه الحواضر في أغلب مدنها، والتي أصبحت بدورها الحضاري منارات تفتح القلوب لهداية الإسلام، ونشر تعاليمه وتقوية أواصر

الأخوة بين المسلمين، فبلغت بذلك إلى الأصقاع البعيدة والأدغال المجهولة، فحواضر الجزائر كالنجوم في دجى الظلمات، لاينكرها إلا جاحد للحقيقة، متنكر للواقع.

السادة الحضور :

لقد كان للحواضر العلمية بالإضافة إلى دورها الحضاري أثرا عميقا في ترسيخ المفاهيم الصحيحة للإسلام، والقواعد المتينة للإيمان، وتكوين أجيال تبني مجتمع إسلامي متماسك متآخي متسامح بمدارسه الكلامية، ومذاهبه الفقهية، وزواياه الصوفية، وأعراقه وأجناسه المتنوعة، ينعم الجميع بنعمة الإسلام وخيرات البلاد، ونحن اليوم أحوج لذلك الدور الريادي لحماية مجتمعاتنا من التيارات الوافدة، والأفكار الغريبة والآراء الشاذة والممارسات المستهجنة، ولرد شبهات العنف والكراهية التي تلصق بديننا الحنيف بالدعاية المغرضة والتلفيق الكاذب، والممارسات المؤسفة لبعض أبنائه أحيانا أخرى، فرسالتكم أن تبرزوا دور هذه الحواضر العلمية الإيمانية ورجالاتها العظام ومريديها الكرام، لجيل الشباب ليتعرف ويتواصل مع ماضيه المجيد وتاريخه التليد، ويكون خير خلف لخير سلف، كما أن رسالتكم أن يدوم هذا الملتقى ويعيد لحاضرة بسكرة العلمية دورها التاريخي والسياحي الروحي.

السادة الحضور :

في الختام أتمنى لأشغالكم النجاح والتوفيق وتتويج الملتقى بتوصيات عملية تتفاعل وواقعنا، ليكون ملتقانا هذا موعدا ينتظره الجميع بشغف لأهميته العلمية والتاريخية، أجدد خالص شكري للسيد فخامة رئيس الجمهورية

لرعايته السامية لهذا الملتقى الذي سيكون منارة علمية نعتز بها، وشكري للسيد معالي وزير الشؤون الدينية الذي يشرفنا دوما للإشراف على الافتتاح الرسمي للملتقى والوقوف على مجرياته، ولمشايخنا وأئمتنا الكرام وباحثينا وأساتذتنا الأجلاء على حضورهم معنا وأمنيتي لهم الإقامة الطيبة والعودة الميمونة لأهاليهم وذويهم، كما أشكر جميع المنظمين الساهرين على نجاح الملتقى وراحة الضيوف.

أشكركم على كرم الإصغاء والانتباه

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## الباب الأول:

# الجزائر وانتشار الإسلام

# دخول الإسلام وانتشاره في إفريقيا

صار موسى
وزارة الشؤون الإسلامية
والتعليم الأصلي - موريتانيا -

## المقدمة

بعث الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم بقلب الجزيرة العربية بعد أن غرق الناس في ظلمات جاهلية حملتهم على سفك الدماء وأكل الربا ومال اليتيم وشرب الخمر وسوء الجوار وفوق كل ذلك الفساد الاعتقاد في تعدد الآلهة ذلك من ما تأباه الفطرة السليمة. فكانت البشرية في أمس الحاجة إلى الهداية والخروج من الظلمات إلى النور والتحرر من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق.

فظهرت الرسالة المحمدية في الجزيرة العربية - لتدعو إلى توحيد الألوهية كسابقتها من الديانات السماوية - ثم انتشرت بعد ذلك تدريجيا لتصل إلى القارة الإفريقية وتنتشر في شتى أنحائها وذلك ما سنحاول تسليط الضوء عليه في هذه المداخلة من خلال النقاط التالية:

1) العلاقات العربية الإفريقية القديمة؛
2) الهجرة إلى الحبشة؛
3) طرق الإسلام إلى إفريقيا؛
4) المسلمون في القارة الإفريقية؛
5) وسائل انتشار الإسلام في القارة الإفريقية؛

الخاتمة.

## 1. العلاقات العربية الإفريقية القديمة

كان عرب جنوب شبه الجزيرة العربية- أول الشعوب العربية التي أتت إلى الساحل الشرقي الإفريقي بغرض التجارة وعلى الرغم من أنهم وفدوا في أعداد قليلة إلا أنهم على مدى الأيام اختلطوا بأهل الساحل وتزوجوا فيهم وأقاموا محطات تجارية بأراضيهم.

وفي منتصف الألف سنة التي سبقت ميلاد المسيح بدأ الطابع العربي يظهر على طول الساحل ويذكر مؤرخو الإغريق القدماء عن الزنج الذين كانوا يعيشون في سواحل شرق إفريقيا أنهم شيدوا مدنا ساحلية كانت على علاقات تجارية راسخة مع شبه الجزيرة العربية والهند ومن المرجح أن يكون عرب جزيرة العرب خاصة عرب الجنوب هم أقدم الشعوب العربية اتصالا بالسواحل الشرقية الإفريقية بحكم الجوار الجغرافي، وقد ساعدهم على قيام هذه العلاقات نظام الرياح الموسمية والتي كانت تمكن السفن الصغيرة من القيام برحلتين في العام.

ففي الخريف تدفعها الرياح الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة العربية اتجاه الساحل الإفريقي، وفي فصل الربيع تدفعها نحو الشمال الشرقي حيث تمكنها من العودة.

كانت تلك إذا هي بداية العلاقات بين السكان في شبه الجزيرة العربية وبين شرق القارة الإفريقية،

وقد مهد هذا الأمر لوصول الإسلام بعد ذلك إلى تلك الأماكن[1].

إذا كانت الطلائع الأولى من الصحابة رضوان الله عليهم لم يتمكنوا من القيام بالدعوة إلى الإسلام في فجر البعثة بإفريقيا، فإن المسلمين الأوائل عرفوا العالم الإفريقي قبل انتشار الإسلام في القارة الإفريقية.

---

(1) الإسلام في إفريقيا ويكبيديا الموسوعة الحرة ejabat.google.com (بتصرف يسير)

فقد كانت الصلة بين العالمين العربي والإفريقي سابقة لظهور الإسلام إذ أن جزيرة العرب كانت على صلة اقتصادية ودينية وسياسية لشرقي إفريقيا ولم يكن الحضور الإفريقي مقتصرا على العبيد الذين يجلبون من القارة السوداء بل كانت للحبشة ارتباطات وثيقة باليمن[1].

## 2) الهجرة إلى الحبشة

وفي بداية الدعوة الإسلامية لقي المسلمون من التعذيب والاضطهاد والأذى ما لا قبل لهم به، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، التي كانت تشكل في ذلك الوقت قطرا يتنعم جميع أهلها بعدالة ما أحوج مجتمعاتنا إليها في الوقت الحاضر. وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالتوجه إلى الحبشة حيث يوجد النجاشي وهو ملك لا يقبل الظلم لمن يعيش في مملكته من مواطن أصلي ومن وافد أو لاجئ سياسي بلغة العصر. وتركت تلك الهجرة أثرا كبيرا في نفوس الأحباش وعلى وجه الخصوص ملكهم النجاشي الذي كان له فضل مشكور على ما حظي به المهاجرون إلى الحبشة من أمن واستقرار، ويؤيد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم حيث صلوا صلاة الغائب على النجاشي لما توفى[2] .

وفي السنة التاسعة من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علقمة بن مجزر المدلجي على رأس سرية إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة المكرمة. فخاض علقمة البحر مع رجاله حتى انتهى إلى جزيرة، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا[3].

---

(1) طرق انتشار الإسلام في غربي إفريقيا –المكتبة الإسلامية– إسلام ويب– htt: / /library. islamweb.net

(2) – احكام الجنائز محمد حسان/ مكتبة فياض/ ص:55

(3) – الرحيق المختوم صفي الرحمن المباركفور البعوث والسرايا بعد الرجوع من الفتح ص 392

## 3) – طرق الإسلام إلى إفريقيا

بناء على ما ذكره أهل السيرة والكثير من الباحثين والمؤرخين يمكن تقسيم مسالك الإسلام إلى القارة الإفريقية أساسا إلى طريقين:

3.1 طريق مائي وهو طريق باب المندب المحاذي لساحل شرقي إفريقيا حين كان المسلمون يعبرون البحر الأحمر للتوجه نحو الصومال والحبشة وزنجبار، وكان الاتصال بين هذه المناطق الإفريقية وشبه الجزيرة العربية مباشرة وتبعا لذلك كان شرقي إفريقيا متأثرا في شؤون دينه بمناطق الخليج العربي ويتجلى ذلك في انتشار المذاهب الفقهية والطرق الصوفية القادمة من سكان الجزيرة العربية[1].

3.2 طريق بري اتخذه الإسلام للدخول في شمال وغربي إفريقيا وهو معبر سناء الذي اختاره عمرو بن العاص رضي الله عنه لفتح مصر. ولما استتب الأمر لجيوش الإسلام بأرض الكنانة تطلعت إلى فتح شمالي إفريقيا حيث اتجهت صوب برقة وتونس والجزائر ثم المغرب ومنه إلى جنوبي الصحراء الكبرى[2].

وجدير بالذكر أن الإسلام لم يكن يفتح البلاد بالمفهوم الحديث للفتح، إنما كان يحررها من تسلط وبغي إمبراطوريتي الفرس والروم. وكانت مصر بالذات، يوم أهلت عليها طلائع الإسلام نهبا للروم. ولقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه حريصا على أن يباعد أهل مصر وأقباطها عن المعركة ليظل القتال محصورا بينه وبين جنود الرومان وذلك لحرصه على تطبيق وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل مصر.

---

(1) طرق انتشار الإسلام في غربي إفريقيا–المكتبة الإسلامية– إسلام ويب– htt: //library. islamweb.net

(2) نفس المصدر

فكان مما قال وهو يتحدث إلى زعماء النصارى والأساقفة: ... *ولقد أخبرنا نبينا أن مصر ستفتح علينا وأوصانا بأهلها خيرا* فقال: «ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم ذمة ورحما».

ولما فرغ عمرو بن العاص رضي الله عنه من كلامه، صاح الرهبان والأساقفة قائلين: «إن الرحم التي أوصاكم بها نبيكم لهي قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء»[1].

ولقد حدد كل من (تريمنجهام) و(القاسي) و(ميرك) سبعة مناطق ثقافية في إفريقيا دخل فيها الإسلام منذ القرن السابع وحتى القرن التاسع عشر وهي: مصر، المغرب، غرب ووسط السودان، السودان واد النيل، القرن الإفريقي والساحل الشرقي لإفريقيا[2].

## 4) المسلمون في القارة الإفريقية

يوجد مركز ثقل الإسلام في شمال القارة وغربها على الرغم من أن شرقها أقرب للأرض المقدسة في الجزيرة العربية حيث ظهر الإسلام وكان من المنطقي أن يكون الإسلام في شرق القارة أكثر انتشارا نظرا إلى القرب الجغرافي النسبي وللعلاقات التجارية الأقدم[3]، كما بينا في العلاقات العربية الإفريقية القديمة.

وتعد القارة الإفريقية الأكبر من حيث تركز المسلمين بها (مع المقارنة بالعدد الإجمالي للسكان) بما يقارب النصف.

---

(1) رجال حول الرسول / خالد محمد خالد/ دار الفكر/ ص 362 – 363

(2) http :// ejabat.google.com

(3) د. حرية توفيق مجاهد: الإسلام في إفريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية: مكتبة الانجلو المصرية 2002م. www.nafes.com/articlies/fab/9532.doc

بعد أن عرفنا أن ثقل الإسلام في شمال القارة الإفريقية، يحسن أن نبين حالة المناطق الأخرى فيما يلي:

• شرق إفريقيا: حيث يركز الإسلام في الصومال وتنزانيا والمنطقة الساحلية لشرق إفريقيا؛

• والمنطقة الشرقية جغرافيا: جبلية يعني أنها ليست مفتوحة؛

• غرب إفريقيا: حيث لم تكن عوائق جغرافية تنتشر فيها الإسلام فقامت فيها المملكات والإمبراطوريات الإسلامية وكانت تشهد نشاطا تجاريا وكان مصدر عيش وانفتاح لا غناء عنه لغربي إفريقيا على العالم الخارجي شمال إفريقيا في ذلك الوقت.

• منطقة خليج غينيا: كما شكلت الجبال عائقا في المنطقة الشرقية، شكلت الغابات في منطقة خليج غينيا تحديا كبيرا لانتشار الإسلام وأهم من ذلك وجود المراكز الأوروبية لتجارة الرقيق والتبشير المسحي.

• جنوب القارة: الاستعمار البرتغالي والجهود التبشيرية الكاثوليكية كانت من بين العوائق الأخرى عوائقا في هذه المنطقة[1] .

## 5) – وسائل انتشار الإسلام في القارة الإفريقية

يقول محمد كمال الدين: يتميز انتشار الإسلام عامة بأنه جاء نتيجة الدعوة والإقناع وليس نتيجة القهر، وقد تنوعت تلك الوسائل في إفريقيا ومن أهم وسائل الدعوة الأخلاق الفاضلة التي كان يتحلى بها التجار المسلمون ورجال الطرق الصوفية والوعاظ من دارسي الأزهر والجامعات في شمال إفريقيا والمراكز الثقافية في غربها وغيرها من مراكز الإشعاع الإسلامي في القاهرة وخارجها[2].

---

(1) نفس المصدر

(2) محمد كمال الدين: **www.alwfd.org**

ونال الإسلام مكانته في إفريقيا من خلال سماحته التي سمت بها الجيوش التي قادت الفتوحات الإسلامية إضافة إلى هجرة واستقرار بعض القبائل العربية والتجار والنخب العلمية الإسلامية في إفريقيا وشرق السودان[1].

وبشيء من التفصيل نذكر أهم وسائل انتشار الإسلام في إفريقيا فيما يلي:

5.1 التجارة: الدور الرائد للتجار المسلمين في نشر الإسلام شبه إجماع لدى جميع الذين اهتموا بموضوع وسائل أنشار الإسلام في إفريقيا. لقد قام التجار بنشر الأخلاق الحميدة في هذه المجتمعات في مظهرهم الخارجي أي في لباسهم والصدق والأمانة في معاملاتهم مع المحافظة على أداء العبادات في أوقاتها (الصلاة – الصيام) والاحتكاك بالسكان.

كما كان مفهوم المساواة الذي جاء به الإسلام لا يحول قط دون اختلاط المسلمين التجار في حياتهم اليومية مع الأفارقة، كما لا يمنع أيضا من التزوج من النساء في تلك المناطق، مما أدى إلى إعجاب الأفارقة من هذه العقيدة السمحة التي لا تعرف فوارق اللون واللغة والطبقية ... بل معيار الكرامة فيها هو التقوى[2].

لعبت حركة القوافل دورا طليعيا في نشر عقيدة الدين الإسلامي والتبادل التجاري بين العالميين الإفريقي والعربي الإسلامي.

5.2 الطرق الصوفية: تحضر الطرق الصوفية بشكل بارز في الحياة اليومية للمواطن الإفريقي وخاصة في غربي القارة حيث لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في تثبيت الإسلام والوقوف أمام الاستعمار الاروبي للقارة وحملات التنصير. وهي كثيرة بحيث يصعب حصرها ومنها التجانية والقادرية والموريدية

(1) كيف انتشر الإسلام في شمال أفريقيا وما هي أسباب انتشاره : **http: / /ejabat.google.com**

(2) محمد كمال الدين: **www.alwfd.org**

والسهلية والطيفورية والنقشبندية والخلوتية والحموية والرفاعية... إلخ[1]واكثر هذه الطرق انتشارا التجانية حيث يعد أتباعها بالملايين في السنغال والمغرب وموريتانيا والجزائر ونيجيريا ومالي وغمبيا وغينيا وساحل العاج ...

5.3 المرابطون: فتحوا مملكة غانا بدءا بأوداغوست ثم كومبي صالح وكان المرابطون يهدفون إلى نشر الإسلام في منطقة لم يكن الدين الإسلامي معروفا لدى أهلها في ذلك العهد[2].

5.4 مراكز الإشعاع الديني: ظهرت هذه المراكز لتعليم ونشر قيم الدين الإسلامي ولعل من أقدمها مدينة القيروان التي أسسها الفاتح المجاهد عقبة بن نافع رضي الله عنه لأسباب منها:

- تثبيت أقدام المسلمين والدعوة الإسلامية لأنه لاحظ أن أهل الشمال الأفريقي يظهرون الإسلام إذا جاءهم المسلمون وإذا انصرفوا عنهم انقلبوا على أعقابهم، فجاء قرار بناء المدينة لعلاج هذه الظاهرة.
- إيجاد قاعدة حربية ثابتة لمواجهة التهديد الرومي
- إيجاد مركز عز ومنعة للمسلمين[3].

شكل تأسيس مدينة القيروان مشروعا هاما في نشر الإسلام، كيف لا والفكرة جاءت من أحد الصحابة رضوان الله عليهم وهم الرجال الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا خير الرجال، تربوا على يدي رسول الله (ﷺ) فتخرجوا من مدرسته ثم جاهدوا في سبيل الدعوة بعد أن أضاء الله قلوبهم بنور

(1) التجانية / على بن محمد الدخيل الله / دار طيبة – الرياض ص 29–36

(2) طرق انتشار الإسلام في غربي إفريقيا–المكتبة الإسلامية– إسلام ويب– htt: //library. islamweb.net

(3) موقع مفكرة الإسلام / شريف عبد العزيز / الأمير المجاهد عقبة بن نافع فاتح بلاد المغرب

الإيمان وتأدبوا بآداب القرآن فكانوا مصابيح هداية وقادة فتح وجنود دعوة[1]

5.5 تؤكد د. حورية ظهور العديد من الزعامات الدينية في إفريقيا متميزة بسمات مشتركة وهم إفريقيون من أصول وأنساب ترجع إلى الأرض المقدسة بالحجاز توافرت في معظم هذه الزعامات مقومات النجاح السياسي حيث القيادة الواعية والعقيدة الراسخة ومن بينهم:

- عثمان بن فوديو في شمال نيجيريا ؛
- الحاج عمر الفوتي في غينيا والسنغال ومالي؛
- الشيخ ماء العينين في موريتانيا.
- السنوسي الكبير في ليبيا.
- محمد أحمد المهدي في السودان.
- الملا محمد عبد الله حسن في الصومال.
- الحاج محمود با مؤسس مدارس الفلاح التي انتشرت في السنغال وموريتانيا ومالي وساحل العاج وتخرجت منها العديد من الدعاة والأئمة

## الخاتمة

الرسالة المحمدية جاءت خاتمة للديانات السماوية فتميزت هذه الأمة بالخيرية من سابقاتها وذلك لمالها من دور الأنبياء في تبليغ دين الله سبحانه وتعالى.

قام المصطفى عليه صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة في حياته وبعده استجابة لأمره تعالى إياهم في قوله ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ يوسف، 108.

(1) أبطال الإسلام في موكب النبوة الخالدة – دار النور للنشر والتوزيع – ج1 ص 14

فلكل قطر أو منطقة أو بلد خصوصيات لا بد من مراعاتها وتلك هي الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ومن جانب أخر فإن انتشار الإسلام أمر من قدر الله سبحانه وتعالى يسخر له ويهدي إليه من يشاء من عباده الذين اصطفى.

ولاشك أنه كل ما ساهم من قريب أو بعيد قديما وحديثا في نشر العقيدة الإسلامية والدعوة إليها بما لا يتنافى مع تعاليم الشريعة الإسلامية الحنفية السمحة الوسطية فهي وسيلة من وسائل نشر الإسلام، ولعل خير مثال على ذلك هذا اللقاء الذي كان سببا في هذه المداخلة.

**والله ندعو أن يوفقنا والقائمين عليه لما يحبه ويرضاه.**

# عقبة بن نافع وانتساب قبائل إفريقيا إليه (القبائل الفلانيين نموذجا)

إعداد : د علي يعقوب
الجامعة الإسلامية بالنيجر

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فيقول تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين أمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[1] وتنطبق على الآية على الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري ـ رضي الله عنه ـ الذي علا في الحياة بالجهاد ونشر الإسلام في أرجاء شمال إفريقيا ومغربها والسودان الغربي، وعلا بعد الممات بالشهادة، هذا الصحابي الذي ترك دويا يملأ دنيا المسلمين عبرالزمان, ومؤلفات وسير ضمها التاريخ القديم والحديث، تعالج حياة هذا القائد العظيم الذي ترك للدنيا رمزا خالدا في الإيمان والتضحية، وجعلت من القائد عقبة الإنسان الخالد حيث نطالع سيرته ونقيم ملتقيات وندوات دولية حول سيرته وجهاده، ونردد اسمه فكأنه غادرنا بالأمس رغم مرور مآت السنين[2]على استشهاده، وتنسب أجناس وقبائل إليه عربية وغير عربية في إفريقيا الشمالية والغربية، حيث سكن وجاهد واستشهد، فهذه

(1) الحجرات : 14

(2) انظر بسام العسيلي، عقبة بن نافع، ط2 1977م دار النفائس بيروت، ص :17و18 بتصرف

ورقة بحثية بعنوان: **عقبة بن نافع وانتساب قبائل إفريقيا إليه (القبائل الفلانيين نموذجا)** ويتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة، ففي **المقدمة** ستناول أهمية الموضوع وخطته، **وأما المبحث الأول** : فيتمحور حول فتح عقبة بن نافع لإفريقيا ونشر الإسلام فيها، **واما المبحث الثاني** : فيتمحور حول انتساب بعض الشعوب الإسلامية في غرب إفريقيا إلى عقبة بن نافع وبخاصة القبائل الفلان، وهي قبيلة كبيرة تنتشر من المحيط الأطلسي غربا إلى السودان شرقا ولعبت دورا كبيرا في نشر الإسلا م في المنطقة، وترجع أصولها إلى عقبة بن نافع الفهري، وسيناقش المبحث أقوال العلماء في المسألة ، ثم الخاتمة التي فيها أهم النتائج.

## المبحث الأول : فتح عقبة بن نافع لإفريقيا ونشر الإسلام فيها

**نبذة عن عقبة بن نافع الفهري**: هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي، وله صلة قرابة للصحابي الجليل عمرو بن العاص من ناحية الأم، وقيل إنهما ابني خالة.

ولد قبيل عام واحد من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك فقد ولد عقبة ونشأ في بيئة إسلامية خالصة، وعرف الصراع بين المسلمين وبين أعداء الإسلام، منذ فتح عيونه على الدنيا، كان عقبة بن نافع مثالاً في العبادة والأخلاق، والورع والشجاعة، والحزم والعقلية العسكرية الإستراتيجية الفذة، والقدرة الفائقة على القيادة بورع وإيمان، وتقوى وتوكل تام، أحبه رجاله، وأحبه أمراء المؤمنين، قد مرت حياة عقبة بن نافع بثلاث مراحل :

**المرحلة الأولى** : **العمل تحت قيادة عمرو بن العاص**، وهذه الفترة كانت مفيدة لبناء شخصية عقبة القيادية حيث اكتسب خبرات عمرو بن العاص القتالية

والقيادية، فشارك في فتح مصر سنة 21هـ، أي في وقت كان عمر عقبة نيف عن العشرين سنة أو يفوقها بقليل، حيث اشترك هو وأبوه نافع في الجيش الذي توجه لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص.

**المرحلة الثانية : تولى قيادة مستقلة،** ولقد توسم عمرو بن العاص في عقبة بن نافع أنه سيكون له شأن كبير ودور في حركة الفتح الإسلامي، لذلك أسند إليه مهمة صعبة، وهي قيادة دورية استطلاعية لدراسة إمكانية فتح الشمال الإفريقي، ثم جعله عمرو بن العاص واليًا على إقليم برقة على الرغم من وجود العديد من القادة الأكفاء والصحابة الكبار، مما يدل على نجابة هذا البطل الشاب.

ثم أرسل عمرو بن العاص والى مصر البطل الشاب عقبة بن نافع إلى بلاد النوبة لفتحها، فلاقى هناك مقاومة شرسة من النوبيين، ولكنه مهد السبيل أمام من جاء بعده لفتح البلاد، ثم أسند إليه عمرو مهمة في غاية الخطورة، وهي تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر ضد هجمات الروم وحلفائهم البربر.

ثم سار مع عمرو بن العاص إلى برقة ثم سار إلى طرابلس وفتحها، وبقي فترة قائدًا لحامية برقة التى سارت قاعدة انطلاق المسلمين للتوغل في إفريقية.

**المرحلة الثالثة** : وفي أثناء الفتنة التي وقعت بين سيدنا علي أبن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان نأى عقبة بن نافع بنفسه عن أحداثها، وجعل شغله الشاغل الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام بين قبائل البربر، ورد هجمات الروم، فلما استقرت الأمور وأصبح معاوية خليفة للمسلمين، أصبح معاوية بن حديج واليًا على مصر، وكان أول قرار أخذه هو إرسال عقبة بن نافع إلى الشمال الإفريقي لبداية حملة جهادية قوية وجديدة لمواصلة الفتح الإسلامي، واستطاع عقبة وجنوده أن يطهروا منطقة الشمال الإفريقي من الحاميات الرومية المختلفة ومن جيوب المقاومة البربرية المتناثرة.

**المرحلة الثالثة : فتح السودان الغربي ونشر الإسلام فيه** : وتمر الأيام والسنون وعقبة، يواصل جهاده في سبيل الله، حتى كانت سنة (41هـ) وهي السنة التي تولي فيها معاوية بن أبي سفيان الخلافة، وعاد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وحين أراد عمرو بن العاص أن يستكمل الفتوحات الإسلامية التي كان قد بدأها في برقة، رأى أن خير من يقوم بهذه الفتوحات عقبة بن نافع ؛ لإقامته بين البربر لسنوات عديدة، فأصبح من أكثر الناس معرفة بحياة البربر وعاداتهم وتقاليدهم.

بدأ عقبة بن نافع الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام بين قبائل البربر، وكانت برقة آنذاك قد تغيرت معالمها بعد أن اعتنق أهلها الدين الإسلامي، وانتشرت المساجد في كل مكان فيها، وظل عقبة واليًا على برقة يدعو إلى الإسلام إلى أن جاءته رسالة من الخليفة، يخبره فيها بأنه قد اختاره لفتح إفريقية، وأن جيشًا كبيرًا في الطريق إليه، ووصل الجيش الذي أرسله الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وكان يبلغ عدده عشرة آلاف جندي، وكان في انتظاره جيش آخر من البربر الذين أسلموا، فحسن إسلامهم انطلق عقبة بجيشه المكون من العرب والبربر يفتتح البلاد ويقاتل القبائل التي ارتدت عن الإسلام دون أن يقتل شيخًا كبيرًا، ولا طفلاً، ولا امرأة، بل كان يعاملهم معاملة طيبة، حسب تعاليم الإسلام في الحروب، واستطاع عقبة أن يستولي على منطقة ودان وبعدها قام بالسيطرة على فزان. **ثم اتجه ناحية كوار(Kawar) ـ في شمال شرق جمهورية النيجر ـ** التي كانت تقع على قمة جبل شديد الارتفاع، فكان من الصعب على الجيش أن يتسلقه، فوصل عقبة إلى أسوار المدينة ولكن أهلها دخلوا حصونهم فحاصرها حصارًا شديد، فحين علم أن دخول المدينة أمر صعب تراجع بجيشه مبتعدًا عن المدينة، حتى ظن أهلها أن جيش المسلمين قد انسحب، ففتحوا أبواب مدينتهم آمنين، ولم يكن تراجع عقبة إلا حيلة من حيله الحربية، فقد علم

أن هناك طريقًا آخر للوصول إلى هذه المدينة فسار عقبة فيه، ولكنه فوجئ بأن هذا الطريق لم يسلكه أحد من قبل وليس فيه عشب ولا ماء، وكاد جيش عقبة يموت عطشًا، فاتجه إلى الله يسأله ويدعوه أن يخرجه من هذا المأزق الخطير، فما كاد ينتهي من دعائه حتى رأى فرسه يضرب الأرض برجليه بحثًا عن الماء من شدة العطش، وحدث ما لم يكن في الحسبان، فقد استجاب الله دعاء عقبة وانفجر الماء من تحت أقدام الفرس، وكبَّر عقبةُ ومعه المسلمون، وأخذوا يشربون من هذا الماء العذب، ولمّا شرب الجيش وارتوى، أمر عقبة جنوده بأن يحفروا سبعين حفرة في هذا المكان علَّهم يجدون ماء عذبًا، وتحققت قدرة الله وأخذ الماء يتفجر من كل حفرة يحفرها المسلمون، ولما سمع البربر المقيمون بالقرب من هذه المنطقة بقصة الماء أقبلوا من كل جهة يشاهدون ما حدث، واعتنق عدد كبير منهم الإسلام.[1]

**انطلق عقبة ومعه جنوده إلى (كوار KAWAR) وعاصمتها مدينة بلما (Bilma ) – في الشمال الشرقي لجمهورية النيجر– ودخلوها ليلاً ودخل أهلها الإسلام وما جاورها من القرى والحصون، فكان هذا أول وصول شعاع الإسلام ونوره إلى المنطقة، ثم انتشر بعد ذلك على أيدي الدعاة والتجار[2] وذلك في القرن الأول الهجري على يدي عقبة بن نافع الفهري الذي توغل في عام 46 هـ الموافق 666م وواصل حروبه حتى أتى آخر المنطقة ثم رجع إلى غدامس.[3] ومنها إلى تونس، وأسس مدينة القيروان.**

(1) انظر، ابن الأثير، الكامل في التاريخ،، طبعة بولاق 3/ 230 بتصرف

(2) – ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم، فتوح مصر والمغرب، بتحقيق علي محمد عمر، ط95 مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص: 222–223 بتصرف.

(3) المصدر السابق، ص 223

ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد من هذا، فيذكرون أن عقبة أوغل في بلاد التكرور وغانة بعد فتح المغرب الأقصى، وأنه بنى بها عددا من المساجد، ومن المعلوم أن بلاد التكرور وغانه تقعان بين المنطقة الواقعة بين نهر النيجر ونهر السنغال، وإذا علمنا موقع غانه أدركنا كيف غلا المؤرخون في تقدير توغل عقبة في بلاد السودان، ومع وعورة المسالك ومشقة الطريق والعدو من خلفه،[1]ويقول حسن إبراهيم حسن : «ونستطيع أن نقبل هذه الرواية بشيء من التحفظ إذا عرفنا أن ديار االزنوج كانت أكثر امتدادا نحو الشمال... فيكون عقبة حين غزا وادى نون قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان»[2]وبذلك يكون عقبة أول من نشر الإسلام في إفريقيا وأول من فتح الطريق أمام التجار الذين يتدفقون إلى بلاد السودان الغربي، وقد بقيت ذكرى الفاتح عقبة تنبعث عبر الأجيال ممثبة في ادعاء بعض الشعوب الانتساب إلى عقبة وقد لاحظ الرحالة بارت هذه الظاهرة أثناء رحاته إلى المنطقة (1880ـ 1885م) وذكر أن بعض قبائل الفلان في شمال نيجيريا تدعى مثل هذا النسب[3].

ولما عاد من فتح بلاد السودان وبناء مدينة القيروان، طلب (مسلمة بن مخلد الأنصاري) وكان واليًا على مصر والمغرب من الخليفة معاوية بن أبي سفيان عزل عقبة وتعيين (أبي المهاجر بن دينار) وبالفعل تمَّ عزله، وفي عهد الخليفة يزيد بن معاوية عاد عقبة إلى قيادة الجيش في إفريقية وأقام عقبة عدة أيام في القيروان، يعيد تنظيم الجيش حتى أصبح على أتم الاستعداد للغزو والفتح،

---

(1) انظر، حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط3 1984م مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 88 بتصرف

(2) المصدر السابق، ص 88

(3) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة ص 208

ثم انطلق إلى مدينة الزاب وهي المدينة التي يطلق عليها الآن اسم قسنطينة بالجزائر يسكنها الروم والبربر، والتحم الجيشان، وأظهر عقبة في هذه المعركة شجاعة نادرة، فكان يحصد رءوس أعدائه حصدًا، أما الجنود المسلمون فقد استبسلوا في القتال حتى تم لهم النصر بإذن الله تعالى، واستراح عقبة بن نافع وجيشه أيامًا قليلة، ثم أمر الجيش بالانطلاق إلى (طنجة) في المغرب الأقصى فدخلوها دون قتال، حيث خرج ملكها (يليان) لاستقبال جيش المسلمين وأكرمهم، ووافق على كل مطالبهم.

وظل عقبة يجاهد في سبيل الله يتنقل من غزو إلى غزو، ومن فتح إلى فتح حتى وصل إلى شاطئ المحيط الأطلنطي، فنزل بفرسه إلى الماء، وتطلع إلى السماء، وقال: يا رب.. لولا هذا المحيط لمضيت في البلاد مدافعًا عن دينك، ومقاتلاً من كفر بك وعَبَدَ غيرك..وظن القائد البطل عقبة بن نافع أن البربر مالوا إلى الاستسلام، وأنهم ليس لديهم استعداد للحرب مرة أخرى فسبقه جيشه إلى القيروان، وبقي هو مع ثلاثمائة مقاتل في مدينة طنجة ليتم فتح عدد من الحاميات الرومية، ولما علم بعض أعداءالإسلام من البربر أن عقبة ليس معه إلا عدد قليل من رجاله، وجدوا الفرصة ملائمة للهجوم عليه، وكان على رأس هؤلاء البربر (الكاهنة) ملكة جبال أوراس (سلسلة جبال بالجزائر) وفوجئ البطل عقبة بن نافع عند بلدة (تهودة) بآلاف الجنود من البربر يهجمون عليه فاندفع بفرسه متقدمًا جنوده يضرب الأعداء بسيفه، متمنيًا الشهادة في سبيل الله، حتى أحاط البربر به وجنوده من كل جانب، فاستشهدوا جميعًا، واستشهد معهم عقبة بن نافع فرحمه الله رحمة واسعة، جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين، وكان استشهاد عقبة في مدينة تهودة سنة 64هـ (من أرض الزاب)[1]بعد أن خاض

(1) انظر، ابن الأثير، المصدر السابق 2/ 330ــ 331 بتصرف

كثيرًا من المعارك، وذاق حلاوة النصر، ورفع راية الإسلام، ويُعَد استشهاد عقبة هزيمة عسكرية لكنه كان نصرًا رائعًا للإيمان، وتناقلت الألسن ملحمة عقبة بن نافع الفارس المؤمن الذي حمل رسالة دينه إلى أقصى المعمورة وأبى إلا أن يستشهد بعد أن حمل راية دينه فوق الثمانية آلاف كيلو متر.

## المبحث الثاني :انتساب بعض الشعوب الإسلامية في غرب إفريقيا إلى عقبة بن نافع الفهري

إن الشعوب الإسلامية في غرب إفريقيا تحاول دائما ربط أصولها البعيدة إلى العرب، أو إلى المشرق، ومن ذلك ربط قبائل الهوسا أصولهم إلى رجل، جاء من بغداد اسمه باجيدا إلى بلاد الهوسا، ووجد حية في البئر التى يسقون منها، فقتل الحية وصار ملكهم، ومنه ينحدر ملوك الهوسا السبع، وكذلك قبائل سنغي يرجعون أصولهم « زا الأيمن» وأصل اللفظ : جاء من اليمن قيل إنه رجل، خرج من اليمن هو وأخوه سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلدة كوكيا – وهو بلد قديم على ساحل البحر– النهر– في أرض سنغي كان في زمن فرعون (موسى)... فنزلا عند أهل ذلك البلد فسألوهما عن مخرجهما، فقال الكبير: جاء من اليمن، وبقوا لايقولان إلا زا اليمن، فغيروا اللفظ لتعسر النطق به على لسانهم ...»[1]. وأما عن كيفية توليهم الملك فيقول السعدي : «إنهم وجدوا أهل كوكيا يعبدون حوتا وقتلا الحوت الذي يعبدونه فأسلموا معه وبايعوه ملكا عليهم»[2] بينما يذهب صاحب تاريخ الفتاش إلى أن أصل ملوك سنغي هو «امرأتان من أسباط جابر بن عبد الله الأنصاري خرجتا

(1) – عبدالرحمن السعدي، تاريخ السودان، طبعة هوداس 1923 م باريس ص14

(2) – المصدر السابق، ص14

من المدينة المنورة ووصلتا إلى بلاد سنغي حيث كان أهلها يعبدون الحوت، فقلته أكبرهما ومن ثم بايعوه ملكا عليهم».[1]

وكذلك قبائل زرما في النيجر يربطون أصولهم بالصحابي الجليل زبرقان بن بدر التميمي، وكذلك قبائل الكانوي، في النيجر ونيجيريا، ينتسبون إلى سيف بن ذي يزن اليمني، وقبائل يوربا في نيجيريا يربطون أصولهم بيعرب بن قحطان، وكذلك عرب كنته في شمالى النيجر ومالي وجنوب الجزائر.

**والقبائل الفلانية من أشهر القبائل الإفريقية التى تنسب إلى العرب، وبخاصة إلى عقبة بن نافع رضي الله عنه**، وعلينا أن نسلط الضوء على القبائل الفلانيين، وماقيل فى أصولهم ومناقشة انتسابهم إلى عقبة بن نافع الفهري.

لقد تنوعت وتشعبت آراء وأقوال علماء الأجناس والآثار، والمؤرخين واللغويين حول مسألة أصل الفلانيين، قديما وحديثا، ولم يتوصلوا إلى قول مقنع علميا يعتمد عليه.

وأكثرها تداولا وشيوعا، أنهم من سلالة التابعي الجليل عقبة بن نافع الفهري، وذلك أن عقبة بن نافع لما فتح منطقة حوض السنغال تورو، وأدخل أهلها في الإسلام، طلب منه أمير البلاد أن يقيم معهم ليعلمهم الدين، فقبل ذلك، ثم تزوج من ابنة الأمير التي تسمى «بج منغو»، تهوده معه واستشهدت (Bajjo Mango) فأنجبت له أربعة أولاد وهم :

1 – دعْتَ جَلٌ

2 – ناس سُه.

---

(1) – محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص28، وكلتا الروايتين يغلب عليهما صبغة الأسطورة، وسبب ذلك أن الأفارقة بعد الإسلام يحاولون دائما ربط أصولهم بالمشرق العربي الإسلامي وإلا فهل من المعقول أن تخرج امرأتان من شبه الجزيرة العربية إلى أرض سنغي في زمن لا يخرج فيه الرجال إلا في القوافل فضلا عن امرأتين!!.

3 – واي بَرِ

4 – رعرب بَه،

وقبائل الفلان كلها راجعة إلى هؤلاء الأربعة.

ولما شب أبناؤه تكلموا بغير لسان أمهم وأبيهم، وهو اللسان الفلاني، ومنهم انحدرت جل القبائل الفلان، ويقول المؤرخ الفلان الشيخ جنيد[1]: «وقبائل الفلان كلها راجعة إلى أولاد عقبة وهم : دعت ومن أولاده قبائل سنغرى وغيرهم، وناس : ومن أولاده قبائل ولرب (walabe) وغيرهم وواي : ومن ولده فرب (feruobe) ورعرب : ومن أولاده قبائل ولوب (wolobe) وعلى هذا الرأي أغلب المؤرخين الفلانيين، مثل : عبد الله بن فوديو، والوزير جنيد، بل رجح ألفا هاشم أنه عقبة بن نافع. والبعض يقولون هو عقبة بن عامر الجهني، وقيل عقبة بن ياسر، ولم يثبت في كتب تراجم الصحابة دخولهما أراضي المغرب ويقسم بعض المؤرخين الفلانيين قبائل الفلان إلى ثلاثة عناصر:

1 ـ الفلانيون الأصليون وهم أبناء عقبة بن نافع، من امرأته بج منغو.

2 ـ الفلانيون بنو العرب هم أبناء المجاهدين الذين رافقوا حملة عقبة بن نافع إلى السودان الغربي حيث تزوجوا هنالك فاختلط أولادهم وتكلموا بلغة الفلان.

3 ـ الفلانيون الذين أصولهم ليس من أصل عربي بل أصولهم زنجية.[2]

وعلى كل حال فنسبتهم إلى عقبة بن نافع هو الأشهر، ولكن لإثبات هذه النسبة لا بد من بحث جاد ودقيق، لأنه من المعلوم أن إيلاد المرأة أربعة أبناء،

(1) الوزير جنيد، ضبط الملتقطات، ورقة 11 مخطوطة في مكتبة الباحث

(2) عثمان برى، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط1 2000م دار الأمين القاهرة، ص 322

يتطلب الإقامة في مكان الزواج مدة لا تقل عن أربع سنين على أقل تقدير، وهل مكث عقبة بن نافع في تلك النواحي مدة أربع سنوات على الأقل ؟ وهو من صغار الصحابة، أو من كبار التابعين، وقائد مشهور وتاريخ فتوحاته مدوّن بالأسانيد في كتب التاريخ الإسلامي، وهل وصل عقبة إلى منطقة فوتا تورو بالفعل ؟ ولو حدث ذلك لدونه المصادر التاريخية، مثل ما دونت مقتله في تهوده ببسكرة ـ في الجزائر، وفتوحاته في شمال إفريقيا وجنوب ليبيا وشمال شرق النيجر، وتأسيسه لمدينة القيروان، وغير ذلك، وكيف تحفظ كل هذه الحوادث ولم تحفظ قضية زواجه في منطقة فوتا بالسنغال وإنجاب أربعة أبناء، ولم تنقل لنا المصادر كذلك أي أثر عزي إليه في المنطقة، وتذكر المصادر أمورا أقل من هذه، فالأحرى أن تذكر مثل هذه الحادثة !.

لعل السبب في مثل هذه الروايات في المصادر التاريخية المحلية في السودان الغربي، هو محاولة المسلمين في غرب إفريقيا وغيرها، ربط أصولهم البعيدة بالشرق أو بالعرب بسبب حماسهم لعقيدتهم الإسلامية، وحرصهم على الانتماء إلى الأصول الشرقية العربية مصدر الإسلام، وإلا فجل القبائل الإفريقية موجودة قبل الإسلام في مناطقهم، ولهم علاقات تجارية مع دول الجوار، وبخاصة دول شمال إفريقيا، ولما دخل تجار العرب ودعاتهم إلى إفريقيا للتجارة والدعوة وجدوا القبائل الإفريقيا الفلانيين وغيرهم، وتبادلوا معهم التجارة ودعوهم إلى الإسلام فأسلم من أسلم منهم طوعا.

من الملاحظ أن كل هذه الآراء تتفق على شيء واحد وهو أن أصولهم ليست زنجية، وإنما هم مجموعة مهاجرة إلى المنطقة، ثم اختلطت بالسكان الأصليين هذا ما رجحه إبراهيم طرخان[1] حيث قال : «ومن المحقق الذي لاشك فيه أن

(1) انظر، إبراهيم طرخان، إمبراطورية الفلانيين الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض ( الملك سعود ) مجلد السادس عام 1979م ص 100

الفولانيين ليسوا زنوجا، ولكنهم متزنجون نتيجة الاختلاط العميق بالزنوج... أصبح الفلاني يحمل طابعين مميزين: الطابع الزنجي من حيث اللون، وطابع الجنس الأبيض من حيث التقاطع».

وقد نسب بعض المؤرخين قبائل الفلان إلى أصول أخرى غير النسبة المشهورة إلى عقبة بن نافع حيث قال بعضهم أنهم :

1 ـ أنهم طائفة من بني إسرائيل (أواليهود ) انتقلوا من طور سيناء، فنـزلوا تورو(*Tourou*) في حوض السنغال، وجاء في رسالة مسألة أصل الفلانيين للشيخ عبد الله بن فوديو أخو الشيخ عثمان بن فوديو «اعلم أن أصل الفلانيين كلهم من طور سيناء، فمازالوا ينتقلون من مكان إلى مكان إلى أقصى المغرب وإلى ما شاء الله «[1]ولكن نلاحظ أن الشيخ لم يحدد تاريخ هجرتهم، ومتى هاجروا من طور سيناء إلى أقصى المغرب، ولكنه علل سبب هجرتهم بقوله « لأنهم أصحاب الانتقال «[2].

ويعلل بعض الباحثين كون أصلهم من اليهود[3] بأنهم يحبون البقرة مثل اليهود حتى عبدوها في زمن نبي الله موسى عليه السلام، وهذا القول لايستند على دليل ملموس مقبول، وهو مبني على تعليلات لا تثبت أمام البحث العلمي، لانعدام مصدر تاريخي وسندي موثوق بهما، ثم إن حب بني إسرائيل للبقرة حالة خاصة بأتباع السامري الذين عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربه، ومن باب أولى لو قالوا أنهم من الهنود الذين أحبوا البقرة حتى عبدوها وألّهوها.

---

(1) عبد الله بن فوديو، مسألة أصل الفلانيين، مخطوطة في مكتبة الباحث، ورقة 1

(2) المصدر السابق، ورقة 1

(3) انظر، محمد بللو، إنفاق الميسور، طبعة 1964م بمطابع الشعب، مصر، ص 225

2 ـ أنهم من الروم، قال الشيخ عبد الله بن فوديو«وأصلهم فيما نسمع من نصارى الروم، وصلت إليهم جيوش الصحابة فآمن ملكهم وتزوج بنته عقبة بن عامر المجاهد الصحابي أمير الغرب[1]، فولد قبيلة فلان المشهورة، وجدهم الرومي عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله»[2] وهذا ما رجحه الوزير جنيد حيث قال : «والأصح أنهم من روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ نزلوا بجنب البحر، وجاوروا اليهود الذين في الجزائر...»[3] وهذا التصحيح يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة، والأدلة العلمية المقنعة.

3ـ أنهم من أصول ترجع إلى مصر القديمة أي من الفراعنة والنوبة أو الحبشة، ويستند أصحاب هذا الرأي إلى تشابه الملامح وطبيعة العادات والتقاليد عند الفلانيين وقبائل النوبة في جنوب مصر وشمال السودان والحبشة[4]

4ـ أنهم مجموعة من الحميريين الذين سكنوا مناطق شرق إفريقيا، ثم هاجروا شمالا مخترقين مصر، واتجهوا غربا إلى أن وصلوا مملكة التكرور، واختلطوا مع السكان المحليين، وظهر الفلانيون كجنس من هذا الاختلاط[5]

**اشتهر الفلانيون بأسماء مختلفة لدي الشعوب**، فهم يطلقون على أنفسهم اسم بلّو(Pollo) للمفرد وفلبي(follbe) للجمع، وبعض السنغاليين يستخدمون هال بلاري (Polare hal) وعند قبائل المندنغو يستخدمون فلا(Fola) وعند الفرنسيين

---

(1) المقصود بالغرب : جهة المغرب

(2) عبدالله بن فوديو، إيداع النسوخ في من أخذت عنه من الشيوخ، ضمن كتاب أوراق عربية من صكتو، أحمد البدوي، ط2 1991م جامعة قار يونس بنغازي، ص69

(3) الوزير جنيد، المصدر السابق، ورقة 6 ولم يعين الجزائر التي يقصدها وأين تقع !!!؟

(4) Boubou hama,contribution Ala connaissance de l,histoire des peul 1968 p42 ويؤيد هذا الرأي الشيخ أنتا جوب السنغالي.

(5) محمد بدين، الفلاته والفلانيين في السودان، مركز الدراسات السودانية، الخرطوم، ص 24 بتصرف.

بييل (Peul) وعند الإنجليزيين فلاني (Fullani) وكذلك الهوسا، وعند سنغي / زرما ـ في النيجر ومالي ـ فلن (Follan) وعند قبائل موسي (Mossi) في بوركينا فاسو سلميغا (Silmiiga ) وعند العرب فلاني أو فلاته.[1]

**موطنهم** : إن تحديد موطن الفلانيين الأصلي يثير مشكلة أخرى، مثل التي أثارتها أصولهم، وذلك بسبب طبيعتهم المعروفة، وهي كثرة التنقل للرعي وكذلك بسبب كثرة هجراتهم، وامتداد مساكنهم في مساحات شاسعة في غرب إفريقيا ووسطها وشرقها، ويعتقد أن الموطن الأصلي للفلانيين كان في فوتا تورو على نهر السنغال، ومن هناك انتشروا في غرب إفريقيا ووسطها وشرقها ـ (جمهورية السودان بالتحديد )ـ بسبب هجراتهم المتتالية نحو الشرق للحج أو غيره، لكن يتمركزون بأعداد كثيرة في السنغال وجنوب موريتانيا، ومالي، وغينيا كوناكري، وغينيا بساو، وغامبيا، وبوركينا فاسو، والنيجر، وشمال نيجيريا والكمرون، ولهم وجود مكثف في تشاد وإفريقيا الوسطى، والسودان، وشمال بنين وتوغو وغانا.

**فروعهم** : للفلانيين فروع كثيرة، ويمكن إجمالها في ستة فروع كبيرة حسب مناطقهم ولهجاتهم

1 – الفلانيون السنغاليون : وهم المعروفون بفلان فوتا تورو، أو التكلور، وموزعون بين السنغال وموريتانيا وغامبيا.

2 – الفلانيون الغينيون : ويعرفون بفلان فوتاجلو، وهم موزعون بين غينيا كوناكري وسيراليون وغينيا بساو.

3 – الفلانيون في منطقة ماسنا (Massina) ونيورو(gnorou) في جمهورية مالي.

---

(1) انظر غورو انجاي، معجم عربي فلآني، رسالة ماجستير بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام 1999م ص 42 بتصرف

4 – الفلانيون في منطقة ليبتاكو غورما وجلغوجى (Liptako gorma djelgodji) وهي منطقة موزعة بين غرب وجنوب النيجر، وشمال بوركينا فاسو وشرقها.

5 – الفلانيون في شمال نيجيريا وشرق النيجر وشمال بنين.

6 – الفلانيون في منطقة أدماوا(Adamawa) وهم موزعون في جنوب شرق نيجيريا وشمال الكمرون، ويمتدون إلى إفريقيا الوسطى وتشاد والسودان.

هناك فرع من الفلانيين شبه مستقل بعاداته وتقاليده وحتى دينه عن باقي الفروع وهي قبائل بورورو(Bororo) أو ودابى (Wodabe) ويقطنون في شمال شرق جمهورية النيجر، وهم رعاة متنقلون بمواشيهم، ولا يدينون بدين، ولا يدرسون أية دراسة، وقد هاجر بعضهم بسبب قلة الأمطار من مناطقهم الأصلية في النيجر إلى نيجيريا والكمرون وتشاد والسودان.[1]

## الخاتمة

قد توصلنا من خلال البحث إلى النتائج الآتية :

1 – أن عقبة بن نافع الفهري، أول من أدخل الإسلام إلى السودان الغربي في القرن الأول الهجري الموافق السابع الميلادي.

2 – أن بعض الشعوب الإسلامية في غرب إفريقية تربط أوصولها إلى العرب بسبب الإسلام وشرف العرب في نشره

3 – أن القبائل الفلانيين تنتسب إلى عقبة بن نافع الفهري.

4 – أن روايات الإنتساب إلى عقبة بن نافع أو غيره تحتاج إلى دراسة علمية جادة، لاثباتها أو نفيها.

---

(1) قد بدؤوا في السنوات الأخيرة يدخلون أبناءهم في المدارس، وأسلم الكثير منهم، وتنصر بعضهم بسبب الإرساليات المسيحية التي تركز عليهم وتحفر لهم الآبار في مراعيهم!!

## فهرس المصادر والمراجع:

**القرآن الكريم**

1ـ بسام العسيلي، عقبة بن نافع، ط2 1977م دار النفائس بيروت.

2ـ حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط3 1984م مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

3 حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة.

4ـ جنيد ( الوزير) ضبط الملتقطات، مخطوطة في مكتبة الباحث.

-5 عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم، ( ابن عبد الحكم ) فتوح مصر والمغرب، بتحقيق علي محمد عمر، ط95، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

6ـ عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، طبعة هوداس 1923 م باريس.

7ـ عبد الله بن فوديو، مسألة أصل الفلانيين، مخطوطة في مكتبة الباحث.

8 عبد الله بن فوديو، إيداع النسوخ في من أخذت عنه من الشيوخ، ضمن كتاب أوراق عربية من صكتو، أحمد البدوي ط2 1991م جامعة قار يونس بنغازي.

9ـ عثمان برى، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ط1 2000م دار الأمين القاهرة.

10ـ علي بن محمد بن الأثير الجزري، (عز الدين ابن الأثير) الكامل في التاريخ، طبعة بولاق.

11ـ غورو انجاي، معجم عربي فلآني، رسالة ماجستير بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام 1999م

12ـ مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض ( الملك سعود ) مجلد السادس عام 1979م 0

13ـ محمد بدين، الفلاته والفلانيين في السودان، مركز الدراسات السودانية، الخرطوم.

14ـ محمد بللو، إنفاق الميسور، طبعة 1964م بمطابع الشعب، مصر.

15ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش طبعة هوداس 1923 م باريس.

Boubou hama,contribution Ala connaissance de l, histoire des peul 1968

الباب الثاني:

# الروابط الحضارية بين الجزائر والبلدان الإفريقية

# الإمتداد الفكري والثقافي لحاضرة تيهرت الرستمية عبر الصحراء الكبرى إلى بلاد السودان

الاستاذ : علي السنوسي

جامعة تيارت

لقد سمعنا عن الكثير من الدول الإسلامية التي نشأت وسقطت على مر التاريخ الإسلامي، كالدولة الأموية العباسية والعثمانية بالمشرق، والدولة المدارية والإدريسية والفاطمية بالمغرب، وغيرها من الدول الإسلامية الأخرى التي فصل التاريخ في ذكرها.

وهذه الدول لها إيجابياتها ولها سلبياتها، وقد قدمت للأمة الإسلامية محاسن، إلا أنها كذلك لم تخل من المساوئ التي نجدها عند قراءة تاريخها، وهذه طبيعة البشر القصور عن الكمال.

إلا أن هناك دولا إسلامية قامت ونشأت واستمرت ردحا من الزمن إلى أن سقطت، وقدمت للأمة الإسلامية الشيء الكثير، وقد يكون ما قدمته يفوق ما قدمته الدول المشهورة والمعروفة عند الخاصة والعامة.

ومن هذه الدول من سار على نهج الخلافة الراشدة، وتطبيق مبدأ الشورى، سواء في انتخاب الحاكم أو في حكم الرعية، إلا انه وللأسف الشديد لا نعرف عن هذه الدول الشيء الكثير، وإذا وصلنا شيء فهو نزر قليل لا يفي للتعرف على جميع جوانب تلك الدولة والظروف التي عايشتها والخدمات الجليلة التي قدمتها للأمة الإسلامية، وكذلك لا يخلو من التشويه والتحريف والتعتيم على هذه الدول من قبل كتاب التاريخ يعود إلى عدة أسباب كالتعصبات المذهبية، والمصالح السياسية، والاغراءات المادية وما شابه ذلك من الأسباب التي ليس هذا محل ذكرها.

ومن هذه الدول التي يجهلها الكثير، دولة إسلامية عريقة نشأت في ما كان يعرف ببلاد المغرب الأوسط في ذلك الوقت، الجزائر حاليا، وعلى أرض تيهرت الحالية في سنة 160هـ، واستمرت إلى سنة 296هـ، أي أنها استمرت لمدة 136 سنة[1].

وقد خدمت هذه الدولة الأمة في الكثير من الجوانب سواء في جانب التأليف ونشر العلم أو في الجانب الاقتصادي والاجتماعي أو في الجانب المعماري، وحتى في الجانب السياسي.

فما اسم هذه الدولة ؟ ومن أنشأها ؟ وكيف نشأت ؟ وما الذي قدمته للأمة الإسلامية ؟ هذا ما سنحاول أن نتعرف عليه من خلال هذا العرض.

## أولا: تأسيس الدولة الرستمية على أرض منطقة تيهرت والظروف المحيطة بذلك

إن هذه الدولة هي الدولة «الرستمية» التي نشأت في مدينة تيهرت حاليا، على أرض ما كان معروفا ببلاد المغرب الأوسط – الجزائر حاليا – على يد الإمام عبد الرحمن بن رستم[2]

### 1 – مرحلة الدعوة والتأسيس

إن تحديد زمن دقيق لدخول الخوارج أرض المغرب مسألة ليست باليسيرة، ويحتمل دخولهم في العقود الأخيرة من القرن الأول الهجري[3] على شكل

(1) إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية، جمعية التراث – القرارة – الجزائر، ط2 : 1414هـ / 1993م، ص110.

(2) د. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، مكتبة الاستقامة – مسقط – سلطنة عمان، 1418هـ / 1997م ص155

(3) المقريزي، الخطط المقريزية، مطبعة الساحل الجنوبي، بيروت، ج2، ص 28.

مهاجرين للإقامة والإستيطان، وتجار وجنود في الجيوش الإسلامية، ودعاة منظمين مثل سلمة بن سعد، الذي نجح في استمالة عدد من الرجال وأرسلهم أبي عبيدة لتلقي العلم والعودة إلى بلدهم ويعرفون بـ«حملة العلم».

إنتشر هؤلاء الخوارج بين البربر في القرى والأرياف[1]، واجتهدوا في اتباع كل طريق لنشر مذهبهم، مظهرين التدين والعلم، وانشغال الولاة بتثبيت الفتح، فأخذوا يخاطبون الناس بلهجاتهم ويلقنونهم تلك الأصول وفق مذهبهم، وركزوا على الجانب الثوري ومبادئ العدل والمساواة والشورى، وكان النجاح من نصيبهم في هذا.

ثم اتسع المذهب الإباضي في المغرب، ولما شعر الإباضيون بكثرة عددهم وقوتهم وتأييد إباضيي المشرق لهم، بدأت إرهاصات ميلاد أول دولة إباضية في المغرب بإمامة عبد الله بن مسعود التجيبي التي امتدت من سرت – بليبيا حاليا – إلى قابس بتونس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل، فاختار الإباضيون إماما آخر هو عبد الجبار بن قيس المرادي، الذي اتخد الحارث بن قيس وزيرا، غير أن مصيره كان كسابقه، فاختار البربر واليا على أنفسهم هو إسماعيل بن زياد النفوسي الذي عظم شأنه وكثر أتباعه فنجح في الإستيلاء على مدينة قابس، لكن سرعان ما انهزم، وركن الإباضيون إلى المسالمة وترك الحرب إلى حين.

ثم قويت شوكتهم لما عقدوا الإمامة لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري سنة 140هـ/ 757م. فدخل القيروان سنة 141هـ/ 758م وولى عليها رجلا فارسيا هو عبد الرحمن بن رستم، وعاد إلى طرابلس لمواجهة جنود العباسيين، وبهذا إبتدأت الدولة الإباضية الخطابية.[2]

(1) توماس، الدعوة إلى الإسلام، ص 151–152.

(2) لقبال موسى، المغرب الإسلامي، ص 228.

### 1.أ: فمن هو الأمام عبد الرحمن بن رستم ؟

هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى، ولد في العراق في العقد الأول من القرن الثاني الهجري على أكبر تقدير، ويرجع في نسبه إلى الأكاسرة ملوك الفرس، فهم أجداده، إلا أن بعض المؤرخين يعيدون نسبه إلى اللذارقة ملوك الأندلس قبل الإسلام، والمهم في هذا أنه سليل بيت الملوك قبل الإسلام، سواء كانوا من الفرس أم من اللذارقة[1].

سافر أبوه به وأمه من العراق إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، إلا أن الأب وافاه أجله، وترك يتيما وأرملة، فتزوجت أمه برجل من أهل المغرب، فأخذها وابنها عبد الرحمن إلى القيروان[2].

نشأ عبد الرحمن في القيروان، وصادف هناك نشر الدعوة الإباضية في تلك الربوع فتعلق بها، ونصحه أحد الدعاة بالسفر إلى المشرق لتلقي المزيد من العلم على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة إمام الإباضية في ذلك الوقت[3].

فتوجه إلى البصرة، وظل مع الإمام أبي عبيدة لمدة خمس سنوات يدرس في سرداب أبي عبيدة، الذي أعده أبو عبيده تحت الأرض خوفا من عيون الأمويين[4].

---

(1) بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية، ج2، دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان، ط2 : 1421هـ/ 2000م، ص246 رقم الترجمة : 544.

(2) بحاز وآخرون، المصدر السابق، 2/ 247، رقم الترجمة : 544.

(3) بحاز وآخرون، المصدر السابق، 2/ 247، رقم الترجمة : 544

(4) عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب – الأردن – عمَان، 1978م، ص108، ص137.و د/ محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص119، 149.

ثم عاد عبد الرحمن مع أصحابه حملة العلم إلى المغرب، وكان من ضمنهم أول إمام للإباضية بويع في المغرب، وهو الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني، وقد ذكرت بعض المصادر ظهور أئمة للإباضية قبل الإمام أبي الخطاب، كالإمام عبد الحارث الحضرمي، والإمام أبي الزاجر إسماعيل بن زياد النفوسي[1].

إلا أن بعض الباحثين يعتبر أن الإمام أبا الخطاب هو أول إمام للإباضية في المغرب، وذلك أنه استطاع أن يقيم دولة للإباضية في المغرب.

بعد أن وصل حملة العلم إلى المغرب، هيئوا الأجواء لإقامة دولتهم، فلما سنحت لهم الفرصة في سنة 140هـ بايعوا أبا الخطاب المعافري بالإمامة، بأمر من شيخهم أبي عبيدة[2]بعد أربع سنوات من قيام دولة أبي الخطاب في الغرب، وجه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي جيشا بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي، فاستطاع هذا الأخير القضاء على دولة الإمام أبي الخطاب في معركة عنيفة سنة 144هـ، أستشهد فيها الإمام أبو الخطاب[3].

حاول عبد الرحمن نجدة الإمام أبي الخطاب، لكنه لم يتمكن من ذلك، فاضطر للفرار من ملاحقة ابن الأشعث له، فتوجه إلى المغرب الأوسط، حتى وصل إلى جبل يدعى «سوفجج» فتحصن به، حتى أيس منه ابن الأشعث.

---

(1) أحمد بن سعيد الشماخي، كتاب السير، ج1، وزارة التراث القومي والثقافة – سلطنة عمان، ص114 / علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، ج3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع – مسقط – سلطنة عمان، ط2 : 1993م، ص32 / عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، ص139، 142.

(2) عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، ص148 / د. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص150.

(3) عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، ص152 – 153 / د. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص152

**1.ب : بناء تيهرت**

ولما أحس عبد الرحمن من نفسه القوة والقدرة على بناء دولته الجديدة، خاصة بعد أن التف عليه الكثير من أنصاره من البربر ومن أهل العلم والصلاح ممن يثق بهم، اتجه إلى مكان تكثر فيه الأشجار والأحراش والسباع يسمى «**تيهرت**»، فشرع في بناء دولته الإسلامية الجديدة هناك ما بين 155هـ – 160هـ، والتي عرفت باسم «الدولة الرستمية» نسبة إلى والد عبد الرحمن، كما جرت العادة في تسمية الدول الإسلامية في العصور الوسطى بأسماء آباء المؤسسين[1].

بذل عبد الرحمن وهو لم يبايع بالإمامة جهده مع من معه من العلماء في بناء تيهرت حتى تكون على أجمل هيئة، حتى أن بعض المصادر العلمية تفصل في بناء المدينة بداية بالمسجد الجامع، ونهاية بالدور والقصور، والبيوت والأسوار الحصينة.

فازدهرت تيهرت وبلغت شهرتها الآفاق، وشدت إليها الرحال للتجارة والسكن والعيش الرغيد الآمن، مما جعل الكتاب والرحالة يقصدونها ويشيدون بها ومن ذلك ما قاله المقدسي واصفا لها فيقول : «... هي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار، والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها العين، وجل بها الإقليم، وانتعش فيه الغريب، واستطابها اللبيب، هو بلد كبير، كثير الخير رحب، رقيق طيب، رشيق الأسواق غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف... » إه[2].

---

(1) عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، ص167 / د. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص153 / بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية، 2/ 247، رقم الترجمة : 544.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، 1408هـ / 1987م، ص228.

وما أن وصلت سنة 160هـ حتى قام العلماء وأهل تيهرت بمبايعة عبد الرحمن إماما عليهم، وهو حري بهذا المنصب، فهو الذي استطاع أن يبني لهم هذه الدولة، وهو الذي خصه شيخه أبو عبيدة بقوله له : «أفت بما سمعت مني وما لم تسمع».

وقد تولى الحكم في الدولة الرستمية عدد من الأئمة العدول، يتم اختيارهم من قبل العلماء والرعية، فكانت الدولة الرستمية سائرة على نهج الخلافة الراشدة، وقد يتبادر إلى ذهن البعض أن الحكم في الدولة الرستمية وراثي بسبب كون جميع من حكم من سلالة الإمام عبد الرحمن، ولكن الأمر بخلاف ذلك، وقد تكفل بعض الباحثين بكشف اللبس في هذه القضية كالشيخ علي يحيى معمر في كتابه **الإباضية في موكب التاريخ** 3/ 30، وذكر عدة أدلة تدل على أن نظام الحكم في الدولة الرستمية ليس وراثيا، وإنما كان يرتسم خطى الخلافة الراشدة بتطبيق مبدأ الشورى، وتكفل أهل الحل والعقد من العلماء باختيار الإمام الجديد.

وأما عن سبب اختيار أهل الحل والعقد الإمام من أبناء الإمام عبد الرحمن فذلك يعود إلى توفر الصفات والشروط المطلوبة في الإمام من صلاح وتقوى وعلم وحنكة سياسية وغيرها من الصفات، وقد رد الدكتور محمد صالح ناصر على من اتهم الدولة الرستمية وأتباعها أنهم طبقوا نظام الوراثة والملك العضود فقال «... وهذه مغالطة، لأن كتب التاريخ تشهد أن الرستميين كانوا يطبقون الشورى والانتخاب عند توليت كل إمام وما ذنب الرستميين إن كانت الكفاءة والنزاهة والتقوى ترشحهم كل مرة للفــوز برضى الأمة التي ارتضتهم» إه[1].

(1) د. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص215.

وقد اشتهرت هذه الدولة بنظام الشورى المطبق فيها، وبعدالة أئمتها، وصلاحهم وتقواهم وعلمهم، وبازدهارها، وقد كان يعيش تحت ظلها أتباع كل المذاهب الإسلامية، وكانوا يمارسون عبادتهم بكل حرية وأمان، وكانت لهم مساجدهم وبيوتهم الخاصة التي يعيشون فيها مصانين الحقوق بعدل وإنصاف من غير تفريق بين مذهب ومذهب، قال ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية : «... ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين، ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين... » إه[1].

وابن الصغير هذا نفسه كان شيعيا وقيل مالكيا، ومال الدكتور محمد صالح وإبراهيم بحاز إلى أنه شيعي المذهب، وقد كان يعيش في الدولة الرستمية[2].

وليس هذا فحسب بل كان يعيش في الدولة الرستمية أصحاب الديانات الأخرى كاليهود والنصارى، وقد كانت للنصارى كنيسة واحدة على الأقل يمارسون فيها عبادتهم، وكانوا ـ النصارى واليهود ـ يعملون في مهن مهمة كالطب والتجارة داخل الدولة الرستمية.

كما اهتم أئمة الدولة الرستمية بالجانب الاقتصادي لدولتهم، فاهتموا بالزراعة وكانت تكثر فيها البساتين وزراعة الحبوب والعصفر والكتان والسمسم، والنخيل، ومختلف الفواكه، والتين والزيتون، فكانت تدر عليهم أرباحا طائلة، وقد كانت تكثر فيها الأنهار، وأقام الرستميون خزانات وأحواض

(1) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق : د.محمد صالح ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان، 1406هـ / 1986م، ص36.

(2) ابن الصغير، المصدر السابق، ص13.

للماء كبيرة اكتشفها الأثريون، وكانت محكمة التصميم والهندسة، ليحافظوا على الماء أيام الجفاف، بل إنهم أوصلوا الماء إلى البيوت عن طريق الأنابيب وشق القنوات.

واهتموا كذلك بالرعي وتربية الماشية، لكثرة المراعي الخصبة في الدولة الرستمية، فكانوا يربون الغنم والبقر والجمال والخيول والبغال والحمير، وكانت تجارتها رائجة، وتصدر إلى الدول المجاورة، وكانوا يستغلونها في إنتاج الصوف، قال ابن حوقل يصف الماشية في تيهرت وأحوازها : «وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية، ويكثر عندهم العسل والسمن» إه[1].

حتى أن بعضـهم كان يمتلك مئات الآلاف من الماشية، التي كانت عمادا لبيت مال المسلمين، قال الإمام عبـد الوهاب : «لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين : أنا بالذهب، ومحمد بن جرني بالحرث، وابن زلغين بالأنعام »[2].

وكذلك كان لهم اهتمام كبير بالصناعة، فكانت توجد في الدولة الرستمية العديد من الصناعات والحرف كالنجارة والحدادة والخياطة والدباغة والطحن، وصناعة السفن والقوارب، وصناعة الزجاج والفخار والتحف والعطور، والخشب المنحوت والمخطوط والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف، وصناعات الذهب والفضة، حتى أنها كانت تضرب منها الدراهم والدنانير، فكانت لها عملاتها الخاصة التي كشفت عنها الآثار[3].

---

(1) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، ط2، مطبعة بريل، ليدن، 1938م، ص86 نقلا عن : بحاز، الدولة الرستمية، ص159.

(2) الشماخي، السير، ج2/ 177.

(3) بحاز، الدولة الرستمية، ص140، ص –164 174، ص181

## 2 – النشاط التجاري لحاضرة تيهرت

وقد اهتم الرستميون بالتجارة أيما اهتمام، فأنشئوا الأسواق في مختلف المدن، فكانت رائجة بشتى أنواع البضائع والمؤن التي تأتي من داخل الدولة الرستمية نفسها أو من الدول الأخرى عن طريق العلاقات التجارية، حيث أنه كانت للدولة الرستمية علاقات تجارية مع الكثير من الدول كالأندلس ومصر وبلاد السودان وغيرها من الدول في المشرق والمغرب، فكانت القوافل التجارية تخرج من الدولة الرستمية محملة بشتى أنواع البضائع والمؤن إلى تلك الدولة، وتعود كذلك محملة بالبضائع التي تنتج في تلك البلاد، وكانت تجارة الذهب وبيع الرقيق رائجة في ذلك الوقت، وللدولة الرستمية نشاط كبير فيها، ووصل النشاط التجار ي في الدولة الرستمية إلى حد أنه كان يوجد بها التخصص في الأسواق، فكان بها سوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصاغة، وسوق الأقمشة وغيرها من الأسواق[1].

وقد قام الأئمة الرستميون بإنشاء بيوت للأموال في مدن الدولة الرستمية، وبيت مال مركزي في العاصمة تيهرت مع دار للزكاة، وكانت موارد بيوت المال تختلف عن موارد دار الزكاة، فدار الزكاة مورده هو أموال الزكاة فقط، وكانت تصرف أموال الزكاة من هذه الدار لمستحقيها الشرعيين الذين حددهم الله تعالى في كتابه في قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين... والله عليم حكيمٌ ﴾ التوبة / 6.

وأما دور الأموال فكانت مصادرها الجزية وخراج الأراضي والضرائب والرسوم التي تؤخذ على القوافل التجارية والتجار والحرفيين، وكانت أموال

(1) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، دار إحياء الكتب العربية، ط1 1383هـ/ 1963م، ص283

هذه الدور تسخر في أجور الموظفين في الدولة، وفي بناء المساجد والطرقات والأسواق ومصالح المسلمين.

### 3 – النشاط العلمي والأدبي لحاضرة تيهرت

أيضا فإننا نجد أن الرستميين اهتموا بالجانب العلمي والفكري اهتماما كبيرا، ولا أدلَّ على ذلك أن من الشروط الأساسية في إمام الدولة حتى يتم انتخابه، أن يكون عالما بأمور الشريعة والسياسة والحكم.

فاهتمت الدولة بإنشاء المؤسسات التعليمية كالكتاب ـ أماكن للتعليم ـ وكذلك إقامة حلق العلم في المساجد سواء في التفسير أو الحديث أو الفقه أو اللغة وغيرها من العلوم، حتى أن أئمة الدولة الرستمية كانوا يساهمون في التعليم بأنفسهم ولا يأنفون من ذلك أو يتكبرون، كالإمام عبد الوهاب الذي قضى سبع سنوات يعلم الناس أمور الصلاة في جبل نفوسة، أو الإمام أفلح الذي دارت عليه أربع حلق للعـــلم قبل أن يبلغ الحلم[1].

وكذلك اهتمت الدولة الرستمية بإنشاء المكتبات العلمية الزاخرة بمختلف فنون العلم والآثار، ومن مكتباتها المشهورة مكتبة «المعصومة» التي كانت تحوي آلافا من المجلدات والكتب، أوصلها بعض الباحثين إلى ثلاثمائة ألف مجلد، فكانت تحوي بين رفوفها كتبا في علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، وكتبا في الطب والرياضيات والهندسة والفلك والتاريخ واللغة وغيرها من العلوم المختلفة، ولم تكن كتبها مقتصرة على مذهب بعينه بل كانت تجمع مؤلفات لمختلف المذاهب الإسلامية، ومن المكتبات المشهور الأخرى «خزانة نفوسة» الجامعة لآلاف الكتب، وكذلك لم تخل منازل العلماء في الدولة الرستمية من وجود المكتبات الخاصة.

---

(1) **بحاز**، الدولة الرستمية، ص281 بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية، 2/ 61، رقم الترجمة : 116.

وهذه النهضة العلمية لابد وأن يواكبها نهضة في مجال التأليف، فحازت الدولة الرستمية قصب السبق في ذلك، فقدم أئمتها وعلماؤها للأمة الكثير من المؤلفات في مختلف فنون العلم سواء الدينية أم الدنيوية، وكان أئمة الدولة الرستمية في مقدمة الركب في ذلك، كالأمام عبد الرحمن الذي ألف كتابا في التفسير، وكتابا جمع فيه خطبه، والأمام عبد الوهاب الذي ترك لنا كتابا يعرف بـ «مسائل نفوسة الجبل»، وأما الإمام أفلح فقد ترك لنا الكثير من المؤلفات والرسائل العلمية منها المطبوع ومنها المخطوط، وأما الإمام أبو اليقظان فكان من المكثرين في التأليف ومن مؤلفاته «رسالة في خلق القرآن» وغيرها من المؤلفات، هذا بالنسبة لأئمة الدولة الرستمية القائمة على مبسوطة تيهرت، وأما علماؤها فحدث عنهم في مجال التأليف بلا حرج[1].

كذلك فإن الدولة الرستمية لم تهمل جانب العلوم العقلية كعلم الكلام وغيره، فكانت تجري بين العلماء من مختلف المذاهب الإسلامية والتيارات الفكرية المناظرات والمناقشات العلمية بحرية تامة وبلا تضييق، وذلك أن الدولة الرستمية عاش في كنفها الكثير من اتباع المذاهب الإسلامية كالإباضية والمعتزلة والصفرية والحنفية والمالكية والشيعة وغيرهم، بل كان هناك وجود لليهود والنصارى كما ذكرنا.

ويحدثنا ابن الصغير عن ذلك فيقول : «من أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم، قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك»، وابن الصغير نفسه كانت له مناظرات مع علماء الدولة الرستمية

(1) بحاز وآخرون، معجم أعلام الإباضية، 2/ 61، رقم الترجمة : 116، 2/ 248، رقم الترجمة : 544، 2/ 283، رقم الترجمة : 609، 2/ 359، رقم الترجمة 784 بحاز، الدولة الرستمية، ص-298 329

من الإباضية[1].

كذلك نجد أن حاضرة تيهرت الرستمية كان لها اهتمام بالأدب العربي من شعر ونثر، فأما النثر فيظهر ذلك جليا من خطب أئمة الدولة الرستمية ومراسلاتهم، وأما الشعر فكان لهم نصيب فيه ولكن ليس كالنثر، ومن شعراء الدولة الرستمية الإمام أفلح بن عبد الوهاب، ومن قصائده العصماء تلكم القصيدة في فضل العلم التي يقول في مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
وليلهم بشموس العلم قد نارا

يحيى به ذكرهم طول الزمان وقد
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي وإن مات ذو علم وذو ورع
إن كان في منهج الأبرار ما مارا[2]

ومن شعراء تيهرت المشهورين وفحول نظم القوافي في ذلك الزمن بكر بن حماد الزناتي، ومن شعره :

قف بالقبور فنادي الهامدين بها
من أعظم بليت فيها وأجساد

قوم تقطعت الأسباب بينهم
من الوصال وصاروا تحت أطواد

(1) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص117، 118.

(2) سليمان بن عبدالله الباروني، كتاب الأزهار الرياضية، ج2، دار أبو سلام للطباعة والنشر – شارع فرنسا – تونس، ط1 : 1986، ص190 نقلا عن : بحاز، الدولة الرستمية، ص–355 367.

راحـــوا جميعا على الأقـــــدام وابـتـكـروا
فـلـن يـــروحـــوا ولـــن يـــغـــدوا لـهـم غـــادي

والـــلـــه والـــلـــه لـــــو ردوا ولـــــو نـطقوا
إذا لقالوا : التـقى مـن افـضـل الـــزاد[1]

وقد كانت للدولة الرستمية علاقات ثقافية مع بلدان المغرب والأندلس، ومع بلاد السودان وبلدان المشرق العربي، فكانت بينهم مراسلات ولقاءات.

## 4 – الموروث المعماري لحاضرة تيهرت الرستمية

كذلك فإن مدينة تيهرت الرستمية تميزت بجمالها المعماري، فكان بها القصور والبيوت والمساجد والأسواق والفنادق والحمامات يحيط بكل ذلك سور، وكانت تمر خلالها المياه حتى تصل إلى البيوت، وقد تفنن الرستميون في بناء دولتهم حتى وصفت بعراق المغرب، وببلخ المغرب[2].

وقد أطنب المأرخون والرحالة في وصف جمالها وحسنها، وقد ذكرنا شيئا مما ذكره المقدسي، ولنستمع إلى ابن الصغير وهو يصف تيهرت في عهد الإمام افلح فيقول : «... وشمخ في ملكه، وابتنى القصور، واتخذ بابا من حديد، وبنى الجفان، وأطعم فيها أيام الجفاف... وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الآفاق بأنواع التجارات، وتنافس الناس في البنيان، حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهار... » إه[3].

(1) الباروني، الأزهار الرياضية، 2/ 73 مقتبس عن: بحاز، الدولة الرستمية، ص364.
(2) بحاز، الدولة الرستمية، ص–382 398.
(3) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص61.

ومن أشهر مدن الدولة الرستمية : مدينة **تيهرت** العاصمة، ومدينة **وهران** ومدينة **شلف** ومدينة **الغدير** والمدينة **الخضراء** وغيرها من المدن [1].

وكان للمرأة دور بارز في مدينة تيهرت، فأنجبت لنا هذه الحضيرة العديد من العالمات والمصلحات، كأمثال أخت الإمام أفلح، وأخت الشيخ عمروس، اللتان تعدان من عالمات المذهب الإباضي في الدولة الرستمية، ولا أدل على بروز المرأة في ذلك المجتمع وانتشار العلم بينهن من كلام أحد أبناء مدينة تيهرت واصفا ذلك فيقول : «معاذ الله أن تكون عندنا أَمَةٌ لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر» هذا بالنسبة للإماء فما بالنا بالحرائر[2].

كذلك فإن أئمة الدولة الرستمية القائمة على أرض تيهرت اهتموا بالجانب العسكري للدولة ونشر الأمن والسلام في ربوعها، فكانت لهم الجيوش الجرارة التي تحمي الدولة من اعتداء الغاشمين، وكان لهم الوزراء والولاة والقضاة الذين يعينون الإمام في تسيير دفة الحكم والمحافظة على حقوق الشعب، وكانت لهم الشرطة التي تحافظ على الأمن والنظام في مدن الدولة الرستمية وأسواقها[3].

وقد امتدت حدود الدولة الرستمية في فترة من فتراتها الزاهرة من حدود مصر شرقا إلى مدينة تلمسان في أقاصي المغرب الأوسط غربا.

وقد ساهمت الدولة الرستمية مساهمة فعالة في نشر الإسلام في إفريقيا السوداء عن طريق ممارسة التجارة مع تلك المناطق التي لم تكن تعرف الإسلام

---

(1) الباروني، الأزهار الرياضية، 2/ 45- 66.

(2) الشماخي، السير، 2/ 195.

(3) الباروني، الأزهار الرياضية، 2/ 164، 219 ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص45، 62، 63.

قبل وصول تجار الدولة الرستمية حاملين معهم مشعل الهداية، ومن أمثال هؤلاء الدعاة التجار الذي أنجبتهم الدولة الرستمية علي بن يخلف النفوسي الذي كان السبب في إسلام ملك مملكة مالي وشعبه.

## ثانيا: الفلسفة السياسية للدولة الرستمية على أرض تيهرت

ظهر مما سبق عرضه أن الدولة الرستمية التي قامت على أرض تيهرت، كانت دولة دينية برئاسة إباضية مستقلة ضمن الإطار الإسلامي، تقوم سياساتها على جملةمن المبادئ والفلسفات أهمها.

### 1 – نظام الحكم

أنكر الإباضيون على الأمويين والعباسيين من بعدهم إستئثارهم بالخلافة، وحصرها في بيتهم، ورفعوا شعارا يدعو إلى إصلاح الحكم، وأخذوا يطالبون بجعل الخلافة إسلامية. كما دفعهم جور بني أمية وبني العباس أن يحددوا واجب الخليفة بأن يتقيد بالكتاب والسنة وآثار الصالحين، وإقامة حدود الله وتأمين السبل، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينشر العدل والمساواة، فإن انحرف عزلوه وإن امتنع قاتلوه، وهو الرئيس الروحي والزمني لهم[1]. وللإمام مجلس شورى وأعوان يساعدونه ويحمل الإمام ألقابا أخرى مثل أمير المؤمنين، وكان يسلم عليه بالخلافة[2].وللإمامة عندهم أطوارٌ : طور الكتمان، وطور الظهور، وطور الدفاع، وطور الشراء، وليس هناك فترة محددة لكل منها.

هذا على الصعيد النظري، أما على الصعيد العملي عند الرستميين فإن عبد

(1) LEWICKI, les subdivisions de l ibadiya, p,72

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة تاهرت، ص815.

الرحمن بن رستم قد أخذ ولاية القيروان بعقد من أبي الخطاب وموافقة أهل الحل والعقد، وتولى إمامة تيهرت بعد تشاور جماعة الإباضيين فيها، فعقدوا له البيعة على أن يلتزم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين، فجعل الإمامة شورى بين جماعة من مشائخ المذهب[1]، وانتهى الأمر بتولي أبنه عبد الوهاب الإمامة، فقامت ضده معارضة تزعمها إبن فندين، وهناك غموض يكتنف قضية تولي أفلح الإمامة، والنزاعات الدائرة في ذلك الوقت إلى أن انتهى الأمر إلى أبي اليقضان[2].

وبعد هذه الصورة لولاية الإمامة في تيهرت الرستمية، نلاحظ أنها لم تخرج عن دائرة الرستميين، أي أنها لم تكن لعامة المسلمين، ولم تكن وراثية بالمعنى الضيق، شأنها في ذلك شأن الأسرة الأموية والعباسية من قبل، وإذا استثنينا الإمام عبد الرحمن بن رستم، فما من إمام رستمي إلا وقامت ضده معارضة من الرستميين أنفسهم أو من غيرهم، كما ان الشورى كانت قائمة في اختيار الإمام، لكنها كانت شورى ضيقة محدودة بالبيت الرستمي، والإختيار خاضعا لمبدأ الأفضل، أما الوصول لكرسي الحكم فكان من حظ الأقدر.

بهذا يظهر أن الإباضيين كانوا يرفعون شعارات نظرية في الإمامةوالحكم، ثم سرعان ما يصطدمون بالواقع عند التنفيذ، هذا ماأخرجهم عن تلك المبادئ وجعلهم أقرب إلى الملكية منه إلى الجمهورية، بل أن المؤرخ لويكي (LEWICKI) يعتبر الدولة الرستمية مملكة لما قال: «كانت توجد في شمال إفرقيا مملكة تاهرت»[3].

---

(1) طفيش محمد بن الحاج يوسف، الرد على العقي، المطبعة الحجرية، تونس، 1321هـ، ص 100.

(2) إبن الصغير، المصدر السابق، ص 31.

(3) LEWICKI, les subdivisions de l ibadiya, p,112

### 2 – جهاز العدل والمساواة

إستطاع عبد الرحمن بن رستم أن الناس حوله بما أتصف به من حميد الأخلاق وتمسكه بالدين، فتقاطر إليه الناس من مختلف النواحي، وتباعدت عنهم روح التعصب، حتى دبّ بينهم الخلاف والنزاع على الإمامة، فقرب الرستميون أعيانة وأشراف تيهرت، فكانت كلمتهم مسموعة ونفوذهم واضحٌ، غير أنه مما يلاحظ على حكام الرستميين ميلهم إلى التمييز الإجتماعي وإحداث الطبقية، فكان هناك كبار التجار والأغنياء، واشهرهم المزاتي وأبن وردة،[1].

ورغم وجود هذا الجهاز، فإنه يبدو لنا – إذا استثنينا الإمام الأول – أن للأئمة الرستميين دورا كبيرا في خلق الطبقية، أولا بسبب حرصهم الحثيث إلى الوصول إلى الإمامة، وثانيا إلى الإحتفاظ بها. لكن بمجرد وصول أحدهم إلى الحكم يعود مسارعا إلى أصول مذهبه مُظهرا الإستعانة بمشائخ البلد، مشاورا لهم في تعيين القضاة ورئيس الشرطة، و....غير أن الإمام في كل الأحوال كان يسمح للقاضي بنشر العدل والمساواة إلى الحد الذي يرضي الناس ولا يهدد الإمامة.

### 3 – مظاهر الحرية في تيهرت الرستمية

مما كان مشهورا في تيهرت وجد مشرفين على الأسواق يطوفونها لمراقبتها، وهذا ما يدفعنا إلى القول بوجود حرية إقتصادية مقيدة، كما أن تيهرت قد عاش على أرضها قوميات متعددة كالبربر والعرب والفرس وأهل الديانات السماوية، ومختلف المذاهب، وكانت تقام الكثير من جلسات البحث والمناقشة، وأشهرها ما كان يدور حول الإباضيين والواصلة، كما درج الأئمة الإباضيون على دعوة أئمة السنة إلى تيهرت للمناقشة، وكانوا يحرصون على ملاطفتهم

(1) إبن الصغير، المصدر نفسه،ص27–54

وإكرامهم، وهذا ما يدل على وجود حرية فكرية[1]. فدارت المجادلات في مسائل دينية بحتة كالتوحيد والصفات والقضاء والقدر و....، وكان بعض الإئمة يحذرون من قراءة كتب الفرق المعارضة، مما أثر على الحريات الفكرية نوعا ما، وكبحت لجام الفكر، مما دفع بعض الباحثين في هذا المجال لإلى القول بوجود حرية فكرية لكنها مقيدة.

## 4 – سياسة المسالمة وحسن الجوار

مما لا ينكره منصف أن تيهرت الرستمية قد نهجت منهج السلمية وابتعدت عن العدائية، خاصة بأنظمة الحكم المجاورة للدولة الرستمية، كنظام القيروان، فأبرم الرستميون معاهدة موادعة وهو ميصطلح عليه في زمننا (معاهدةحسن الجوار)، ظلت هذه المعاهدة سارية المفعول وقتا طويلا، ولم ينقل التاريخ مواجهة مباشرة بينهما، وكان من المتوقع أن تقع حروبا بينهما، خاصة مع الإختلاف السياسي والمذهبي والفكري، إلى أن المصلحة والرغبة الصادقة في المعيشة المشتركة الهادئة سيطرت على الأجواء.

ما كان هذا شان الرستميين مع أدارسة المغرب الأقصى، وصفرية سجلماسة، وأموي الأندلس، وهكذا تمكن الرستميون من إقامة علاقات طيبة مع أهالي السودان الوثنيين وسارت قوافلهم التجارية بين تيهرت وبلاد السودان[2].

هكذا فقد ترتب عن سياسة حسن الجوار هذه أن دول المغرب الإسلامي لم تنهك قواها فيما بينها، فظهرت علاقات شعبية، عبرت عن روح وحدة المغرب

(1) البرادي أبو القاسم بن إبراهيم، الجواهر المنتقاة، نشر سليمان بن مسعود المجدلي، قسنطينة 1305هـ ص 175.

(2) أنظر: العدوي إبراهيم أحمد، بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي العربي،ط1، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة،1970، ص 203–206.

الإسلامي، وارتبط المشرق بالمغرب، ووجد تنافس حضاري واسعٌ، وهكذا حافظ الرستميون على وجودهم بجانب أنظمة مخالفة لهم سياسياً ومذهبياً.

## ثالثا: التأثير الفكري والثقافي لحاضرة تيهرت ودور التجار الرستميين في المد الثقافي في بلاد إفريقيا والسودان عموما.

### 1 – التأثير الثقافي لتيهرت نحو بلاد السودان

يعرف القزويني بلاد السودان بانها تلك البلاد التي ينتمي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى المحيط. وأشار المؤرخ يوسانسكي posanski إلى أن البحوث الحديثة الحديثة دلت على وجود اتصال بين المنطقتين منذ 1500 سنة تقريبا[1].

وبالعودة قليلا إلى الوراء، فإن هذا الإتصال قد وجد في بداية العهد الإسلامي بالمغرب، وأكد الشيخ البكري على هذا الإتصال فذكر أن «تيهرت اتجهت نحو الجنوب حيث لا توجد حدود سياسية ولا جغرافية، وأن حركة الذهاب والإياب بين تيهرت والسودان كانت مستمرة»[2].وأضاف روبير دونيس Ropert Denise أن « تجار تيهرت كانوا يتاجرون مع أودغست في القرن 8 الميلادي»، وهذا كله بدأ ببداية قيام تيهرت الرستمية في عهد عبد الرحمن بن رستم، وهناك عدة معطيات تؤكد هذه العلاقة فقد ذكر المؤرخ إبراهيم فخار من أن روبير سرج R.sergeقد حدثه في نواكشط عن عثورهم عليقبور يرجع تاريخها إلى أن القرن 2هـ وهي تضم الكثير من أنواع العملات

(1) Posanski ,Ghana and the origins of west africa trode,Afrric Qunrltely,1971. vol6,p.111

(2) Oliver ; west africa befor the Europeans ;p.249.

والأواني الرستمية، وحتى أن بعض أسماء التجار الإباضيين وُجدت مكتوبة على بعض البضائع المدفونه هناك.

ومما يستفاد مما تقدم أن تجار تيهرت قد حلوا ببلاد السودان منذ عهد مؤسسها الأول عبد الرحمن بن رستم، ومنعنى هذ هو حدوث إتصال واحتكاك مباشرين بين أولئك التجار والسود الذين كانوا يداخلون التجار ويجالسونهم، ولم تكن كلمة تاجر تختص بالسلع فحسب، بل كان لها مفهوم واسع، إذ كان التاجر غالبا من العلماء، فقد ذُكر أن الشيخ عبد الحميد الفزاني وهو عالم كبير من علماء الدعوة كان في بلاد السودان في القرن 3هـ، وقد كان التاجر يحمل إلى جانب سلعته آراءه الدينية التي يبشر بها وينشرها بين أهل المنطقة التي يحل بها، وكان غالب أولئك التجار من تيهرت الإباضية ومن الصفرية، ومن أشهر التجار الذين نقل لنا التاريخ أسماءهم : أبو نوح الصغير، أبو نوح سعيد بن يخلف، أبو القاسم يونس الفرسطائي، أبو موسى هارون بن عمران، أبوموسى الويسياني، أبو اليزيد مخلد بن كيداد،..... وغيرهم كثير ممن كان إما يقطن بلاد السودان، أو ولد بها، أو يرتحل إليها كثيرا للتجارة.هذا ما أدى إلى امتزاج ثقافة تيهرت الرستمية بالثقافة السودانية إلى حد ما، وقيام آثار لإسلامية في تلك النواحي، فقد ذكر المؤرخ شاخت J.Schacht وجود آثار النشاط الديني والثقافي للجماعات الإباضية، فلاحظ أن شكل مدرج المنارة الواسع الإنتشار في السودان الغربي أُخذ من إباضية الجريد، بينما أخذ شكل المحراب من إباضية ميزاب، أي أنهما يرجعان إلى فن العمارة الدينية الإباضية في شمال إفريقيا[1].

وذكر الشماخي أن ملك غانا قد اعتنق الإسلام والفضل راجعٌ إلى «على بن يخلف» وهو تاجر وعالم إباضي عاش في القرن 5هـ، وتشير هذه الرواية

(1) Schacht, sur la duffusion des forme d architectuse religieuse mesulmane a travers le sahara, t.i.r.s.1954.T6 ;p11.

أن الملك تلوتان Tloutan قد اعتنق الإسلام حوالي 223هـ/ 837م، ويذكر إبن خلدون أن ملثمي الصحراء كانوا مجوسا إلى أن ظهر فيه الإسلام لعهد المئة الثالثة[1].

ويذكر صاحب كتاب الإستبصار أن سكان مدينة تكرور كانوا على ما كان عليه سائر السودان من المجوسية وعبادة «الدكاكير» وهي بلغتهم الأصنام، حتى أسلمو سنة 435 هـ/ 1043م، وهذا ما يِكد الدور الذي لعبه التجار الرستميون في نشر الثقافة الإسلامية، والذي يدل على فعالية الدور الثقافي والدينى لحاضرة تيهرت وامتداده إلى أرض بلاد السودان، هذا ما جعل الخلافة العباسية تحجم عن إرسال بعثات دينية أو تنويرية لأهل تلك البلاد تأكدا من بغداد أن الرستميين – وإن اختلفوا معهم في المذهب – فقد كفوهم مهمة نشر الإسلام، والتثقيف الديني بمفهومه في ذاك الوقت.[2]

وبمجمل القول فإن تيهرت الرستمية قد جمعتها علاقات ثقافية بمعظم بلاد السودان كبلاد غانة وحوض مصب السينيغال وبلاد تشاد وشمال وشرق النيجر ومنطقة جاو وتادمكة.

## 2- الإمتداد التجاري لتيهرت في بلاد السودان:

إرتبطت تيهرت ببلاد السودان الغربي بطريقين رئيسيين، الأول طريق غربي يمر عبر سجلماسة والثاني شرقي بالنسبة للأول يمر عبر ورقلة، وقد كانت سجلماسة عاصمة بني مدرار مدخلا لبلاد السودان، فقد ذكر الحموي أن التجار يسافرون من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة، وقد

(1) إبن خلدون، العبر، ج6، ص373.

(2) إبن بطوطة، الرحلة، ص680، كما أشار إبن بطوطة إلى وجود المذهب الإباضي في قرية زغاري في بالاد السودان وربما ترجع بذور هذا الوجود إلى العهد الرستمي

كانت سجلماسة حينئذ تحت الحكم الفاطمي، حتى أحصى التجار الرستميون الخارجون من تيهرت إلى بلاد السودان المسافات والفراسخ ومراحل الطريق، فقد ذكر البكري «ان الطريق من أودغست إلى بلد تامدلت 40 مرحلة، ومن تامدلت إلى سجلماسة11 مرحلة...»[1].

كما أشار البكري إلى وجود طريق ساحلي على المحيط الأطللسي، يبدأ من وداد سوس إلى مدينة نول طوله 3 مراحل، وهذا الطريق كان يسلكه تجار تيهرت لشراء الملح، وقد ذكر المؤرخون أن التجار الخارجون من تيهرت نحو بلاد السودان كانوا يكابدون شدة الحر في مسيرهم بين سجلماسة وبلاد السودان، وربما هبت عليهم ريح جنوبية وهي المعروفة برياح السيريكو، فنشفت مياههم بقربهم، وقد أشار الزبيدي إلى معاناة أولئك التجار من شدة الحر فذكر عن المهري (ت 253هـ/ 867م) في القيروان قوله: «دخل علينا أعرابي من اليمن يقال له أبو هلال ثم خرج إلى تاهرت ثم إلى بلاد السودان فأتى عليه يوُم وهج وحرٍّ شديدٍ وسموم في تلك الرمال فنظر إلى الشمس مصحرة راكدة فقال: أما والله لئن عززت في هذه الرمال فلطالما رأيتك ذليلة في تاهرت»[2].

وعلى كل حال، فلقد استفاد تجار تيهرت من هذه الحركة التجارية في بلاد السودان وتنقلوا بين البلدان بسلعهم المختلفة، وما هذا بغريب مادامت تيهرت تتمتع بشهرة واسعة، وهي عِراقُ المغرب كما سماها اليعقوبي، ويؤمها التجار المشارقة، ولقد جذب ذهب غانا تجار تيهرت، وذكر المسعودي أنَّ ملك غانا كان تحته عدة ممالك غنية بالذهب، لهذا كان التجار حين ينزلون ببلاد السودان

(1) البكري، المغرب، ص 156-163.

(2) الزبيدي، طبقات، ص251-252، والقزويني، آثار البلاد، ص169. وذكر البكري فقال: «نظر رجل من أهل تاهرت توقد الشمس بالحجاز، فقال: إحرقي ماشئت فوالله إنك بتاهرت لذليلة». المغرب، ص67.

يتطيبون ثم يستصحبون الأدلاء ويكثرون من حمل الماء، ويأخذون الجهابذة والسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر والذهب[1].

إضافة إلى ما تقدم فقد أكد صاحب كتاب «الإستبصار»[2] أن شمال إفريقيا كانت تصدر النحاس إلى بلاد السودان، كما ذكر بوسنانسكي posnanski، نقلا عن الحسن(ت سنة 339هـ/ 950م) أن الذهب كان يقايض بالنحاس الذي أرسل إلى الجنوب، وكان على شكل قضبان بطول 70سم، ووزن القضيب باوند واحد (رطل)، فتعود القوافل محملة بالذهب والعبيد والخدم السود إلى بلاد المغرب الإسلامي وبالطبع إلى تيهرت، حتى كان من السلع التي تحظى بها تيهرت طباخاتٌ حسناوات تباع الواحدة منهن بمئة دينار، وكان تجار تيهرت يأخذون معهم جلود الأنعان وماد الدبغ ويقايضونها بجلود السباع والنمور وبعض أنواع السروج والعاج وريش النعام وظهور السلاحف التي تصنع منها الأمشاط[3]. ووما يلاحظ أن هذه المواد كلها من الكماليات، الشيئ الذي يفسر الرخاء المعيشي والإستقرار الذي شهدته تيهرت وقتئذٍ، وزاد هذا الإستقرار والنماء التجاري الذي عرفته تيهرت لما أضحت معبرا في القرن 3هـ يسلكها تجار مصر الذين يقصدون غانا.

### 3 – تقييم العلاقات التي ربطت حاضرة تيهرت بإفريقيا عموما وبلاد السودان خصوصا.

كان الشمال الإفريقي قد بدأ يتأثر بالحضارة العباسية، في وقت كانت فيه بلاد السودان تعاني من التخلف والجهل، أي أن هناك فارقا حضاريا بين الشمال والجنوب، مما يعني ان تأثر بلاد السودان بمسلمي شمال إفريقيا كان أوسع من

(1) البكري، المغرب، ص 176.

(2) مؤلف مجهول، الإستبصار، ص 212.

(3) T. Lewicki ; Arabic external sources ;p.67.

تأثيرهم فيهم، وكان هناك فيضٌ حضاري تجاري وثقافي من تيهرت الرستمية نحو تلك البلاد وهذا باعتراف كثير من المؤرخين[1]، وقد أسند T. Lewicki ، هذا النفود والفيض الحضاري إلى التجار الإباضيين بشكل رئيسي، ومعه إنتشار المذهب الإباضي عموما في شمال إفريقيا الذي كان له الأثر المباشر في نمو الحياة الإقتصادية في المغرب الإسلامي خصوصا.

يفهم مما تقدم بخصوص الصحراء أنها كانت تمثل حاجزا طبيعيا بين الشمال والجنوب، وهي وإن لم تحل دون اختراق التجار الإباضيين لها، غير أنها كانت تمثل لهم تحديا متعبا في غالب الأحوال، ولولاه لرأينا من نشاطهم العجب، ومن تأثيرهم الشيء الكثير، يظهر هذا بمقارنة صلة تيهرت بجيرانها في القيروان وفاس كذلك فقد أثرت الصحراء على العلاقات العسكرية، فلم يذكر التاريخ أن فكر الرستميون بإرسال حملات عسكرية إلى تلك البلاد، وأن العلاقات السياسية القائمة إنما هي لخدمة التواصل التجاري بين تيهرت وبلاد إفريقا، كما عرفت تيهرت إستقراراً في العهد الرستمي نتج عنه تطور إقتصادي، وحاجة إلى الكماليات، فكثر الطلب على الذهب والعبيد، وظهر في بلاد السودان التأثير الرستمي البارز وزادت التجارة بين الشرق والغرب كما زادت بين الشمال والجنوب.

وبعد هذا العمر المديد وهذه الإنجازات الضخمة التي قدمتها الدولة الرستمية للأمة الإسلامية، هجم عليها أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين في سنة 296هـ، فدمرها وعاث فيها فسادا، وقتل أهلها، ولم يكتف بذلك، بل قام بإحراق مكتبة المعصومة بعد أن أخذ منها الكتب الرياضية والصناعية والفنية، فقضى بذلك على تراث عظيم من تراث الأمة الإسلامية[2].

(1) ومن أشهرهم: فاج Fage، موجز تاريخ إفريقيا، ص 69. والمؤرخ T. Lewicki .

(2) د. محمد صالح ناصر، منهج الدعوة عند الإباضية، ص156 – بحاز، الدولة الرستمية، ص 128.

هذه هي حاضرة تيهرت التي قامت على أرضها الدولة الرستمية الإسلامية، والتي للأسف الشديد تجاهلها الكثير من المؤرخين والكتاب القدماء أو المحدثين، وإذا ذكروها لا يذكرونها إلا بقصد التجني عليها، وتشويهها والتعتيم على الإنجازات العظيمة التي حققتها خدمة للأمة الإسلامية، وكل هذا يعود إلى الأهواء السياسية، والتعصبات المذهبية المقيتة التي عادت على هذه الأمة بالشر والوبال، بالرغم من أن الدولة الرستمية أظلت بظلها مختلف المذاهب الإسلامية بل والديانات الأخرى، مصانين في الحقوق والكرامة.

ومن أمثال هؤلاء المؤرخين الذين ظلموا الدولة الرستمية، وكان حري بأمثالهم الإنصاف : ابن عبد الحكيم ( تـ : 257هـ ) صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس »، والبلاذري ( تـ : 279 ) صاحب كتاب « فتوح البلدان» وحتى ابن خلدون الذي شهد له بالموضوعية لم يسلم من ذلك[1].

فعسى أن تكون هذه الأجيال الإسلامية المباركة في هذا الوقت قد أدركت هذه الحقيقة المُرَّة، وأدركت أن ما يعانيه المسلمون اليوم من ذل ومهانة وصغار على أيدي أعداء الأمة الإسلامية، يعود في المقام الأول إلى المسلمين أنفسهم، بسبب اشتغالهم بالتعصبات المذهبية والتشنيع على إخوانهم من غير مذاهبهم، مما أدى إلى إيغار الصدور، وتفتت العلاقات بين المسلمين، ففتح الباب على مصراعيه أمام أعداء الأمة ليعيثوا في جسدها فسادا، بعد أن أنهكه أبنائها بصراعاتهم العقيمة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل وصل الأمر ببعض من ينسبون أنفسهم إلى الإسلام إذا أصيب أحد إخوانهم المسلمين من غير مذهبهم باعتداء سافر غاشم من قبل أعداء الإسلام، يفرحون لذلك ويسرون، والله المستعان، فهل من صحوة من هذا السبات، وهل من عودة إلى قوله تعالى: ﴿ وأن هـذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ الأنبياء / 92.

(1) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص6.

# قائمة أهم المراجع والمصادر

## أولا: باللغة العربية:


01 – أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، إبن بطوطة:**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960م.

02 – إبن حوقل، أبو القاسم النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ب ت ن

03 – إبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **المقدمة**، القاهرة، المكتبة التجارية، ب ت ن. **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1959.

04 – إبن الصغير، **سيرة الأئمة الرستميين**، أعمال المؤتمر 14 للمستشرقين المنتعقد في الجزائر 1905، نشر موتيلنسكي، باريس، 1908.

05 – إبن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر لجنة البيان العربي، القاهرة، د ت ن.

06 – الإدريسي، **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، لندن، 1968م.

07 – الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم الفارسي، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، القاهرة، 1961م.

08 – اطفيش محمد بن يوسف، **الرد على العقبي**، المطبعة المديرية الحجرية، تونس، 1321هـ.

09 – البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857م، نشر مكتبة المثنى، بغداد.

10 – البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، ط1، المطبعة المصرية بالأزهر، 1932م.

11 – الحموي، ياقوت الرومي، **معجم البلدان**، بيروت، 1957.

12 – دبوز علي، **تاريخ المغرب الكبير**، ط1، القاهرة، مطبعة عيسى الحلي، 1964م.

13 – الشماخي، أبو العباس بن سعيد، **كتاب السير**، القاهرة، 1301هـ.

14 – الطبري، **تاريخ الأمم الملوك**، مطبعة الإستقامة، 1939م، نشر المكتبة العصرية، بغداد.

15 – الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس، **الأزهار العاطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس**، 1889م، فاس.

16 – كراتشوكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963م.

17 – المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1965م.
18 – مؤلف مجهول، **كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، كلية الآداب، منطقة جامعة الإسكندرية، 1985م.
19 – البرادي، أبو القاسم بن إبراهيم، ق 14م، **الجواهر المنتقاة**، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857م، نشر مكتبة المثنى، بغداد.
20 – الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، 989م، **طبقات النحويين واللغوين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1954م.
21 – المقديسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، 988م، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط2، مطبعة بريل، اندن، 1906م.
22 – المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، 1442م، **الخطط المقريزية**، مطبعة الساحل الجنوبي، بيروت، د ت ن.
23 – لقبال موسى، **الحركة الخارجية المغربية**، جريدة المجاهد الثقافي، ع5، مارس 1968م.
24 – توماس أوجكين، **ممالك السودان الغربي**، ترجمة الواحد اللأمباني، الدار القومية للطباعة والنشر، ب ت ن/ ب د ن.

## ثانيا: باللغات الأجنبية.

01- R.oliver and J.D. Fage : a short history of africa; printed in Great Briain;1970.
02- M.Posnanski.: Ghana and the origines of west africa trade,A.Q.1971,vol 6,N2.
03- J.Schacht. sur la diffusion des formes d Architecture relijieuse musulmane à travers le sahara ; T.I.R.S.1954.t ;6
04- T.Lewicki : Arabic external sources for the history of Africa to the south of sahara; krakow; 1969.

# دور توات في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

خديجة حالة – الجامعة الإفريقية
احمد دراية أدرار –

## مـقـدمـة

يعتبر إقليم توات نقطة على مر العصور نقطة عبور بين حواضر الشمال وإفريقيا جنوب الصحراء، ومركزا علميا حضاريا ذو أبعاد ثقافية مهمة، أثرى الحياة العلمية للإقليم وأعطاه خصوصية معرفية وفقهية تمكن من خلالها من حمل مسؤولية نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، وإنشاء العديد من المدارس والزوايا للتدريس والإيواء، فكان هدفهم نشر الدين الإسلامي وتعليم اللغة العربية، وقبل الولوج في صلب الموضوع يستوجب علينا التعريف بحاضرة توات وموقعها الاستراتيجي، بعدها نعالج إشكالية هذا البحث والتي تدور حول دور توات في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء.

## أولا: التعريف بحاضرة توات

يحمل مصطلح «توات» أبعاداً ودلالات جغرافية تتناسب طرداً مع المتغيرات التاريخية التي عرفها الإقليم، إذْ يطلق على أجزاء عديدة من ولايتي أدرار وتمنراست الجنوبيتين حاليا، بينما رسم له المؤرخون السابقون حدود ذات معالم متباينة، اتسمت بالبساطة أحيانا وبالتركيب أحياين أخرى.

فتحتل منطقة توات موقعا جغرافيا استراتيجيا مابين شمال الصحراء والساحل الإفريقي المسمى من قبل الجغرافيين والرحالة العرب بلاد السودان، إذ يحدها شمالا واد الساورة، الذي يربطها بحواضر المغرب

الأوسط وكور المغرب الأقصى، شاقا مجراه بمحاذاة العرق الغربي الكبير، وجنوبا رق تنزروفت المنبسط نحو أصقاع بلاد السودان، وشرقا واد امقيدن (امكيدن) مركز استقطاب القبائل الوافدة نحو الصحراء، وغربا عرق شاش[1].

فيقع إقليم توات بين خطي الطول 01 درجة شرقا و04 درجة غربا، وبين دائرتي عرض 26 درجة و30 درجة شمالا[2]، ويتشكل الإقليم من ثلاث وحدات أساسية هي: تينجورارين، توات الوسطى، تيدكلت.

## منطقة تنجورارين

فتقع تنجورارين في الجهة الشمالية من الإقليم تمتد من تبلكوزة شمالا، إلى سبع جنوبا، على مسافة تقدر ب 270 كلم تقريبا،[3] ومن أهم قصور تنجورارين : قصور أوقروت، وقصور تبلكوزة وقصور أجفريت وقصور تيميمون، وقصور أولاد سعيد، وقصور تقانت، وقصور حيحة، وقصور شروين، وقصور الزوى ودلدول وقصور الدرامشة، وقصور تسابيت وقصور السبع[4].

(1) أحمد بوسعيد: الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ 18م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغاربي عبر العصور، إشراف: د. محمد الصالح حوتية، الجامعة الإفريقية العقيد احمد دراية، أدرار، 2012ـ 2013، ص3.

(2) محمد الصالح حوتية: توات والأزواد، ج1، دار الكتاب العربي، 2007،ص 28.

(3) مبارك بن الصافي جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، ط 1، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 31.

(4) عبد الكريم طموز: تحقيق فهرس شيوخ الشيخ سيدي عمر بن الحاج عبد القادر التنلاني التواتي (ت 1152هـ، 1739م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف:د. بوبة مجاني، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009ـ 2010، ص 21.

## منطقة توات الوسطى

أما توات الوسطى فتمتد من قصور بودة وتيمي شمالا، إلى رقان جنوبا على مسافة 200كلم تقريبا، والى الشرق من توات الوسطى[1]، ومن أهم قصورها: قصور بودة وقصور تيمي وقصور تمنطيط وبوفادي أو أولاد الحاج، وقصور تسفاوت أو فنوغيل وقصور تامست وقصور زاوية كنتة وقصور انزجمير وقصور سالي وقصور رقان[2].

## منطقة تيدكلت

توجد تيدكلت تمتد من أولف، إلى فقارة الزوا بعين صالح شرقا، على مسافة تقدر بـ 150 كلم، وبزيادة المسافات الفاصلة بين المناطق الثلاثة، نجد أن المسافة بين أول إقليم وآخره تناهز 700 كلم[3]، ومن أهم قصورها: قصور أولف وقصور اقبلي وقصر تيط وقصور اينغر وقصور عين صالح. ومجمل قصور توات تزيد عن ثلاثمائة قصر .

## تسمية توات

اختلف المؤرخون والرواة في أصل التسمية (توات)، وتباينت آراؤهم وتفسيراتهم حولها، وسلكوا في ذلك طرائق قددا، لكنهم اتفقوا على أن تاريخ عمارتها واختطاطها قديم، يسبق زمن حملها لهذا الاسم، بدليل الشواهد والبقايا الأثرية وكتابات الرحالة والجغرافيين القدماء أمثال: هومير «*homére*» وهيرودت « *hérodte* » وبتوليمي «*ptolémée*»، إضافة إلى تقييد ووصف المؤرخين العرب

(1) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص 31.

(2) عبد الكريم طموز: المرجع السابق، ص 21.

(3) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص 31.

أو المسلمين أمثال: اليعقوبي (ق3هـ)، الاصطخري. المسعودي، . ابن حوقل. المقدسي(ق4هـ) البيروني . البكري(ق5هـ)، الادريسي (ق6هـ)، البغدادي. ياقوت الحموي. ابن سعيد. العبدري. المراكشي(ق7هـ)، التجاني. ابن بطوطة. ابن خلدون(ق8هـ)، الحسن الوزان(بين ق9هـ وق 10هـ)، والعياشي (ق11هـ)، وان كان معظم أولئك المؤرخين المسلمين لم يشر إلى توات مبنى، فانه قد أشار إليها معنى بذكر حدود ومواصفات مطابقة لتركيبة الإقليم وجغرافيته، أما التفسير اللغوي والاصطلاحي لـ «توات» فقد اخذ مسارات متعددة منها:

• الرواية التي انفرد بها المؤرخ التواتي محمد بن عمر البداوي الجعفري، حيث ارجع السبب في التسمية إلى القرن الهجري الأول: «على ما يحكى أنه لما استفتح عقبة بن نافع الفهري بلاد المغرب ووصل إلى ساحله، ثم عاد لواد نون ودرعة وسجلماسة والفائحة، ووصلت خيله توات وذلك في تاريخ 62هـ ـ 682م فسألهم عن هذه البلاد يعني توات وعن ما يسمع ويفشى عنها من الضعف هل **تواتي** لنفي المجرمين من عصاة المغرب، ينزله بها أو يجليه بها، فأجابوه أنها تواتي لهذا الإرب، فانطلق اللسان بذلك أنها تواتي، فتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التخفيف لجري العادة بذلك..»

لا يمكن الاعتداد بهذه الرواية لخلوها من أي سند تاريخي منسوب إلى مصادر تاريخية كابن الأثير أو البلاذري أو ابن خلدون أو غيرهم بل اعتمدت على ما يحكى وكذلك المؤرخين الذين تتبعوا حملة عقبة بن نافع الثانية بين 60 و63ه ـ 680و683م لم يذكروا انحداره جنوبا نحو أقاليم صحراوية بالمغرب الأوسط أو المغرب الأقصى، بل سلك طريقا ساحليا[1].

• أما الرواية الثانية التي نسوقها في هذا النطاق فهي رواية محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري (ت 1374 ـ 1955م) «فهو يرى في كتابه درة الأقلام

(1) احمد بوسعيد: المرجع السابق، ص18.

في أخبار المغرب بعد الإسلام أن سبب تسميتها بهذا الاسم يعود لعهد الدولة الموحدية فملوك هاته الدولة ما عرفوا هاته الأرض إلا بكونها منطقة مليئة بالخيرات فدأبوا على اخذ ما فيها من أتوات، ومن يومها غلب عليها الوصف فصار أهلها يعرفون بأهل الأتوات[1]، وهذه الرواية أصحّ ... قال في المصباح التوت هو الفاكهة والجمع أتوات، فعُرف أهل هذه البلاد بأهل الأتوات، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه» ورغم أن هذا التفسير اعتمده كثير من المؤرخين أمثال: محمد بن عمر الجعفري البوداوي ومولاي أحمد الطاهري الإدريسي ومحمد باي بلعالم، إلا أنّه يبدو مضطرب اً، إذ لا يُعقل أن يحمل قطر اسم مكوس وأتوات فرضت عليه في فترة محددة طول تاريخه، وإلاّ لحمَلت معظم الأقطار اسم توات، ولَسَارع ساكِنوها إلى محوِ ذلك الاسم من ذاكرتهم لأنه مرتبط بضرائب قدّموها عن غيرِ طيب خاطر، وهم الذين وصفهم ابن خلدون بأنهم أهلُ عدد وعدّة وبُعدٍ عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم ثمّ أن هذه الرواية مركّبة من روايتين، تاريخية متعلقة بالأتوات، ولغوية مُشار إليها بفاكهة التوت وجمعها؛ كما يُستبعد أن تلجأ الدولة الموحدية ( 541 هـ / 1146 م 668 هـ / 1270 م ) ذات الشأن العظيم والإقليم الواسع إلى استغلال خيرات أقاليم صحراوية بعيدة، من أجل إرضاء قبائل بدوية قريبة من مركز السلطة، وقد انصرفت همّتها في مبتدأ أمرها إلى إقامة العدل ومحاربة الجور وتوحيد الأمصار[2].

• أما الرواية التي تعود إلى أوائل القرن 8 هـ، حيث أورد السعدي في تاريخه قصة متعلقة بسلطان مالي المدعو «كنكن موسى»، مؤدّاها أنه عزم حجّ بيت الله

(1) عبد الحميد البكري: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9الى القرن14ه، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلية، 2005، ص14.

(2) احمد بوسعيد: المرجع السابق، ص 18.

الحرام في أوائل القرن 8 هـ، واصطحب معه قوة عظيمة وجماعة كثيرة، وأثناء مروره بموضع توات تخلّف كثير من أصحابه عن الرّكب، بسبب وجع أصابهم في أرجلهم من شدة المشي، يُسمى توات في لغتهم، فسُمي الموضع باسم ذلك المرض (توات)[1].

تبدو هذه الرواية التي انفرد السعدي بها مضطربة ومجتنِبة للمنطق لعدة أسباب، منها أن قافلة ملِك مالي إنما قصدت الحج، ولم تقصد الاستيطان، ومن تعذّر عليه ذلك بسبب الوجع المذكور، لاشكّ أنه سيعود قافلاً من حيث أتى كما أن المرض أصاب بعض القوم في موضع بعينه، وآذان السكان المحليين ستأنَفُ من أن تتلقّف كلمة قيلت في ظروف خاصة وفي موضع خاص، لتجعلها رديفَ بلاد عامر، آهلة من زمنٍ سابق، قائمة بذاتها أمّا المؤرخون التواتيون فإنهم لم ينقلوا هذه الرواية، ولم يولوها اهتماما أو يلقوا لها بالا في مؤلفاتهم، رغم حرصهم على كتابة كلّ ما يتعلق بتاريخ إقليمهم وما يقال عنه[2] .

• أما الرواية التي أوردها صاحبُ نسيم النفحات مولاي أحمد الطاهري الإدريسي (ت1399 هـ / 1979 م )، حيث نحى بالاسم منحىً لغوياً، فتوات في نظره مشتق من الفعل «واتى يواتي تواتي»، بمعنى تناسب وتليق. يقول عن ذلك «سمُيت توات بهذا الاسم لأنها تواتي للعبادة، أي تليق بها، لأن كل من قدِم إليها من الأولياء المنقطعين تواتيه للعبادة، فلذلك سكنها كثير من أولياء الله الكُمّل العارفين، وقيل من الأتوات أي المغارم والمكوس أو الفواكه، والله أعلم».

رغم التفسيرات اللغوية لهذه الرواية إلا أنها لم تقطع الأمر أو تحسم فيه، بدليل إيراد احتمالات أخرى بين ثناياها كالمكوس أو الفواكه. كما أنّ توات

(1) عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان، مطبعة هوداس، باريس، 1981، ص7.

(2) احمد بوسعيد: المرجع السابق، ص20.

وإنْ كانت تواتي للعبادة والانقطاع عن الدنيا والتفرّغ لذكر الله، فإنها تواتي أيضاً لنفي المجرمين من عُصاة المغرب كما تزعُم الرواية الأولى سابقة الذكر، وتحمل كتب التاريخ ما يشير إلى ذلك الغرض، حيث ذكر الناصري ( ت 1312 هـ/ 1894 م ) أنّ المنصور الذهبي السعدي ( ت 1012 هـ/ 1603 م ) ضرب على قبائل «الخلط» العربية مغرماً، بعد أن عاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد، فلم يزيدوا إلا شدّة، فكثرت الشكاية بهم إليه، فضرب عليهم بعثاً إلى تيكورارين من بلاد توات بالصحراء فامتنعوا من ذلك، فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجّالة، ثم حكم فيهم السيف ومزّقهم كلّ ممزّق.

يظهر من خلال عرض الروايات السابقة الاختلاف الجليّ البيّن في تفسير أصل تسمية توات، ما بين اشتقاق لغوي أو تأصيل اصطلاحي، لكن الأرجح والأقرب إلى الصواب أن اسم توات بربري قديم قِدَم قبائل زناتة التي اختطّت الإقليم، فلا تمايزَ واضحاً إلا ما احتفظت به أسماء القصور التي عرضناها، ومعظمها لا يزال يحمل إلى اليوم معانٍ بربرية مثل طلمين ( النواق )، تسابيت (المكان المعزول) تنيلان (مكان الأحرار )، آدرار ( الجبل)، تامست ( النار )، تيلولين (منبت الكلأ)، سالي (علاق الراحلة)، ركّان ( الجمل الراقد)، تيط (العين )، إينغر (الشعبة) وغيرها كثير وبعضها الآخر يحمل معانٍ عربية مثل: زاوية الدباغ، أولاد محمود، أولاد علي، أولاد إبراهيم، عين صالح ... الخ، وقد ساهمت كتابات كل من: ابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزّان والعياشي في تداول اسم توات ونشره على نطاقٍ واسع، فتضاعفتْ أهمية الإقليم وزادت الرغبة في سبرِ أغواره[1].

(1) احمد بوسعيد: المرجع نفسه، ص23.

## ثانيا: انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء

كان لعلماء توات ومشايخها في كل العصور القديمة والحديثة دور متميز في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى الشعوب السمراء، إذ يؤكد اغلب المؤرخين انه بجهود العلماء تغلغلت الثقافة العربية في إفريقيا الغربية، وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول الإفريقية الإسلامية بالإضافة إلى أنها كان اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب[1].

يعود الفضل في انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء إلى ثلاث وسائل أساسية وهي طرق القوافل التجارية، والتجار والعلماء والطرق الصوفية وغيرها.

فقد تميز علماء توات بالنبوغ في العلم وخفة الحركة ومخالطتهم للسكان الأفارقة، وقد اختار الكثير منهم الجهاد السلمي قربة لله، وهذا ما أسهم في انتشار الإسلام بشكل واسع في إفريقيا وبطريقة سلمية، ومنذ فتح المغيلي طريق إفريقيا أمام الدعاة تعود علماء توات على زيارة الأقاليم السودانية، والمكوث بها لتدريس العلم وإمامة المسلمين ونشر الإسلام، وتحفل كتب التراجم بذكر الكثير من أولئك الدعاة والمتصوفة المجاهدين في أدغال إفريقيا من اجل نشر رسالة الإسلام[2].

---

(1) عبد الله عباس: الدور الحضاري لإقليم توات وتأثيراته في بلاد السودان الغربي من القرنيين 9و10ه/ 15و16م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: بشار قويدر، جامعة الجزائر، 2000-2001م، ص87.

(2) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، ط1، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص135.

## 1 - دور العلماء في نشر الإسلام

تمثل توات منبعا ومحطة للعلماء والزوايا وموقعا استراتيجيا لأنها من أهم الأقاليم التجارية التي فتحت نقطة عبور بين الشمال والجنوب بل حتى مع الخارج، فتوات عاصمتها تمنطيط من أهم الأسواق التجارية خلال العصور الوسطى وكذا مقصدا لمجموعة من العلماء الذين أقاموا لها الزوايا لتدريس علوم الشريعة الإسلامية ومن هؤلاء محمد بن عبد الله المغيلي والشيخ العصنوني والشيخ الكنتي وغيرهم[1]، ويمكن القول دون مبالغة أن الحركة العلمية في القطر التواتي، قد بلغت مركزا متقدما، تضاهي نظيراتها في العالم الإسلامي، وأصبح اسمها مرادفاً لحواضر مثل: فاس، تلمسان، الجزائر، سلجلماسة، تمبكتو، القاهرة، المدينة المنورة، ....بل أكثر من ذلك شكلت رافدا لمناطق مختلفة[2].

فقد حظي علماء توات الذين انتقلوا إلى السودان الغربي بحفاوة بالغة، ولم يكن المغيلي وحده من حظي بالتكريم والإشادة، فقد رحب ملك برنو كداي بالشيخ محمد الطاهر الفلاني وولاه حطة السلطان، ويذكر عبد الرحمان السعدي أن كثيرا من علماء توات استقروا في تمبكتو ومنهم الشيخ أبا القاسم التواتي الذي كان محل احترام وتقدير الجميع، حتى إن السلطان أسكيا الحاج موسى كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة به للتسليم عليه والتبرك به[3].

---

(1) فضيلة مبارك: صحوة المغيلي وثورته ضد يهود تمنطيط، أعمال الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث(1500ـ2009م)، أدرار، 04/ 05افريل 2010م، ص 138.

(2) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص230.

(3) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص136 137.

وقد أبدى أهل السودان الغربي شغفا ورغبة في توسيع مداركهم العلمية، وذلك بالترحال للمراكز الثقافية الهامة في المغرب العربي ومصر لينهلوا العلم منها وعند عودتهم، يتولى بعضهم ارفع المناصب، فبعض هذه الطبقات المتعلمة في السودان الغربي من أئمة ودعاة وقضاة ومعلمين كانت تتجه إلى مراكز الصحراء العريقة كتوات، وواد سوف، وورقلة، ووادي ميزاب، وغيرها. لتلقي العلم والفقه والشريعة وأصول المذهب المالكي، وهو المذهب الرئيسي في السودان الغربي، ويرجع انتشار هذا المذهب وتوطيده هناك لعدة أسباب منها ملائمة هذا المذهب لطبيعتهم، فهو مذهب عملي يعتد بالواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم، ويناسب بساطتهم في الصحراء دون تكلف أو تعقيد، فهم يميلون إلى البساطة والوضوح، والحرص على التمسك بالدين الإسلامي وأصوله خوفا من الانزلاق في ماهاوي الضلالات ومحاربة البدع، فمنذ القرن الخامس عشر ميلادي اعتبر الإقليم التواتي مركزا أماميا لنشر الإسلام بالمدن السودانية الواقعة بالقرب من الأطراف الجنوبية للصحراء الجزائرية. فيعتبر الشيخ الفقه محمد بن عبد الكريم المغيلي من اكبر رواد الحركة الإصلاحية في توات وفي ممالك إفريقيا الإسلامية التي تجول بها كثيرا.

لقد ظل اثر ونفوذ الشيخ المغيلي يمتد ويقوى حتى بعد وفاته، في جميع أنحاء السودان، وقد كانت تعاليمه التي اعتنقها الكنتيون والفلانيون بمثابة خميرة لقيام حركات إصلاحية خلال القرن التاسع عشر الميلادي في السودان الأوسط والغربي[1].

(1) صالح بوسليم: جهود أعلام توات في ترسيخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في جنوب إفريقيا جنوب الصحراء، أعمال الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث(1500-200م)، أدرار، 04/ 05 افريل 2010م، ص 126 127.

ولم يكتف علماء توات بالتدريس والإمامة، فقد نقلوا كثيرا من المخطوطات إلى بلاد السودان الغربي، وانشئوا العديد من المدارس والرباطات، وبذلك أسهموا في إرساء نهضة علمية بمختلف الحواضر التي زاروها ودرسوا بها، وحاز التواتيون نتيجة ذلك على مكانة مرموقة بين الأفارقة بوصفهم حملة رسالة ودعاة في سبيل الله، كما عرفوا بمكانتهم الاقتصادية والعلمية، حتى إن بعضهم أصبح له نفوذ بارز في تلك الحواضر، فمنهم الفقيه والصوفي، وقائد ركب الحج، ومستشار السلطان، ومما يذكر في التأكيد على مكانتهم أن حاكم تمبكتو استنجد بالفقيه الشيخ احمد بن عبد العزيز القوراري وصديقه الشيخ محمد ابن الشيخ احمد بابا التمبكتي عندما تمكن منه خصمه القائد الفلاني بن عيسى البربوشي فقبلت شفاعتهما، وأُطلق سراحه[1] .

وأبو زيد عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت1189ه/ 1775م) الذي زار جنوب الصحراء مرتين، وصف لنا طريقته في التدريس حيث يقول: انه استمر في تعليم الطلبة طول النهار، لا يعود لمنزله إلا بعد العشاء بساعات، وكان يدرس بأربع لغات وهي:العربية، الدارجة، لغة الطوارق، واللغة التكرورية، كما كان حليما، صبورا[2]، في تعامله مع طلبته.

ومن بين العلماء كذلك الذين حازوا على مكانة مرموقة في تمبكتو الفقيه أبو الأنوار بن عبد الكريم التنلاني(ت1168ه1755–م) الذي استقر فترة يعمل في الإفتاء والتدريس، واليه يعود الفضل في تأسيس حاضرة لمبروك الموجودة في شمال مالي[3].

(1) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص137.

(2) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص296.

(3) المرجع نفسه، ص 298.

ومن العلماء كذلك الذين انطلقوا من زوايا توات إلى غرب إفريقيا لنشر الإسلام واللغة العربية، وسط السكان الأصليين نذكر:

- الطالب سيدي احمد التواتي بن محمد (ت 1188ه).
- الحاج احمد بن الحاج الامين الملقب بالتواتي الغلاوي (ت1157ه).
- سيد المختار الكنتي (ت1226ه).
- الشيخ محمد بن أبَّ المزمري الذي يُعد من ابرز الشخصيات العلمية بتوات حيث انه يعرف بصاحب الجولان، فلقد جال في المغرب الأقصى وفي مالي مثل تمبكتو وأروان بغرض الاستفادة والإفادة.
- الشيخ محمد الحسن الفلاني القبلاوي (ت1352ه).[1]

وبمرور الزمن أصبح التنقل من توات إلى إفريقيا جنوب الصحراء ضرورة علمية ملحة إما لاستزادة العلم أو للتدريس ومنها ذاع صيت التواتيين عند الأفارقة، وما أكثر العلماء الذين تعذر على الباحثين تتبعهم.

## 2 - دور الطرق الصوفية في نشر الإسلام

كان للطرق الصوفية نشاط وانتشار كبير في منطقة توات، لكونها بيئة مناسبة للعبادة والزهد، وقامت الطرق الصوفية إلى جانب دورها في نشر أوراد الطريقة، بنشاط علمي كبير كما اهتمت بتحفيظ القرءان ونشره، واحتضنت اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، وأنفقت بسخاء على نشر تعاليمها وأورادها، ولكون معرفة الأوراد نشاط أساسي من شروط التصوف. فقد ساعدت في القضاء على أمية الحرف والتحفيز على طلب العلم، كما شكلت الطرق الصوفية رباطا روحيا

(1) صالح بوسليم: المرجع السابق، ص127.

جمع منطقتي توات وإفريقيا على مر الزمن، وكانت توات بمثابة البوابة التي مرت هاته الطرق لإفريقيا، وفي مقدمتها الطريقة القادرية، حيث عمل كل من المغيلي والشيخ احمد البكاي على نشرها في إفريقيا[1].

فخلال القرن السابع عشر نقل علماء توات الطريقة القادرية إلى السودان، ويرجع الفضل في ذلك إلى الجماعة الكنتية، حيث استقروا في الأزواد شمال مالي وانشئوا فرعا لزاويتهم، وكان من أشهرهم الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير شيخ قبيلة كنتة، وابناه سيدي محمد وسيدي احمد، وقد زاولوا في تمبكتو التعليم والتجارة ونشروا الطريقة، وأصبحت لهم مكانة معتبرة في السودان، وانتشرت الطريقة الرقادية انطلاقا من زاوية كنتة في أقاليم التكرور[2]، حيث تذكر كثير من الروايات التي أوردها الشيخ مولاي التهامي الغيتاوي عن جماعة جاءت إلى شيخ الزاوية سيدي علي بن الشيخ احمد الرقادي تطلب مساعدته[3]: «ورد إلى الزاوية الرقادية التواتية جماعة من أروان يطلبون مرشدا ومعلما فأرسل إليهم الشيخ سيدي الأمين المعروف بذي النقاب وامتثل أمره ونزل عندهم بأروان في قبيلة أولاد الشيخ احمد أقادة، حتى مات عندهم بأروان روضته مشهورة مقصودة وهو شقيق الشيخ احمد بن عمر المذكور دفين تمبكتو ومازال أولادهم وفروعهم بتلك البقاع»[4].

---

(1) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص139، ص280.

(2) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص144.

(3) ولد خلال سنة 1954م بأدرار، عين في سنة 1979م إماما بمسجد الجمعة بأوقديم بأدرار، ثم كمراقب لسير الأعمال في المساجد والكتاتيب ثم ممثل الشؤون الدينية، وفي سنة 1998م عين كعضو في المجلس الإسلامي الأعلى.

(4) مولاي التهامي غيتاوي: سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، منشورات العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر،2013، ص85.

ونقل بعض علماء توات الطريقة التيجانية التي ذاع انتشارها في السودان كذلك، وتذكر بعض المصادر أن مؤسس الطريقة احمد التيجاني كانت له علاقة وطيدة مع عالم قورارة سيدي محمد بن الفضيل، ولم يقتصر دور التيجانية على الجانب الديني والاجتماعي بل تعداهما إلى الجانب السياسي، إذ ظهرت العديد من الدويلات التي استندت إلى دعوتها إلى الطريقة التيجانية مثل دولة الحاج عمر(1798–1865) ودولة الشيخو أحمدو (1815 ـ1852) وأسهمت بذلك الطريقة التيجانية في نشر الإسلام والثقافة العربية على نطاق واسع في غرب ووسط إفريقيا.

ولم يكتف التواتيين بنشر الطرق الصوفية كما وردت إليهم بل عملوا على إعطائها الخصوصيات الصحراوية والإفريقية التي تسهم في انتشار الطريقة من جهة وإدخال الأفارقة في الإسلام بيسر من جهة أخرى، وعليه انتشرت في بلاد السودان الغربي الطريقة القادرية على الطريقة الكنتية التي قعدها الشيخ المختار الكنتي الكبير[1]، ولم يساهم التواتيون في نشر الطرق الصوفية في إفريقيا فحسب، بل أدلو بدلوهم في تأسيس البعض منها: كالطريقة الرقانية التي أسسها الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني(ت1207ه/ 1793م)، وكان لها انتشار واسع إفريقيا، خاصة في ولاته وضواحيها، والفضل يعود للشيخ مولاي زيدان التواتي (ت1202ه/ 1788م)، وكان لها أتباع كثيرون هناك، منهم محمد بن عبد البرتلي، كما نشطت في إفريقيا الطريقة الحمالية[2]، التي دعت لتجديد الطريقة التيجانية وإصلاحها[3].

(1) عد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع لسابق، ص143.

(2) فرع من فروع الطريقة التيجانية، تنسب للشيخ حمى الله(1833ـ1943)الذي أراد العودة بالطريقة إلى قواعدها التي أرساها المؤسس احمد التيجاني، انتشرت على طول نهر السنيغال ووصلت إلى النيجر وموريتانيا، ينظر: مبارك جعفري: علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي، مجلة كان التاريخية الالكترونية، العدد 16، 2012م، ص 95.

(3) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص280.

## 3 – دور القبائل المتنقلة في نشر الإسلام

لم تقتصر الهجرة التواتية إلى حواضر السودان الغربي على الأفراد، فقد بادرت كثير من الأسر للهجرة إلى بلاد السودان والاستقرار بها، وأسهمت بذلك بدور فاعل في توطيد الصلات والعلاقات وفي نشر الإسلام والثقافة العربية، خاصة وان الدوافع الرئيسية التي تحكمت في تلك الهجرات هي نشر الإسلام في الأوطان التي ما تزال وثنية، والقيام بمهمة التدريس والإمامة في حواضر السودان الإسلامية، فقد نزحت من توات العديد من القبائل باتجاه جنوب إفريقيا وساهمت في نشر الإسلام والثقافة العربية، ولعل من أشهر هذه القبائل قبيلة كنتة[1]، وقبيلة فلان.

### 3–1 دور قبيلة كنتة في نشر الإسلام

تعتبر منطقة توات الموطن الأول لكنتة في الصحراء، وتذكر الروايات التاريخية أن الشيخ عثمان بن يهس جد الكنتين الذي يتصل نسبه بالفاتح الكبير عقبة بن نافع الفهري، وصل إلى توات وأقام في واحة عزي بمقاطعة فنوغيل، وبعد وفاته خلفه ابنه سيدي يحيى، الذي بدوره خلفه ولده سيدي علي (ق14م/ 15م) والثلاثة دفنوا بتوات، جاء بعد سيدي علي ابنه الشيخ سيدي محمد الكنتي (ق9هـ/ 15م) والذي حملت العائلة اسمه، وفي عهده بدأت هجرة الكنتين إلى الصحراء، عاش هذا الأخير متنقلا بين توات وآدرار بموريتانيا، توفي في إقليم تازيازات، بعد أن خلف ابنه سيدي احمد البكاي (ت909هـ/ 1504م) زعيما للقبيلة[2].

(1) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص146.

(2) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص268.

لعبت قبيلة كنتة الدور الأكبر، خاصة من خلال تبنيها للطريقة القادرية ومزجها بين وظيفة التعليم والتجارة، وتُدين الطريقة القادرية في غرب إفريقيا والصحراء بالكثير للشيخ المختار، فهو من ألَّف جميع الأوراد والأذكار والأدعية المتداولة اليوم بين المريدين وهو ناظم القصائد الصوفية التي يحتفى بها، وقد انشأ الشيخ مدارس كثيرة في منطقة منحى نهر النيجر وموريتانيا والصحراء لنشر الإسلام والطريقة القادرية، وكان يقوم بالإنفاق على الطلاب والمعلمين وتزويدهم بالمواد الغذائية، وورث عنه ابنه سيدي احمد البكاي بودمع تلك المهمة فأوصل هو وأبنائه الطريقة إلى وسط وشرق إفريقيا، وقامت القادرية الكنتية بالدور الرئيسي في الأخذ بيد التكروريين واستكمال مهمة الفتوح السلمية جنوبا[1]، كما عرف عن عض الكنتين التنقل الدائم بين توات وإفريقيا، مما أعطى للعلاقة بعداً آخر، وحلقة اتصال مستمرة، وفي هذا الصدد بقول الكاتب الفرنسي«دفيرييه»: «...أن الطريقة البكائية هي المفتاح من الجزائر إلى تمبكتو .... وانك لا تستطيع أن تعرف هل البكائيون من إفريقيا، أم توات، لكثرة أملاكهم وأتباعهم ولترددهم هنا وهناك...». ذلك هو جزء يسير من بعض ما قامت به كنتة في سبيل الحركة العلمية، وتمتين روابط الإخوة بين توات وإفريقيا، وما يؤكد ذلك الخزائن الموجودة بإفريقيا جنوب الصحراء ومن ذلك الموجودة بالأزواد، فيمكن حصرها كالتالي:

– خزانة آل الشيخ سيدي أعمر بن الشيخ سيدي محمد، وقد تأسست في القرن التاسع عشر الميلادي، وهي موجودة بآدرار أفوغاس.

– خزانة الشيخ سيد المختار التاي بن بابا الزين بن الشيخ سيد أعمر، وقد خلف الشيخ باي في القضاء.

(1) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص153.

– خزانة الشيخ محمد ألامين بن الشيخ باي، وهي خزانة عامرة بالمخطوطات في شتى العلوم والفنون.

– خزانة الشيخ محمد بن بادي، وهي خزانة حبلى بالنفائس والمخطوطات، بحكم أن صاحبها كان من ابرز العلماء وأغزرهم إنتاجا بالأزواد.

– خزانة أهل البكاي ولد سيدي الأمين، وقد قام سيدي محمد امك بن البكاي بنهضتها وتطعيمها بعدد وافر من المخطوطات.

– خزانة أهل سيدي بابا احمد بن الشيخ سيد المختار، وقد أصبحت هذه الخزانة الآن أثراً بعد عين، وذلك بعد وفاة الفقيه الخليفة بن ونو[1].

## 3–2 دور قبيلة فلان في نشر الإسلام

تنسب قبائل الفُلَّان إلى عقبة بن نافع، وقد قيل أن الفُلَّان من ولد جعفر ابن أبي طالب، وقيل من أبناء أبي بكر الصديق، وقد استوطنت قبيلة فلان بلاد شنقيط، وانتقلت بعض فروعها جنوبا إلى بلاد مالي والتكرور والسنغال[2]، وان اختلفت المصادر في أصلهم فإنها تتفق جميعا على أن الفُلَّان من اكبر التجمعات السكانية في إفريقيا، وكان لهم دور كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا على مر العصور، فقد حمل الفُلَّان على عاتقهم كما كنتة، نشر الإسلام والطريقة القادرية في إفريقيا الغربية، ومن ابرز الفلانيين الذين دافعوا عن الإسلام عثمان الفودي الذي ولد سنة 1168هـ/ 1754م، ودرس وتشبع بالروح الإسلامية والثقافة العربية منذ الصغر، ثم انتسب بعد ذلك للطريقة القادرية، تأثر بأفكار الشيخ بن عبد الكريم المغيلي أيما تأثير، وراح ينفذها على ارض الواقع،

(1) حاج احمد الصديق: من أعلام التراث الكنتي المخطوط للشيخ محمد بن بادي الكنتي حياته وآثاره، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 16.

(2) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص 156.

مصلحاً، وداعياً، ومجاهداً، تمكن أثنائها من بناء دولة قوية للفُلَّان في منطقة غرب إفريقيا، تقوم على أسس إسلامية، وتعتمد اللغة العربية لغة رسمية لها، وبفضل حركته الإصلاحية أصبح الإسلام سائدا في غرب إفريقيا، واليه يعود الفضل في أن تصبح نيجيريا اكبر دولة إسلامية في تلك المنطقة[1].

استقرت بمنطقة توات العديد من الأُسَرِ الفُلَّانية، بعضها قدمت من شنقيط والبعض الآخر من التكرور، وترتكز تجمعاتهم بمنطقة زاجلو وقصر تمادنين، وبمنطقة تيدكلت حيث اشتهرت عائلتي بن مالك وأولاد بلعالم. وقد أسست العائلتين مدرسة بساهل اقبلي، ونبغ العديد من العلماء الفُلَّان بمنطقة ساهل اقبلي وساهموا في نقل العلوم والمعارف إلى بلاد السودان، وتشيد كثير من الكتابات بجهود أولئك الذين اثروا السودان سواء من خلال زيارتهم إلى تلك البلاد أو تدريسهم للطلبة السودانيين ومنهم:

الشيخ محمد الحسن بن محمد بن الحاج احمد الفلاني، ولد سنة 1283هـ ببلدة ساهل بأقبلي، من أسرة مشهورة بالعلم والتقوى، اخذ العلم عن عمه العلامة الشهير حمزة بن الحاج احمد والشيخ المختار بن سيد احمد بلعالم، ونبغ في الفقه والنحو والحديث، وفضلا من جلوسه للتدريس ببلدته زار العديد من المناطق الصحراوية، وقضى فترة في مالي يدرس ويجتمع بعلمائها، وأرسى علاقات وطيدة مع علماء السودان[2].

والعلامة محمد عبد الرحمان السكوتي الملايخافي ولد بقرية ساهل سنة 1285هـ، ودرس على مشايخ القرية واستفاد من مجالس الشيوخ حتى برع في علوم الشريعة واللغة، وألف أرجوزة في علم الفرائض وكتاب في علم المنطق، وله مجموعة هامة من القصائد منها ما هو مدح لأهل إينغر اثر انتصارهم على

(1) مبارك بن الصافي جعفري: المرجع السابق، ص276ـ 277.

(2) عبد الله مقلاتي، محفوظ رموم: المرجع السابق، ص163.

الفرنسيين. وقد ارتبط العلامة بعلاقات صداقة مع علماء واعيان أزواد، وأشاد في قصيدة له بفضل قبيلة أبي جبيهة الأزوادية، وجدد خلالها العهد واستعطفهم طالبا الدعاء، وهي قصيدة طويلة في عشر صفحات، وقد عرف المترجم له بدعوته الإصلاحية في ورقلة وعين صالح وفي السودان، إذ شن حملة ضد الخرافات السائدة في هذه المناطق، وظل على عهده داعية مجدداً رغم ما لاقاه من إعراض ومصادمة إلى أن توفي رحمه الله عام 1911م[1].

## الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة نخلص إلى إن العلماء التواتيين الذين نبغوا في مختلف العلوم وذاع صيتهم في الأفاق قاموا بدور بارز في نشر الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء، وقد كانوا يجوبون مناطق الغرب الإفريقي وينهضون بمهام التعليم والوعظ والإرشاد، ويتقربون من الحكام ويرشدون الساسة إلى ما فيه الخير والصلاح، كما أن القوافل التجارية وقوافل الحجيج وتنقل القبائل والأفراد والطرق الصوفية والزوايا، كلها قد شكلت روافد أساسية، ومنابع للحضارة الإسلامية العربية، أمدتها بالحياة والعلوم، ومختلف أشكال التحضر العلمي، ويمكننا القول بان التواتيين كان لهم دور عظيم في نقل حضارة العالم الإسلامي إلى مناطق السودان الغربي الوثنية، ويرجع لهم الفضل أيضا في استمرار مد هذه المناطق بالفقهاء والأساتذة الذين ساهموا في تغذية الشعوب الإسلامية هناك بالثقافة والأفكار الإسلامية، فوقفوا بذلك أمام التيار التبشيري المصاحب للاستعمار الأوروبي الذي كان يخطط لاحتواء هذه المنطقة بكاملها[2].

---

(1) المرجع نفسه، 165،164.

(2) فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص126.

## قائمة المصادر والمراجع

1 – البكري عبد الحميد: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9الى القرن14ه، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلية، 2005.

2 – بوسعيد أحمد: الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ ـ18م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاجتماعي والثقافي المغاربي عبر العصور، إشراف: د. محمد الصالح حوتية، الجامعة الإفريقية العقيد احمد دراية، أدرار، 2012ـ 2013.

3 – بوسليم صالح: جهود أعلام توات في ترسيخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في جنوب إفريقيا جنوب الصحراء، أعمال الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث(1500ـ 2009م)، أدرار، 04/ 05 افريل 2010م.

4 – جعفري مبارك بن الصافي: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، ط 1، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

5 – جعفري مبارك: «علماء منطقة توات وتأثيرهم في السودان الغربي»، **مجلة كان التاريخية الالكترونية**، العدد 16، 2012م.

6 – حوتية محمد الصالح: توات والأزواد، ج1، دار الكتاب العربي، 2007.

7 – طموز عبد الكريم: تحقيق فهرس شيوخ الشيخ سيدي عمر بن الحاج عبد القادر التنلاني التواتي (ت 1152هـ/ 1739م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف:د. بوبة مجاني، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009/ 2010.

8 – مقلاتي عبد الله، رموم محفوظ: دور منطقة توات الجزائرية في نشر

الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية، ط1، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.

9 – مبارك فضيلة: صحوة المغيلي وثورته ضد يهود تمنطيط، أعمال الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث(1500ـ 2009م)، أدرار، 04/ 05افريل 2010م.

10 –الصديق حاج احمد: من أعلام التراث الكنتي المخطوط للشيخ محمد بن بادي الكنتي حياته وآثاره، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

11 –عباس عبد الله: الدور الحضاري لإقليم توات وتأثيراته في بلاد السودان الغربي من القرنيين 9و10ه/ 15و16م، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، إشراف: بشار قويدر، جامعة الجزائر، 2000–2001م.

12 –فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

13 –السعدي عبد الرحمان: تاريخ السودان، مطبعة هوداس، باريس، 1981.

14 –غيثاوي مولاي التهامي: سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، منشورات العالمية للطباعة والخدمات، الجزائر، 2013.

# الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا

أحمد مرتضى
قسم الدراسات الإسلامية والشريعة
جامعة بايرو-كنو-نيجيريا

Abstract
Imam Al-Maghili And His Contribution Towards Formation
Of Islamic Civilization In Hausaland
The paper exposes the contributions of Imam Al-Maghili in structuring Islamic civilization in Hausaland. It also highlights the issues of veracity of Al-Maghili's progeny in Kano and the most arguable issue of being a descendent from the Prophet (pbuh) or otherwise. The alleged meeting of Sheikh Al-Maghili with Imam Suyuti in Hausaland is also brought into the gallery. The paper extends further to examine three hundred years after departure of Al-Maghili and fish out tremendous efforts made by indigenous scholars and the authorities in implementing his teaching. The spectacular efforts made by Sheikh Usman bn Fodiyo and his cohorts who are seen as the followers of Al-Maghili's footstep in all endeavors were unavoidably explained. It is hoped that the paper will serve as a torch for further in-depth researches.

## 1 - المقدمة

يعد الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي من أهم الرواد والعلماء الذين أسهموا في تأسيس الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا. والهدف من هذه الأكتوبة هو التنويه بجهود هذه الشخصية الفذة، والإشادة بما قدمه من العلم والخير إلى بلاد الهوسا. وقد كتب في شرح جهوده كثيرون كان منهم الدكتور حسن إبراهيم غَورْزُو في رسالته في الدكتوراه المقدمة إلى جامعة لندن عام 1972

-The Life and Teachings of Al Maghili With Particular reference to the Saharan Jewish Community.

وكتب الشيخ آدم عبد الله الإلوري بحثا قيما أسماه «الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا». وأدرج باحثون آخرون في تاريخ نيجيريا أو بلاد الهوسا الحديثَ عن المغيلي في كتبهم ومقالاتهم وأوراقهم البحثية. ونستفيد منهم في بحثنا هذا بقدر الإمكان.

و هذا البحث معقود على أربعة مباحث. المبحث الأول مخصوص لموجز تاريخ الإمام المغيلي. والمبحث الثاني يعتني بدور المغيلي في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، بينما المبحث الثالث معقود لشرح المواقف مِن تَقدُّم الحضارة الإسلامية وتطورها في بلاد الهوسا بعد المغيلي. ويتناول المبحث الرابع الأخير أثر هذا الإمام في منهجية علماء الجهاد في تأسيس الدولة الإسلامية، ثم الخاتمة لإجمال أهم النقاط.

و الله من وراء القصد.

## 2 – موجز تاريخ الإمام المغيلي

هو الشيخ «خاتمة الأئمة المحققين، والعلماء العاملين مع البراعة والتفنن في العلوم والصلاح والدين المتين»[1] أبو عبد الله، محمد بن عبد الكريم بن محمد. ولد في قرية من أعمال تلمسان، سنة 828 ه– 1425م على القول الراجح. وعلى مقتضى قول باحثين آخرين إنه ولد في 790 هـ– )وهناك مشكلة في تحديد أمور كثيرة متعلقة بالمغيلي، لعدم التاريخ الضابط لها، لذلك حصلت اختلافات في توريخها). والمؤيدون لهذا القول الأخير– رغم قلتهم– يتشككون في وفاته سنة 909ه1504–م، رغم أنه هو الثابت المشهور[2].

(1) مخلوف، محمد بن محد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت: دار الفكر، د.ت.، (ص/ 274)

(2) Gwarzo, H. I., The life and Teaching of Al-Maghili with particular reference to the Saharan Jewish Community, unpublished Ph.D thesis, University of London,1972, p.30

هناك قولان في تحرير انتساب المغيلي إلى «المغيلة». فعلى حد أحد الأقوال فإنها بلدة عريقة تربى فيها الشيخ المغيلي. وقوله في مقدمة في إفهام الأنجال: «المغيلي نبتة، التلمساني نشأة»- يحتمل ذلك[1]. وذكر الفيروزآدي أن «المغيلة بلد قرب زَرهون». والقول الآخر- وهو أكثر شهرة- أن المغيلة اسم لقبيلة بربرية معروفة[2]، كما حقق ذلك ابن السمعاني ناقلا من أبي محمد بن أبي حبيب الأندلسي[3]. وترجع النسبة إلى إلياس المغيلي البربري، وقد شارك مع طارق بن زياد في فتح الأندلس. وإليها ينتسب صاحب الترجمة، وهو الرقم العشرين من الرجال البارزين الذين أنجبتهم المغيلة[4]. وأكد الشيخ المرتضى الزبيدي على صحة هذا القول قائلا:»والصحيح أن مغيلة قبيلة من البربر، سُمي البلد بهم، كما حققه ياقوت وابن السمعاني»[5].

و لكننا نقف هنا وقفة قصيرة على مدى مصداقية انتساب الشيخ المغيلي إلى النبيﷺ. فلا خلاف بين المؤرخين أن المغيلي منحدر من القبيلة البربرية. وكما أنه شاع في مدينة كنو-حرسها الله- أنه تزوج وأنجب أولادا، تركهم هناك عند عودته إلى بلاده. ولكن هذه النقطة لم تزل تثير تساؤلات كثيرة. فهل تزوج حرة أم تسرى بأمة؟ فإن كان تسرى فقد جرت العادة أن ترافق أم ولد صاحبها حيثما

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of Imam Al-Maghili, p.30-2

(2) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائرمن صدر الإسلام حتى العصرالحاضر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1400هـ1980-م، (ص/ 308)

(3) ابن السمعاني، عبد الكريم بن محمد، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، بيروت: دار الجنان، 1408هـ1988-م، (5/ 355)

(4) مجلة التوحيد المغربية، **ترجمة الداعية المصلح محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي،** http://www.startimes.com/?t=32717485 **(تاريخ الاطلاع: 16 ديسمبر 2012)**

(5) الزبيدي، محمد بن محمد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، 2009، (30/ 411)

كان، وخاصة أن هذه قد ولدت للمغيلي أربعة أولاد. وحتى عدد الأولاد في حدود السنوات الخمس-على أكبر التقدير-التي قضاها في بلاد الهوسا شئ ملفت للنظر غاية، وإن كان غير مستحيل، ولكن أين الدليل! هذا، وإن كانت الزوجة حرة، فمن آباءها وأسرتها، هل هم من العلماء والسراة أو من عامة الناس؟ فالعادة قد جرت أن العالم كحجم المغيلي أن تعرف الأسرة التي تزوج منها، وتفتخر هي بالالتقاء مع هذا الشيخ الجليل! فلم يُسمع بهذا في مدينة كنو، وكل ما هنالك هو انتساب المنتسبين إليه فقط! وما منع الزوجة الحرة أن تصاحبه إلى بلاده ومعها أولادها؟ وما الحكمة أن يترك العلامة المغيلي زوجته عند أهلها ويمضي قدما، وقد زرق معها بأولاد؟ وعلى افتراض أنه طلقها، فما باله لم يفكر في تربية أولاده؟ فهل أوصى بهم إلى أحد من الناس، كما هو عادة العلماء، وخاصة في زمانه؟ ومن هو الموصى إليه تأديب هؤلاء الصغار؟ وهناك فرضية أخرى، أنه ربما يكونون منحدرين من أحد الغرباء العرب، الذين أتوا مع المغيلي، ولم يتابعوه عند المغادرة، حسبما تقول رواية من الروايات الشفهية[1].

وهذه التساؤلات يشعر بها كل طالب علم أو مؤرخ ليصل إلى التحقيق وينفي الشبهات. ولا تعني بالضرورة انتفاء تزوج الإمام المغيلي من أهل كنو بقدر ما تفيد الإجابة الصحيحة عنها على رحابة صدره كداعية في الغربة حتى يتزوج وينجب، ومن ثَمّ تَنُمّ أيضا بقدر وقيمة المعروفين بأحفاد المغيلي وذريته!

و على صحة الإجابة عن هذه التساؤت أو خطإها، تأتي مسألة أخرى في نسبة الشيخ المغيلي نفسِه إلى النبي ﷺ. فإن المعروفين بـ«أحفاد المغيلي وذريته» لم يزالوا في مدينة كنو يعتقدون أنهم من آل البيت النبوي من قِبَل الشيخ المغيلي. وهي دعوى تحتاج إلى تحفظ، ولم يزل طلاب العلم والمؤرخون يدرسون أبعادها بغية الوصول إلى جواب مقنع بالإثبات أو النفي.

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of Imam Al-Maghili, p.35

على أن ما تفيض به كتب التراجم وحتى تصرفات المغيلي نفسه لا يدعّم جانب الإثبات، إذ الشيخ المغيلي-رحمه الله- لم يذكر قط لنفسه أيّ علاقة بنَسب النبي ﷺ، لا من قريب أو بعيد. ولا أدل على انتفاء انتسابه إلى النّسب الشريف مما ذكره في مقدمة كتاب «إفهام الأنجال أحكامَ الآجال»، حيث اعتنى بذكر كل الانتسابات المهمة في نظره، ولم يشر أدنى إشارة إلى انحداره من الذرية الطاهرة. فقال عن نفسه: «الأشعري معتقدا، المالكي مذهبا، المغربي إقليما، المغيلي نبتة، التلمساني نشأة»[1]. - هكذا أثبت، ولم يزد على ذلك، ولو كان ينتسب إلى النبي ﷺ لأظهر النّسبة الشريفة في هذا الكتاب أو في غيره، مما قد وصل إلينا من مؤلفاته، بل لأثبته الذين ترجموا له أمثال الشيخ أحمد بابا في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، وابن عسكر في «دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر»، وابن مريم التلمساني في «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان»، والشيخ حسنين مخلوف في «شجرة النور الزكية»، وغيرهم، غير أنهم-عجبا- لم يعرّجوا على ذلك ألبتة! مع أنهم حريصون - كما هو واضح في كتبهم- في تحلية كل من له انتساب إلى الذرية الطاهرة بها. وهكذا أثبتت بعض المصادر الشفهية أنه عربي، ولكنه غير منتسب إلى النبي ﷺ.[2]

وذكر الدكتور حسن غورزو-رحمه الله- أنه زار أحفاد الشيخ المغيلي وذريته في الجزائر، وسألهم خصوصا عن انتساب المغيلي إلى هذه النسبة الشريفة، ولكنهم - لشدّ العجب- لا يعرفون له ولا عن أنفسهم أي نسبة إلى النبي ﷺ، وينكرون ذلك. بل الذين في الجزائر لا يعرفون للمغيلي ذرية أخرى في مدينة

(1) Ibid, pp.31-33

وكتاب «إفهام الأنجال أحكام الآجال»- يعمل مقدم هذه الورقة على تحقيقه وإخراجه-يسر الله تعالى له ذلك.

(2) Gwarzo, The Life and Teaching of Imam Al-Maghili, p.35

كنو، وشجرة النسبة التي يثبتونها، تخالف شجرة النسبة التي يخرجها «أحفاد المغيلي بكنو»- هذا من جهة. ومن جهة أخرى أن الكنويين لما سألهم الدكتور غورزو أكدوا له عدم معرفتهم بأولئك الجزائريين[1]. وعلى كلّ حال، فإنه ليس بغريب أن ينتسب المغيلي إلى الذرية الطاهرة، ويكون قد تزوج وأنجب أولاد في كنو، فالأدلة الصحيحة هي المثبتة أو المنفية لذلك! وهذه المسائل، على الصعيد الأكاديمي، لم تزل لدى المؤرخين وطلبة العلم رهن البحث والتتبع والمدراسة.

و لم يختلف المؤرخون في نشأة صاحب الترجمة في بلدة تلمسان، حيث بدأ بطلب العلم في بيته، فتتلمذ على يد والده، وحفظ القرآن وقرأ عليه العلوم العربية، وموطأ مالك، وكتاب جامع الأمهات لابن الحاجب (المعروف بمختصر ابن الحاجب)، وكتبا أخرى كثيرة.

ورحل لطلب العلم حسب عادة العلماء في كل العصور. وقد سجل التاريخ أنه رحل إلى بجاية والجزائر، والتقى فيها بكبار العلماء، كان منهم أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الصوفي الكبير (875ه). واشتغل كذلك عند الفقيه محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب التلمساني (ت:875هـ) في الدراسات المعمقة في الفقه المالكي، ختم عليه المدونة مرتين، كما تلقن منه مختصر خليل، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، واستعرض باب الفرائض من مختصر ابن الحاجب لأهميته. وقد وجد المغيلي هذا العالمَ ضلته في هذا العلامة، حيث قد ملئ بالعلوم الإسلامية. فبعد دراسة الفقه، أخذ المغيلي علوم التفسير والقراءات عن الجلاب أيضا. وفي تَمَنْطيطة تتلمذ على قاضيها الشيخ أبي زكريا يحيى بن بدير بن عتيق(ت:877ه). ويذكر بعض المؤرخين تلقيه علوم العقيدة الأشعرية من الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، من

(1) Ibid, p.37

أكابر العلماء المنظرين لتلك العقيدة، لكن الثابت أنه ناظره في بعض المسائل العقدية، وجرت بينهما مراسلات عرفها التاريخ. وكان المغيلي فيها قوي الحجة والبرهان[1].

و تزوج المغيلي بتلمسان من ابنة شيخه الثعالبي، ورزق بأولاد. وتسلم زعامة الإصلاح منذ أن بلغ الأربعين، ولقي من الأذى والوصف بالبدعة، وحب الظهور والرئاسة، وغير ذلك مما لم يؤثر في عزيمته الخالصة، ولا شعر –نتيجة ذلك– بفتور في نيته العالية.

وهذا الإمام من الطراز الذي لا يتغاضى عن منكر رآه أو سمعه حتى ينكره. فكان ينكر على السلاطين انهماكهم في الملذات وعدم المبالاة بما يصلح الرعية. وكثيرا ما يوجه سهامه إلى أمراء بجاية وتلمسان، إذ هو أعرف بهما وبشعبهما. ويشدد النكير على العلماء لسكوتهم عن هذه المخالفات الخارمة للسياسة الدينية. من وجه آخر إنه شاهد تدهور اقتصادات المسلمين ونمو حالة اليهود، فدرس الوضع وأدرك أن مشكلة المنطقة عالقة على تكاثر اليهود هناك، وسيطرتهم على الموارد الاقتصادية، وشراء الأراضي للامتلاك وبناء البِيع ومعابدهم فيها، فثار ضد هذا الوضع المهين للإسلام والمسلمين، وبعث برسائل استفتاء إلى تلمسان، وتونس وفاس في أمر اليهود، وألّف كتابا منظوما ومنثورا، وكتب الفتاوى تلو الفتاوى منكرا لأولياء أمور المسلمين إهمال هذه الحالة. فوجد من العلماء من شايعه وأيّد رأيه، وبعض آخر ينكرون عليه هذا التحرك. وأصدر الفريقين فتاوى وكتبا، كل يحتج لرأيه. ويُعرف هذا في أدبيات

(1) العلمي، أحمد حمدان، نشر هذه المناظرة بعنوان: «في تيار العقيدة السنية بالغرب الإسلامي: نص مراجعات كلامية بين السنوسي (محمد بن يوسف 895هـ) والمغيلي (محمد بن عبد الكريم 909هـ)، في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة سيدي محمد ن عبد الله فاس، عدد خاص :3، 1988، (ص/ 169–239)

فقه النوازل المغربي بـ«نازلة تُوات»[1]. – فكل هذه من العوامل التي أثارت حفائظ بعض العلماء والسلاطين ضده، فوجهوا إليه الاتهامات التي هو منها براء!

وقد حبّب إليه كثرة الجهاد والرباط في الثغور والترحال منذ صغره، وعلى الرغم من ذلك، فلعل تلك المخازي التي لازمت سلاطين زمانه وعلمائهم مما أثر في المغيلي، فارتآى أن يترك لهم الساحة، وينطلق في الدعوة والتعليم والإرشاد نحو البلدان القريبة أمثال أسملال وأولف، وتمنطيطة وزاوية كونتة وفتوغيل، فتجوّل وطاف الصحراء، ثم توجه شرقا حتى أدى فريضة الحج، ومن بعد ذلك انحدر منه حتى بلغ بلاد السودان الغربية. وطاف بكبرى بلدانها وعواصمها أمثال جاو–Gao– (في جمهورية مالي حالياً). ودخل تَكَدَّة، والجرما وتساوة –Tessaoua–، وزندر –Zinder–، وساي –Saye–(كلها واقعة في جمهورية النيجر حالياً)[2]، وحوالي 1488م تقدم إلى بلدة كتسينا، ومنها إلى مدينة كنو، اللتين هما قلب بلاد الهوسا في شمال نيجيريا.

وبعد مكوث طويل في كنو عاد على أدرجه حوالي 897هـ– 1492م، رغم أنه ليس هناك تحديد للوقت أو الكيفية التي ترك فيها المغيلي هذه البلاد العريقة، التي ظل فيها بضعة أعوام مشتغلاً بالدعوة والوعظ والتدريس والقضاء والفُتْيا

---

(1) تحدث الدكتور حسن غوزو عن هذه الحادثة في أطرحته لنيل درجة الدكتورة:
The Life and Teaching of Imam Al-Maghili

و أجرى كاتب هذه الورقة بحثا آخر مقارنا فيه بين آراء الشيخ المغيلي ومعاصره الدكتور مارتن لوثر في إجلاء ومعاقبة اليهود المحتلين ببلديهما، بعنوان:
The Persecution of the Jews in 16th Century C.E.: An Analysis of Sheikh Al-Maghili and Dr. Martin Luther's Views

(2) الودغيري، عبد العلي، ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد الرابع، 1419هـ1998–م، (ص/ 29)

وبَذَل النصح لأمرائها وأولي الأمر فيها. ولكنه رجع إلى تكدة وتنقل بينها وبين جاو (غاو)–Gao–، والتقى فيها بأسكيا محمد الحاج الذي رأى في المغيلي العلم والتقوى والكفاءة، فسأله عن بعض أسئلة متعلقة بالسياسة، فكتب له رسالة الأجوبة المعروفة. وبقي هناك حتى بلغه قتلُ اليهود ولدَه، فرجع إلى توات، وجمع الجموع، وحض الناس للمرة الثانية على إجلاءهم عن أراضي المسلمين. وتمّ له ذلك[1]، واستولى المسلمون على تمنطيطة وتوات استيلاء كاملا في 1503م. وقد سجل له التاريخ هذه المواقف الجميلة في إجلاء اليهود. واستقر في توات إلى وفاته 909ه1504–م، عن واحد وثمانين عاما، ودفن في بلدية زاوية كونتة – رحمه الله تعالى رحمة واسعة–.

ولا ريب أن إماما كهذا، الذي أخذ عن الكثيرين وتجول في العالَم، وخاصة الحجاز وشمال إفريقية وغربها أن يكون له تلاميذ كثيرة. نذكر منهم الشيخ عبد الجبار الفجيجي، والشيخ العاقب بن عبد الله الأنصمني، والفقيه أيد أحمد، وهو الذي حضه المغيلي على زيارة بلاد الهوسا بعد مغادرتها، وغيرهم.

وقد خلّف الشيخ المغيلي قرابة أربعين مؤلفا في شتى الفنون والعلوم الإسلامية والعربية[2]. والثمانية الأولى منها موجودة، وبعضها مطبوع. وأما الباقية فلم نعثر عليها لحد الآن:

1 – أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي.

2 – إفهام الأنجال أحكامَ الآجال.

3 – تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار. ويطلق عليه أيضا «أحكام أهل الذمة».

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of Al-Maghili, p.73

(2) Ibid, p. 307-8

4 – تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين.
5 – مناظرة بينه وبين الشيخ السنوسي محمد بن يوسف في التوحيد.
6 – مصباح الأرواح في أصول الفلاح.
7 – منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب، وهي منظومة في علم المنطق
8 – وصية المغيلي إلى محمد بن يعقوب، أو ما يطلق عليه تارة بـ «ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام». كتبها في عام 897هـ.
9 – البدر المنير في علوم التفسير.
10 – تفسير الفاتحة.
11 – مفتاح النظر في علم الحديث.
12 – شرح مختصر خليل سماه مغني النبيل .
13 – حاشية على مختصر خليل.
14 – تنبيه الغافلين عن مكر الملابسين بدعاوي مقامات العارفين.
15 – مختصر تلخيص المفتاح في علوم البلاغة.
16 – إمناح الأحباب من منح الوهاب، وهو شرح على المنظومة المذكورة
17 – شرح على جمل الخونجي في علم المنطق.
18 – قصيدة عارض بها البردة.
19 – فهرسة شيوخه.
20 – المنظومة في أمر اليهود، وغير ذلك.

ونختتم هذا المبحث بتفنيد ما أشيع من التقاء الشيخين السيوطي والمغيلي ببلاد الهوسا. وأصحاب هذا الرأ ي يقولون إن الإمام السيوطي زار بلدة كتسينا فالتقى مع المغيلي وتباحثا في شرعية علم المنطق كما هو رأي المغيلي أو بدعيته كما هو اختيار السيوطي، وجرت بينهما مراسلات ومناظرات. وهذه الدعوى ساقطة. صحيح، أنهما تراسلا في شرعية علم المنطق، ولكن لم يحدث ذلك في

بلاد الهوسا. ويكفي في سقوطها أن الشيخ السيوطي الذي هو عالم معروف، صاحب التصانيف المعروفة، وذو مكانة في نفوس طلبة العلم في عصره وما بعده، لو أنه وفد إلى بلاد الهوسا لما خفي أمر قدومه. كيف ولم يخف قدوم الشيخ المغيلي، ويخفى حضور السيوطي الذي ملأ الدنيا تصانيف وفتاوى؟! وحتى المراسلات التي تمّت بين الشيخين تدل على عدم قدومه، لأن كافة المؤرخين قد أثبتوها، بينما لم يشيروا إلى مجيئ السيوطي، ولا التقاءهما في هذه البلاد. وهي دلالة أكيدة وكافية! وفوق ذلك أن الشيخ السيوطي أثبت أن هذه المراسلة-كما استنتج الدكتور غورزو من بين مقدمة صون المنطق وسائر الوثائق- كانت في عام 1464م (868ه)[1].

ولحد الآن لم يستطع الباحثون المثبتون لزيارته تقديم أي دليل ملموس يدل بالوضوح على التقاء الشيخين: «في بلد من البلاد التي تعرف اليوم باسم نيجيريا»[2]. وكل ما يستندون إليه هو «زعموا»، و«القيل والقال»-كما يقول الشيخ آدم عبد الله الإلورى الذي هو من أكابر من يحاول إثبات التقاءهما[3]، بغير برهان تاريخي قاطع! صحيح أن السيوطي بعث رسالة النصحية والتشجيع إلى أمراء بلاد التكرور، وإلى أمير كتشينا. ولكنه لم يثبت ما يؤكد حضوره شخصيا إلى هذه البلدان!

---

(1) السيوطي، صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام، تحقيق الدكتور على سامي النشار والسيدة سعاد علي عبدالرزاق، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، (1/ 33)، وGwarzo, The Life and Teaching of Al-Maghili, p.303

(2) الإلوري، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، مصر: مطبعة مصطفى البابي، ط الأولى، 1394هـ1974-م، (ص/ 16)، والإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، ط الثالثة، 1398ه1978-م، (ص، 89)

(3) الإلوري : الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي، (ص/ 24)، وكذلك في الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو، (ص/ 89)

ولفظة «بلاد التكرور» كما هو معلوم شاملة لبلدان أفريقية، وليست تعني بلاد الهوسا وحدها. وقد حقق بعض الباحثين ببراهين ناصعة أن المراسلة بين الشيخين كانت قديمة جدا[1]، بمعنى أن المناظرة كانت قديما قبل قدوم الشيخ المغيلي إلى هذه الأراضي، حيث كان كل واحد منهما يقطن بلدته. وإذ قد جرى آنذاك تبادل الرسائل والمناقشات العلمية بين العلماء، وتباعد الديار وشسوع الأمصار، لم يمنع طلاب العلم من التواصل.

## 3 – دور المغيلي في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا

شيئان لابد من تجليتهما قبل الخوض في شرح مساهمات الشيخ المغيلي في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا. وهما حدود «بلاد الهوسا»، وكلمة «الحضارة».

أما بلاد الهوسا فتقع في غرب إفريقيا، وتمتد منطقتها شمالا إلى حدود أهير وتكدة من دولة النيجر، وجنوبا إلى ضفة نهر بِنْوَي على حدود بلاد جُكُن في شمال نيجيريا، وامتدت شرقا إلى حدود باغِرْمَ من أرض برنو، وغربا إلى نهر نيجر في بلاد نُوفَي من شمال نيجيريا[2]. وهذا – في الماضي – يتضمن كبريات المدن أمثال زَنْفَرا، وصكتو، وكبّ، وكَنو، وكتسينا، وزاريا، وزَمَغَرَم، وأقدس، وضواحي هذه البلدان. وتشمل اليوم كافة البلاد الواقعة في شمال نيجيريا الناطقة بلغة الهوسا، وتمتد عرضا إلى جنوب جمهورية النيجر حاليا.

وصلة هذه البلاد بالإسلام قديمة جدا، يُرجعها بعض المؤرخين إلى القرن

(1) Gwarzo, H. The life and Teaching of Al-Maghili pp 303-304

(2) غلادنث شيخو أحمد سيعد (الدكتور)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، القاهرة: دار المعارف، ط الأولى، 1982م، (ص/ 40)

الثاني الهجري[1]، ثم ازدادت الصلة قوة خلال القرون التالية. وعلى رأي الشيخ أحمد بَابَ التنبكتي أن بلاد «برنو»، و«كنو»، و«كتسينا»، و«زكزك» قد أسلم أفراد من أهلها منذ القرن الخامس الهجري عن اقتناع بتعاليم الإسلام من غير استيلاء[2].

ويرجع الفضل في انتشار الإسلام في بلاد الهوسا بعد القرن الخامس الهجري إلى التجار المتجولين، الذين أوصلوا هذا الخير إلى هذه المنطقة. ويُذكر أن الوناكرة جاءوا من مالي إلى كَنو حوالي (835هـ - 1431م)[3]، فنشروا تعاليم الإسلام على نطاق أوسع، وعلموا الناس العبادات على المذهب المالكي[4].

وأما كلمة الحضارة فإن لها تعريفات وتصورات عدة. نذكر بعضا منها. قال ول ديورانت - Will Durant-و هو يعطي المفهوم العام للحضارة أنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي». ويرى أن وجدان مجموعة ثمانية أمور في أمة من الأمم كفيلة أن تجعل تلك الأمة ذات حضارة. وهذه الثمانية الأمور هي: الاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، والقيم، والعلم، والفلسفة، والأدب، والفن.

وعلى ذلك، فإن الإسلام نظام للحياة كلها، وحضارته ترافقه مرافق الظل

(1) الطرازي عبد الله مبشر، انتشار الإسلام في العالم في 46 دولة آسيوية وإفريقية، جدة: عالم المعرفة، ط الأولى 1406هـ1985-م، (1/ 128)

(2) ابن فودي عبد الله، ضياء السياسات وفتاوى النوازل، تحقيق شيخو عمر عبد الله، كنو:مكتب توفا التجارية، د.ت، (ص/ 58)، والإلوري آدم عبد الله، الإسلام في نيجيريا، بدون مكان الطبع، ط الثانية 1398هـ1978-م، (ص/ 32)

(3) رايباباري عثمان، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، القاهرة: دار الأمين، ط الأولى، 1421هـ2000-م، (ص/ 85-86)

(4) Chamberlin, J.W. The Development of Islamic Education In Kano City, Nigeria With the Emphasis on Legal Education In the 19th and 20th Centuries, unpublished Ph.D thesis, p 52

لصاحبه. ولذلك عرف بعض الباحثين الحضارة بالنسبة للإسلام أنها:»ما قدمه الإسلام للمجتمع البشري من قيم ومبادئ وقواعد ترفع من شأنه، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي، وتيسر الحياة للإنسان»[1]. وقال بعضهم: «هي الجهد الذي يقدمه مجتمع من المجتمعات لخدمة المجتمع البشري في جميع نواحي حياته المعنوية والمادية»[2]. قال الأستاذ طارق سويدان: الحضارة «هي المنهج الفكري لأمة المتشكل في إنتاجات معنوية ومادية». ومجموع هذه المعاني تدل على أن كلمة الحضارة شاملة لكل ما يحفظ كيان المجتمع ويفيده وينميه ماديا ومعنويا.

وفيما يلي شرح لمساهمات الإمام المغيلي في تأسيس الحضارة الإسلامية من جانبيها المادية والمعنوية في بلاد الهوسا. وهي ستة أمور:

**1 – ترسيخ العقيدة والدين**: الحقيقة أن الإسلام كان قديما في بلاد الهوسا، وقد تركت الاحتكاكات التي دامت بينها وبين برنو وسنغاي وتنكبت آثارا كثيرة على هذه بلاد[3]، وليس الإمام المغيلي هو الذي جاء بكل شئ، غير أن مجيئه كان له أثره الإيجابي في إظهار القيمة والأثر البالغ لتعاليم الإسلام التي بلغت البلاد وثَوَت فيه من قبل. ومن جانب آخر، إن الناس يعيشون فوضى من غير تطبيق الشريعة الإسلامية، وحفظ حدودها، فجاء هذا العالِم وقدح زناد الإصلاح، وفعّل ما يحتاج إلى التفعيل لتطبيق شرائع الدين.

---

(1) الحضارة الإسلامية– ضمن موسوعة الأسرة المسلمة، على هذا الرابط: www.islam.al-jayyash.net/encyclopedia/book-7-1 (يوم الاطلاع 1 مايو 2013)

(2) مبخوت الوصابي، مفهوم الحضارة، على هذا الرابط: from-ar.yialarabic.net/t416.html (يوم الاطلاع: 1 مايو 2013)

(3) Trimingham, J.Spencer, A History of Islam in West Africa, London: Oxford University Press, 1963, p.132

زار الشيخ المغيلي كتسينا في عهد الأمير علي الملقب بـ «المرابط» (1496-1521م)[1]، فجدد له تعاليم الدين وأمره بالعدل والاستقامة، ونهاه عن اقتراف السحر والاستعانة بالكهانة. وهذا هو الواقع، لأن ما تتناقله الشفاه من أن الأمير أسلم على يديه فليس بالحقيقة!.

وفور وصول المغيلي إلى بلدة كتسينا أرشد الأمير إلى بناء المساجد في أماكن تجمع الناس. ومسجد في الحارة المعروفة بـ «غُوبُراوا» من أوائل ما بُني في ذلك الحين. واشتغل بمشاروة الأمير بما يصلح عقيدة المجتمع ودينهم[2].

وعندما حل عصا الترحال بمدينة كنو أبطل البدع والعبادات الوثنية المتبقية في قلوب الناس. وقد كان بعض الناس يقدسون بعض الأشجار والأحجار والتلال لحد العبادة، فنهض بنفسه وهدمها، وبنى على أنقاضها مساجد، وقد أعانه على ذلك الشيخ عبد الرحمن الزيتي الذي زار مدينة كنو بعد مجيئ المغيلي إليها بثلاثة أيام فقط[3].

ومن نتائج زيارة المغيلي لمدينة كنو أن حض أميرها محمد بن يعقوب المعروف بـ«رُمْفا» على إقامة صلاة العيد جمعا، وحضه على احتجاب نساءه، وبالاستقرار في بيوتهن وعدم التجوال بغير حاجة ماسة[4]، وقد ظهرت ثمرة ذلك سريعا حيث تأسى به -كما هو واضح- شعبه في ذلك. وبقيت عادة مستمرة في مدينة كنو إلى اليوم.

(1) Usman, Yusuf Bala, The Transformation of Katsina 1400-1883, Zaria: Ahmad Bello University Press, 1981, p.68

(2) Bugaje, Usman Muhammad, Some Reflections on the Development of Islamic Learning in Katsina (1300-1800 AD), in Islam and the History of Learning in Katsina, ed. by Isma'il A. Tsiga and Abdalla U. Adamu, Ibadan: Spectrum Books Limited, 1997, p.79

(3) Gwarzo, The Life and Teaching of Al Maghili, p.73

(4) Muhammad al Hajj, A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Missionary of Activities of the Wangarawa, Kano Studies, I/IV, Kano 1965, p.4

**2 –العلم والفكر**: وقف الشيخ المغيلي أوّل مجيئه إلى هذه البلاد على أرض كتسينا، وأسس فيها مسجدا ومدرسة[1]، ثم انحدر إلى مدينة كَنو في عشرة أشخاص من تلاميذه، معهم من الكتب عدد غير قليل[2]. ومكث فيها طويلا، بنى فيها المدارس العلمية للدراسات الإسلامية والعربية، وقام هو بتدريس الناس العلوم المختلفة. ذكر الشيخ أحمد بابا التنبكتي الآثار العلمية لهذه الزيارة، قال:«دخل بلاد كنو وكَشِنَ من بلاد السودان، واجتمع بصاحب كنو، واستفاد عليه، وكتب رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع، وأمره بالمعروف ونهى عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده»[3].

و بحكم كونه فقيها متضلعا، يكون علم الفقه من أبرز ما يهتم به في التدريس، فانتفع به طلاب العلم، واستنارت البلاد بعلومه. ويذكر المؤرخون أن الإمام المغيلي ربى رجالا حتى أصبحوا هم المرجعية لأهالي بلاد الهوسا، ترك قرابة ثلاثمائة عالم متضلع في مدينة كنو وضواهيها قبل مغادرته[4]، الأمر الذي أنتج أرضية خصبة للإنتاج العلمي والثقافي في بلاد الهوسا عامة فيما بعد.

و كان من ثقوب فكر هذا الإمام، وفقهه للواقع أنه لما مكث بلاد الهوسا درس أوضاعها دراسة أمكنته من فهم خصائصها واتجاهات أهلها، الأمر الذي أداه إلى إصدار الفتاوى للنوازل الواقعة في هذه البلاد بما يناسب ما شاهد

(1) Gwarzo, H. The life and Teaching of Al-Maghili, pp 66-67;
Zahradeen, M.S., Abd Allah Ibn Fodio's Contributions to the Fulani Jihad in Nineteenth Century Hausaland, Unpublished Ph.D thesis Mc Gill University,1976, p. 107

(2) Smith M.G., Government In Kano 1350-1950, USA: Westview Press, 1997, p. 135

(3) التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق طلاب من كلية الدعوة الإسلامية بليبيا تحت إشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية، ط الأولى، 1989م، (ص/ 577)

(4) Clarke, Peter B., West Africa and Islam: A Study of Religious Development from 8th to the 20th Century, London: Edward Arnold, 1984, p.64

وتحقق من أوضاعهم. ومثال ذلك أن فتواه في التعامل مع غير المسلمين تنصب على مقتضى الأحوال، حرم -بشدة- التعامل مع اليهود في توات، ولكنه أباح التعامل مع المجوس في مدينة كنو شريطة أن يمتنعوا من إظهار الشرك، وأكل الحرام وشرب الخمور أمام المسلمين[1].

**3 -السياسة الشرعية**: على الرغم من انتشار الإسلام في هذه المنطقة، ولكن لم تقم له دولة فيها، فانصب المغيلي اهتمامه على تكوين دولة إسلامية. فعندما كان في كتسينا حثّ أميرها على إقامة السياسة الشرعية. وأمره بنصب القضاة وبناء المحاكم. بل إنه غيّر مجري حياة الناس حتى في الزواج ومراسمه. وقد حاول في حدود استطاعته أن تصطبغ بلدة كتسينا بالصبغة الإسلامية. ويرى كثير من المؤرخين أن المغيلي هو الذي استقدم تلميذه الشيخ محمد بن أحمد بن محمد التازختي من جملة من حضهم على المجيئ إلى هذه البلاد، ليستكملوا ما بدأه، وقد حقق الكثير منهم أمنية الشيخ. ولما أتى التازختي اشتغل بمصب القاضي بكتسينا. ومكث هناك برهة من الزمان إلى وفاته (ت:1529م)[2].

وفي مدينة كنو قام المغيلي بنصب قاضي القضاة، وإمام لصلاة الجمعة. واختار لهذين المنصبين رجلين من أهالي كنو لكفاءتهما. فنصب الشيخ أحمد للإمامة، والشيخ عبد الله للقضاء بعد التحقق من علمهما وأمانتهما[3].

وأمنية الإمام المغيلي في اجتهاده في بناء الدولة الإسلامية قد تحقق في مدينة كنو أكثر منه في كتسينا. لأنه ازداد معرفة بطبيعة البلاد وأمراءها وشعوبها. وقد طاب له المقام بمدينة كنو كثيرا. ولا ريب أن مكوثه فيها مدة وفّر له فرصة

---

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of Al Maghili, p.263

(2) التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج، (ص/ 335)

(3) Muhammad al Hajj, A Seventeenth Century Chronicle, p.29

زائدة لإمضاء بعض الإجراءات وتنظيم الشئون الدينية. بل إنه ترك فيها بعض الذراري كما هو شائع، وخلف بعض الآثار أيضا من مصحف وهِراوة (عصا)، ومسبحة- على ما يقال!(1)

وكان من آثاره في مدينة كنو اجتهاده في كتابة القانون العام الذي يحكم البلد، لأن الإمارة فيها شاخصة، والناس منصاعون لها بالطاعة. فطلب منه أمير كنو محمد رمفا-رحمه الله- أن يكتب له عن نظام الإسلام في الإدارة فكتب له «وصية المغيلي إلى محمد بن يعقوب». وأما «تاج الدين فيما يجب على الملوك» فليس فيه ما يدل صراحة أنه ألفه تلبية لطلب أمير كنو، غير أن الكتاب تضمن الدستور الكامل للسياسة الشرعية. والظاهر أنه كتبه قبل وفوده إلى كنو، فيكون مما استنار به أمير كنو في تنفيد الشريعة. ولعل الوصية طلب منه الأمير كتابتها خاصة له لما استتبت الأمور، وحان مغادرة المغيلي للمدينة، فأراد الأمير أن يجد ما يكون عونا له، ويزكي عزيمته مجددا لتطبيق الشريعة. لأن تاريخ كتابة الوصية يشير إلى 897ه1492-م يعني بعد ستة أعوام فقط من حضور المغيلي إلى بلاد الهوسا. وعلى أية حال، فقد اشتملت هاتان الوثيقتان على المطالب العالية بالنسبة للإجراءات اللازمة لتطبيق الشريعة على مدينة كنو وضواحيها.

وبعد كتابة القانون العام وتنظيره حثّ الأميرَ -من الناحية التطبيقية- على نصب المحاكم وتولية القضاة، وتوطيد أركان القضاء. وكان يشرف عليه هو نفسه. ويحضر المحكمة التي يتولاها الأمير. ولم يزل أحفاد المغيلي لهم مجلس خاص فيها إلى اليوم.

**4 - اللغة**: اللغة العربية هي لغة الإسلام بلاريب، ولا تزال ترافقه مرافقة الظل للشخص. وحيث استقبل الناس الإسلام دينا، فإن لغته تنمو فيهم بقدر اهتمامهم بدينهم. لذلك لمّا أصبحت الشريعة هي الحاكمة للحضارة في بلاد

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of al-Maghili, p.69

الهوسا، انتشرت اللغة وتوسع الناس في الدراسات العربية. واتخذت الدولة اللغة العربية لغة علم وإدارة. واستغلها الشعب فأوجد طريقة الكتابة المعروفة بـ«عَجَم»؛ وهي تقييد الكلام الهوسوي بالحرف العربي. لم يزل «عَجَم» مستعملًا في بلاد الهوسا لحد الآن. وبعد تأسيس الدولة في صكتو، وانتشر العلم كثيرا توسع الناس في استعمال «عجم». لأن علماء الجهاد لجئوا إلى الكتابة بها لإيصال الرسالة الإسلامية إلى الناس[1].

**5 –الحرية والعمل**: تَنَشّق الناسُ عبيق الحرية بمجيئ الإمام المغيلي إلى بلاد الهوسا، لأنه علّم الأمراء والملوك الأسس الشرعية العادلة في تعامل الرعاة مع الرعية. فقد كان الناس تحت وطأة الظلم والجهل والعبودية المطلقة لغير الله تعالى فأنقذتهم تعاليم الميغلي، حيث ذكر للولاة ما لهم وما عليهم. فعاش الناس في فسحة لم تحتجب عنهم الأمراء، واطمأنوا في تصرفاتهم من غير خوف قهر سلطان، ولا تعنت أمير. وبذلك نشأت حضارة إسلامية مثّلت تعاليم الإسلام بقدر وسع الولاة والشعب. ونهض الناس للعمل واكتساب ما يحقق لهم العيشة الحميدة، ومساندة أهاليهم وذويهم والعمل للآخرة.

**6 –التآلف والجماعية**: حضور الإمام المغيلي إلى بلاد الهوسا أوقف لحد ما التناحرات والحروب التي كانت طاحنة بين المماليك والإمارات قبله؛ حيث تحارب مدينة كنو بلدة كتسينا[2]، وتحارب هذ الأخيرة بلدة كَبّ، وهكذا. ومجيئ المغيلي وحّد الناس في بلدان الهوسا وأعاد إليهم روح التعاون والمحبة. ولا أدل على ذلك مما ثبت أنه لما سمع أهل كنو بقدوم الشيخ المغيلي من كتسينا

(1) Gerard, A.D., African Language Literatures: An Introduction to the Literature of Sub Saharan Africa, UK: Longman Group Ltd, 1981, p58

(2) Hodgkin, Thomas, Nigerian Perspective: An Historical Anthology, London: Oxford University Press, 2nd ed, 1975, p.114-5

خرجوا مع أميرهم، وتجمعوا لقبول هذا الحبر العظيم من خارج سور المدينة[1]. وتوقفت الحرب التي كانت دامية بين البلدنين آنذاك!

ومن ناحية أخرى أن الشيخ المغيلي قادري من حيث المشرب الصوفي، لذلك يُعزى إليه-خطأ- الدعوة إلى الطريقة القادرية ضمن مشروعاته التي أخرجت به من بلاده. ولاريب أنه يستخدم تجمّع الناس عنده ليربط بين محبيه في كتسينا وكنو وحيثما كان بالانخراط في سلك هذه الطريقة، التي كان الشيخ عثمان يفتخر بوصول سلسلة إسنادية من المغيلي إليه، لقنه هذه الطريقة الشيخ جبريل بن عمر-رحمه الله تعالى- بالسند المتصل إلى المغيلي.

## 4 - الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا بعد المغيلي

هناك قرابة ثلاثة قرون كاملة بين مغادرة المغيلي بلاد الهوسا وبين قيام الدولة الصكتية على يد الشيخ عثمان بن محمد فودي (من 1492 إلى 1804م). وقد غطت هذه الدولة عند قيامها مساحة شاسعة تقدر بـ 150ر000 ميلا مربعا[2]. ولا ريب أن مدة ثلاثة قرون كافية لوجود التحولات الكثيرة في جميع الأصعدة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في البلاد. لأن العوامل والشبهات التي تدفع بالناس إلى تغيير مجرى الحياة متعددة، وخاصة، أن المجتمعات ما زالت آنذاك مختلطة، المسلمون مع غيرهم، والشبهات خطافة. والناس أكثر ما يهملون الخير، ويتمسكوا بالأهواء. وعلى الرغم من المشكلات

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of al-Maghili, pp.62-3

(2) كاني، أحمد محمد، حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي: الاستراتيجية-المنهجية-الأهداف، ضمن بحوث الندوة العالمية يعنوان: «الشيخ عثمان بن فودي (دان فوديو)، التي عقدتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة احتفاء بذكراه، الخرطوم: 26-28 جمادي الآخرة 1416هـ19--21 نوفمبر 1995م، (ص/ 26)

المنتشرة هنا وهناك، فأن الحضارة الإسلامية قد تنامت زيادةً على الحالة التي تركها الشيخ المغيلي، وقوي سوقُها في هذه البلاد.

أما من الجانب السياسي فقد تحمس كثير من الأمراء والسلاطين في إقامة الدولة المتمشية على قواعد الشريعة الإسلامية والعدل في محاكمة الناس والتعامل معهم. صحيح أنه ليس كل الأمراء امتثل الطريق التي شرحها المغيلي في كتبه ووصاياه، وخاصة في القضايا المتعلقة بجمع الأموال وتوزيعها، غير أن الأكثرين منهم اجتهدوا في التوفيق بين الحالة الاجتماعية والسياسية لتسيير دفة الإمارة. وإذا تأملنا التاريخ نرى هيمنة القصور في التعامل والهمجية السياسية في حالة الابتعاد عن تعاليم المغيلي. ويظهر ذلك جليا فيما أدّى إليه انعدام روح التآلف والجماعية والعودة القهقرى إلى الجاهلية الأولى في إغارة بعض البلدان على بعض، كما وقع بين كتسينا وكنو بعد مغادرة المغيلي بسنوات[1].

ويذكر التاريخ التقدم البارز الذي أحزته بلاد الهوسا بعد المغيلي، إذ بعد وفاة أمير كتسينا عَلِيّ المرابط الذي تعاون مع المغيلي في صناعة الحضارة الإسلامية تولّى محمد كُورَو، وبعده أمّروا إبراهيم ماجي، فهذان كانا متحمسين في تطبيق الشريعة وحمل شعبهم على مقتضاها، حتى إن بعض الباحثين أمثال الدكتور حسن غَورزُو يظن مجيء المغيلي في عهد إبراهيم ماجي[2] لكثرة اعتناءه بتعاليم الدين وتطبيقها. فقد ثبت أنه كريم جدا، وأصدر مرسوما يُنادى به في الناس أن يحافظ الناس على الصلوات، كما أحدث مشروعا يسّر به أمر الزواج للعزاب[3].

(1) Usman, Y.B., The Transformation of Katsina, p.26

(2) Gwarzo, The Life and Teaching of al-Maghili, p.63

(3) Usman, Y.B., The Transformation of Katsina 1400-1883, p. 25

وهذا-بلا شك- أثر من آثار تعاليم المغيلي. ويظهر الاقتراب من هذه التعاليم وضوحا في عهد أمير كنو المعروف بـ«كِسُوكِي» Kisoki (1509 – 1565م)، الذي أصبح أميرا بعد مغادرة المغيلي بلاد الهوسا بسبع سنوات. وتميز عهده بتدفق العلماء من أنحاء أفريقيا إلى مدينة كنو. هذا، وبالإضافة إلى ما يقوم به هذا الأمير من إقامة العدل، وبناء المساجد وحمل الناس على الصلاة، الأمر الذي يدل على توسيع دائرة المسلمين داخل مملكته، فإنه هو أوّل من خرج للجهاد في سبيل الله دفاعا عن الحوزة ونشر الدين بعد المغيلي. وهذه الشعيرة الدينية كانت مما حث المغيلي الأمراء على تنفذيها مهما سانحت لهم الفرصة. وبحق يعد إحياء شن الغارة على الكفرة بهدف الجهاد من محاسن ذلك الأمير، وسائر أمراء كنو الذين أتوا بعده فضّلوا الدعوة بالقلم والحوار العلمي في نشر الإسلام. يضرب المؤرخون مثلا بأمير يعقوب. فقد ابتعد الإمارة بتة بعد توليه إياها مدة أربعة أشهر، ثم انعزل منخرطا في طلاب العلم، وكرس حياته في طلب العلم والوعظ وإرشاد الناس[1]، لأن ذلك – في نظره- أضمن له في الخدمة للدين، وأيسر طريقة للتخاطب والتعامل المباشر مع الناس، وأسرع في التأثير فيهم!

وكذلك أمير كنو المشهود له بالصلاح أبو بكر كادو-Kado- (1565-1573م). فقد كان زهيدا جدا في الإمارة، ويفضل التعبد أكثر من الاشتغال بشؤون الدولة، ويعظ وزراءه ويحضهم على التعفف والعبادة. بل إن الأمير نفسه كان يعتني بتلقين أولاده السبعة القرآنَ الكريم، وفرض على كل فرد منهم تلاوة حزب كامل بعد صلاة الصبح. وبنى بجوار القصر الملكي مدرسة عظيمة يغدق عليها لتدريس القرآن وسائر العلوم الإسلامية[2].

(1) Clarke, West Africa and Islam, p.64

(2) Ibid, p.64

و«باستثناء علوم اللغة من نحو وبلاغة وصرف، المسماة بالعلوم اللسانية، التي لا يستطاع فهم الإسلام فهما صحيحا إلا بها، أقول باستثنائها فإن علم الفقه من أكثر العلوم الشرعية طلبا وتعلما في بلاد الهوسا، ولم تزل له مراكز معروفة، اشتهرت بالمهارة في هذا العلم. ذكر الشيخ أحمد بابا أن جده أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي(ت:943هـ) المعروف بـ«الحاج أحمد»، زار بلاد الهوسا حوالي (890هـ1485-م)، ومكث مليا في كَنو مدرّسا فيها، وحقيق بعلم الفقه أن يكون من مواد التدريس، لأنه هو وأخوه محمود بن عمر بن محمد أقيت قد قاما بجهود عظيمة في نشر كتب الفقه، وخاصة المدونة الكبرى ومختصر خليل. وقاما كذلك بتدريس هذه الكتب حيثما سنحت لهما الفرصة في البلدان السودانية[1].

وجاء من مصر عالم مغربي يسمى عبد الرحمن السقيم- وهو تلميذ ابن غازي أبي عبد الله محمد بن أحمد(ت:917هـ) المشهور بمعرفة الفقه وأصوله-، وحط ذلك العالم المغربي رحله في مدينة كنو، ولا ريب أن هذه الزيارة لا يعدم منها فائدة علمية في مجال الفقه[2].

والفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي المعروف بـ«أَيْدَ أحمد»- «بهمزة مفتوحة، وياء ساكنة، فدال مفتوحة، مضاف لاسم أحمد؛ معناه ابن. كان فقيها، عالما، فهّاما، محدِّثا، متفنِّنا، محصِّلا، جيّد الخط، حسن الفهم، كثير المنازعة»، - أقول- توطّن هذا الشيخ بـلدة «كتسينا» بعد العودة من الحج. ويرى بعض المورخين أن المغيلي استقدمه ليصبح قاضيا هناك، وبقي إلى أن

(1) التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (ص/ 586)، والسعدي عبد الرحمن بن عبد الله، تاريخ السودان، تحقيق هوداس، باريز، 1964م، (ص/ 37)

(2) Yola, Jibril Hamman, The Nature and Scope of the Study of Philosophy among selected Sokoto Scholars, Unpublished Ph.D Thesis, BUK, 1993. p 68

توفي (936هـ- 1529م). وكان له على المختصر للخليل شرح وطُرَر وحواش على بعض الشروح[1].

على ذكر الشيخ التازختي يأتي الحديث عن معاصرَيهِ الشيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي(ت:940هـ) المشهور بفقيه كَنو وكتسينا، والعاقب بن عبد الله من فقهاء أغاديس، كلاهما له مساهمات غير قليلة في ترسيخ علم الفقه في هذه البلاد[2].

ويذكر المؤرخون أن أمير كتسينا الموسوم بـ غُوزُو- Gozo- (1795-1801م) كان أول أمره قبل الإمارة - فيما يبدو- مجافيا للشريعة، ثم هداه الله تعالى حتى إنه رفض ممارسة الطقوس التقليدية إبّان توليه الإمارة لاشتمالها على البدع والخزعبلات. وتوجه إلى بناء المساجد وتطبيق الشريعة. والعلماء يعتبرونه أميرا صالحا محبا للخير، وتسديد السياسة، حتى إن الناس يقلبونه بـ «العارف بالله». وفي العام الذي توفي فيه (1801م) سمع بدعوة الشيخ عثمان بن فودي فأشرب حبها، واهتم جدا بالانضمام فعليا إلى المجاهدين، فوافته المنية قبل بلوغ مقصده[3].

وهكذا الجوانب الفكرية فقد ازدهرت ازدهارا يشهد بحضور شخصيات علمية كبيرة في هذه البلاد. وأن التربية التى غذوا بها طلابهم قد أتت أكلها بحق. إذ بعد رجوع المغيلي إلى دياره بمائة سنة، وذلك ما بين 1614 إلى 1784م، ظهرت حوزات علمية كبيرة أمثال جَنْدُوتو (في الطب)[4]، وطَنْ أَشِتَا، وكُرْمِنْ

(1) السعدي، تاريخ السودان: (ص/ 39-40)، ومحمد بل، إنفاق الميسور: (ص/ 51)

(2) السعدي، تاريخ السودان، (ص/ 39)، والماحي، الدعوة الإسلامية، (ص/ 94)

(3) Usman, Y.B., The Transformation of Katsina, p.25-6

(4) Albasu, S.A., Islamic Learning and Intellectualism in Katsina Outside the Birni: The Yandoto Experience, In Islam and the History of Learning in Katsina, ed. by Isma'il A. Tsiga and Abdalla U. Adamu, Ibadan: Spectrum Books Limited, 1997, pp.181-190

طَنْ رَنْكُو ( في علم الفلك) كلاهما في كتسينا، ومدابو في كنو (في الفقه)، وزَزّو المعروف بـ«زاريا» (في التوحيد واللغة)[1].

وفي أوساط القرن السابع عشر الميلادي أنجبت بلاد الهوسا فطاحل من العلماء، لهم مكانة وشعبية وتأثير كبير في الساحة الفكرية. منهم الشيخ محمد الصباغ. له من الآثار «تزيين العصا لضرب هامة من عصى»، وله أيضا قصيدته الخائية في مدح أمير كتسيتا في انتصاره ضد أعداءه[2]. أظهر فيها تمكنه من اللغة العربية أسلوبا وتركيبا.

والشيخ أبوعبد الله محمد بن مسينا المعروف بـ«طَنْ مَسَنِي (1595–1668م/ 1078هـ) تلميذ لابن الصباغ. ألّف الشيخ طَنْ مَسَنِي شرحا على المتن العشماوي أسماه: «بزوغ الشمسية في شرح العشماوية»[3]. وألّف منظومة في ثلاثة وعشرين بيتا شعريا، لتقريظ شرح أبي العباس أحمد باب لمختصر خليل. وهذه دلالة أكيدة على نبوغ في الفكر ومهارة في العلم.

والشيخ يحيى بن البخاري عالم بارز في تدربس القرآن والعلوم من علماء جندوتو، وله تلامذة كثيرة قرابة ثلاثمائة، انتقلوا معه إلى بلدة كتسينا، فانتفع طلاب العلم به، كما انتفعوا بانتقال أخيه أبي بكر إلى مدينة كنو في عهد أميرها المعروف بـ«بَبَّا زاكي» (1768–1776م)[4].

وهكذا امتد حبل العطاءات العلمية والفكرية حتى اتصل بعصر الشيخ عثمان بن فودي، حيث التقى هو وأعوانه بعلماء أجلاء، وفقهاء مبرّزين كثيرين،

(1) Usman, Y.B., The Transformation of Katsina, p.27

(2) Bobboy, H. and John O. Hunwick, Fakeina I., A poem by Ibn Sabbagh (Dan Marina) in praise of Amir Al-Mumin Kayagiwa, ed. by Isma'il A. Tsiga and Abdalla U. Adamu, Ibadan: Spectrum Books Limited, 1997, pp.122-126

(3) محمد بل، إنفاق الميسور: (ص/ –460المحقق)، والإلوري، الإسلام في نيجيريا، (ص/ 62)

(4) Usman, Y.B., The Transformation of Katsina, p.72

أناروا لهم الطريق لبناء الحضارة الإسلامية. وكان منهم الشيخ محمد المغوري الذي وصفه الشيخ عبد الله بن محمد فودي- بحقٍّ- أنه: «المشهور بتعليم المختصر في بلادنا شهرة الشمس. وكل من لم يقرأ المختصر منه فكأنه لم يقرأه»[1] وامتدحه الشيخ محمد بَلّ بقوله:«شيخ الشيوخ الفقيه المهيب محمد المكوري. نقل مختصر خليل، ومهر جدا، وتصدر للتدريس.. وظهر في طلبته البركة»[2]

وكذلك الشيخ عثمان المعروف بـ بندور بن الأمير بن عثمان، وصفه الشيخ عبد الله بن فودي بأنه كان: «عالما تقيا مشهورا بالصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاشتغال بما يعنيه، وهو الذي اقتدى به شيخنا عثمان في الأحوال والأفعال. صحبه نحو سنتين، وتطبع بطبائعه في التقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان شيخنا يخبرني أن خالنا (محمد ثنبو) كان يحضر قراءته المختصر، وكان عالما حافظا لغالب ما قرأ. وكان يقرأ لهم شرح الخرشي إذا أخطأ شيئا أو أسقطه أصلحه لنا خالنا من غير نظر في كتاب. وكان حافظا لشرح الخرشي. ثم ذهب إلى بلاد الحرمين فحج وأقام هناك بضع عشرة سنة ثم رجع، وبلغ قرية أقدس فمات رحمه الله»[3].

و بلغ بعض علماء هذه البلاد في المهارة في علم الفرائض شأوا بعيدا، وهو الشيخ مودي مموري، الأمر الذي منحه اللقب «الفرضي»[4].

---

(1) ابن فودي عبد الله، إيداع النسوخ من أخذت منه من الشيوخ، مخطوط في قسم إيداع المخطوطات بجامعة بايرو-كنو، (ورقة/ 9)

(2) محمد بلّ، إنفاق الميسور، (ص/ 464)

(3) ابن فودي عبد الله، إيداع النسوخ، (ص/ 5)

(4) Yola, J.H., The Nature and Scope of Study of Philosophy, p.73

وأما الشيخ جبريل بن عمر الذي هو أستاذ الشيخ عثمان بن فودي فإنه قد استبحر شتات العلوم وأتقنها، وخاصة علم الحديث والفقه وأصول الفقه[1]. وقد «بلغ الغاية في الاشتغال بالكتاب والسنة وحض الناس عليهما»- على حد تعبير الشيخ محمد بل[2].

إنما ضربنا هذه الأمثلة للدلالة على قيام الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا، والتقدم والنهضة العلمية التي أحرزتها هذه البلاد على مدى القرون نتيجة حضور الإمام المغيلي وغيره إليها.

## 5 - أثر الإمام المغيلي في منهجية علماء الجهاد

يطلق المؤرخون كلمة «علماء الجهاد» بالنسبة لبلاد الهوسا، ويعنون بهم الشيخ عثمان بن محمد فودي، وأخاه الأستاذ عبد الله بن محمد فودي، وابنه الشيخ السلطان محمد بَلُّ- رحمهم الله أجمعين- لما قاموا به من رفع راية الجهاد والإصلاح في بلاد الهوسا في القرن الرابع عشر الهجري الموافق لتاسع عشر الميلادي. والمتتبع لنشاطات شيوخ الجهاد وتواليفهم يدرك أن الدولة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي كانت امتدادا تطبيقيا للحركة الإصلاحية التي ابتدأها الإمام المغيلي. لقد بنوا على منهجه وشرحوا مقاصده في كتبهم. ويظهر الأثر والتأثر واضحا في النواحي الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية.

أ - أما الناحية الدينية فإن محاربة البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورفع راية الجهاد من الأمور التي اهتم بها المغيلي، وجعلها من أولويات الأمير.

(1) ابن فودي عبد الله، إيداع النسوخ، (ص/ 8)

(2) محمد بل، إنفاق الميسور، (ص/ 462)

فقد قال:«وامنع جميع أهل بلدك عن جميع أنواع الشرك، وكشف العورة، وشرب الخمر، وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات»[1].

ومعلوم من دعوة ابن فودي أن قوامها هو إحياء السنة وإخماد البدعة. فكان يستبصر بالنقول عن المغيلي ويعتمد عليه في الحكم على من استحق التكفير والتفسيق والتبديع من أهل بلاد الهوسا. تجد الأنقال عن المغيلي بكثرة في «وثيقة الإخوان لتبيين دليلات وجوب اتباع الكتاب والسنة والإجماع»، و«سراج الإخوان في أهمّ ما يحتاج إليه في هذا الزمان»، و«نصيحة أهل الزمان»، و«المسائل المهمة». ونجح الشيخ عثمان في محاربة البدع والسحر نجاحا كبيرا، وإن لم يقض كليا على الكهانة والشعوذة، ولكن نقض أركانها وسوّاها بالأرض. وتركت الحركة العثمانية الوثائق والكتب ما يتعظ به الأجيال القادمة، أمثال «كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة»، و«حصن الأفهام من جيوش الأوهام»، «تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان»، و«تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان». وذكر الشيخ محمد بلّ-رحمه الله – استنادهم إلى كتاب «أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي» لتبرير الجهاد على بلاد الهوسا.

ب – ومن الناحية الفكرية العلمية فإن أفكار علماء الجهاد قد تشربت علوم الشيخ المغيلي، وامتلأت بروحه، وتطور هذا الجانب تطورا فائقا لم يعهد مثله سابقا، حيث ازداد الحض على العلم والإقبال عليه، وأُعطي الناس المجال للتفكير فيما يجلب التقدم للدولة. وما ترك هؤلاء الأعلام من الأدب والعلوم والأفكار الصائبة يكاد يحوّل الحركة أن تكون فكرية أكثر منها سياسية. فقد انبرى العلماء في تأليف الكتب وقرض الأشعار باللغات العربية والمحلية.

---

(1) Gwarzo, The Life and Teaching of Al-Maghili, p.296

وأعاد علماء الجهاد منهجية تدريس العلوم في بلاد الهوسا، وطوّروها لتلائم ذلك المجتمع، وقربوا المواد الدراسية بأقلامهم ليزداد طلاب العلم اطمئنانا، ويشد اشتياقهم إلى ما ألّفه علماء بلادهم. وأكاد أجزم أنه ليس هناك فن من الفنون والعلوم الإسلامية من اللغة والنحو والتصريف والتفسير والحديث وعلومه والفقه وأصوله والمنطق والطب، وعلم الهيئة والجغرافيا إلا وقد أعادوا صياغته بيراعهم. وخصصوا للمبتدئ في العلوم ما يليق به، والمتوسط أيضا شخصوا له ما ينبغي أن يشتغل به، وكذلك العلماء الكبار هناك من التواليف ما يعينهم على الدراسة ويفتح لهم مجال الاطلاع على المطولات. وكان الشيخ عثمان يقول: «اشتغلوا بقراءة تواليف أخي عبد الله، لأنه مشتغل غالبا بحفظ ظاهر الشريعة. واشتغلوا بتواليف محمد بلّ، لأنه مشتغل غالبا بحفظ علم سياسة الأمة، بحسب الأشخاص أو المقاصد والأزمان والأمكنة والأحوال. واشتغلوا أيضا بقراءة تواليفي، لأني مشتغل بحفظ الطرفين غالبا. وتواليفنا كلها تفصيل لما أُجمل في تواليف العلماء المتقدمين. وتواليف العلماء المتقدمين تفصيل لما أُجمل في الكتاب والسنة»[1].

ومن ميزات الدولة الصكتية التي مثلت تعاليم الإمام المغيلي أنها أتاحت الفرصة للنساء أن ينخرطن في سلك طلاب العلم، ويتعمقن في العلوم والفنون إلى أقصى قدراتهن بلا حدود. وقد كان من شأن علماء الجهاد أن يوفّقوا بين التنظير والتطبيق. فقد كتب الشيخ عثمان كتابا خاصا في قضية تعليم النساء، أوضح فيه للمنزعجين الطريقة المثلى لتعليمهن، أسماه «تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان». وتحدث عن القضية موجبا إتاحة الفرصة لهن في التعلم في «وثيقة الإخوان»، وكذلك في«إرشاد الإخوان».

(1) ابن فودي عثمان: نجم الإخوان: (ص/ 330-331)

ومما يقول: «يا إخواني، اجتهدوا في تعليم النساء والأولاد والعبيد علم التوحيد والديانات وسائر المعاملات».

وقام الشيخ بتطبيق ذلك عمليا، حيث إن بناته كلهن مجدات في طلب العلم ونشره. وليست نانا أسماء بنت الشيخ عثمان هي وحدها التي برزت في العلوم بكتابتها أكثر من ثلاثين كتابا وشعرا[1]، بل هناك كثيرات أخرى من بناته لهن مساهمات كثيرة، كالشيخة مريم، والشيخة خديجة التي ألفت في علم الفقه كتابا لتعليم النساء، ونظمت أشعارا للوعظ والتنبيه. وشاركت كذلك نساء أُخر في المجتمع. وفي الحقيقة أن النساء وجدن قدرا كبيرا من الحرية للتعلم والبحث، وإصغاء المجتمع إليهن ما لم تجده نساء أوربا في القرن التاسع عشر الميلادي[2].

ويشهد تاريخ بلاد الهوسا أنه ليس هناك حقبة ازدهرت فيها اللغة العربية ازدهارا هائلا نثرا وشعرا كما ازدهرت في هذه الدولة، لأن رؤوسها هم المنظّرون لها وعلماءها. وقد كان استعمال العربية واسعا جدا في الإدارة والعلم وكتابة الرسائل، بل إن تسعة أعشار ما كُتب في ذلك العهد كان بهذه اللغة. وهذا لم يمنعهم من أجل توصيل الفكرة والدعوة أن يستعملوا اللغات المحلية من لغة الهوسا وفلاتة، وغير ذلك. قال الشيخ محمد بلّ وهو يتحدث عن والده الشيخ عثمان أنه: «إنما نشأ على دعوة الحق لدين الله في كل مجلس حضر فيه، يُبين فيه لأهل كل مجلس بلغتهم ما هو فرض عين عليهم وغيره»[3].

---

(1) Jean Boyd and Beverly B. Mack, The Collected Works of Nana Asma'u Daughter of Usman Dan Fodiyo, Ibadan: Sam Bookman Publishers, 1 ed., 1999, pp.xxi-xxii

(2) أحمد مرتضى الحضارة الإسلامية: جذورها ومقوماتها في بلاد الهوسا بحث مقدم للنشر في مجلة طن مرنا قسم الدراسات الإسلامية جامعة عمر موسى يار أدوا- كتسينا (ص/ 7-8)

(3) بل، إنفاق الميسور (ص/ 94)

جـ- أما الناحية الاقتصادية فإن المغيلي وإن كان لم يشتغل كثيرا في شرح هذا الجانب، غير أنه يوصي الأمير أن يعتني إقامة العدل في الأسواق، وينهاهم عن الهيمنة على أصحابهم بتلقي الجلب وغير ذلك من وجوه الفساد في السوق على حساب سائر التجار[1]، والمطلوب أن يهتموا بالمهن والحرف والصنائع، مما قد يدفع بالمجتمع نحو التقدم. لذلك اهتمت الدولة بقيادة الشيخ عثمان بتطوير الاقتصادات. وجعلوا الاعتناء بالتجارة والمهن والصنائع من الأمور الواجبة على الأمير توفيرها في المدن والقرى. كتب الشيخ عبد الله بن فودي تنظيرا للتنمية الاقتصادية. ألف «تعليم الراضي أسباب الاختصاص بموات الأراضي»- يحض الناس على امتلاك الأراضي للزراعة وفلاحها، وغير ذلك من وجوه إصلاحها. وكتب الشيخ محمد بلّ «تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب». ولم يكتف بتبسيط النظرية في التوليف فحسب حتى طبقها عمليا، حيث كان يعلم الناس بعض الصنائع والمهن. منها كيفية تحضير الحلوى المعروفة في بلاد الهوسا بـ-Mazarkwaila- بقصب السكّر، ويعلمهم صناعة تحسين الجلد وتقطيعه وإصلاحه المعروفة بالإسكافة[2].

د-والسياسة والإدارة من المجالات التي ظهر فيها تأثرهم بالشيخ المغيلي جليا. ووصية المغيلي لأمير كنو محمد بن يعقوب الملقب بـ «رُمْفا» وسائر رسائله وكتبه هي قطب الرحى الذي اعتمد عليه علماء الجهاد في التحليل والتطبيق. ترى النقول عنه في «أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل» للشيخ عثمان. وكذلك الشيخ عبد الله أكثر النقل عنه في «ضياء الحكام فيما لهم

(1) المغيلي، وصية المغيلي إلى محمد بن يعقوب، النسخة الملحقة برسالة الدكتور حسن غورزو (ص/ 297)

(2) العراقي، السر سيد أحمد، نظام الحكم في الخلافة الصكتية، السودان: جامعة الخرطوم، ط الأولى، 1983، (ص/ 140-144)

وعليهم من الأحكام»، وضياء السياسات وفتاوى النوازل»، و«ضياء السلطان وغيره من الإخوان». وكذلك الشيخ محمد بلّ في «أصول السياسة»، وفي إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور».

وعندما أقام علماء الجهاد الدولة الإسلامية طبّقوا ما ذكره المغيلي من الواجبات على الأمير لإدراة الدولة أمثال نصب الوزراء، والقضاة، والكتاب، والحساب، والسعاة....إلخ[1]. وطبقوا ما يقوله المغيلي:«صُن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانة بردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال»[2]. وكان المغيلي يقول في نهاية كل فصل من فصول كتابه «تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين»:«رأس كل بلية احتجاب السلطان عن الرعية». وهي عبارة بليغة، اقتبسها منه الشيخ عبد الله بن فودي، فجعلها في نهاية فصول كتابه «ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام»- الذي هو - في حقيقته- بمثابة شرح لكتاب «تاج الدين».

ويتجلى بهذا العرض أن تأثر الشيخ عثمان كان بالعلماء الوافدين إلى بلاد الهوسا، وبعض علماء المغرب الغربي الذين لم يفدوا إليها أمثال ابن الحاج، والسنوسي، واليوسي، والإمام المغيلي-طبعا- كان على مقدمة الوافدين. والحقيقة أن الشيخ عثمان لم يتأثر بأي دعوة خارجية، لأنه لم يبتعد سفرا عن بلاد الهوسا. ودعوى أنه ذهب إلى الحجاز للحج لا أساس لها. فقد كان يود أن يتشرف بزياة قبر النبي ﷺ، ولكن الأشغال لم تتركه، ولم تواته الفرصة لذلك. وفي ذلك يقول في شعره المشهور:

هل مسير نحو طيبة مسرعا
لأزور قبر الهاشمي محمد

(1) تحدث الشيخ عبد الله بن فودي عن هذه الأنظمة في «ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام»، والشيخ محمد بل في «الغيث الوبل في سيرة الإمام العدل»

(2) Gwarzo, The Life and Teaching of Al-Maghili, p.295

ويرى بعض الباحثين[1] أن التّزامُنَ بين حركة ابن فودي مع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب يوحي بتأثّر ابن فودي بها، وخاصة أن كلا الشيخين كان يحارب البدعة ويشد النكير على المشعوذين. ويضيف بعضهم بإنه يمكن أن يتلقى الشيخ عثمان تعاليم دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب من اثنين من شيوخه؛ أولهما هو الشيخ محمد ثَمْبو الكَبَوي الذي حج، وقضى تسع عشرة سنة يجول بين مكة والمدينة لمثافنة الشيوخ والانتهال منهم، ثم عاد إلى بلده أقدس- Agadas – عام 1207هـ – 1793م. وثانيهما هو الشيخ جبريل بن عمر. فقد سافر للحج مرتين، والتقى به الشيخ عثمان، وخاصة بعد عودته الأخيرة، وكان يوصف بإلانكار على البدع والقيام بالسنة وتطبيقها. ولكن هذا زَعم لا يستند إلى دليل. إذ لو كان عندشيوخ الجهاد خبر عن حركة الشيخ ابن عبد الوهاب لأخبروا به، أو يذكروا مدى اتفاقهم أو اختلافهم مع الحركة لأنها معاصرة لهم، بل ولو كان لديهم حتى الصورة السلبية عن حركة الشيخ عبد الوهاب لكان من الطبيعي أن يحذروا الناس عن اتباع خطواتها، فكيف إذا كان التأثر إيجابيا، فهو طبعا أولى بأن يحضوا الناس عليه. والعجيب أن كل ذلك لم يكن، ولو كان لأصبح من أوثق ما يستأنس به علماء الجهاد في جهادهم ضد ملوك بلاد الهوسا.

وبالإضافة إلى بعض الأدلة التي يذكرها المفندون للتأثر[2]، فإن الشيخ جبريل توفي وهو متمسك بالطريقة الخلوتية، وهو الذي لقّن الشيخ عثمان وأخيه عبد الله ورد هذه الطريقة يعد عوته الأخيرة من الحج[3]. ولو كان هناك

(1) أمين الدين أبوبكر، المجاهد الكبير في غرب إفريقيا الشيخ عثمان بن فودي، 1414هـ1993-م، (ص/ 22)

(2) الإلوري، آدم عبد الله، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، (ص/ 99-102)

(3) ابن فودي، عبد الله بن محمد، تلقين الأسماء السبعة على طريقة السادة الخلوتية، مخطوط، في قسم المخطوطات بجامعة بايرو-كنو

بصيص من تأثّر لظهر ملامح تلك الدعوة في علماء الجهاد من حيث العقيدة والسلوك والتوجّهات. ولكن علماء الجهاد ظلوا أشعرية معتقدا، مالكية مذهبا، صوفية مشربا!

## الخاتمة

يظل الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي شخصية معترفا لها بالجميل في بلاد الهوسا. وقد حاولنا في هذا البحث أن نبرز بعضا من آثاره والبصمات من التأثير الذي تركه على هذه البلاد. تضمن المبحث الأول نبذة يسيرة عن حياته العلمية، وبالأخص فيما يتعلق بثلاث قضايا. أولاها جهاده قولا وفعلا ضد اليهود الساكنين أراضي تلمسان وتوات وضواحيهما. وثانيها بيان قدومه إلى بلاد الهوسا. وثالثها قضية التقاءه مع الشيخ السيوطي. وقد اخترنا عدم ثبوت اللقيا بينهما بدلائل ناصعة، كما اتبعنا الأدلة العلمية في تفنيد القول بانتساب الشيخ المغيلي إلى النبي ﷺ. وأما المبحث الثاني هو شرح لبعض العناصر التي أسس بها المغيلي بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا. والمبحث الثالث جولة واعية على مدى ثلاثة قرون، لضرب أمثلة كافية من جهود الأمراء والعلماء الذين أسهموا في بناء الحضارة على هذه الرقعة من المعمورة. وخصصنا المبحث الرابع ليشمل جهود علماء الجهاد في المواصلة واستكمال الجهود التي بدأها الشيخ المغيلي. وهذا واضح في نقولهم عنه، وجعلهم إياه قدوة في الإصلاح والجهاد، وحتى في إقامة الدولة الإسلامية في بلاد الهوسا -رحمهم الله تعالى جميعا رحمة واسعة.

# أهمية التراث العلمي والثقافي المفقود لبعض علماء المغرب العربي

**الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه**
**كلية التربية/ جامعة الموصل/ العراق**

بعد انتهاء عمليات الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وجهود الولاة التي أعقبت حملات الفتح، وتأسيس المدن التي قامت بدور رئيس في نشر الإسلام وعلومه في العصور اللاحقة، قامت في المغرب العربي حركة علمية ذات مرجعية مغاربية، وبرز عدد كبير من العلماء في شتى الاختصاصات كان لهم الدور الإيجابي الفعّال ليس في المغرب حسب بل امتد ليشمل العالم الإسلامي المجاور. وقد نال هؤلاء العلماء الكِبار ومؤلفاتهم الكثير من الاهتمام، والبحث والدراسة.

ولكن تركيزنا في هذا البحث سيكون على مؤلفات نخبة مختارة من علماء المغرب العربي الكبير، التي لم تر النور، بل هي بالأحرى في عداد المفقودات. ويمكن أن نجد مقتبسات من تراث هذه النخبة في مؤلفات كتّاب آخرين. وتراث هؤلاء العلماء الذين وقع عليهم الاختيار يتضمن اختصاصات متعددة، منها في العلوم الشرعية، ومنها في العلوم الطبية، ومنها في التاريخ، والأدب والشعر. وسيتم التعريف بهؤلاء العلماء، واستعراض مؤلفاتهم، والإشارة إلى أهميتها، ومكانتها في التراث العلمي في المغرب العربي. ولا يمكن بطبيعة الحال الحديث عن كل هؤلاء في هذا المجال الضيق، ولهذا فقد وقع الاختيار على خمسة نماذج من هؤلاء العلماء؛ الأول من المغرب الأدنى، والثاني والثالث من المغرب الأوسط، والرابع والخامس من المغرب الأقصى.

**(1)**

ونبدأ بأحد أعلام المغرب الأدنى الذين يشار إليهم بالبنان في مجال الطب والتاريخ والأدب، وهو: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الجزار القيرواني، (ت 369 هـ/ 979–980م)،[1] من أسرة بني الجزار، المعروفة بمزاولة

(1) ينظر عنه: سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق، فؤاد سيد، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955: 88–91 ؛ أبو القاسم صاعد بن أحمد التغلبي الأندلسي، **طبقات الأمم**، تحقيق، حياة بوعلوان، بيروت، دار الطليعة، 1985: 153–154 ؛ أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس**، تحقيق، بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983: 2/ 430، 431، 477 ؛ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب **المسالك والممالك**، نشر، دي سلان، الجزائر، 1857 : 33، 42 ؛ القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق، عبد القادر الصحراوي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1968: 3/ 102، 201 ؛ أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، بيروت، دار المستشرق (د.ت) : 2/ 136–137 ؛ عبد الله بن أحمد ابن البيطار، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، مصر، مطبعة العامرة، 1291هـ : 2/ 167 ؛ أحمد بن القاسم ابن أبي أُصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق، نزار رضا، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1965 : 480، 481–482 ؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1968، 1/ 238، 3/ 36، 4/ 62، 375. أبو العباس أحمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948 أعادت دار الثقافة نشره ببيروت : 1/ 237. شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وإبراهيم الزيبق، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986 : 15/ 561 الترجمة (335) ؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **إتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا**، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي،1967 :1/ 90–91 ؛ مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، استانبول، 1941–1943، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد : 1/ 120، 251، 253، 420، 841، 857، 864، 870، 896، 2/ 946، 1095، 1126، 1171، 1256، 1955. إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين**، استانبول، 1951، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد،: 1/ 70 ؛ إسماعيل باشا البغدادي، **إيضاح المكنون**، استانبول، 1947، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ؛ =

مهنة الطب، فهو ثالث الأطباء من هذه الأسرة بعد عمه أبي بكر محمد بن أبي خالد الجزار، ووالده إبراهيم. وقد أخذ عنهما الطب، واستفاد أيضاً من صحبته لكبير أطباء القيروان في عصره إسحاق بن سليمان الإسرائيلي ( توفي قريباً من سنة 320هـ/ 932م). وكان ابن الجزار منذ صغره على غاية من الاجتهاد في البحث، والتطلع إلى دراسة الطب، وسائر العلوم الأخرى، لاسيما التاريخ والفلسفة. ويصفه معظم من ترجم له بعلو الهمة وبعد الصيت، وأنه كان عفيفاً لم يخلد إلى لذة، ولم تعرف له مدينة القيروان زلة، وأنه كان متواضعاً يشهد الجنائز، والأعراس. وقد ذاع صيته، وانتشرت كتبه في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. وكان الخليفة الحكم المستنصر بالله الأندلسي يتمنى أن يكون ابن الجزار في بلاطه. وقد قصده الكثير من الطلبة لتلقي العلم على يديه، منهم على سبيل المثال، أبي حفص عمر بن بريق الأندلسي، الذي رحل إليه، ولازمه مدة ستة أشهر بالقيروان، وأخذ عنه صناعة الطب، ثم رجع إلى الأندلس وهو يحمل بعض كتبه، لاسيما كتاب **زاد المسافر**، ونبغ في ممارسة المهنة فيها.

ولد ابن الجزار في أواخر عهد دولة الأغالبة، في حدود سنة 285هـ/ 898م، ثم قضى بقية عمره في ظل الدولة الفاطمية التي قامت بأفريقية سنة 297هـ/ 910م. وعلى الرغم من احتمال ميله للمذهب الشيعي، كما يُفهم من عبارة أوردها

---

C. Brrockelmann, **Geschichte der Arabischen Litteratur** ، Leiden, Brill, 1938, = .Vol. **I**, p.238, **S**، p. 424

مجهول، **كتاب العيون والحدائق**، تحقيق، عمر السعيدي، دمشق، المعهد الفرنسي، صفحات متعددة، ومقدمة المحقق، 4/ 23–24. حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، تونس، مكتبة المنار، 1965 : 1/ 306–322. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط2، القاهرة، مطبعة كونستانوماس، 1955 : 1/ 83 ؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، دمشق، مطبعة الترقي، 1957 :1/ 137 ؛ سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979 : 1/ 25.

أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، وهي أن : «**ابن الجزار الطبيب كان على خلاف السّنة**»،[1] فإنه كان يتجنب السلطة المتمثلة بالدولة الفاطمية، وخليفتها المعز لدين الله أبي تميم معد (341–365هـ/ 953–975م). لكنه كان مع ذلك على علاقة جيدة، وصحبة قوية مع عم الخليفة، أحمد بن عبيد الله المهدي المعروف بأبي طالب، الذي كان صديقاً قديماً له، فيركب إليه في كل أسبوع لزيارته، وكان هذا الأخير من وجوه رجال الشيعة. وربما كان ميل ابن الجزار لآراء الشيعة هو الذي حمل أصحاب التراجم والطبقات المالكيين من الأفارقة للتغافل عن إيراد ترجمته في مصنفاتهم.[2]

ويمكن أن يُعزى تجنب ابن الجزار للسلطة الفاطمية إلى ردة فعل قوية نشأت لديه حينما استدعى لعلاج الخليفة الفاطمي إسماعيل بن محمد (334–341هـ/ 945–953م)، والد المعز لدين الله، فلم يُفلح في علاجه، وتوفي مباشرة بعد وصفة وصفها له. وكادت هذه الحادثة أن تودي بحياته، لولا تدخل إسحاق بن سليمان المتطبب، الذي أقنع أسرة الخليفة بسلامة نية ابن الجزار، وصحة ودقة وصفته الطبية لأبي طاهر.[3]. وكان أحمد بن الجزار إذا اضطر لمعالجة أحد المقربين من السلطة، لا يقبل ثمناً لذلك العلاج. ويورد لنا ابن جلجل مثالا على ذلك، موقفه من القاضي النعمان بن محمد بن منصور بن حيون (ت 363÷هـ/ 973م)، الذي كان موالياً للفاطميين، وانتقل معهم إلى مصر، وله مؤلفات عديدة في نصرة الدعوة الفاطمية. فقد طُلِب من ابن الجزار بعض الاستشارات الطبية لعلاج ابن القاضي، فقدمها له، لكنه رفض قبول هدية

(1) **رياض النفوس** :2 / 240 .

(2) حسن حسني عبد الوهاب،، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية** :1/ 309 .

(3) المقريزي، **إتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا**، 1967 :1/ 90–91 .

القاضي بعد أن تم علاج ابنه، على الرغم من قيمتها الكبيرة التي بلغت ثلاثمئة مثقال من الذهب وكسوة. وعندما قيل له لماذا رددت هذا الرزق الذي ساقه الله إليك؟ قال: «**والله لا كان لأحد من رجال دولة معد قِبَلي نعمة**».[1]

ومع هذا عاش ابن الجزار حياة ميسرة، بفضل مهنته التي كانت تدر عليه دخلاً جيداً. فقد كان له عند باب داره محلاً أو عيادة مستقلة لاستقبال الزائرين، اتخذ فيه قسماً خاصاً للصيدلة، أجلس فيه غلاماً له يسمى (رشيق). فإذا زاره المريض يفحصه ملياً، ثم يصف له ما يناسبه من الأدوية، ويكتب ذلك على رقعة، يتحول بها المريض إلى رشيق، فيعطيه الدواء، ويقبض الثمن. وكان يتفقد في كل يوم قوارير الأدوية، ويُضيف إليها ما نقص منها، ويحاسب الغلام على ما قبض من ثمن الأدوية المباعة، لأنه كان يربأ بنفسه أن يأخذ من أحد شيئاً بشكل مباشر. وكان لابن الجزار حسب قول ياقوت الحموي : « **معروف كثير، وأدوية يفرقها على الفقراء**».[2] ولم ينقص ذلك من ربحه وثروته، التي أتاحت له أن يتمتع كل عام بقضاء فصل الصيف في المُنسْتير على البحر، وهو موضع بإفريقية بين المهدية وسوسة. وعاش أكثر من ثمانين عاماً، وعندما توفي ترك أربعة وعشون ألف دينار، وخمسون قنطاراً من الكتب الطبية وغيرها. وكان قد همّ بالرحلة إلى الأندلس، ولكنه لم ينفذ ذلك.

تمتع ابن الجزار بغزارة في الإنتاج وتأليف الكتب في شتى المواضيع والعلوم، الأمر الذي يشير إلى موسوعيته، وأنه كان يُعد في المرتبة الأولى بين أعلام عصره. وقد أوردت له المصادر الأولية أسماء الكثير من المؤلفات.

---

(1) ابن أبي أُصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** : 481.

(2) **معجم الأدباء** :2/ 137 .

وحاول الباحث التونسي حسن حسني عبد الوهاب،[1] إحصاء هذه الكتب، فوصل بها إلى نحو أربعين مؤلفاً. وربما كان هناك المزيد مما لم نقع عليه. وتشمل موضوعات الكتب حقلين رئيسيين، هما الطب والتاريخ، وحقول أخرى متفرقة، في الجغرافية، والأدب، والسياسة، وغيرها، وسنشير إلى أبرز هذه الكتب:

## 1 – الكتب الطبية

**1 – زاد المسافر وقوت الحاضر**: وهو في علاج الأمراض، يتألف من مجلدين، وهو من الكتب الطبية العلمية. يوجد منه عدة نسخ في بعض المكتبات العامة والخاصة في أوربة والمشرق، مثل المكتبة الوطنية في باريس، وفي درسدن بألمانيا، وفي البودليان باكسفورد، وفي الجزائر، وفي رنبور بالهند، ومكتبة هافانا بهولندا. وقد تُرجم إلى لغات عديدة، منها اللاتينية في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، كما تُرجم إلى اليونانية باسم (Ephodes). ويوجد من الترجمتين نسخ عديدة بمكتبات أوربة، وأقدمها هي المحفوظة بمكتبة الفاتيكان، ويعود تاريخها إلى أواخر القرن العاشر للميلاد. وقد وصل هذا الكتاب إلى الأندلس، وترجم هناك إلى اللغة العبرية من قبل موسى بن طيبون، بعنوان (**تزداد دارشم**). كذلك نُشرت حول هذا الكتاب دراسات متعددة، وتُرجمت فصول منه في فرنسا، وتونس، منها بحث طويل عن الكتاب نشره الحكيم شارل دارنبير (Daremberg)، وظهر في مجموعة:

**Les Archives des Missions، Scientifiques**،Paris, 1851 – T. II, p. 490.

وكذلك ما كتبه الفرنسي كوستاف دوقا (Gustave Dugat) في المجلة الأسيوية: **Journal Asiatique**, Paris, 1853, Vol. I, p 289. وفيها حلل

(1) **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية** :1/ 313–322 .

الكتاب وفصوله، وترجم منه مقالتين إلى الفرنسية، هما **العشق، وداء الكلب**. كما ترجم الحكيم التونسي أحمد الشريف ثلاث مقالات من هذا الكتاب، هي: **في أسباب سقوط الشعر، وفي الإغماء، وفي دود المصران**، نشرها في أطروحته عن **تاريخ الطب العربي في القطر التونسي**:

Histoire de la Medecine Arabe en Tunisie, Tunis, 1908, pp. 51-70 .

**2 – الاعتماد في الأدوية المفردة**: ويشتمل على أربع مقالات، ألفه لصديقه الأمير أبي طالب أحمد بن عبيد الله. توجد منه نسخ بالجزائر، وفي آيا صوفيا، وفي المتحف البريطاني. وقد تُرجم قديماً إلى اللغة اللاتينية من قبل قسيس إسباني اسمه إسطيفان السرقسطي سنة 1333م/ 734هـ. والترجمة موجودة بمكتبة ميونيخ بألمانيا. كما نُقل أيضاً إلى العبرية من قبل الطبيب موسى بن طيبون.

**3 – طب المشايخ**: وهي رسالة في عشرين ورقة، عالج فيها الحالات التي تصيب المسنين والمعمرين. استنسخها حسن حسني عبد الوهاب من ملخص محفوظ في مكتبة أحمد بك خيري، من أعيان البحيرة بمصر.

**4 – أبدال الأدوية**: وهي رسالة موجودة بمجموعة طبية في خزانة السيد أحمد خيري في البحيرة بمصر، ومنها صورة بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب.

**5 – طب الفقراء والمساكين**: موجود بمكتبة غوطة، والإسكوريال، وقديماً في خزانة السيد عبد الحي الكتاني بفاس.

**6 – سياسة الصبيان وتدبيرهم**: موجود في مكتبة ننيانة بالبندقية بإيطاليا، وفي الإسكوريال، ومنه نسخة مصورة بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب.

وهناك كتب أخرى أشار إليها ابن أبي أُصيبعة،[1] ولا يُعرف شيء عن مصيرها، منها على سبيل المثال: **العدة لطول المدة**، حيث قال عنه: هو أكبر كتاب وجدناه له في الطب. **وتوت المقيم** من عشرين مجلداً، كتاب **في المعدة وأمراضها**، كتاب **البغية**، كتاب **في الفرق بين العلل**، **نصائح الأبرار**، **رسالة في التحذر من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه**، كتاب **الفرق بين العلل التي تشبه أسبابها وتختلف أمراضها**، رسالة **في الزكام وأسبابه وعلاجه**، رسالة **في النوم واليقظة**، **مجريات في الطب**، مقالة **في الجذام وأسبابه وعلاجه**، كتاب **الخواص**، كتاب **المختبرات**، مقالة **في الحمامات**، وكتاب **في نعت الأسباب المولدة للوباء في مصر**.

**2 – الكتب التأريخية:**

**1 – كتاب التعريف بصحيح التاريخ:** وهو تأريخ مختصر يشتمل على وفيات علماء عصر ابن الجزار، ومقتطفات جميلة من أخبارهم. وقد رأى ياقوت الحموي هذا الكتاب،[2] واطلع عليه في مجلدات تزيد على العشر، ونقل عنه. كما نقل عنه أيضاً القاضي عياض،[3] تاريخ وفاة أحد العلماء البصريين، وكذلك ابن خلكان في مواضع مختلفة.[4] وأشار إليه حاجي خليفة في **كشف الظنون**، وهو مفقود في الوقت الحاضر.

**2 – كتاب أخبار الدولة** أو **تاريخ الدولة:** وهو في ابتداء الدولة الفاطمية ونشأتها، وانتشار دعوتها. وقد نقل منه ابن أبي أُصيبعة أخباراً عن إسحاق بن

---

(1) **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**: 482 .

(2) **معجم الأدباء**: 2/ 136 .

(3) **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**: 3/ 201 .

(4) **وفيات الأعيان**: 1/ 238، 3/ 36، 4/ 62، 375 .

سليمان المتطبب، رواها الأخير لابن الجزار عن كيفية لقائه بالأمير الأغلبي زيادة الله الثالث، وتعامله معه في مجلسه. كما نقل عنه المقريزي،[1] وكذلك المؤلف المجهول لكتاب **العيون والحدائق**. وأشار إليه شمس الدين الذهبي على أنه كتاب في دولة المهدي وظهوره بالمغرب.[2] ويظن حسن حسني عبد الوهاب،[3] أن قطعة من هذا الكتاب محفوظة في مكتبة غوطا، وهي التي ترجم منها نيكلسون Nicholson بحثه المنشور في سنة 1840 بعنوان:

**An account of the establishment of the Fatimite dynasty in Africa .**

ولا يُستبعد أيضاً أن يكون هذا الكتاب موجوداً بشكل كامل في بعض خزائن الإسماعيليين بالهند.

**3 – كتاب مغازي إفريقية:** وهو كما يبدو من اسمه يتناول الفتح العربي الإسلامي للمغرب، لاسيما ولاية إفريقية، وربما تطرق فيه أيضاً إلى بعض فتوح الأندلس، لأن أبا عبيد البكري ( ت 487هـ/ 1094م) نقل عنه نصاً يُشير إلى أخبار موسى بن نصير في الأندلس،[4] وكذلك أخبار مدينة قرطاجنة قبل الإسلام، كما أشار أيضاً إلى أخبار بعض بلاد كتامة.[5]

**4 – كتاب طبقات القضاة:** وقد ورد اسم هذا الكتاب عند القاضي عياض[6]، في أثناء ترجمته لعبد الله بن فروخ الفارسي (ت 176هـ/ 792م)، حيث ينقل قول ابن الجزار في هذا الكتاب قائلاً: «كان ابن فروخ فقيهاً ورعاً رحل في طلب

---

(1) **إتعاظ الحنفا** :1/ 90–91 .

(2) **سير أعلام النبلاء** : 15/ 561 .

(3) **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية** :1/ 318–319 .

(4) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** : 42 .

(5) **المصدر نفسه** : 33 .

(6) **ترتيب المدارك وتقريب المسالك** :3/ 102 .

العلم، وكان يُكاتب مالك بن أنس في المسائل ويجاوبه» ومن المحتمل أن يكون هذا الكتاب جزءاً من كتابه الأول **التعريف بصحيح التاريخ**، لأنه يتناول موضوع التراجم للعلماء، وربما يكون قد أفرد للقضاة باباً خاصاً ضمن هذا الكتاب.

## ج- كتب متنوعة في الجغرافية والأدب وغيرها، أهمها:

**كتاب عجائب البلدان**: وكما يبدو من اسمه، فهو يختص بالعجائب والجغرافية. وقد نقل منه ابن البيطار،[1] (ت 646هـ/ 1248م) خبراً عن «جبل الزمرد»، الذي هو من «جبال البجاة موصول بالمقطم جبل مصر». كما ورد ذكر هذا الكتاب مراراً في الكتاب المعروف **بجغرافية المأمون** المنسوب إلى الفزاري، ونقل عنه فصلاً في وصف مدينة رومية. ويشير حسن حسني عبد الوهاب[2]، أنه يوجد منه نسخة في خزانة كتب المرحوم الباشا المصلوحي، قائد بني رزين من بلاد غمارة في ناحية الريف من المغرب الأقصى.

ومن كتبه الأخرى المختلفة: كتاب **المُكَلَّل** في الأدب والسياسة، وكتاب **الفصول**، وهو في سائر العلوم والبلاغات، وكتاب **الأحجار الكريمة ومعادنها ومنافعها وخواصها**، وكتاب **العطر**، ذكره ابن الجزار عرضاً في كتابه **طب المشايخ**، ويظهر أنه قد خصصه لصناعة الروائح العطرية وطرق تقطيرها، **ورسالة النفس واختلاف الأوائل فيها، ورسالة النوم واليقظة**، ورسالة **الاستهانة بالموت**.

---

(1) **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** : 2/ 167 .

(2) **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية** : 1/ 320 .

**(2)**

وننتقل للحديث عن عالم من أعلام المغرب الأوسط، وهو محدث، مقرئ، مؤرخ، وكاتب مغربي، من أهل مدينة تلمسان أسمه : أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب، يُعرف بابن الأشيـري التلمساني، ( ت569هـ/ 1074م).[1] نشأ بالمغرب الأوسط بمدينة تلمسان، وتنقل للدراسة في أرجاء المغرب العربي والأندلس، فأخذ عن الأستاذ أبي علي بن الخراز، وأخذ بالمرية Almeria عن أبي

---

(1) ينظر عنه : عبد الملك بن محمد المعروف بابن صاحب الصلاة،**المن بالإمامة**، تحقيق، عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، 1964: 524–525 ؛ أبو عبد الله محمد ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر، عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1955–1956: 1/ 270 الترجمة رقم (718) ؛ ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963: 2/ 192–196 ؛ حسن بن علي ابن القطان، **نظم الجمان**، تحقيق، محمود علي مكي، تطوان، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1966: 176 وهامش المحقق رقم (2)؛ أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971 : 58–59 ؛ أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965: 1/ 32 (ضمن ترجمة ابن صاحب الصلاة)؛ أبو العباس أحمد بن محمدابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**/ قسم الموحدين، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ورفاقه، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985:8، 17، 21، 22، 26، 28، 47، عبد القادر زمامة، «اكتشاف نص جديد من كتاب **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب** يتعلق بتاريخ الموحدين»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، فاس/ جامعة محمد بن عبد الله، العددان 4 و5، 1980–1981 : (295–313)، 315. علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، نشر، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972: 185–186 ؛ مجهول المؤلف، (وقد نسب مؤخراً إلى ابن السماك العاملي) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979: 130، 149–150 ؛ أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972: 2/ 447 ؛ عبد الواحد ذنون طه، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، ج3 و4،/ م40، بغداد، 1989: 424–426.

الحجاج يوسف بن يَسْعُون سنة 540هـ/ 1145م. وكان من أهل العلم بالقرآءات، واللغة والغريب، ويغلب عليه الأدب، مُجيداً في النظم والنثر. من أهم تلامذته، عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت 594هـ/ 1198م)، الذي روى عنه، حسبما أشار إلى ذلك ابن عبد الملك المراكشي،[1] في ترجمته للأخير. عاصر ابن الأشيري الدولتين المرابطية والموحدية، وعمل كاتباً للأمير المرابطي تاشفين بن علي (537-540هـ/ 1143-1145م). وكان مرافقاً له في أثناء وجوده بمدينة تلمسان، التي كان يحاصرها الموحدون سنة 539هـ/ 1144/ ، فلما قتل الأمير تاشفين، وسقطت المدينة، خرج منها ابن الأشيري متوجهاً إلى الموحدين، مبيناً استعداده للعمل في خدمتهم، فقبلوه، وأصبح بعد ذلك أحد كتّاب الخليفة عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/ 1130-1163م).

ويشير أبو عبد الله محمد بن الأبار،[2] في ترجمته لابن الأشيري إلى أنه إلف كتابين، وقصيدة، الأول: **مجموع في غريب الموطأ**، وقف عليه بخطه، ولا تتوفر لدينا معلومات عنه. أما القصيدة، فهي في وقعة، أو غزوة السّبْطاط، التي حدثت في شهر شعبان سنة 568هـ/ 1172م. والثاني، هو مختصر في التاريخ، أسماه :

**نظم اللآلي في فتوح الأمر العالي**. وهذا الكتاب في تاريخ الموحدين، **والأمر العالي**، إشارة إلى الدعوة الموحدية. وقد عُرف هذا الكتاب، واشتهر بين المؤرخين الذين أعقبوه. فكان من بين الأصول التي اعتمدها ابن الأبار،[3] أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق،[4] وابن أبي زرع الفاسي،[5] والمؤلف

(1) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**: 1/ 32 .

(2) **التكملة لكتاب الصلة** : 1/ 270 .

(3) **الحلة السيراء** : 2/ 192،196 .

(4) **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين** : 58-59 .

(5) **الأنيس المطرب بروض القرطاس** : 185-186 .

المجهول لكتاب **الحلل الموشية**،[1] وابن عذاري المراكشي،[2] الذين رووا له أبياتاً من الشعر قالها في مجلس عبد المؤمن بن علي، في وصف أسد مشى بين يديه. وقد اعتمد مؤلف **الحلل الموشية**، على كتاب أبي علي الأشيري فيما كتبه عن نهاية الدولة المرابطية، والحروب الدائرة بين الموحدين والأمير تاشفين بن علي.[3] وكذلك اعتمده ابن عذاري المراكشي في رواية الصراع بين المرابطين والموحدين، الذي انتهى بمقتل تاشفين بن علي سنة 539هـ/ 1144م.[4] كما ينقل عنه أيضاً ثلاثة نصوص أخرى عن حصار الموحدين لوهران، وتلمسان، ومراكش، وافتتاحهم لهذه المدن.[5]

وتتميز رواية ابن الأشيري في هذه النصوص بالوضوح والدقة وسلاسة الأسلوب. وهي على درجة كبيرة من الأهمية لمعاصرة الكاتب لأحداثها، وقربه منها. لذا يمكن الاطمئنان إلى صحتها، وتوثيقها، لاسيما أنه كان في بعض أحداثها يروي عن شهود عيان، أو أنه شارك في هذه الأحداث، كما أسلفنا، حيث شهد الحصار مع تاشفين بن علي في تلمسان.

وعلى الرغم من أنه ألّف كتاب **فتوح الأمر العالـي** لتمجيد تاريخ الموحدين، والدعوة إليهم، لكننا نجد فيه أحد النصوص التي يُدين فيها الخليفة عبد المؤمن بن علي لقتله جماعات من أهل وهران بعد حصارها وافتتاحها سنة 539هـ/ 1144م، فيقول، كما ينقل عنه ابن عذاري المراكشي : «**وأخبرني أبو الحسن الطراز، وكان ممن حُصِرَ بوهران، أن العطش انتهى بالناس إلى أن مات**

---

(1) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** : 130، 149–150 ،

(2) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب / قسم الموحدين** : 8، 17، 21، 22، 26، 28، 47.

(3) **الحلل الموشية** :130–131 .

(4) **البيان المغرب/ قسم الموحدين** :17، 21 .

(5) **المصدر نفسه** :22، 26، 28 .

**في اليوم الواحد الثلاثون والأربعون بين نساء ورجال، ولما خرجوا انطرحوا على الماء حتى مات بعضهم لما رُوي، وبعد ذلك حكم عبد المؤمن قبحه الله بقتلهم، فاستأصلوا عن آخرهم»**.[1] ويشير هذا النص، إن صحت نسبته إلى الأشيري، إلى جرأة هذا الكاتب في نعته لعبد المؤمن بهذا القول، لاسيما وأنه أصبح فيما بعد من جملة شعرائه وكتّابه، وامتدحه، ومجدَّه كثيراً بشعر مرتجل في البلاط. وهذا يدل على تناقض في مواقف هذا الكاتب، الذي اضطره تقلب الظروف السياسية إلى تبديل ولائه من المرابطين إلى الموحدين، الذين عاش في كنفهم حتى وفاته سنة 569هـ/ 1074م.

(1) **المصدر نفسه** :22 .

**(3)**

وعالمنا الثالث أيضاً من المغرب الأوسط، هو الفقيه، المحدث، الأديب، والمؤرخ أبي الحسن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، (548–628هـ/ 1105–1231م) من أسرة بني حماد،[1] وهو غير أبي عبد الله محمد بن علي بن حمادُه البرنوسي السبتي، الذي خلط بين اسمه واسم ابن حماد، بعض من ترجم له من القدماء والمُحْدَثين، ولد هذا الرجل في حدود سنة 548هـ/ 1105م في إحدى القرى القريبة التابعة لقلعة بني حماد، تدعى (حمزة).

(1) ينظر عنه : أبن حماد الصنهاجي، **أخبار بني** عبيد وسيرتهم، تحقيق، جلول أحمد البدوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984: 17، 81، مع مقدمة التحقيق ؛ حسن بن علي ابن القطان، **نظم الجمان**، تحقيق، محمود علي مكي، تطوان، 1966 (نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط): 99، وهامش المحقق رقم (2) ؛ مجهول المؤلف، **نبذ تاريخية في أخبار القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر**، نشر، ليفي بروفنسال، الرباط، 1934: 65 ؛ أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق، عادل نويهض، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979: 39، 44، 207، (218–220)، 326 ؛ أبو عبد الله محمد بن عبدالله الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، **أعمال الأعلام / القسم الثالث**، نشر بعنوان: **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، تحقيق، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964 : 94، (وهامش المحققين 94–95) ؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، باعتناء ابن أبي شنب، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1908 : 300 ؛

R. Basset،Art: Ibn Hammad،**Ency. Of Islam**،Ist edition ;

ميخائيل أماري، **المكتبة العربية الصقلية**، لايبزك، 1857، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعها بالأوفست: 317–318 ؛ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب،1960–1965: 1/ 150، 167، 2/ 386 ؛ عثمان الكعاك، **موجز التاريخ العام للجزائر**، تونس، مكتبة العرب، 1925: 283 ؛ عثمان الكعاك، **بلاغة العرب في الجزائر**، تونس، مكتبة العرب، (د.ت): 26، 41 ؛ خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط2، القاهرة، مطبعة كونستانوماس، 1955: 7/ 169؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، دمشق، مطبعة الترقي، 1957: 11/ 4 ؛ أحمد بن محمد أبو رزاق، **الأدب في عهد دولة بني حماد**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979 : 203 ؛ عبد الحليم عويس، **دولة بني حماد**، بيروت، دار الشروق، 1980 : 267، 269.

ونشأ بالقرية المذكورة، وتلقى علومه في القلعة التي كانت تعج برجال الفكر والأدب والسياسة، فأخذ عن كبار علمائها وأُدبائها. ثم تحول إلى مدينة بجاية، حيث أتم ما بدأه بالقلعة، فتلقى علومه على جملة من الشيوخ، منهم المربي الشهير أبا مدين شعيب بن الحسن الاشبيلي البجائي (ت سنة 594هـ/ 1197م). فقد درس عليه كتابه **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، وذلك في دار الأخير ببجاية سنة 531هـ/ 1136م.[1] ومن شيوخه أيضاً القاضي المحدث أبو محمد عبد الحق الأزدي الاشبيلي (ت 582هـ/ 1185م)، صاحب المؤلفات القيمة في الفقه والحديث واللغة، فروى عنه كتباً كثيرة في الحديث، لاسيما **موطأ مالك**. وأخذ أيضاً عن الإمام حسين بن علي بن محمد الشهير بأبي علي المسيلي، وكذلك عن الشيخ ميمون بن جبارة، أبا تميم البارودي، الذي تولى القضاء لبعض الوقت في بجاية، والشيخ أبا العباس بن ميسر. ولابد أنه كان لابن حماد تلاميذ كثيرين لازموه، وأخذوا عنه، إلا أن معلوماتنا عنهم قليلة، ولم تذكر المصادر سوى القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمساني، الذي كان حياً سنة 584هـ/ 1188م.[2]

تنقل ابن حماد في المغرب الأوسط، ورحل إلى مدينة الجزائر، وتلمسان، وإلى المغرب ألأقصى. ثم انتقل إلى الأندلس حيث أسند إليه الموحدون قضاء الجزيرة الخضراء Algeciras، ثم صُرف عنها، ليتولى قضاء مدينة سلا المغربية سنة 613هـ/ 1216م، ثم تولى قضاء أزمور سنة 616هـ/ 1219م. وتوفي بعد ذلك عن عمر قارب الثمانين عاما سنة 628 هـ/ 1231م.[3]

---

(1) الغبريني، **عنوان الدراية** : 218 .

(2) **المصدر نفسه** : 219 .

(3) **المصدر نفسه** :220 ؛ وينظر: ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** :1/ 150 الذي جعل تاريخ وفاته سنة 629 هـ.

ألف ابن حماد في ميادين مختلفة، وكتب عدة كتب ما تزال مفقودة، باستثناء أحدها وقطع صغيرة من بعضها، وهذه الكتب هي:

**1 – برنامجه**: الذي ذكر فيه شيوخه، ومقروءآته من الكتب، وهو يشتمل على 222 كتاباً، كلها مسندة إلى مؤلفيها ومذكور السند فيها. ويقول أبو العباس الغبريني (ت 714هـ/ 1314م)،[1] الذي اطلع على هذا **البرنامج**، بأنه لم ير أحسن منه، «**لأن أكثر البرنامجات تقع فيها إحالات، إما في الكل أو في البعض، إلا هذا البرنامج، فإنه لم يُحِل فيه على كتاب أصلاً، وذكر فيه أنه لخص كتاب تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري**». ويُضيف الغبريني، أن كل شيوخه في هذا **البرنامج** هم من كبار العلماء، وأنه كان بمنزلة من التحصيل والعلم أكثر مما اشتمل عليه هذا **البرنامج**، والذي يدل على اهتمامه، لاسيما في مجال علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وعلم الأصول، وعلوم النحو، والآداب، والتاريخ، والرقائق، والأذكار.

**2 – الإعلام بفوائد الأحكام**: وفيه يُعرِّف بفوائد كتاب شيخه عبد الحق الاشبيلي، الموسوم: **الأحكام الشرعية الكبرى**.

**3 – شرح مقصورة ابن دريد**: وهذه **المقصورة**، هي من جيد شعر أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي اللغوي البصري(ت 321هـ/ 933م)، والتي يمدح فيها عبد الله بن محمد بن ميكال وولده أبي العباس إسماعيل بن عبد الله، ويقال أنه أحاط فيها بأكثر المقصور.

**4 – ديوان شعره** : وهو يدل على اهتمام ابن حماد بالشعر، لاسيما الرثاء، والوصف. وشعره على قلة ما وصلنا منه يمتاز بالرقة، وصدق اللهجة، مثال ذلك، شعره في رثاء الدولة الحمادية، التي ارتبط اسمه بها على الرغم من أنه لم

(1) **المصدر نفسه** :219 .

يعاصرها. وكان رثاؤه هو الوحيد الذي وصلنا للدولة، فقد خلَّد آثارها، ووقف عند الكثير من أمجادها وعظمائها. وليس هذا غريباً، لأنه سليل هذه الأسرة، وبقية من أمجادها الرائعة.[1] ومن جملة ما قاله في خرائب أحد قصور بني حماد بالقرب من القلعة:[2]

إنَ العَروسيْن[3] لا رســـــــــمٌ ولا طَلَلُ
فَانْظر تَـرَى ليسَ إلاّ السهلَ والجبلُ

وقَصرُ بَلاَّرَةٍ[4] أودَى الزمانُ بِـــــــــهِ
فأينَ ما شادَهُ منها الســـــــادةُ الأُولُ؟

قَصرَ الخلافةِ أيـن القَصرُ مِـنْ خَـرب؟
غَير اللُّجين وفي أرْحَابِها زُحَـــــــل

وليسَ يُبهجُني شيءٌ أُسرُّ بِـــــــــهِ
مِن بعدِ أن نَهجَت بالمنهجِ السُـــــبُل

وما روى الكوكبَ العُلويَّ مُعتصـــــمٌ
وقد عَرى الكوكبَ التغييرُ والنـَّـــــدَلُ[5]

وقد عَفا قَصرُ حمادٍ فليــسَ لـــــهُ
رسـمٌ ولا أثـرٌ بـاقٍ ولا طَلـــــلُ

(1) عويس، **دولة بني حماد** : 207 .

(2) ينظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام / القسم الثالث**: 95.

(3) العروسان هو اسم القصر الذي بناه الناصر بن علناس في مدينة القلعة.

(4) اسم زوجة الناصر بن علناس، وهي بلارة بنت تميم بن المعز.

(5) أي الوسخ .

ومجلسُ القومِ قد هَبَّ الزمانَ بهِ
بحادثٍ قلَّ فيه الحادثُ الجَلَلُ

وأن في القصرِ قصرُ المُلكِ مُعتبراً
لمن تَغُرُّ َبه الأيامُ والدُّوَلُ

**5 – النبذة** أو **(النبذ) المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة بإفريقية وبجاية:** وهذا الكتاب هو أكبر كتاب في التاريخ الصنهاجي، وهو عبارة عن تاريخ لبعض الدويلات التي قامت في شمال إفريقيا، وتنتمي إلى قبيلة صنهاجة البربرية حتى سنة 617هـ/ 1220م. وقد نقل عنه بعض المؤرخين، لاسيما ابن خلدون في **تاريخه** الكبير عندما يتحدث عن بجاية وما حولها.

وقد عثر العالم الفرنسي شيربونوه Cherbonneou M. على قطعة إعتقد أنها منه، تتناول تمرد أبي يزيد الخارجي على الدولة الفاطمية، فترجمها إلى الفرنسية، ونشرها في **المجلة الآسيوية:**[1]

**Journal Asiatique**, 1852, P.470, 1855, P. 529

ومن الجدير بالذكر، أن هذه القطعة هي بالأصل من كتاب:**أخبار ملوك بني عبيد** الذي سنتحدث عنه في الفقرة التالية.

6 – **كتاب أخبار بني عبيد وسيرتهم:** وقد وصلنا هذا الكتاب، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر. وقف عليه المستشرق فوندر هايدن Vonder Hayden ونشره مع ترجمة فرنسية بالجزائر، بعنوان: **Historie des Rois Obaidices qor Ibn Hammad،** (Alger–Paris، 1927)

وقد طبع مرة ثانية في الجزائرسنة 1984 بتحقيق، جلول أحمد البدوي.

يتناول هذا الكتاب أخبار حكام «بني عبيد» من الفاطميين، اعتباراً من أولهم،

(1) ينظر: تعليق التحقيق لكتاب **أعلام الأعلام/ القسم الثالث** : هامش (1)،ص 94–95 .

ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدي (297–322هـ/ 909–934م)، إلى آخرهم عبد الله العاضد لدين الله، الذي توفي سنة 567هـ/ 1171م، وهي السنة التي انتهت فيها هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي. وقد اعتمد ابن حماد على بعض الكتب التي سبقته، إضافة إلى بعض الروايات الشفوية. فهو يقول في مقدمة هذا الكتاب، بعد الديباجة: « ... **وبعد فهذه جملة من أخبار بني عبيد قيدتها في هذا التأليف، فبعضها التقطه من مفرقات التواليف، وبعضها عرفني به من وثقت منه بالتعريف. وقد دعاني إلى هذا التأليف ما دعا المؤلفين والمؤرخين إلى أمثاله، وما من شيْ إلا وقد أُفرغ في قالبه، ونسخ على منواله، ولله الحمد من قبل ومن بعد، ومنه يُسأل العون والقصد**».[1]

وعلى الرغم من أن المؤلف فقيه وقاضي مالكي، لكنه انتهج في هذا الكتاب الحياد، ولم يتهجم على الفاطميين، كما فعل بعض المؤرخين المعاصرين له الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الموحدية، أمثال: عبد الملك بن موسى الوراق، وحسن بن علي المعروف بالقطان. فقد تجنب ابن حماد ما أمكنه الخوض في تفاصيل مسائل الخصام، وإدعاء النسب، ثم اختتم الكتاب معلقاً على وفاة الخليفة العاضد، وعلى نهاية الدولة الفاطمية بقوله: «**وهكذا الدهر وأهل الدهور، وإلى الله تصير الأمور... وعند الله تجتمع الخصوم ويلتقي الظالم بالمظلوم**».[2].

ولابد من الإشارة أخيراً إلى تشابه بعض نصوص هذا الكتاب، مع كتاب **النبذة المحتاجة**، الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى الخلط بين نصوصه، ونصوص من **النبذة المحتاجة**، وأولهم الفرنسي شيربونوه المذكور أعلاه، ثم

(1) الصنهاجي، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم** :17 .

(2) الصنهاجي، **أخبار بني عبيد** :81 .

ميخائيل أماري M. Amari، الذي أورد نصاً من هذا الكتاب، على أنه من **النبذة المحتاجة**.[1] كذلك أشار محققا كتاب **أعمال الأعلام**/ القسم الثالث، إلى أن ما جاء في **تاريخ صنهاجة**، هو عبارة عن تاريخ للعبيديين وبعض دويلات شمال إفريقيا حتى سنة 617هـ/ 1220م وهي السنة التي أنجز فيها ابن حماد هذا الكتاب[2].

(1) **المكتبة الصقلية** : 317–318 .

(2) **أعمال الأعلام/ القسم الثالث / تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط** :94.

**(4)**

ومن علماء المغرب الأقصى الفقيه، الحافظ، والمؤرخ أبو عبد الله محمد بن حمادُه السبتي البرنوسي، الذي عاش في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي، ولا تتوفر لدينا معلومات عن تاريخ مولده، ووفاته، لكننا نعلم من نسبته أنه من أهل مدينة سبتة المغربية.[1] ويُطلق عليه المؤلف المجهول لكتاب **مفاخر البربر** اسم الفقيه الحافظ التاريخي أبو عبد الله محمد بن حمادُه السبتي البرنوسي، نسبة إلى برنوس من بربر البرانس.[2] ولقد كان ابن حمادُه من تلاميذ القاضي عياض بن موسى بن عياض (ت 544هـ/ 1149م)، وقد سمع عليه في سبتة. وهذا يشير إلى نوعية ثقافته، لأن أستاذه القاضي عياض كان مهتماً جداً بالعناية بالحديث النبوي الشريف، وجمعه وتقييده، فضلاً عن ملكته التاريخية

---

(1) ينظر عنه : حسن بن علي ابن القطان، **نظم الجمان**، تحقيق، محمود علي مكي، تطوان، 1966 (نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط): 99، وهامش المحقق رقم (2) ؛ أبو العباس أحمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، : 1/ 2، 89، 202–203، 211، 216، 220، 227، ج3 نشر، ليفي بروفنسال، باريس، 1930 : 3/ 113، 115، ج4 نشر، أمبروسي هويسي ميرندة، 1960، 4/ 58، 74، 83، 88، 96، 98، 104 ( وقد أعادت دار الثقافة نشر هذه الأجزاء في بيروت)؛ مجهول المؤلف، **نبذ تاريخية في أخبار القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر**، نشر، ليفي بروفنسال، الرباط، 1934، : 43، 46، 58، 64 ؛ علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972: 24، 28، 38، 50، 180، 198 ؛ علي الجزنائي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، الرباط، المطبعة الملكية، 1967: 23 ؛ ليفي بروفنسال، «نص جديد عن فتح العرب للمغرب»، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية**، العدد الثاني، مدريد، 1954 : 205، وهامش رقم (1) ؛ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1960: 1/ 59–60، 134 ؛ عبد الواحد ذنون طه، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، ج4 / م36، بغداد (1985): 233–235، ج4 / م37 (1986): 372–373، ج3 و4 / م 40 (1989) : 422–4423.

(2) ينظر: **مفاخر البربر** : 43 .

في التأليف، وكتابة التراجم، والتي لا بد وأثَّرت في تلميذه ابن حمادُه، الذي اتجه بدوره إلى كتابة التاريخ.

عُرِف ابن حمادُه بتأليفه لكتاب **القبس** أو **المقتبس في أخبار المغرب والأندلس**، كما نُسِبَ إليه أيضاً كتاب آخر باسم **تاريخ البرنوسي في دولة الأدارسة**، وهذين الكتابين من الكتب المفقودة. وقد أشار إلى الكتاب الأول وذكر اسمه، مؤلف **مفاخر البربر**، واقتبس منه نصوصاً عن أخبار المغرب والأندلس، والتي، وكما يبدو من كلام هذا المؤلف، أنه اختصرها في كتابه.[1] وقد أشار إليه أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (كان حياً سنة 712هـ/ 1312م) في مقدمة كتابه،[2] باسم **كتاب القبس** و**المقتبس**، ونقل عنه كثيراً.

ومن استقرائنا لبعض النصوص التي ذكرها ابن عذاري عن ابن حمادُه، تتبين بعض الأساليب التي اتبعها الأخير في التدوين التاريخي، والاهتمام بالحديث النبوي الشريف. فبالنسبة للتاريخ، نجده يتحرى الوثائق التاريخية وينقل عنها، إن توفرت. ففي حديثه عن مدينة سبتة عام 353هـ/ 964م، يذكر ابن حمادُه أنه اطلع عند القاضي عياض على سجل كتبه الخليفة الحكم المستنصر بالله إلى أهل سبتة يرفع عنهم فيه جميع المغارم التي كانت عليهم.[3] وبالنسبة للحديث، فقد كان يُعنى بالروايات العالية الإسناد، لاسيما تلك التي ترتفع إلى عبد الله بن عمر، والتي لها علاقة بتاريخ المغرب. وهذه الأحاديث تحاول أن تُضفي صبغة من القدسية على بعض المدن في المغرب، مثل سبتة، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر اشتقاق اسمها، ودعا لها بالبركة والنصر. ويقول ابن

---

(1) **المصدر نفسه** :43، 64،58،46 .

(2) **البيان المغرب** : 1/ 2 .

(3) **المصدر نفسه** :1/ 227 .

حمادُه : «قال شيخنا العالم أبو الفضل عياض بن موسى: وهذا الحديث تشهد بصحته التجربة، فإنها ما زالت محمية عند من وليها من الملوك، وقلّ ما أحدث أحد منهم فيها حدث سوء، إلا هلك».[1]

وتساعد بقية النصوص التي أخذها ابن عذاري عن ابن حمادُه في التعرف على العصور التاريخية التي يغطيها كتاب **القبس**. فهناك نص عن وصول هرثمة بن أعْين إلى إفريقية في خلافة هارون الرشيد. ويتطرق ابن حمادُه في نصين آخرين إلى أخبار الدولة الفاطمية، وأعمال بعض خلفائها في القضاء على الفتن التي قامت ضدها، واضطهادهم لأهل القيروان. وتتضمن نصوص أخرى أخباراً عن عصر الطوائف، وأحوال البربر في الأندلس. وكذلك عن دولة المرابطين وأواخر عهدهم في المغرب والأندلس. وهذه النصوص تشمل مختلف الموضوعات السياسية والعسكرية والعمرانية والاجتماعية، مما يشير إلى تنوع اهتمامات ابن حمادُه.[2]

وأخيراً نشير إلى رواية لابن حمادُه أوردها ابن عذاري بشأن نهاية المرابطين، وهي تتصف بالدقة، وتحديدها للزمان والمكان الذي تمت فيه المعركة الأخيرة بين المرابطين والموحدين، ونهاية الأمير المرابطي الأخير تاشفين بن علي في السابع والعشرين من رمضان سنة 539هـ/ 1144م بالقرب من وهران (**البيان المغرب**:4/ 104).[3] وكلام ابن حمادُه هنا، وأخباره عن هذه الأحداث، يُعد على درجة كبيرة من الأهمية، لأنه كان يعيش في تلك الحقبة، ويعاصرها، فهو مؤرخ وشاهد عيان يمكن الاعتماد عليه. وقد أدرك ذلك المؤرخون اللاحقون، فاقتبسوا منه، مثل ابن عذاري، وعلي الجزنائي، وابن أبي زرع الفاسي.

---

(1) **المصدر نفسه** :1/ 202-203 .

(2) **المصدر نفسه** : 4/ 58، 74، 96، 98.

(3) **المصدر نفسه** :4/ 104 .

ولا يتوقف كتاب **القبس** عند سقوط دولة المرابطين، بل يستمر مؤلفه في الإشارة إلى أحداث، ينقلها ابن أبي زرع، حصلت في عهد الموحدين، مثل خبر وفاة محمد بن تومرت، الزعيم الروحي للدعوة الموحدية سنة 524هـ/ 1130م، وكذلك روايته لأحداث وقعت في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي سنة 555هـ/ 1160م[1]. مما يدل على امتداد تاريخ ابن حمادُه، وتقصيه لأخبار وقعت في عهد الدولة الموحدية.

ومن المحتمل أن كتاب ابن حمادُه الثاني الخاص **بتاريخ دولة الأدارسة**، ما هو إلا جزءاً من كتابه الكبير **القبس**، فقد وردت نصوص تدل على اهتمامه بتاريخ الأدارسة، لاسيما أخبار عن عهد إدريس بن إدريس،[2] ومعلومات كثيرة عن بناء مدينة فاس، أوردها كل من علي الجزنائي،[3] وابن أبي زرع. وقد أشار الأخير إلى أن ابن حمادُه، هو أحد المؤرخين الذين اعتنوا بتاريخ الأدارسة،[4] الأمر الذي يؤكد نسبة كتاب **تاريخ البرنوسي في دولة الأدارسة** إليه.

(1) **الأنيس المطرب** : 180، 198 .

(2) **البيان المغرب** :1/ 211 .

(3) **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس** : 23 .

(4) **الأنيس المطرب** :24 .

**(5)**

ومن علماء القرن السادس الهجري أيضاً المؤرخ المغربي أبو مروان عبد الملك بن موسى الوراق، من أعلام مدينة فاس،[1] كان حياً سنة 555هـ/ 1160م، كما يتضح ذلك من نص نقله كل من علي الجزنائي، وعلي بن أبي زرع الفاسي، والذي يشير إلى تواجده في مدينة تلمسان في تلك السنة. ويحتمل أنه عاش سنوات طويلة بعد ذلك، حيث أشار خير الدين الزركلي إلى وفاته سنة 628هـ/ 1231م، لكنه لم يحدد مصدره في ذلك.[2] وقد أسماه ابن أبي زرع الفاسي، بأبي محمد عبد الملك بن محمود الوراق.[3] ولا نجد في المصادر

---

(1) ينظر عنه :

أبو العباس أحمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في إخبار الأندلس والمغرب**، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948 : 1/ 2، 255، 311–312، والجزء الثالث، نشر، ليفي بروفنسال، باريس، 1930، 3/ 228، 249، 258، 272، والجزء الرابع، نشر، أمبروسي هويسي ميرندة، 1960، 4/ 78، 80، 97، 99، 101، وقد أعادت دار الثقافة ببيروت نشر هذه الأجزاء ؛ **مجهول، نبذ تاريخية في أخبار القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر**، نشر، ليفي بروفنسال، الرباط، 1934: 37، 44، 45، 53، 81 ؛ علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، الربط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973: 24، 27، 42، 50 ؛ أبو الحسن علي الجزنائي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967: 27، 40، 42، 65، 66 ؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشهير بابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق، محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973: 1/ 446–447 ؛ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1960: 1/ 59 ؛ خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط2، القاهرة، مطبعة كونستانوماس، 1955: 7/ 169 ؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، دمشق، مطبعة الترقي، 1957ك 6/ 192 ؛ عبد الهادي التازي، **جامع القرويين**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1972: 1/ 167 ؛ عبد الواحد ذنون طه، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، ج4 / م36: 231–233، ج4 / م37 : 372، ج3 و4 / م40 : 422،( بغداد، 1985، 1986، 1989 ).

(2) **الأعلام** :7/ 169 .

(3) **الأنيس المطرب** :24 .

القديمة المتيسرة ترجمة للوراق، إلا أنه اشتهر بتأليف كتاب تاريخي، نقل عنه العديد من المؤرخين اللاحقين، وأشاروا إليه وإلى استفادتهم منه. واسم هذا الكتاب هو:

**المقباس في أخبار المغرب وفاس**، أو **المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس**.

ولعل التسمية الأخيرة هي الأكثر صحة وانطباقاً على الكتاب، لأن الوراق تطرق في كتابه إلى الأندلس أيضاً، كما سنرى لاحقاً. ومن جملة من نقل عن هذا الكتاب، المؤلف المجهول لكتاب **مفاخر البربر**، الذي يشير إليه بكلا الأسمين.[1] واعتمد علي الجزنائي في كتابه **جني زهرة الآس**، على عبد الملك الوراق، وأسماه بصاحب **المقباس**، ونقل عنه نصاً مهماً يشير إلى دقة هذا المؤرخ، وتوثيقه لما يكتبه، وأنه كان شاهد عيان يتفحص الآثار المادية، ليستخلص منها المعلومات التاريخية الصحيحة؛ فيقول : «**قال الوراق في مقباسه: دخلت جامع تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمئة، فرأيت في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد سُمِّر هناك. وعليه مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومئة**».[2] ويشير ابن أبي زرع إلى هذا النص ذاته، لكن السنة ترد مصحفة عنده، فهي «خمس وخمسين ومئتين»، وهو خطأ .[3] ويأخذ كل من هذين المؤرخين عن الوراق أخباراً أخرى تتعلق بتاريخ الأدارسة، ومدينة فاس، ومراحل تطور بناء جامع القرويين.

---

(1) **مفاخر البربر** : 37، 53 .

(2) الجزنائي، **جني زهرة الآس** : 27 .

(3) **الأنيس المطرب** :50 .

ويعد ابن عذاري المراكشي من أكثر المؤرخين الذين اعتمدوا كتاب الوراق. فقد أخذ عنه أخباراً تتعلق بقبيلة زناتة في المغرب والأندلس، وعلاقاتها مع الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وكذلك علاقتها مع دولة المرابطين في بداية أمرهم. كما نقل عنه نصاً يتعلق بمؤآمرة اغتيال الخليفة الفاطمي الآمر بالله، أبو علي المنصور (495–524هـ/ 1101–1130م). ثم يذكر كلام الوراق في مثالب الآمر، ويهاجم الفاطميين، الذين يصفهم «**بالشيعة العبيدية**»،[1] الأمر الذي يدل على أن الوراق كان أحد دعاة أو أنصار الموحدين بالمغرب الذين لا يعترفون بالخلافة الفاطمية. ومعلومات الوراق عن مصر في هذا النص غير دقيقة، لأنه أورد حادثة الاغتيال في سنة 527هـ/ 1132م، في حين أن الآمر قُتِل سنة 524هـ/ 1129م.

ونقل ابن عذاري عن الوراق أيضاً أربعة نصوص مختلفة عن عصر الطوائف، تقع أحداثها جميعاً في حدود منتصف القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، من سنة 447هـ/ 1055م إلى سنة 458/ 1066.[2] ثم نقل عنه روايات عن عصر المرابطين، لاسيما أخبار الأمير علي بن يوسف بن تاشفين (500–537هـ/ 1107–1143م)، حيث يشير إلى خمس نصوص في مناسبات مختلفة تتعلق كلها بهذا الأمير وأولاده، سير، تاشفين، وإسحاق.[3] ومما لاشك فيه أن روايات الوراق هذه عن عهد علي بن يوسف، على درجة كبيرة جداً من الأهمية، لأنه كان معاصراً وقريباً من هذه الحقبة. وقد أدرك ابن عذاري ذلك، فاستشهد به كثيراً، لتعزير موارده عن أواخر عهد الدولة المرابطية. كما نقل

(1) **البيان المغرب** 1/ 310–312 .

(2) **المصدر نفسه** 3/ 228، 249، 258، 272 .

(3) **المصدر نفسه** :4/ 78، 80، 97، 99، 101 .

لسان الدين بن الخطيب أيضاً معظم هذه الروايات عن الوراق،[1] لاسيما عن الأمير تاشفين بن علي.

ومن المؤسف أن هذا الكتاب الآن في عداد المفقودات، ولو أن هناك بارقة أمل في العثور عليه، فقد أشار عبد السلام بن سودة المري،[2] إلى أن أحد أصدقائه قد رأى هذا الكتاب «**تاماً بمكناسة الزيتون في مجلد بيد بعض الطلبة**». ونأمل أن يظهر في المستقبل، لتستفيد منه المكتبة العربية، لأن ما لدينا منه من نصوص منقولة، لا تغني عنه كاملا، ولا تساعدنا في تحديد نطاقه بشكل دقيق. ولكنها مع ذلك، تسمح لنا بالافتراض، بان كتاب **المقباس**، كان يتناول الأحداث في المغرب والأندلس، لاسيما منطقة مدينة فاس منذ تأسيسها في القرن الثاني للهجرة، حتى وفاة الوراق في النصف الثاني من القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي، هذا بالإضافة إلى بعض الأخبار عن المشرق، لاسيما عن مصر في عهد الفاطميين.

(1) **الإحاطة في أخبار غرناطة** :1/ 446-447 .

(2) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** : 1/ 59 .

## (جريدة المصادر والمراجع)

**أ – المصادر الأولية :**

1 – ابن الأبار، أبو عبد الله محمد، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر، عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1955–1956 ؛

2 –، **الحلة السيراء**، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963.

3 – ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق، نزار رضا، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1965.

4 – البكري، ؛ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو جزء من كتاب **المسالك والممالك**، نشر، دي سلان، الجزائر، 1857.

5 – البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين**، استانبول، 1951، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

6 –، **إيضاح المكنون**، استانبول، 1947، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

7 – البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971.

8 – ابن البيطار، ؛ عبد الله بن أحمد ابن البيطار، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، مصر، مطبعة العامرة، 1291هـ.

9 – الجزنائي، أبو الحسن علي، **جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967.

10 – ابن جلجل، سليمان بن حسان الأندلسي، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق، فؤاد سيد، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

11 – حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، استانبول، 1941–1943، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.

12 – ابن الخطيب، لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبدالله، **أعمال الأعلام / القسم الثالث**، نشر بعنوان : **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، تحقيق، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964.

13 –، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق، محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973.

14 – ابن خلكان، ؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**،، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1968.

15 – الذهبي، ؛ شمس الدين محمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وإبراهيم الزيبق، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986.

16 – ابن أبي زرع، علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، الرباط، نشر، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
17 – ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد، **المن بالإمامة**، تحقيق، عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، 1964.
18 – صاعد، ؛ أبو القاسم صاعد بن أحمد التغلبي الأندلسي، **طبقات الأمم**، تحقيق، حياة بوعلوان، بيروت، دار الطليعة، 1985.
19 – الصنهاجي، ابن حماد، **أخبار بني** عبيد وسيرتهم، تحقيق، جلول أحمد البدوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
20 – ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، نشر، كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948 ج1و2، ج3 نشر، ليفي بروفنسال، باريس، 1930، ج4 نشر، أمبروسي هويسي ميرندة، 1960.( وقد أعادت دار الثقافة نشر هذه الأجزاء في بيروت).
**21 – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب/** قسم الموحدين، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ورفاقه، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.
22 – عياض، ؛ القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق، عبد القادر الصحراوي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1968.
23 – الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق، عادل نويهض، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979.
24 – ابن القاضي، أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.
25 – ابن القطان، حسن بن علي، **نظم الجمان**، تحقيق، محمود علي مكي، تطوان، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1966.
26 – المالكي، ؛ أبو بكر عبد الله بن محمد، **رياض النفوس**، تحقيق، بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983.
27 – مجهول المؤلف، (وقد نسب مؤخراً إلى ابن السماك العاملي) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979.
28 – مجهول المؤلف، **كتاب العيون والحدائق**، تحقيق، عمر السعيدي، دمشق، المعهد الفرنسي.
29 – مجهول المؤلف، **نبذ تاريخية في أخبار القرون الوسطى منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر**، نشر، ليفي بروفنسال، الرباط، 1934.
30 – المراكشي، ؛ أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصاري، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، ج1.
31 – ابن مريم، – أبو عبد الله محمد بن أحمد، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، باعتناء ابن

أبي شنب، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1908.
32 – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **إتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا**، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1967.
33 – ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، بيروت، دار المستشرق (د.ت).

**ب – المراجع الثانوية:**

34 – ميخائيل أماري، **المكتبة العربية الصقلية**، لايبزك، 1857، أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعها بالأوفست.
35 – التازي، عبد الهادي، **جامع القرويين**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1972.
36 – بروفنسال، ليفي، «نص جديد عن فتح العرب للمغرب»، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية**، العدد الثاني، مدريد، 1954.
37 – أبو رزاق، أحمد بن محمد، **الأدب في عهد دولة بني حماد**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.
38 – الزركلي، خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط2، القاهرة، مطبعة كونستانوماس، 1955.
39 – زمامة، «اكتشاف نص جديد من كتاب **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب** يتعلق بتاريخ الموحدين»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، فاس/ جامعة محمد بن عبد الله، العددان 4 و5، 1980–1981.
40 – ابن سودة، عبد السلام بن عبد القادر المري، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1960–1965.
41 – عبد الواحد ذنون طه، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشـــي «، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، ج4 / م36، بغداد 1985: 233–235، ج4 / م37 1986.
42 –، «موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، ج3 و4، / م40، بغداد، 1989.
43 – عبد الحميد، سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979.
44 – عبد الوهاب، حسن حسني، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، تونس، مكتبة المنار، 1965.
45 – عويس، عبد الحليم، **دولة بني حماد**، بيروت، دار الشروق، 1980.
46 – كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين**، دمشق، مطبعة الترقي، 1957.
47 – الكعاك، عثمان، **بلاغة العرب في الجزائر**، تونس، مكتبة العرب، (د.ت).
48 –، **موجز التاريخ العام للجزائر**، تونس، مكتبة العرب، 1925.
49- Basset. R, Art : Ibn Hammad, **Ency. Of Islam**, Ist edition
50- Brrockelmann.C, **Geschichte der Arabischen Litteratur** ، Leiden, Brill, 1938, Vol. **I**, p.238, **S**، p. 424.

# التواصل الفكري بين بلاد شنقيط وبعض الحواضر الجزائرية مدينة ولاته التاريخية - نموذجا -

إعداد أ.د.محمدو المرابط الجيد[1]

يحتاج موضوع «التواصل الفكري بين بلاد شنقيط وبعض الحواضر الجزائرية» إلى مزيد من البحث والتحليل، ورغم أهمية المحاولات الجادة من طرف باحثين مهتمين بدراسة التفاعل العلمي والثقافي للحواضر بين الشمال والجنوب، فإن مدينة ولاته التاريخية التي تعتبر انموذجا حيا لذلك التفاعل والتواصل، لم تحظ بما تستحق من البحث، لذا وقع اختيارنا على هذا الموضوع الذي حاولنا من خلاله رصد مختلف قنوات التواصل، بين مدينة ولاته وبعض الحواضر الجزائرية، على عدة محاور هي:

1 ـ المحور العلمي والديني والاجتماعي (الرحلات العلمية ورحلات الحج والهجرات).

2 ـ المحور التجاري(القوافل التجارية).

3 ـ المحور الروحي الطُرقي(القادرية).

اعتمدنا في هذه المداخلة على بعض المصادر والمراجع الهامة، مثل ما كتبه ابن حوقل في القرن الرابع الهجري (10م) عن الصحراء الصنهاجية وبلاد السودان الغربي، وأبو عبيد البكري في كتابه «المغرب في ذكر بلاد إفريقية

(1) نائب رئيس الجامعة الإسلامية بلعيون موريتانيا،المكلف بالشؤون الأكاديمية والطلاب.

والمغرب»[1] وابن أبي زرع[2] وابن خلدون[3] وابن بطوطة[4] وغيرهم من الباحثين المهتمين بهذا اللون من التاريخ.

وفي الخاتمة توصلنا إلى حقيقة مفادها أن قنوات التواصل بين بلاد شنقيط وبعض الحواضر الجزائرية تمخضت عنها علاقات فكرية وروحية ودينية وثقافية واقتصادية موغلة في القدم، أدت إلى وحدة الحقل العلمي والعقدي والروحي.

## 1 – المحور العلمي والديني والاجتماعي (الرحلات العلمية ورحلات الحج والهجرات)

كانت مدينة ولاتة منارة علم ومعرفة في ربوع الصحراء، وأقدم مدن بلاد شنقيط، حيث تأسست في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وتم بناؤها وازدهرت على يد المجموعة الصنهاجية ـ العربية في القرون الموالية كمحطة تجارية نشطة، وحاضرة علمية في غرب الصحراء، وتحدثنا المصادر التاريخية عن نشأة هذه المدينة ونهضتها العلمية بحكم روابطها الخارجية مع بعض الحواضر الإسلامية وخاصة توات وتلمسان وتنبكتو.

---

(1) البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت 487هـ / 1094م «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»)، وهو جزء من كتاب «المسالك والمماليك» ألف سنة 461هـ / 1068م طبع هذا الجزء مع ترجمته إلى الفرنسية بعناية MAC–G.de Slame بالجزائر 1857م.

(2) ابن أبي زرع (علي بن عبد الله ) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وبتاريخ مدينة فاس. دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1973م.

(3) ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. 6 مج، ط 2 مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت1961.

(4) ابن بطوطة،(محمد اللواتي الطنجي)رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار. ط1. القاهرة، 1964م.

ومن هذا المنطلق أصبح لمدينة ولاته التاريخية دورها الديني والثقافي والفكري والعلمي، حيث تجسدت تلك الروابط العلمية في انتشار بعض المؤلفات المختصة في العلوم الشرعية واللغوية، بدءً بالقرآن وعلومه والحديث وعلومه(التوحيد والعقيدة والتفسير وعلم الكلام، والفقه وأصوله، والسيرة النبوية، واللغة والأدب)، وكان من أهم تلك المؤلفات:

العقيدة الكبرى، والعقيدة الوسطى، والعقيدة الصغرى (أم البراهين)، و«صغرى الصغرى» للإمام محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت895 هـ)[1]، ومنظومة الجزائري[2]، وإضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة، لأبي العباس المقري (ت1041 هـ)، ودليل القائد في العقائد» لمحمد صالح الأوجلي .

وقد دعمت هذه المؤلفات التي جاء أغلبها من الحواضر الجزائرية، حركة البحث العلمي، حيث بادر بعض علماء ولاتة بتدريسها مثل الطالب ألمين بن الطالب الحبيب الحرشي (ت1166هـ)، والبعض الآخر قام بتحقيقها وشرحها، مثل: الطالب محمد بن الطالب بوبكر الصديق البرتلي (ت1219هـ) الذي

(1) محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب الحسني (832 – 895هـ) من علماء تلمسان صاحب العقائد المشْهورة وحواشي الصحيح، أخذ عن الثعالبي والقلصادي وابن مرزوق الحفيد وغيرهم،وأخذ عنه ابن الحاج والملالي وابن أبي مدين وغيرهم،ودفن بـتلمسان، له مؤلفات كثيرة منها:«العقائد المشهورة الكبرى والصغرى» وشروح عليها، «شرح عقيدة الحوضي»،و«شرح الأسماء الحسنى»،و«شرح على قصيدة الجزائري»،وكتب في المنطق والتصوف، وشرح كتاب البقاعي ومختصره، وله في علم الحديث شروح على بعض المسائل في الصّحاح.

(2) أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي شهاب الدين أبو العباس(800 – 884هـ/ 1398 – 1479م)، متكلم، فقيه، مالكي، من كبار العلماء في وقته، له نظم، يقال أنه نظير عبد الرحمن الثعالبي علما وعملا، أصله من قبيلة زواوة، سكن الجزائر وتوفي بها، قال السخاوي من المشهورين بالصلاح والعلم والورع والتحقيق وقال الشيخ زروق كان شيخنا من أعظم العلماء إتباعا للسنّة وأكبرهم حالا في الورع، من آثاره (كفاية المريد) في علم الكلام، منظومة لامية تنيف على 400 بيت، وتسمى أيضا (الجزائرية في العقائد الإيمانية) مخطوطة، في الأزهرية، شرحها الإمام محمد بن يوسف السنوسي التلمساني وأثنى عليه، وله قصيدة في علم التوحيد.

قام بشرح «صغرى السنوسي»، ومحمد عبد الله بن الطالب أحمد البرتلي (ت1263هـ) الذي قام بشرح إضاءة الدجنة، للمقري.

وفي مجال الفقه يتم تدريس الأخضري، وقد قام محمد يحيى بن سليمة اليونسي (ت1354 ه)[1] بتأليف شرح في نظم سماه «نظم على عبادات الأخضري» كما يتم تدريس ابن عاشر ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل.

وفي مجال القرآن وعلومه، كانت ولاته أهم المراكز في حفظ القرآن ودراسته، ولعبت دورا رياديا في هذا المجال، بالإضافة إلى علوم الحديث والسيرة النبوية واللغة والأدب.

أما مجال الأصول كانوا يبدؤون بدراسة «ورقات إمام الحرمين»[2] وممن شرحها صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت1272 هـ)، وللشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المحتار الكنتي (ت 1244هـ) نظم لها شرحه العلامة محمد يحيى الولاتي، كما شرح «مرتقى الوصول» لابن عاصم، وله أيضا فتح الودود على شرح مراقي السعود.

وكان لعلماء توات دور بارز في إرساء العلاقات العلمية بين الحواضر الإسلامية في الغرب الافريقي وولاتة، ويعود الفضل في ذلك إلى الدور الذي قام به الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من توجيه وإرشاد وإصلاح في حواضر السودان الغربي.[3]

---

(1) المختار بن حامدن كتاب «موريتانيا» الحياة الثقافية.

(2) رسالة الورقات والمعروفة بورقات إمام الحرمين لأبي المعالي الجويني من أعظم وأجمع ما صُنِّف في أصول الفقه، وقد نظمه العديد من العلماء، ويعد نظم ابن المختار الكنتي من أجملها وأكملها، وقد سمَّاه: (منح الفعالِ في ورقات أبي المعالي)، وقد قام بشرح هذا النظم العلامة محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي وقد قام بالتعليق على هذا الشرح الشيخ صالح العصيمي.

(3) محمد بن عبد الكريم المغيلي، ولد بقرية مغيلة من عائلة راقية النسب ومشهورة بالعلم والدين والشجاعة في الحروب. حتى كان لأحد أجداده شرف المشاركة مع طارق بن زياد في فتح الأندلس. واختلف الباحثون كثيرا في تحديد تاريخ ميلاده وإن اتفقوا على أن وفاته كانت في سنة 909 هـ .

وقد شملت الروابط بين ولاته ومحيطها الخارجي روابط ثقافية ودينية، ولعل أهم مظهر لذلك هو الركب الذي ينطلق من المدينة سنويا باتجاه الحج، ذلك الركب الذي قدم ابن بطوطة معه أثناء عودته إلى ولاتة[1]، وقد كان الحج بمثابة الفرصة التي يتم فيها التبادل الثقافي بين المدينة والعالم الخارجي، حيث يمر الحجاج في طريقهم بحواضر ثقافية ودينية في المغرب والمشرق، كما كانوا يقومون بالتعريف ببلدانهم في تلك الأصقاع.

وهو ما يؤكده الفقيه محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي (1140 – 1219هـ) في مؤلفه:«فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التّكْرورْ»، حين ترجم للحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي الملقب «التواتي»، أصيل «ولاتة»، فقال عنه:«حج مرات بيت الله الحرام، وهو شيخ الركب من أرضنا حتى يصل إلى توات فيكون الأمر لأبي نعامة»[2] (أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الكنتي التواتي الملقب بالبكاي).

وكانت قافلة الحج تنطلق من ولاته عبر «اتوات»، وترجع من البلاد المقدسة محملة بالكتب وقد يمر بعض الحجاج من الطريق الشمالية مرورا بالمغرب وتونس ومصر، خاصة عندما تيسرت حركة الملاحة في البحر الابيض

(1) ابن بطوطة : مصدر سبق ذكره، ص: 776.

(2) أبو نعامة هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الكنتي التواتي الملقب بالبكاي، وصفه الزبيدي (ت 1205ه) بالولي الصالح واثنى عليه وأجازه عندما قدم القاهرة سنة 1197ه، وينتمي ابو نعامة لفرع اركاكدة من قبيلة كنته وهو الفرع الذي استقر في إحدى مناطق اتوات واسس فيها زاوية علمية كبرى ظلت تشع على جنوب الصحراء من خلال القوافل المنطلقة منها صوب السودان الغربي،كما انتشر صيت الزاوية وتردد في المصادر المشرقية مثل ما ذكره الزبيدي من أن منازل أبي نعامة وأهله تقع في آقبلي (من عمالة اتوات) وأن زاويتهم محترمة وأن أبى نعامة قد تولى رئاسة مشيخة ركب الحج كعادة أبيه وجده،انظر،د.حماه الله ولد السالم،موريتانيا في الذاكرة العربية،مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان،ط 2005م.

المتوسط، وهناك بعض الحجاج الأوائل الذين حفظ لنا البرتلي أسماءهم مثل: الحاج أحمد ابن أند عبد الله المحجوبي (ت 1140 ه)، حيث يقول عنه البرتلي«حج في ركب من أهل بلده ولقي رجالا من صناديد العلماء أخذ منهم، وقد كان رحمه الله مهتما بتحصيل الكتب فحصل منها بالشراء والاكتساب ما لم يحصل غيره من أبناء جنسه، وعم النفع بها ولله الحمد لأنه لا يمسكها عن مستعير»[1].

ومن بين العلماء المشهورين الذين درسوا بمدينة ولاتة، واشتهروا في مجال التصوف والفقه، أولئك الذين تحدث عنهم أحمد بابا التنبكتي في كتابه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» في معرض ترجمته لأحمد بن محمد التازَخْتي[2]، حيث ذكر أنه درس على جده الحاج أحمد بن عمر، وذكر رحيل التازختي نحو الخارج والتقائه بمجموعة من العلماء المشهورين في المشرق أمثال:القلقشندي، الشمس اللقاني وأبي البركات النويري[3]. ومنهم، كذلك، الحاج البشير بن الحاج أبي بكر البرتلي (ت1224 هـ) «حج عام أربعة ومائتين وألف وزار، وله رحلة يذكر فيها مراحل طريق الحج من بلاد اتوات إلى الحرمين، ولقي العلماء والصالحين، ولقي الشريف المرتضي بمصر وأجازه»[4] وفي نفس السنة حج الطالب الحاج صالح بن عبد الله بن الطالب بوبكر الايديلبي (ت 1205 هجرية).

---

(1) الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي (البرتلي)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص –44

(2) انظر : المختار بن حامد : حياة موريتانيا، ج2، الدار العربية للكتاب، تونس 1990، ص:199.

(3) محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي، شيخ فقيه وعلامة محدث. متفنن وحاز علوم عصره تقريبا توفي في حدود سنة 936هـ، للمزيد انظر : أحمد بابا التمبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، كلية الدعوة، طرابلس 1989، ص:587.

(4) المختار ولد حامدن– كتاب»موريتانيا الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس 1990.

غير أن الرحلة الولاتية إلى الحج ودورها في التواصل الثقافي قد خلدتها «الرحلة الحجازية» للمرحوم محمد يحيى الولاتي، وهو كتاب ذو قيمة علمية، يأخذك إلى مدينة تيشيت فواد نون ومدن المغرب، وفي كل محطة تطغى اهتمامات الرجل العلمية ودوره في حمل لواء علوم شنقيط إلى العالم الإسلامي، وتتوقف معه في طريق العودة يتوقف في بعض «مدن الاسلام عمرها الله» (مصر، تونس، المغرب، الجزائر) ليعود إلى ولاته عن طريق اتوات محملا بالكتب النفيسة التي أهديت له وتلك التي اقتناها[1].

وبعد تأسيس تنبكتو سوف ينتقل العلماء من ولاتة نحوها وذلك تبعا لتحول المسالك التجارية، لذلك فإن ولاتة ستشهد انحطاطا مرحليا في مسارها الثقافي، وهو ما سيؤدي إلى هجرة بعض الأسر العلمية نحو تنبكتو. ويذكر لنا الفقيه عبد الرحمن السعدي ذلك قائلا : « ... وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين ... ثم انتقل الجميع إلى تنبكتو قليلا قليلا حتى استكملوا فيه ... فكانت عمارة تنبكتو خراب بير»[2].

إلا أن مدينة ولاتة ستستعيد دورها الثقافي بعد انحطاط دولة مالي، وبداية قيام دولة السونغاي في السودان الغربي، حيث سيمثل حكم «سنّي علي»[3] الذي امتاز بالقسوة تجاه العلماء حافزا لهجرة هؤلاء من تنبكتو في موجات معاكسة إلى ولاتة، ولذلك ستشهد ولاتة نهضة علمية كبيرة تعتمد على عوائد التجارة الأطلسية مع ما ينطوي عليه ذلك من ضغوط اجتماعية وإشكالات فقهية (التعامل مع النصارى)، حيث ستصلها مجموعة من العلماء نذكر منهم حسب ما

(1) الولاتي، محمد يحي بن محمد المختار . الرحلة الحجازية . تخريج وتعليق محمد حجي . بيروت: دار الغرب الإسلامي 1990م

(2) انظر أحمد بابه التنبكتي : نفس المصدر السابق، ص: 587.

(3) انظر السعدي، تاريخ السودان، ص:63.

ورد في «تاريخ السودان» للسعدي:الفقيه عمر بن محمد أقيت وأولاده الثلاثة: الفقيه عبد الله والفقيه أحمد وهو أكبرهم، ـ والفقيه محمود وهو أصغرهم،[1]، كما كان من بين المهاجرين من تنبكتو نحو ولاتة الفقيه المختار النحوي الذي ذكر أنه أدرك الإمام الزموري الذي أجازه كتاب «الشفاء» للقاضي عياض[2].

كما هاجر إلى ولاتة الفقيه محمد الملقب بالتنبكتي فأصبح قاضي ولاتة وعالمها في زمنه[3]، ويؤكد «البارتيلي» أن أجداد هذا القاضي قد رحلوا من ولاتة إلى تنبكتو ليعودوا إليها في القرن 11هـ / 17م، وظل يمارس بها القضاء حتى وفاته سنة 1050هـ / 1640م، وكذلك شمس الدين بن القاضي محمد بن الفقيه محمود، من أسرة آل محمد أقيت المشهورة في تنبكتو، حيث هاجر إلى ولاتة سنة 1002هـ / 1593م في ظروف خاصة[4].

ومن علماء ولاتة المشهورين كذلك، الفقيه اندغ محمد بن الفقيه محمد بن أحمد الأثري التازختي الذي ذكره صاحب «فتح الشكور» ضمن سلسلة إجازة أعمر الولي في صحيح البخاري[5].

---

(1) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص: 65 (من النص العربي) مصدر سبق ذكره.

(2) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص:63.

(3) الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البارتيلي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص:113، مصدر سبق ذكره.

(4) فتح الشكور، مصدر سبق ذكره، ص: 114.

(5) ترأس شمس الدين بعثة أرسلها عمه قاضي تنبكتو، الفقيه عمر بن محمود إلى «أقا» ليطلب لهم العفو من الأمير مولاي أحمد (المنصور الذهبي) مما صدر لهم من الفئة مع القائد المصطفى حسب رواية السعدي واستشفع القاضي عمر بالفقيه عبد الله ابن مبارك الأقاوي الذي ركب معهم إلى مراكش ولم يمش إليه قط قبل ذلك». (السعدي،ص:167) فأكرمهم المنصور الذهبي وأعلن قبوله شفاعة ابن مبارك وبعد إقامتهم سنة كاملة بمراكش أرسلهم المنصور إلى تنبكتو صحبة القائد «بختيار» حاملا رسائل إلى «الباشا محمود (ابن زرقون ) أن لا يتعرض لهم بسوء»(السعدي،ص:172) إلا أن الخبر الذي وصلهم بموقع تغازة عن محنة فقهاء تنبكتو على يد (الباشا محمود بن زرقون) جعل شمس الدين يغير مسيرته ليلوذ بالفرار إلى مدينة ودان الشنقيطية ويقيم بها.

أما المشهورون في مجال التصوف فنذكر الوافي بن شمس الدين ابن أبي بكر الغلاوي، والذي يقول عنه صاحب «فتح الشكور» «أنه صاحب كرامات وتصوف، وأن الهدايا كانت تقدم إليه من طرف اليونسيين الذين كانوا يبسطون نفوذهم على قرية تازّخت القديمة»[1]، التي كانت محطة تجارية هامة.

## 2 – المحور التجاري(القوافل التجارية)

تعتبر مدينة ولاتة من بين المدن الموريتانية التي كان لها دور بارز في مجال التجارة الصحراوية التي عرفتها المنطقة منذ عصور طويلة، وقد اشتهر اسم هذه المدينة كمحطة من محطات التجارة الصحراوية حيث كانت تمر بها طرق تربط بين الحواضر الجزائرية في الشمال، والسودان الغربي في الجنوب.

وكان أول ذكر لهذه المدينة في النشاط التجاري، ذلك الذي تقوم به أسرة «آل المقري»[2] في التجارة عبر الصحراء حيث كانت هذه الأسرة تتوزع بين الحواضر التجارية الواقعة على مسالك القوافل، فقد «استقر أبو بكر ومحمد في تلمسان في حين أن عبد الواحد وعلي استقرا في ولاته، فاتخذوا في هذه الأقطار الحوائط والديار، فتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء. وكان التملساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان، يعرفهما بقدر الرجحان

(1) أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البارتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت دار الغرب الإسلامي 1981.

(2) شبكة المقريين أحفاد سيدي عبد الرحمن المقري تلميذ سيدي أبي مدين الغوث، وقد أفاض الوزير لسان الدين ابن الخطيب في الحديث عنهم،ونقل عنه المقري الحفيد حديثه ذلك المسند إلى المقري الجد شيخ ابن الخطيب،حيث قال:«وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً بعد أن كانت لمن قبله مزاراً،عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرى، صاحب أبي مدين، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم من قبول وتبين».

والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة أحوالهم»[1].

وقد تحدث ابن بطوطة عن النشاط التجاري بها وقال إنه قائم على إنتاج الملح وتسويقه[2]، الأمر الذي تقوم عليه قبيلة مسوفة إضافة إلى هيمنتهم على التجارة الصحراوية، سواء من خلال ذلك التسويق أو من خلال زيادة القوافل ودلالتها واستقبال التجار طوال إقامتهم بالمدينة.

ومن البديهي أن أبناء المقري ينحدرون من تلمسان، التي نافس تجارها خلال القرن 7هـ/ 13م تجّار حواضر المغرب الأقصى الجنوبية على الظفر بما تدره هذه المنطقة من أرباح، وقد مثّلت شبكة أبناء المقري نموذجا محكما لتنظيم تجارة القوافل، فقد كان لممثلي هذه الشبكة روابط طيبة مع الحكام من الملوك والوجهاء السودانيين ضمانا لحسن سير تجارتهم[3]، وتأثرت شبكة أبناء المقري بفعل وصول حملات عسكرية من قبائل المانديغ السودانية إلى ولاته نهاية القرن 7هـ/ 13م، لكن سرعان ما استعادت توازنها في ظل مملكة مالي خلال القرن 8هـ/ 14م[4].

ويعتبر جان دوفيس[5] أن خضوع ولاته لنفوذ مملكة مالي مثّل ضربة قاضية للمصالح التجارية لأبناء المقري، وأن تنصيب فربا الحسين نائبا للسلطان

---

(1) ابن بطوطة : مصدر سبق ذكره، ص:776.

(2) محمد المختار بن السعد « طرق القوافل ودورها في التواصل الثقافي بين أطراف الصحراء « حوليات كلية الآداب، العدد 3، انواكشوط : 1992، ص ص 34 45 .

(3) DEVISSE (Jean)، « Routes de commerces et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée »، Revue d'Histoire Economique et Sociale، tome I، 1972

(4) MAUNY (Raymond)، Tableau géographique de l'Afrique de l'ouest au moyen âge، Dakar، 1961، réédition، Amsterdam، 1967

(5) DEVISSE (Jean), « Routes de commerces et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée », Revue d'Histoire Economique et Sociale، tome I, 1972.

بإيوالاتن (ولاتة)، شكّل محاولة من مملكة مالي لمراقبة حركة التجارة بولاتة.

وتمثل شبكة أبناء المقري أقدم شراكة تجارية مهدت لأواصر ثقافية واقتصادية وتواصل فكري بين بعض الحواضر الجزائرية وولاتة، حيث استطاع الكثير من العلماء والدعاة العبور عن طريقها، وكان أصحابها أنفسهم مشائخ ذوي خزانات كتب غنية بالمصادر المنقولة عن نسخ خزائنية ثمينة.

وهكذا، كانت ولاتة إبان ازدهارها التجاري ترتبط بعلاقات واسعة مع بقاع متعددة من العالم آنذاك وخاصة بعض الحواضر الجزائرية «اتوات»و«تلمسان» وكذلك المصرية، ويتحدث ابن بطوطة عن وجود جالية مصرية بالمدينة إبان زيارته لها، بالإضافة إلى وجود بضائع مصرية مثل: «الحسان» التي هي نوع من الأثوبة.

وفي هذا المجال لعب المحور التجاري الأوسط دورا أساسيا في التواصل بين الحواضر الجزائرية وحاضرة ولاته فهو يتكون من طريقين: الأول: ينطلق من كاوه عاصمة مالي إلى شمال تكدة نحو اتوات إلى فزان فمصر، أما الثاني فيسلك طريق تنبكتو الذي يتجه نحو وركلة مباشرة ليصل القيروان.

وكانت حاضرة اتوات تشكل الممر المناسب لركب الحاج التكروري ولا أدل على ذلك من أن جل رحلات ملوك مالي والصنغاي[1] تمت عبر هذه الحاضرة مرورا بمدينة ولاتة الشنقيطية، فالمانسا موسى في رحلته إلى الحج عام (724ه/ 1324م) انطلق من عاصمة مالي إلى ولاتة ثم إلى اتوات.

(1) كانت الصنغاي تحت حكم مالي،واستقلت بعد ذلك،وهم مجموعة من قبائل زنجية كانت تعيش غرب نهر النيجر في المنطقة الواقعة اليوم شمال بنين وغربي نيجيريا، ثم انتقلت مع نهر النيجر إلى الشمال وانتقلت معها عاصمتها فكانت البداية دندي ثم كوكو وغدت أخيرا غاو وتقيم اليوم في مالي في غاو وفي النيجر عند مجرى النهر وحول مدينة أغاديس.

وقد لاحظ ابن حلدون ذلك عندما تحدث عن دور حضور قبائل (المعقل) بالتحول الحاصل في المسالك التجارية، حيث إن الطريق الغربي الممتد من ناحية السوس إلى ولاتة قد أهمل، لما صارت الاعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك الطريق ونهجوا الطريق إلى بلاد السودان من أهل التمنطيت (إقليم اتوات)[1].

وهو ما يؤكده حسن الوزان في القرن السادس عشر الميلادي بحديثه عن ازدهار (تيكورارين)[2] بوصفها مقصدا لتجار الشمال وتجار السودان من جهات شتى ومنها يذهبون جميعا[3]، وخلال فترة انتعاش المحور الأوسط منذ عهد ابن بطوطة في القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر الميلادي، ظلت مدينة ولاتة معبرا لركب الحاج التكروري من خلال هذا المحور، وهو ما يفهم من أخبار أهل ولاته كما أوردها ابن بطوطة : «أن رحيل أعيانها للحج كان رهينا

(1) (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 ج، ط3 بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1968 ج6، ص118.).

(2) معناها بالبربرية المعسكرات، يقول عنها الوزان:منطقة مأهولة في صحراء نوميديا... يوجد بها ما يقرب من خمسين فصرا وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل. و سكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتدوا الذهاب كثيرا إلى بلاد السودان.و هنا مجمع القوافل... لهذه البلاد أراضي كثيرة صالحة للزراعة،لكن يلزم سقيها بماء البئر... كان بعض اليهود الأغنياء يقيمون بتيكورارين،ثم تدخل أحد فقهاء تلمسان، فأدى ذلك إلى نهب أموالهم وتقتيل معظمهم من طرف السكان.حدث ذلك في العام الذي طرد فيه الملك الكاثوليكي اليهود من اسبانيا وصقلية. وتدبير الشؤون بأيدي بعض رؤساء الفرق... ويؤدون عادة إتاوة صغيرة إلى الأعراب ويخضعون لسلطتهم(الوزان ص 133).

(3) الحسن بن محمد الفاسي الوزان وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2م ج في 1، ط2 بيروت دار الغرب الإسلامي 1983 م ج2 ص 133).

بإذن السلطان المالي»[1]، وبعد نهاية دولة الصنغاي التي كانت تبسط سلطانها على ولاتة أصبح لهذه المدينة دورا محوريا في الإمامة والقضاء وتسيير القوافل التجارية.

وهكذا استقل ركب الحج، انطلاقا من ولاتة، وصارت له قيادته وموارده الخاصة، وأصبح معروفا وهو ما يؤكده الفقيه الولاتي محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي (1140–1219ه) في مؤلفه فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور حين ترجم للحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي الملقب (التواتي)، أصيل ولاتة، حيث قال عنه (حج مرات بيت الله الحرام، وهو شيخ الركب من أرضنا حتى يصل إلى اتوات فيكون الأمر لأبي نعامة)[2] .

لذا أصبحت ولاتة ترتبط بالحواضر الجزائرية عن طريق حاضرة اتوات عبر ثلاث طرق رئيسة هي: طريق يربط شمال عقفة نهر النيجر ومنطقة تيدكلت التواتية، ويتفرع من هذا الطريق فرعان الأول من تنبكتو جنوبا إلى اقبلي شمالا (وهي محل زاوية أبي نعامة الكنتي). والفرع الثاني يمر عبر طرق (عرك) الشاش. وطريق ثان عبر اتوات إغدامس ازدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، وهو جزء من طريق حج المغاربة المعروفة بطريق الفقهاء، وابتداء من توات وهي من محطاتهم الرئيسة كانت قيادة الركب الولاتي تتم من قبل شيخ زاوية كنته البكاي (أبو نعامة) الأمر الذي يؤكد توفر الزاوية على تقاليد راسخة في الإشعاع الديني والحضاري.

---

(1) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتب حواشيه طلال حر،ط2 بيروت دار الكتب العلمية 1993 ص687).

(2) أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البارتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت دار الغرب الإسلامي 1981 ص48)

## 3 – المحور الروحي الطُرقي(القادرية)

تبلور التصوف كمؤسسة في النصف الثاني من القرن 18م مع ظهور الشيخ سيد المختار الكنتي[1]، الذي وطد دعائم الطريقة القادرية ومهد السبيل لانتشارها في السودان الغربي والأوسط من «برنو» إلى «أهير»، إلى البلاد الخاضعة لسلطة «الدامل» في السنغال وهذه أوسع منطقة تخضع لتأثير داعية إفريقي واحد[2].

وكانت الطريقة القادرية بزعامة الشيخ الكنتي من أهم عوامل التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا كله خلال القرنين الماضيين.

وقد تواصل دور الشيخ الكنتي على يد تلامذة له أجلاء نذكر من بينهم على الخصوص الشيخ سيدي الكبير ( ت 1274هـ 1868م ) الذي كان له نفوذ علمي وروحي كبير في غرب أفريقيا كله.

لقد أثرت الطريقة القادرية تأثيرا كبيرا في بلاد شنقيط عامة وولاتة خاصة، حيث تمخضت عن العلاقات مع زوايا «أتوات» وخاصة الحركة الدعوية النشطة التي قام بها الامام أبو عبد الله، محمد بن عبد الكريم ابن محمد المغيلي التلمساني (ت 909 هجرية) من «مالي» إلى «كانو»، ثم الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي (ت920 ه)، الذي تؤكد الروايات المتداولة أنه مر بمدينة ولاتة في طريقه إلى الحج في القرن العاشر، فطالبه أهلها بالاستقرار بها إلى أن توفي بها رحمه الله، فكان ضريحه على مر العصور مزارا مشهورا ومن رواده المشهورين الشيخ سيد المختار الكنتي(ت 1218 هجرية) الذي يذكر صاحب

---

(1) بول مارتي : من عرب مالي والنيجر كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق، 1985.

(2) SAKHO (MAAADOV Dickal): La Littérature religieuse Mauritanienne، ouvrage publié avec le conours de l'UNESCO، imp .nouvelle، NOUAKCHOTT، 1986، p.30 SAKHO (MAMADOV Dickal)

فتح الشكور أن من كتبه المشهورة المتداولة عند الولاتيين «نضار الذهب في كل فن منتخب»، ومن بين كتبه كذلك، «نزهة الراوي وبغية الحاوي» و«هداية الطلاب» وشرحه «فتح الوهاب»و «الشموس المحمدية» و«الجرعة الصافية والنفحة الكافية» و«جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار»و«كشف اللبس فيما بين الروح والنفس»و«الرسالة في علم التصوف»و«الكوكب الوقاد في فضل المشايخ والأوراد»، ولابنه الشيخ سيد محمد الخليفة المتوفى 1244هـ «كتاب إرشاد السالك في التصوف».

لقد تجذر التصوف في المجتمع الولاتي، وكان تصوفا سنيا معتدلا، يتجلى في حب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتشبث بأخلاق الصالحين من ورع وتقوى، حيث كان المجتمع الولاتي أشعريا وتصوفه على طريقة الجنيد السالك، ويعتمد في ذلك على كتب الغزالي (ت 505 هـ)، وابن عطاء الله (ت 709 هـ)، والشيخ زروق (ت 899 هـ)، وعبد الوهاب الشعراني (ت 973 هـ)، وكانت لهم تقاليد راسخة في التصوف، ويقومون بإحياء عيد المولد النبوي الشريف وشهر رمضان بالعبادة، ويواظبون فيه على قراءة «الشفا بتعريف المصطفى» للقاضي عياض، وفيه ما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم «من توقير وإكرامط»، و«البردة» للإمام شرف الدين البوصيري، التي شرحها أعمر أنبوي المحجوبي (ت1260)، و«الشقراطيسية» لعبد الله بن يحيى الشقراطيسي التوزري (ت466 هـ) مع أمثلة من سيرة الائمة والسلف الصالح. هذا بالإضافة إلى مؤلفات متداولة شعبيا وعلى نطاق واسع، مثل «دلائل الخيرات» و«شوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار» للإمام الجزولي (ت 870 هـ)، و«نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب» للشيخ سيد المختار الكنتي (ت 1224 هـ).

وكان من أعلام التصوف في ولاتة عمر الولي بن الشيخ محمد عبد الله المحجوبي (ت 1070هـ) الذي يصفه البرتلي قائلا: «لكل بلدة تاج وتاج بلدتنا عمر الولي، كان من رجال الكمال وأعلام الصوفية والكرامات الظاهرة والأخلاق الطاهرة له حظ وافر من العلم والصلاح، جمع مابين العلم والزهد والورع والإيثار»[1]، ومنهم عبد الله المكي (كان حيا 1150ه)، ويقول عنه البرتلي : «كان عبدا صالحا رحيما بالمؤمنين يتزوج باليتيمات والفقيرات ليعيلهن ويأكل من عمل يده ومن حرثه، رحيما حتى بالحيوانات، وربما أمسك الصبيان ذئبا فيشتريه منهم ويطلقه»[2].

ومن أعلام المتصوفة كذلك: الخضر بن الفقيه محمد الجماني (توفي غير بعيد من 1155 ه)، والفقيه الطالب الامين بن الطالب الحبيب (ت 1166ه)، والطالب محمد بن أبي بكر المحجوبي (ت1191 ه)، والطالب أحمد ولد محمد رار التنواجيوي(ت 1210ه). ومن المدارس الصوفية التي كان لها حضور مبكر الطريقة الشاذلية، التي وصلت بلاد شنقيط عن طريق الشريف مولاي زيدان بن سيد محمد (ت 1202 ه)، إذ زار بلاد التكرور أربع مرات للدعوة لطريقة شيخه عبد المالك الركاني الذي تتصل سلسلة ورده بمحمد بن ناصر الدرعي عبر سيد محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان، عن سيدي مبارك العنبري الغزواني[3]. ثم بعد ذلك انتشرت الشاذلية الغظفية، التي وصلت مع الشيخ محمد الأغظف

(1) الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي (البرتلي)،فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، – تحقيق : إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ص 79–1981 دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى.

(2) أنظر نفس المصدر السابق،ص 166.

(3) الطالب محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص 187.

الداودي الجعفري (ت 1218 ه)، وإلى جانب الطريقة الشاذلية، كانت في المنطقة أيضا طريقة القادرية الفاضلية، التي انتشرت على يد الشيخ محمد فاضل القلقمي (ت1268 ه)، ومن أشهر علمائها الشيخ ماء العينين وأخوه الشيخ سعد بوه، وللشيخ التراد بن العباس (ت 1365 ه)[1]، كما انتشرت التجانية الحموية في منطقة الحوض ومالي على يد الشيخ حماه الله التيشيتي(ت1363 ه).

وفي نهاية القرن 18م أوصل الشناقطة الطريقة التجانية إلى الغرب الإفريقي، وفي هذا السياق الفكري تكونت حركات جهادية ضد بقايا الوثنية وطلائع الاستعمار.واستمرت بلاد شنقيط في أداء دورها العلمي والثقافي، ويمكن القول بأن هذا الدور قد بلغ أقصى مداه في القرون الأربعة الأخيرة، فقد أنتشر دعاة المعلمون ومشايخ الطرق الصوفية الشناقطة في غرب إفريقيا كله، كما وفد على بلاد شنقيط أبناء المنطقة من كل حدب وصوب لتلتقي المعارف الإسلامية.ويمكن القول أن أغلب مراكز الإشعاع الثقافي الإسلامي في غرب إفريقيا مدينة للدور العظيم الذي لعبه الشيخ سيد المختار الكنتي ( ت 1226هـ 1811م وابنه الشيخ سيد محمد الخليفة (ت1242هـ 1827م ) اللذان امتد نفوذهما حتى السنغال[2].

## الخاتمة

وختاما، رأينا فيما سبق أن الروابط بين مدينة ولاتة وبعض الحواضر الجزائرية قد تجسدت على عدة مستويات، نتج عنها رصيد ثقافي هائل، بفضل قيم صوفية معتدلة ورحلات إلى الحج وقوافل تجارية ربطت المدينة الواقعة

(1) المختار بن حامد،كتاب «موريتانيا » الحياة الثقافية.

(2) عبد العزيز بطران،مجلة الفكر الصادر عن المعهد العالي للفكر الإسلامي العدد الأول سبتمبر سنة 1994م

على تقاطع الطرق الصحراوية بين الواحات المتناثرة في الصحراء وبين شمال افريقيا وجنوبها، بالعالم الاسلامي.

وظل الفقهاء الولاتيون يقيمون في الحواضر الإسلامية الجزائرية، في طريقهم لأداء فريضة الحج أو بحثا عن مؤلفات وإجازات تكون عالية السند، وهو ما أدى إلى خلق شبكة من العلاقات الفكرية، والانتقال بالتواصل الفكري بين الشمال والجنوب من درجة التواصل النخبوي «الموسمي» إلى وحدة الحقل العلمي والعقدي والروحي.

وما توقفت عنده من تلك الروابط لا يمثل سوى ملامح عامة، لأن تأثيرات الحواضر الجزائرية على بلاد شنقيط ودول إفريقيا جنوبي الصحراء موغل في القدم، ويتجلى على مختلف الصُعد، وعلى الباحثين بذل المزيد من الجهود بهدف التعريف بتاريخ العلاقات الثقافية بين الحواضر الجزائرية وإفريقيا الغربية.

## المصادر والمراجع:

**1 – المصادر:**

ـ ابن رازقه، ع. (عبد الله بن محمد بن القاضي) الديوان . تحقيق : محمد سعيدين دهاه. الدار البيضاء : 1986، 187ص.

ـ بابا، أ.(أحمد التنبكتي) نيل الابتهاج بتطريز الديباج .طرابلس الغرب:1981، 658ص.

ـ البرتلي، م.(محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي) فتح الشكور في تراجم أعيان علماء التكرور. تحقيق: د.محمد حجي ود. محمد إبراهيم الكتاني. دار الغرب الإسلامي بيروت : 1981، 300ص.

ـ السعدي، ع. (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران .ت.بعد سنة 1066/ 1655) تاريخ السودان، تحقيق وترجمة O. Houdas وبمساعدة Edn. Ben ist نشر Paris 1981، Maisonneuve الأصل العربي:326 + التحقيق والترجمة الفرنسية ص:540

**2 – المراجـــع:**

ـ ابن باه، م.( محمد فال العلوي، ت.1349هـ/ 1930م) التكملة في تاريخ إمارتي الترارزة والبراكنة. بيت الحكمة، تونس، 1986 تحقيق: أحمد بن الحسن 96ص.

ـ ابن بطوطة، م. (محمد اللواتي الطنجي) رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.ط.القاهرة، 1964، 222ص.

ـ ابن حامد، م. (المختار الديماني معاصر) الحياة الثقافية، الجزء الثاني من الموسوعة « حياة موريتانيا». ط.تونس، 1990، 384ص.

ـ ابن خلدون، ع.(عبد الرحمن بن محمد.ت.808هـ / 1406م) المقدمة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1956 1961 ج7.

ـ البكري، ع.(أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، ت.487هـ/ 1094م) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب: المسالك والممالك، نشر مع ترجمته إلى الفرنسية بعنياية: Mac– guchin de SLane الجزائر، 1857.

ـ دندش، ع.(عصمت عبد اللطيف معاصر). دور المرابطين في نشر الإسلام غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م، 252ص.

ـ الشنقيطي، أ.(أحمد بن الأمين العلوي، ت.1331هـ/ 1913م) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.ط.2/ الدار البيضاء والقاهرة:1958، 528ص.

ـ النحوي، خ.(الخليل بن محمد معاصر)، بلاد شنقيط: المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) نشر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، 650ص.

ـ السويدي، (محمد ....)، بدو الطوراق بين الثبات والتغير. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م.

ـ الولاتي، محمد يحي بن محمد المختار . الرحلة الحجازية . تخريج وتعليق محمد حجي . بيروت: دار الغرب الإسلامي 1990م
ـ مارتي (بول) «من عرب مالي والنيجر كنته الشرقيون» ترجمة : محمد محمود بن ودّادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق 1985.
ـ ولد اباه، محمد المختار بن محمد فال بن اباه ـ معاصر) الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس:1987، 427ص.
ـ ولد السالم حماه الله: موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 2005م.
- DEVISSE (Jean), « Routes de commerces et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée », *Revue d'Histoire Economique et Sociale*, tome I, 1972
- MAUNY Raymond)), *Tableau géographique de l'Afrique de l'ouest au moyen âge*, Dakar, 1961, réédition, Amsterdam, 1967

# هوية إفريقيا الثقافية من خلال كتاب قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر للشيخ محمد باي بلعالم

**الدكتور حمدادو بن عمر**
**قسم التاريخ وعلم الآثار كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية – جامعة وهران**

## توطئة

تتناول هذه الدراسة قضية لطالما أربكت أهل إفريقيا أنفسهم ومن ثم العالم الشمالي كذلك، باعتبار إفريقيا عالم جنوبي متخلف، لا يرقى إلى مصف دول الشمال. وهو اعتقاد خاطئ؛ إذ هوية إفريقيا ضاربة جذورها في عمق التاريخ منذ آلاف السنين. وعلى هذا الأساس فإن أفكار دول العالم الشمالي غير منطقية وغير عملية إلى حد ما، ويجسد ذلك عمليا تلك المؤلفات النفيسة التي خلفها علماء إفريقيا (مخطوطات ووثائق نادرة).

إن تلك المخطوطات النفيسة تعكس بحق هوية إفريقيا الثقافية، وبعدها الاستشرافي. ونلاحظ ذلك جليا ممن خلال مخطوط «قبيلة فلان في الماضي والحاضر ما لها من العلوم والمعرفة والمآثر». وهو مخطوط يتناول تاريخ قبيلة فلان الإفريقية ومدي تغلغلها في المجتمع الإفريقي. وهذه المداخلة تحاول التعريف بأحد مصنفات علماء إفريقيا التي هي جزء من هويتها الثقافية.

## ترجمة الشيخ باي بلعالم

فعن نسبه هو العالم ابن العلماء والفقيه ابن الفقهاء الشيخ باي بلعالم بن محمد عبد القادر بن محمد بن المختار بن أحمد العالم القبلاوي جزائري الشهير بالشيخ باي، ويعود نسبه إلى قبيلة فلّان، والتي تضاربت حولها الأقوال

واختلفت فيها الآراء والشهير أن أصولها تعود إلى قبيلة حمير القبيلة العربية الشهيرة باليمن.

قد ولد الشيخ سنة 1930م في قرية ساهل من بلدية أقبلي[1] بدائرة «أوْلَفْ» ولاية أدرار. كان والده فقيها وإماما ومعلما، مما كان له بالغ الأثر عليه وعلى مساره العلمي.

تربى الشيخ في أسرة اشتهرت بالعلم والصلاح، دأبت على تعليمه وتربيته منذ الصغر، فبدأ تعليمه في مسقط رأسه في مدينة ساهل بأقبلي، هذه القرية التي كانت تعد منارة للعلم والمعرفة والتي تخرج منها العديد من العلماء والفقهاء. ودرس القرآن الكريم في مدرسة ساهل أقبلي على يد المقرئ الحافظ لكتاب الله الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن المكي بن العالم، ثم قرأ على يد والده المبادئ النحوية والفقهية، ودرس على يد الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي مدة من الزمن، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ مولاي أحمد بن عبد المعطي السباعي بمراكش، ومكث فيها سبع سنوات، قرأ فيها الفقه المالكي وأصوله، والنحو، والفرائض، والحديث، والتفسير. وخلال مرحلة دراسته تحصل على عدد من الإجازات.

بعد أن تخرج الشيخ من الزاوية المذكورة آنفا انتقل إلى مدينة أولف حيث قام بتأسيس مدرسة للعلوم الشرعية أسماها «مدرسة مصعب بن عمير الدينية»

---

(1) دابدر: إسمها القديم وأصلها أمازيغي (بربري) معناه الهدية وتعرف بلسان المنطقة (بالغيبة) وهي ما يقدمه كل قادم من السفر بعد غياب طويل إلى أهله وعشيرته أو جيرانه أو معارفه، وهي عادة قديمة متجذرة في تقاليد المنطقة وتعرف في لسان العرب بـ(هدية السرور) ويطلق هذا الاسم على بئر يوجد بقصر المنصور أي المكان الذي كانت تقسم فيه الهدايا . وتعرف أقبلي منذ القدم بتعدد علمائها ومكتباتها الغنية بمخطوطات قديمة ونادرة في شتى العلوم. والآن هي بلدية تقع في أقصى الجنوب يحدها شمالاً أولف وجنوبا أينغر وشرقاً تيط وغرباً رقان. عن مساحة حوالي :2033 كم2.

لازالت قائمة إلى اليوم. لقد كانت لأسفار الشيخ باي بلعالم رحمه الله أثر بالغ في إبراز شخصيته العلمية؛ فكان سفره ورحلاته داخل الوطن وخارجه ولقاءاته مع العلماء وطلبة العلم، ذو تأثير وتأثر، ومن تلك البلاد التي زارها (تونس والمغرب الأقصى وليبيا والمملكة العربية السعودية) حيث كانت أولى زياراته للمملكة العربية السعودية بغية أداء فريضة الحج سنة 1964م، ليعاود الكرة سنة 1974م، ومنذ ذلك العام لم يتخلف عن أداء هذه الفريضة[2]. وكان يعقد الجلسات العلمية في موسم الحج بالحرم المكي[3] حيث يلتف حوله طلبة العلم، وكثير من المحبين له.

## مؤلفاته

لقد ألف الشيخ في فنون عديدة حيث تعدت مؤلفاته نحو(40) مؤلفا؛ مختلفة الأحجام والأسفار من كتب ونظم وشروحة وتحقيق في بعضها، شملت علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله والميراث والسيرة والتاريخ والوعظ والإرشاد والتوجيه ... ومنها (15) مؤلفا في الفقه المالكي. ومن أهم هذه المؤلفات:

1 – شرح على نظم خليل للشيخ خليفة بن حسن السوفي القماري، والذي نظمه في ما يقرب من عشرة آلاف بيت، شرحه الشيخ بلعالم رحمه الله في عشرة أسفار سماه:« مرجع الفروع للتأصيل من الكتاب والسنة والإجماع الكفيل شرح نظم الشيخ خليفة بن حسن السوفي على مختصر خليل». وهو تحت الطبع بدار الفكر.

2 – إقامة الحجة بالدليل شرح على نظم بن بادي على مهمات خليل في (أربعة أجزاء) طبع دار ابن حزم.

---

(2) له أكثر من ثلاثين حجة.

(3) كانت تلك الجلسات كثيرا ما تعقد على سطح الحرم المكي، وتارة في مخيم منى.

3 – ملتقى الأدلة الموضح للسالك على فتح الرحيم المالك في (أربعة أجزاء) وهو شرح على منظومته (فتح الرحيم المالك في فقه الإمام مالك) والتي تشتمل على(2509) أبيات

4 – الإشراق البدري على الكوكب الزهري لنظم المختصر الأخضري. وهو شرح على نظم الأخضري وكلاهما للشيخ رحمه الله.

5 – المباحث الفكرية على الأرجوزة البكرية.

6 – زاد السالك على أسهل المسالك (في مجلدين)

7 – السفر القاطع والرد الرادع لمن أجاز بالقروض المنافع. وهو رد على من أفتى بجواز المعاملة مع البنوك الربوية وفيه فوائد جمة في التنديد بمن يفتي بغير علم.

8 – السبائك الإبريزية على الجواهر الكنزية. وهو شرح على نظم المقدمة العزية في الفقه المالكي.

9 – الاستدلال بالكتاب والسنة النبوية على نثر ونظم العزية. يقول عنه الشيخ رحمه الله أنه جعل له منهجية خاصة.

10 – كشف الجلباب عن جوهرة الطلاب في علمي الفروض والحساب ( شرح على نظم الشيخ عبد الرحمن السكوتي في الفرائض).

11 – كشف الدثار على تحفة الآثار ( في مصطلح الحديث).

12 – ضياء المعالم على ألفية الغريب لابن عالم وهو شرح على ألفية الشيخ بلعالم الزجلاوي في غريب القرآن (في مجلدين).

13 – المفتاح النوراني شرح فيه نظم الشيخ الطاهر التليلي السوفي في غريب القرآن.

14 – الدرة السنية في علم ما ترثه البرية (نظم).

15 – الأصداف اليمية شرح الدرة السنية.

16 – فواكه الخريف شرح بغية الشريف في علم الفرائض المنيف.

17 – ركائز الوصول على منظومة العمريطي في علم الأصول.

18 – ميسر الحصول على شرح سفينة الأصول.

19 – فتح المجيب على سيرة النبي الحبيب.

20 – منحة الأتراب على ملحة الإعراب.

21 – اللؤلؤ المنظوم على نثر ابن آجروم.

22 – الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات في ( جزأين) ذكر فيها رحلاته التي تزيد عن عشرين رحلة للحج والعمرة، ورحلته إلى المغرب الأقصى.

23 – قبيلة فلان في الماضي الحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر.

24 – قصيدة في الرد على الزنديق سلمان رشدي أطلعني عليها سنة 1990.

25 – منحة الأتراب على ملحة الإعراب.

26 – الغصن الدّاني في حياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني.

27 – محاضرة عنوانها كيفية التعليم القرآني والفقهي في منطقة توات.

28 – محاضرة عنوانها الرسول المعلم.

29 – انقشاع الغمامة والإلباس عن حكم العمامة واللباس من خلال سؤال سعيد هرماس.

30 – قصيدتان في الرد على ألغاز بعث له بها الشيخ مولاي أحمد الطاهري السباعي.

31 – قصيدتان في رثاء الشيخ مولاي أحمد الطاهري السباعي.

32 – مرثية الشيخ مولاي محمد الرقاني الفقيه.

33 – مرثية الشيخ الطالب الزاوي.

34 – مرثية الشيخ عبد العزيز شيخ مهدية.

**وفاته**

كانت وفاة الشيخ باي بلعالم يوم الأحد 23 ربيع الثاني 1430 هـ الموافق :19 أبريل 2009 م؛ بعد مسيرة علمية زاخرة بالعطاء المعرفي والحضاري، قد رسمت ملامح شخصية الشيخ العارف العالم، ومحاولة دراسته للعقليات والذهنيات التي تركها من سبقوه من خلال الاعتكاف على دراسة وتحقيق مدوناتهم المعرفية في شتى العلوم والفنون.

## التعريف بكتاب« قبيلة فلان...»

### 1 – مكانة وموضوع الكتاب

يعتبر كتاب قبيلة فلان[4] للشيخ محمد باي بلعالم من المؤلفات التاريخية التي ألفها، ومن أهم ما ألف في النسب الفلاني العربي العريق، وبخاصة بلدان غرب إفريقيا. وتكمن أهمية الكتاب في أنّ الشيخ ضمن كتابه هذا معلومات يحتاجها الباحث والمهتم بدراسة الحوض الغربي الإفريقي عموما، والتعرف

(4) قبيلة فلان: نسبة إلى المجتمع الفلاني ذلك الشعب الكبير الذي يعيش جله منتشرا في غرب إفريقيا الناطق بالبولارية والذي تذكر المصادر التاريخية أنه عرف لأول مرة في منطقة فوتا تورو بحوض نهر السينغال غير أنه انتشر انطلاقا من تلك البقعة شمالا باتجاه موريتانيا وشرقا باتجاه جمهوريات السودان الأخرى. والفلان حين تطلق داخل المجتمع البولاري نفسه فهي إنما تعني مجموعة خاصة هي المجموعة النقية داخل المجتمع فهي جزء من كل.

على المجتمع الفلاني بالمغرب الأوسط. فقد عرّف الشيخ في الكتاب بفخذ قبيلة «الفلان» التي ينتمي إليها، وذكر القبائل التي انصهرت وتعاشرت مع قبيلة فلان، كما ترجم لبعض أعلام الفلاتة الصحراويين وغيرهم من البلدان العربية والإفريقية المختلفة.

كما كانت للشيخ بعض المقالات والمقتطفات المهمة التي تخص القبيلة وتنوه بجهاد الفلانيين (الفلاتيين)[5]، وجهودهم في الدعوة إلى الله في بقاع القارة الإفريقية المختلفة[6]. كما استعرض الشيخ أيضا التراث المنثور والمنظوم لبعض العلماء الفلانيين، وتكلم عن مشايخه وإجازاته ومؤلفاته العلمية، وهي بمثابة سيرة ذاتية تعكس إنتاج صاحبها خدمة للعلم والعلماء[7].

ومما تجدر الإشارة إليه هو أنّ الشيخ تأثرّ بهؤلاء الأعلام وبسلوكهم وحذا حذوهم في نشر المعارف في أوساط المنطقة ( منطقة أولف) فراح يأوي طلاب العلم في معهده الذي كوّن فيه أجيلا متعاقبة من العلماء من غير أن تثنيه هذه الجهود في التعليم والتربية الدينية من تأليف كتب نفيسة في شتى الفنون والعلوم.

وكتاب «**قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر**» للشيخ محمد بلعالم لازال يحتاج إلى تعريف. هذا وقد جمع الشيخ

---

(5) ويطلق لفظ فلاتة في الاصطلاح العامي على كل من هاجر من غرب أفريقيا أو من نيجيريا بالذات بما فيهم الهوسا والفولاني والبرنو والبرقو في حين أن اللفظ أصلاً مقصور إلى الفلاني من سكان غرب أفريقيا.

(6) راجع:عبد الله عبد الماجد إبراهيم، الخرطوم والشعب الدعاة في مقالات الباحثين وكتابات المؤرخين وبحوث المتخصصين، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، د ت، ص:25. محمد بن أحمد الشهير بالفاهاشم الفوتي، تعريف العشائر والخلان، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة، ط1935، ص:14.

(7) إبراهيم أحمد دياب، لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، دار المريخ للنشر، الرياض، ط1981، ص:27.

معارف تاريخية وفقهية وتراثية تتعلق بهذه القبيلة من جهة، كما تعرّف الباحث والمهتم بتراث المنطقة من آثار وعلوم خلّفها علماء تلك المنطقة.

إنّ المتتبع للتاريخ العلمي والأدبي والثقافي بالصحراء[8] يجده حافلا بالمآثر، زاخرا بالذخائر القيمة في مختلف العلوم والفنون، وهذا مما لا يدع مجالا للشك في المساهمة العلمية لعلماء تلك المنطقة وبعدها الحضاري والعلمي قديما وحديثا، وانسجامهم مع مختلف التفاعلات الثقافية والسياسية والاجتماعية بالقارة الإفريقية وسائر البلاد العربية والإسلامية.

وقد سلك الشيخ باي بلعالم في نهجه لمؤلفه «قبيلة فلان» طريقة الإخباريين والمحدثين القدامى، إلا أننا نجده في بعض الأحيان ينوع تأليفه ما بين أشعار وأخبار وقصص وآثار، وفوائد ودور علم. فجاء هذا التنوع الفكري هادفا دالا على جهود علماء تلك القبيلة عبر العصور والدهور.

## 2 – قيمة الكتاب

نستطيع القول بعد هذا الذي قدمناه بإيجاز عن مكانة تأليف «قبيلة فلان»، أن نخلص في التعريف بهذا التأليف، وتقدير قيمته إلى تسجيل الملاحظات التالية:

### أ– القيمة التاريخية

**1** – يكفي مزايا هذا التأليف أنه يظهر للوجود اسم قبيلة لمنطقة من مناطق غرب القارة الإفريقية، ظل مغمورا مطمورا، وظل الغموض يكتنف وجودها أمدا طويلا، ولولا العثور على هذا المؤلَف، والسعي إلى نشره وإخراجه إلى النور، لما تمكنت الأجيال المقبلة من التعرف إليه، ولا الاطلاع عليه. ومن

(8) المختار ولد حامدن حياة موريتانيا الجغرافيا، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط1993، ص:224.

حسن طالع قبيلة فلان للشيخ باي بلعالم أن يكون مؤلِفه هذا تعويضا ثمينا عما تفتقر إليه غرب إفريقيا... من دراسة وتحقيق أو حتى التعريف بها، أو حتى من استفاضة ذكر يستحقها عن جدارة، ومن بيان قيمة يستأهلها، ومن تحديد مكانتها بين مناطق إفريقيا أخرى، ومن رسم صورة له في الخيال توافقه وتلائمه؛ إذ أن المادة التاريخية التي تضمنها بين دفتيه تعين إلى حد بعيد الدارس والباحث على الكشف عن جوانب مهمة من حياته، ومكانته العلمية، وتوجهه التاريخي والفني، وذوقه الأدبي، ومستواه المعرفي.

**2** – إنّ نسخة الكتاب الوحيدة تعد بحق نسخة فريدة من نوعها، توضح مدى عمق فكر الشيخ باي بلعالم رحمه الله، وبعده الاستشرافي التاريخي لقبيلة فلان. كما تعطي لنا العطاء الفكري، والأدبي والمعرفي لعلماء منطقة توات.

**3** – نسخة الكتاب تعبر عن غنى المنطقة بأعمال وإنتاج الشيخ باي بلعالم، في فنون مختلفة؛ تستوجب العناية الكبيرة من الباحثين والمهتمين بتراث غرب إفريقيا، أن ينفضوا عنه الغبار ويتناولوه بالدراسة والتحقيق.

**ب– القيمة العلمية**

**1 – من حيث الأسلوب**

دوّن باي بلعالم كتابه هذا على منوال كتب القدامى بأسلوب سهل واضح، غاية في الحسن والجمال، والجودة واللطافة والبيان؛ أسلوب أنفذ إلى القلب، وأشد استثارة للاهتمام، وأدعى إلى ابتعاث أنبل الأحاسيس، وأشرف العواطف، وأقوى بثقًا لينابيع الخيال والإلهام والحدس والوحي، بعيدا عن التعقيد والغموض والتكلف والتصنع المبتذل والضجيج اللغوي؛ ومما لا شك فيه أنه أسلوب تستدعيه الطبيعة المعرفية والتكوينية، والغاية الدينية، حيث يوازن الشيخ باي بلعالم فيه بين السرد والإخبار والتقرير، وبين العرض والمناقشة

والتحليل والتفسير والتعليق، موازنة توحي بامتلاكه لحس نقدي جيد يرفعه إلى مقام كبار العلماء، ويدل دلالة قاطعة على أصالته.

**2 – من حيث المادة**

زخر كتاب الشيخ باي بلعالم بمادة غنية، جمعت نخب من المعارف طريفة مختارة متنخلة تجمع إلى حد بعيد بين سمو المعنى ورقته ولطفه، وبين دقة اللفظ وجزالته وسهولته. مادة متنوعة، ليست من طبيعة واحدة، ولا من مذهب واحد، ولا من مصر واحد، كما أنها ليست لجيل واحد؛ وإنما هي مادة من ألوان شتى ومذاهب متنوعة، وأمصار مختلفة متباعدة، ولأجيال من العلماء متباينة متفاوتة.

**3 – من حيث المنهج**

يخضع كتاب الشيخ باي بلعالم الفلاني لمنهج محدد ينتظم على وفقه البناء العام للموضوع، وقد حدد الشيخ باي بلعالم معالمه بدقة في المقدمة عند حديثه عن علم الأنساب بقوله: «وبعد فإن علم الأنساب قد عرف عند الناس قديما قبل مجيء الإسلام، وثبت أنهم كانوا يتنافسون فيه فلما جاء الإسلام اقرهم عليه فصار مرغبا فيه كتابا وسنة وإجماعا...». وقد حاول أن يلتزم به على طول التأليف بنسب متفاوتة حسب ما يستدعيه المقام، الشيء الذي جعل من المخطوط وحدة متكاملة، منسجمة مفيدة.

**3 ) وصف الكتاب**

**الوصف الخارجي**

الكتاب من الحجم المتوسط، طبع بمطبعة دار هومه بالجزائر، مقياسه (23/ 15.5)، عدد صفحاته (514) صفحة صفحة، ضمت كل منها ما بين(21) سطرا، وفي كل سطر ما بين (12و13) كلمة.

## الوصف الداخلي

### 1 –طبيعة النسخة

النسخة التي بين أيدينا هي النسخة المطبوعة التي أهداها لنا الشيخ قبل وفاته بثلاث سنوات تقريبا، وتتضح لنا نسبة الكتاب إلى صاحبه من خلال ما وجدناه من توقيع ناسخ الكتاب الشيخ باي بلعالم؛ مكتوبا على الطريقة المعهودة عند المصنفين القدامى، حيث يقول في آخر ورقة من الكتاب: «نقله العبد الضعيف القاصر محمد باي بن محمد عبد القادر بن محمد بن المختار بن أحمد العالم الفلاني الساهلي القبلوي التواتي»[9]. فهي نسخة كاملة واضحة، بها تاريخ الانتهاء من تأليفها. حيث:«انتهى يوم 20 جمادى الأولى عام 1424هـ الموافق لـ20 يوليو 2003م بالمدرسة الدينية القرآنية».

### 2 – توثيق نسخة الكتاب

لقد ساعدتنا كتب الفهارس والبرامج والأثبات ونسخة الكتاب المعتمدة؛ بشيء يفيد نسبة هذا الكتاب للشيخ باي بلعالم الفلاني، واعتمدنا في نسبة هذا للشيخ باي بلعالم على:

أ– وجود اسم الكتاب ضمن ما صرح به الشيخ قبل وفاته ضمن مؤلفاته.

ب– المقدمة والخاتمة للكتاب تثبتان توقيع وورود اسم المؤلف، وهو توقيع جار على عادة القدماء، ويدل دلالة واضحة على نسبة النسخة لصاحبها الشيخ باي بلعالم.

ج– وجود عدد لا يستهان به من تقاريظ علمية لكتاب الشيخ هي ضمن الكتاب. وهذا دليل آخر على صحة نسبة الكتاب للشيخ باي بلعالم.

(9) باي بلعالم، كتاب قبيلة فلان في الماضي والحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر، ص:491.

غير أن مجمل السمات التي تحملها هذه النسخة، وكذا الأخطاء الكثيرة التي تسربت إليها لا تذهب بنا بعيدا إلى حد الشك في أصالتها.

**3 – حالة نسخة الكتاب**

نسخة كتاب «قبيلة فلان» للشيخ باي بلعالم نسخة تامة، بلغ عدد صفحاتها 514 صفحة. أولها:«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين... »[10].

**4 – خط نسخة الكتاب**

هذه النسخة كاملة واضحة مطبوعة بدار هومه؛ وهي نسخة مشكولة باستثناء بعض الكلمات، وغالبا ما يعمد إلى شكل بعض الكلمات إما بالكتابة أو بالوزن. قليل هي الأخطاء الإملائية والنحوية والأرجح أنها أخطاء ناتجة عن السهو وإما عن النسخ. والراجح أن المؤلف والناسخ معا قام بعملية تصحيح؛ إلا أن منها قليل بسبب ربما سرعة الكتابة وغير شاملة لكل الجوانب.

## 4 – العرض الوصفي للكتاب

العرض الوصفي المركز لأهم الأحداث والتطورات السياسية والفكرية والعلمية التي شهدها عصر الشيخ باي بلعالم الفلاني، جاء حرصا على وضع القارئ في السياق التاريخي للنص من جهة، ورغبة في تلمس مظاهر التأثير والتأثر بالنسبة للمؤلف من جهة أخرى. وقد وجدنا أن السمة الغالبة على العصر هي وجود بعض فرص الطباعة وإن كانت قليلة، وأن الشيخ باي بلعالم شخصية كان لها –رغم ذلك– حضورا قويا، لكن التاريخ طواه وتناساه، كما طوي وتنوسي الكثير من تراث أمتنا، بالرغم من تصديه لحلقات الدرس بالحرم المكي.

(10) باي بلعالم، كتاب قبيلة فلان، ص:1.

ومن أهم العناوين التي حواها كتاب قبيلة فلان نذكر ما يلي:

- الأقوال المتضاربة في أصل نسب الفلان[11].
- ذكر القبائل التي انصهرت واختلطت مع قبيلة الفلان.
- تراجم ليعض الأعلام من فلان الصحراويين وغيرهم.
- العلامة حمزة بن الحاج أحمد الفلاني القبلاوي الساهلي.
- رسالة إلى أولاد النون بآولف.
- رسالة إلى قاضي ورقلة.
- قصائد شعرية.
- ترجمة العلامة الشيخ محمد الحسن بن الحاج أحمد بن محمد بن مالك الفلاني.
- رسالة الشيخ بن بادي إلى الشيخ محمد الحسن.
- إجازاته.
- ترجمة الشيخ عبد الرحمن السكوتي.
- الشيخ محمد علان بالمنيعة ينوه بشأن محمد عبد القادر بلعالم.
- السيد محمد عبد القادر الفلاني الموجود الآن بتفيرت هقار.
- ترجمة محمد عمار بابا.
- ترجمة الشيخ عثمان بن فودي[12] الفلاني من كتاب الإسلام في نيجيريا.
- شخصية عثمان بن فوديا.

---

(11) أحمد بن أحمد يوره، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، تح: أحمد جمال ولد الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1992، ص:73.

(12) فودي: تعني في لغة الفلان الفقيه. وبالنسبة لمراحل وأطوار جهاد الشيخ عثمان بن فودي، فقد تناولها ابنه محمد بلّ في كتابه الموسوم بـ: «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور». وقد اشتغلت عليه الباحثة بهيجة الشاذلي وحققته، برسم نيل د.د.ع، جامعة محمد الخامس بالرباط، السنة الجامعية 1989-1990.

- ترجمة الأمير عبد الله بن محمد فودي.
- ترجمة عمر بن محمد فلاتة.
- حركة الشيخ عثمان دانفوديو.
- الفلاني والهوسا إلى أواخر القرن 18م.
- الشيخ محمود الصنهاجي التنبكتاوي.
- الشيخ العالم الوافي الكنتي.العالم المغربي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني.
- بلاد الهوسا.
- التكرور والتكرنة.
- دولة الفلان.
- حياة الحاج عمر بن سعيد تال.

وما يمكن التوصل إليه هو أن الأدب المغاربي الإفريقي الذي ألف ودون؛ إنما وجد ليبرز هوية إفريقيا وليحفظها للأجيال القادمة كمشعل يقاوم ما يصطلح عليه اليوم «بعولمة الهوية أو هوية العولمة»، إن هذه المصطلحات والمفاهيم الدخيلة على أدبنا المغاربي الافريقي من شأنه أن يوسع الهوة بين عالم الشمال وعالم الجنوب. ولابد للعالم المغاربي والافريقي أن يدافع عن قيمه المختلفة انطلاقا من دفاعه عن ثقافته وهويته الافريقية. وعلى هذا الأساس فإنني أؤكد من هذا المنبر العلمي والأكاديمي أن علماءنا المغاربة والأفارقة على حد سواء؛ واجهوا بشكل أو بآخر من خلال مدوناتهم واهتماماتهم دعاة عولمة الثقافة، وهذا ما يبرزه كتاب مؤلفنا هذا وغيره كثر، ومن هنا كان ولا يزال الأدب الإفريقي يُدافع عن هوية القارة الافريقية، وهو مرآة عاكسة لها.

## خاتمة

ولإبراز مكانة هذه الشخصية المغمورة حاولنا جهد الإمكان أن نضع له ترجمة وافية تليق بمكانته وتوفيه حقه، لهذا الغرض اضطررنا إلى أن نستثمر أكثر من معلومة أو إشارة وردت في كتاب قبيلة فلان، كما استطعنا أن نعثر على بعض مصنفاته أو أعماله العلمية والأدبية المطبوعة والمخطوطة منها.

كتاب قبلة فلان للشيخ باي بلعالم هو الأثر الكامل – إلى حد ما– والمهم الذي حفظه لنا تاريخ القرن العشرين من بين جملة أعمال هامة له هي اليوم محجوبة بسبب عدم طبعها ؛ فهو الوثيقة الأساسية الموجودة التي تخلد لنا ذكره، والعمل العلمي المتكامل الذي بإمكانه اليوم أن يساعدنا على رسم صورة واضحة له.

كتاب قبيلة فلان يشكل بالنظر إلى كبر حجمه، ووفرة مادته وغناها وتنوعها، مصدرا مهما من مصادر التاريخ المغاربي الإفريقي النادرة، ووجها بارزا من وجوه التعامل مع النصوص الإبداعية خلال تلك الفترة، تعامل علمي تنوعت أضربه، وتعددت علومه ومعارفه خدمة للقرآن الكريم، والسيرة والسنة النبوية، واللغة العربية، والحياة التاريخية والأدبية والفكرية عموما.

## المصادر والمراجع

- أمحمد بن أحمد يوره، إخبار الأحبار بأخبار الآبار، تح: أحمد جمال ولد الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1992.

- إبراهيم أحمد دياب، لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، دار المريخ للنشر، الرياض، ط1981.

- باي بلعالم، كتاب قبيلة فلان في الماضي والحاضر وما لها من العلوم والمعرفة والمآثر.

- عبد الله عبد الماجد إبراهيم، الخرطوم والشعب الدعاة في مقالات الباحثين وكتابات المؤرخين وبحوث المتخصصين، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، د ت.

- محمد بن أحمد الشهير بالفاهاشم الفوتي، تعريف العشائر والخلان، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة، ط1935.

- المختار ولد حامدن، حياة موريتانيا الجغرافيا، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط1993.

# الفقهاء والعلماء العرب والبربر في مملكة مالي بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين / الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين

**الاستاذ: لبناقرية عبدالرحمان**
**جامعة سوق اهراس**

## 1 – مكانة العلماء والفقهاء في مملكة مالي

تنقل عدد كبير من علماء وفقهاء المغرب والأندلس ومصر إلى السودان الغربي في عهد مملكة مالي، فمنهم من استقر هناك حتى وافته المنية ومنهم من رجع إلى بلاده، وكان بعضهم يشتغل في التجارة دخل بلاد السودان مع القوافل التجارية حيث كان يقوم ببيع سلعته وفي نفس الوقت نشر الدعوة الإسلامية، ونتج عن تزايد أعدادهم انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية فقربهم إليهم الملوك والسلاطين لخدمتهم، فقدموا لهم الخبرة والثقافة وحببوا إليهم الإسلام[1].

واكتسب الفقهاء والعلماء مكانة طيبة في المجتمع، وكان أثرهم واضحا في الحياة السودانية، حيث كان لهم نفوذا كبيرا، فهم الحفاظ على سلامة العقيدة، وباستطاعتهم التأثير على السكان المسلمين في المناطق التي تقوى فيها الوثنية، كما كان العلماء هم أبرز أبناء الطبقة المتعلمة، فقد كانوا يشغلون مناصب القضاء والمناصب الرئيسية في الإدارة، ويسيطرون على مجالس الشورى، وكان الكتبة منهم يسجلون أعمال الملك ويحملون مراسلاته إلى الدول الأخرى ومن ثم كان يستحيل تسيير الإدارة دون تأييدهم[2].

---

(1) **نعيم قداح**: حضاري الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية –ط–3 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر 1974–.–ص94.

(2) **مادهويا تيكار**: الوثنية والإسلام –ترجمة أحم فؤاد بلبع–المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة 1995.–ص424.

ووجد الباحثون الأوروبيون أمثال أرنولد ومارتي وغيرهم أن للإسلام صلة وثيقة بنفسية الإفريقي ذلك أن تقاربا كبيرا قد ربط بين العقلية الإفريقية والتقاليد الإسلامية، إذ يشعر الإفريقي المسلم منذ الوهلة الأولى بالأخوة الحقيقية بينه وبين الداعية، يذكر أرنولد توماس في هذا الصدد أن المسلمين ينفذون إلى قلوب الإفريقيين الوثنيين ويحولونهم إلى الإسلام، وكان من أثر تصرفات الداعية السلمية أن أصبح الزنوج ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود وأن المسيحية على أنها دين الأوروبيين البيض، فالإسلام يدعو للإخلاص والثقة بالنفس[1].

وكان من نتائج دور الفقهاء اعتناق الشعوب السودانية الإسلام ومنهم شعب الماندنجو الذين يعدون من أكثر شعوب غرب إفريقيا تمسكا بالإسلام والدعوة إليه. وازداد انتشاره بينهم حتى أصبح دين دولة مالي كلها. فعمرت المساجد بالمصليين واكتظت بهم مما جعل الرحالة ابن بطوطة ينبهر من ذلك فيقول: « ومن أفعالهم الحسنة... مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاداته فيبسطها له بموضع يستحقه، بها حتى يذهب إلى المسجد. وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخلة ولا تمرة له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص، خلق عسله وبسطه وشهد به يوم الجمعة»[2].

---

(1) **أرنولد توماس**: الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسين إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي-مكتبة النهضة المصرية -1970ص 149، نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا،المرجع السابق-ص94.

(2) **ابن بطوطة** (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي) 704هـ779-هـ/ 1304-1377م-رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار) دار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1400-هـ/ 1980م -ص 690.

وعمرت دولة مالي بالعلماء من أهل البلاد، وممن استقدمهم السلاطين، كما فعل السلطان «**سليمـان**» ومن قبله السلطان « **موســى**» الذي استقدم عددا كبيرا من العلماء من مصر والمغرب والأندلس فازدهرت الحركة العلمية.

وامتلأت البلاد بالعلماء من البربر والعرب بالإضافة إلى علماء أهل البلد، واشتهرت مدن كثيرة مثل مالي وجني، وجاو وتنبكتو بعلمائها، وصنعت هذه المراكز التجارية الشهرة الاقتصادية مع الشهرة العلمية[1]، وأصبح بذلك المظهر الإسلامي هو السائد في مملكة مالي حتى أن ابن بطوطة لما زارها تفاجأ باهتمام سكانها بلغة القرآن الكريم والإقبال على حفظه ودراسته منذ الصغر ويضيف ذلك فيقول: «ومن أفعالهم الحسنة... عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: لما فعل هذا؟أقتل؟ ففهم عن الشاب وضحك وقيل لي:إنما قيد حتى يحفظ القرآن»[2].

## 2 – فقهاء وعلماء المغرب بمملكة مالي

إن بلاد المغرب تتصل اتصالا طبيعيا بغرب إفريقيا. والطبيعة حددت وسيلة الاتصال وطريقته كما رأينا في الفصل الخاص بالتجارة. فإقليم فزان بطرابلس مثلا يبتعد عن بلاد برنو أكثر من مسيرة أربعين يوما، وفي الغرب ينحني نهر النيجر انحناءة عظيمة صوب الشمال ليقترب من سعة الصحراء، حيث تتصل اتصالا مباشرا بساحل المحيط الأطلسي، ولكنها لا تترك سهلا ساحليا يجعل

(1) **حسن عيسى عبد الطاهـر**: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني الزهراء للإعلام العربي–ط1 –القاهرة 1915–.–ص126.

(2) ابن بطوطة: المصدر السابق–ص 691.

الاتصال عبره ممكنا بين الجنوب والشمال[1].

وبفضل هذا الاتصال تدفق العلماء والفقهاء إلى مملكة مالي لتعليم وتثقيف المسلمين فيها، وتكوين الفقهاء، فسارع أبناء السودان لتلقي العلم خاصة من المشاهير علماء المغرب[2].

ويشير صاحب كتاب الفتاش إلى عمق الصلات بين المغرب والسودان الغربي بدليل أن عددا كبيرا من العلماء ترجع أصولهم إلى المغرب وفي ذلك يقول: «...فاعلم أن «**شي**» و«**أسكي محمد**» و«**مور**» هو «**كار**» جد أهل «**موركير**» وفقهاؤها كلهم من أهل واحد، وجميع من يلقب«**بمي**» و«**كهيدع**» و«**مينك**» و«**ميهو**» و«**ميكع**» و«**سيفر**» و«**ميتاحي**» و«**ميعى**» و«**ميور**» و« **شرع**» واسم بلدهم «**يد**» وكل من كان في هذا الإقليم أصلهم من المغرب من وعكري»[3].

وما يدل على أثر علماء المغرب على الحياة السودانية هو ظهور مدارس ثقافية إسلامية في غرب إفريقيا تشبه في مناهجها وطرق تدريسها المدارس المغربية الموجودة بفاس والقيروان وأودغست حتى طريقة الكتابة تأثرت بالطابع المغربي[4].

---

(1) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية –ص192–199.

(2) **محمد عبد العالي أحمد**: منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجة الشهيرة جامعة القاهرة 1991–م.–ص31.

(3) **محمود كعت (بن الحاج المتوكل كعت الكرني التنبكتي الوعكري)**:–تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس –طبع هوداس ودولافوس 1964.–ص48، **الأمين محمد عوض الله**: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغاي – دار المجتمع العلمي جدة 1399هـ / 1979م.–ص179.

(4) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية–ص219.

كما دخل المذهب المالكي إلى السودان الغربي بواسطة علماء المغرب، حيث انتشرت كتب المالكية مثل الموطأ للإمام مالك، وكتب المغيلى والونشريسي، ودرست هذه الكتب في مدن السودان الغربي منها جني وتنبكت وكانو[1].

كما كان لفقهاء الإباضية الذين دخلوا بلاد السودان دورا هاما في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية، وقد لاحظ ابن بطوطة عند زيارته لمالي وجود فريقا من الخوارج أغلبهم من البيض المغاربة، كانوا يقيمون في قرية نائية تسمى زاغري بمملكة مالي[2].

وكان لدعاة وفقهاء المغرب دور كبير في إسلام ملوك السودان الغربي في عهد مملكة مالي نتيجة للصلات القوية بينهم وبين الطبقة الحاكمة، ويبرز ذلك المكانة الرفيعة التي يتمتع بها هؤلاء في مجتمعات السودان الغربي، وساعدتهم هذه الظروف من الاستقرار في عدد من مدن السودان، والعمل على نشر الدعوة الإسلامية.

ففي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري أسلم ملك مالي على يد داعية اسمه المسلماني، قال عنه البكري[3]:« أنه ضيف من المسلمين يقرأ القرآن

---

(1) **السعدي (عبد الرحمان بن عبد الله)**:-تاريخ السودان -وقف على طبع هوداس-مكتبة أمريكا والمشرق -باريس،1908،-ص33،38،39، حسن أحمد محمود: المرجع نفسه-ص242.

(2) - ابن بطوطة: المصدر السابق- ص680، إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية-الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973-.-ص148، **مسعود عمر محمد علي**: تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي فيما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين/ الرابع عاشر والسادس عشر الميلاديين -منشورات الدعوة الإسلامية العالمية -طرابلس -ليبيا -ط1-2003.-ص90.

(3) **البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)432 487هـ/ 1040 1094م**:المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) مكتبة أمريكا والمشرق ( د ط) باريس 1965.-ص178.

ويعلم السنة» ولقد صح إسلام هذا الملك فأخذ يدعو له أهل مملكته ويحملهم على الإسلام بكسر أصنامهم وطرد كهانهم وسحرتهم من مملكته، ولقد أخذ خلفاؤه من بعده يقومون بهذا الدور فقد قال عنهم البكري[1]:« صح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته» حتى أطلق أهل مملكة مالي من المشركين عليهم جميعا لقب المسلماني[2].

وأورد نفس القصة الدرجيـني(7هـ/ 13م) وهو مؤرخ إباضي من المغرب وذكر أن جده «علي بن يخلف» سافر إلى السودان سنة 575هـ/ 1179–1180م وهدى ملك مالي إلى الإسلام[3].

وشكك البعض في رواية البكري والدرجيـني، على أساس أن البكري أخذ معلوماته من التجار والمسافرين ولم يذهب قط، إلى بلاد السودان بالإضافة أن ملك مالي قد يكون دخل الإسلام في وقت مبكر لأن الذي أخذ عنهم البكري هو أحمد بن محمد الرازي (ت347هـ/ 958 م) وهو صاحب كتاب المسالك والممالك ومحمد بن يوسف(ت363هـ/ 973 م) والحسن بن أحمد المهلبي ( ت380هـ / 990 م)[4]، كما لم تذكر الرواية اسم الملك الذي أسلم ولا اسم العالم الذي دعاه إلى الإسلام[5].

---

(1) البكري: المصدر نفسه ـ ص178.

(2) عبلة محمد سلطان: العناصر المغاربية في السودان الغربي، دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاة دولة سنغاي؛ رسالة دكتوراه، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة –1999– ص143،142.

(3) **الدرجيـني**:طبقات مشايخ المغرب –تحقيق اسماعيل العربي–الجزائر 1985.ج–2ص517–518.–ايفان هربك: مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا موسوعة تاريخ إفريقيا العام اليونسكو ج3 ص192.

(4) أحمد الياس حسين : المرجع السابق ص 96.

(5) إبراهيم علي طرخان دولة مالي الإسلامية–الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973، ص51.

أما الدرجيني فقد يكون قد أخذ الرواية من البكري وذكر اسم جده ربما لإعطاء صورة حسنة عن أسرته، وربما قد أخلط الأسماء لأن كثير من التجار الإباضيين يحملون اسم يخلف سافروا إلى المغرب[1].

ورغم هذا التشكيك في الروايتين، إلا أنها لم تنقص من أهميتهما التاريخية لأنهما تعدان دليلا على نشاط الدعاة حيث كان لهم فضل في إسلام مدينة مالي والمدن المجاورة لها.

كما أسلم ملك جني على يد دعاة مغاربة، وقد روى السعدي[2] أن سلطان هذه المدينة لما أراد، إعلان إسلامه« أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحضر منهم أربعة آلاف ومائتا عالم فأسلم على أيديهم».

و اسم هذا الملك «**كنبـرو**» وبعد إسلامه طلب من العلماء بالدعاء إلى الله لنصرة مدينته، وهدم قصره وبنى مكانه مسجدا عظيما[3].

ومن خلال هذه الرواية يتبين أن عددا كبيرا من العلماء والفقهاء كانوا يسكنون مدينة جني وما جاورها، وأنهم كانوا يحضون بمكانة رفيعة في المجتمع. وقد تكون الرعية قد دخلت الإسلام، وأن الملك أراد تلميع صورته بينهم بإسلامه أمام هذا الحشد الكبير من المسلمين والعلماء وتشجيع المسلمين، خاصة منهم العلماء والتجار، من الاستقرار والاستيطان ببلده نتيجة للفوائد الاقتصادية التي يجنيها نتيجة التعامل مع المغاربة[4].

---

(1) الدرجيني : المصدر السابق ج2 ص517 – 518.

(2) السعدي : المصدر السابق–ص12.

(3) أرنولد توماس: المرجع السابق، ص155. – دائرة المعارف الإسلامية، مادة جني، ص146.

(4) عز الدين موسى: المرجع السابق ص 49.

وحرص حكام مالي بعد إسلامهم على الانتساب للأصول العربية وحبهم للعرب، فقد أدعوا أنهم من البيت العلوي ومن ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1]، كما كان السلطان منسى موسى أعظم سلاطين مالي صديق للبيض أو على حد تعبير ابن بطوطة[2]:« يحب البيضان ويحسن إليهم».

ربما يشير على التواجد الكبير للعلماء والفقهاء في مملكة مالي، هو ما ورد في رحلة ابن بطوطة من أسماء هؤلاء. فمنهم من قابلهم ومنهم من استضافه في بيته ومنهم من شاهده في بلاط الملك وغيرهم، وتبين رحلته كذلك التغلغل الكبير للعناصر العربية والبربرية في بلاد السودان، وأن كثير منهم لم تذكرهم الرحلة كانوا يعيشون في القرى والمناطق النائية.

فأثناء تواجده بمدينة كوكو استضافه رجل يدعى «محمد بن عمر» وصفه بالفطنة والظرف والمرح، توفي بعد خروجه من المدينة، وقال عنه:« وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا توفي بها بعد خروجي عنها»[3]، كما أكرمه الفقيه محمد الفيلالي الذي كان يشغل منصب إمام مسجد البيضان وأصله مغربي غرب شمال إفريقيا[4].

وممن التقى بهم ابن بطوطة في بلاد السودان محمد الوجدي التازي، وأبو

---

(1) **القلقشندي: ( أبو العباس أحمد بن علي): ت 821هـ/ 1418م**،صبح الاعشى في صناعة الإنشا-تحقيق وتعليق نبيل خالد الخطيب- دار الكتب العلمية، ط1 بيروت لبنان1407هـ/ 1987م. - ج 1 - ص286، عبلة سلطان محمد: المرجع السابق-ص144.

(2) ابن بطوطة: المصدر السابق -ص689.

(3) ابن بطوطة: المصدر نفسه-ص698.

(4) نفسه -ص 695، الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م) ط-1دار المتلقى للطباعة والنشر -بيروت-لبنان1993-م.-ص139.

حفص المسوفي، والشيخ التلمساني، والشيخ المزوري المراكشي[1]، ويقول في هذا الصدد:

«وأضافني بها عبد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان»[2].

وعند وصول ابن بطوطة إلى مدينة تكدا استضافه مجموعة من المغاربة الفقهاء والذين كانوا يسكنون المدينة منهم، الشيخ سعيد بن علي الجزولى، والقاضي أبو إبراهيم الجاناتي وجعفر بن محمد المسوفي، وأشار إلى ذلك في رحلته عندما وصل مدينة تكدا بقوله:

«ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولى، وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتـي وهو من الأفاضل وأضافني جعفر بن محمد المسوفي»[3].

وكان لهؤلاء الفقهاء المغاربة والأفاضل مكانة خاصة عند حكام السودان حيث يذكر ابن بطوطة أنه لما وقعت منازعة بين سلطان تكدا والتكريري وهو من سلاطين البربر كذلك توجه إليه كل من القاضي أبو إبراهيم والخطيب محمد والمدرس وعند وصوله لمدينة مالي(العاصمة) استقبله زعيم جماعة البيضان أي المغاربة وهو محمد بن الفقيه الجزولى وصهره الفقيه المقرئ عبد الواحد وهو زوج بنت عم السلطان[4]، والفقيه شمس الدين النقوشي المصري[5].

---

(1) عبلة محمد سلطان: المرجع السابق-ص137، الهادي مبروك الدالي: المرجع نفسه-ص139.

(2) إبن بطوطة: المصدر السابق-ص695-696.

(3) إبن بطوطة: المصدر نفسه-ص696.

(4) إبن بطوطة: المصدر السابق-ص681، الهادي مبروك الدالي: المرجع نفسه-ص139، عبلة محمد سلطان: المرجع السابق-ص137.

(5) ابن بطوطة: المرجع السابق-ص681، إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق -ص152.

وجاء عند كل من العمري والقلقشندي[1] أن الشيخ الدكالي وشيخ فقيه وهو أبو عثمان سعيد الدكالي من سكان مدينة يني بمالى سكن بها خمسة وثلاثين سنة.أسند إليه العمري في كتابه الممالك المعلومات الخاصة بمملكة مالي وأحوالها.

من خلال رحلة ابن بطوطة يتضح لنا أن الجاليات العربية والبربرية كانت تضم عدد كبير من الفقهاء والعلماء، وكان أفراد هذه الجالية تجمع بينهم رابطة واسعة ولها تنظيمها الخاص[2] وكانوا يسكنون حي خاص بهم يستقبلون فيه الضيوف من العرب والبربر[3]، كما كان من عادة أهل السودان عندما يصل إلى بلادهم عربي أو بربري أن يقدمه رئيس الجالية البيضاء رسميا للبلاط، كما اعتاد السلطان أن يقدم للزائر هدية رمزية تعبيرا عن الترحيب[4].

ومما يدل على المكانة الرفيعة والمعاملة الحسنة للفقهاء والعلماء والتجار المغاربة في مملكة مالي هو أن الشكاوي التي يتقدمون بها للسلطان تلقى صدى ورد سريع، يروي إبن بطوطة أن أحد التجار والفقهاء يدعى أبو حفص قد حضر صلاة الجمعة واشتكى للملك أمام عامة الناس من جور حكامه واستطاع هذا التاجر والفقيه أن يسترد أمواله بل ان الملك عزل ذلك الحاكم في الحين[5].

وفي أواخر عهد مملكة مالي برز بعض القضاة في المراكز الحضرية منها مدينة تنبكت مقر تحول جامعها سنكرى إلى مركز ثقافي كبير يأتيه العلماء

(1) صلاح الدين منجد: المرجع السابق –ص65، القلقشندي: المصدر السابق–ج–5ص–276 –287 العمري : المصدر السابق–ج–4ص68.

(2) مادهو بانيكار: المرجع السابق–ص345.

(3) إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق–ص152.

(4) ابن بطوطة: المصدر السابق–ص698، مادهو بانيكار: المرجع السابق–ص345.

(5) ابن بطوطة: المصدر السابق–ص688، أحمد محمد مصباح : المرجع السابق –ص193.

من كل مكان ويدرس فيه مختلف فنون العلوم الإسلامية، ومن أشهر العلماء البيض الذين اشتهروا خلال هذه الفترة هو الفقيه الحاج وهو من قبيلة جداله وجد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر، تولى القضاء أواخر دولة مالي[1]، ويقول عنه السعدي[2]:« أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب القرآن في جامع سنكرى بعد صلاة العيد وبعد صلاة العشاء».

## 3 – فقهاء وعلماء الأندلس في مملكة مالي

كانت العلاقات بين مملكة مالي والأندلس قوية ومتينة، فعندما اشتدت وطأة المسيحية بزعامة فشتالة على مسلمي الأندلس، وركزت جهودها لشن حرب صليبية لانتزاع بقية المناطق الإسلامية، والقضاء على الوجود الإسلامي هناك، هاجر عدد كبير من مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب والسودان فرارا بدينهم، وقد لقي من وفد منهم إلى بلاد السودان كل ترحيب من السلطان منسى موسى أو ممن جاء من بعده من السلاطين[3].

ومن أشهر علماء الأندلس الذين كان لهم أثر كبير في مملكة مالي هو الشاعر والمهندس المعماري أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجين والذي كان له فضل كبير في بناء عدد من المساجد وقصر منسى موسى منها مسجد جاو وتنبكتو[4].

---

(1) إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية–ص152.

(2) السعدي: المصدر السابق–ص27. جون هاندويك: المرجع السابق–ص7.

(3) إبراهيم علي طرخان: دولةمالي الإسلامية–ص72، محمد عبد العال أحمد: المرجع السابق–ص35.

(4) ابن خلدون :المصدر السابق – ج–6 ص237 عبد الرحمن زكي: المرجع السابق– ص128.

يقول عنه المقري: أن أباه كان عالما في الفقه أي أنه كان من أسرة علمية، وارتحل هذا العالم إلى المشرق فحج، ثم سار إلى السودان بصحبة السلطان منسى موسى فأستوطن هناك، وتوفي في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأخيرة عام 747هـ/ 1346م ودفن في تنبكتو[1].

وروي ابن بطوطة عنه: أن أبا إسحاق الساحلي المعروف بالطويجين أشرف على بناء مالي منها مسجد جاو، وهو شاعر ومهندس قرطبي كان السلطان منسى موسى، قد تعرف إليه خلال حجته 621هـ/ 1324م ودعاه إلى بلاده وصحبه معه في عودته ويعرف هذا الشاعر المهندس في بلاده باسم« الطويجين»[2] ويذكر ابن بطوطة كذلك أنه أعجب بالقاعة التي كان بها مجلس السلطان.

ويقرر ابن خلدون بأن هذا العالم بنى قصرا لسلطان منسى موسى محكم البناء استفرغ فيه إجادته، فجاء من أتقن المباني، ووقع من السلطان موقع الاستغراب وكافأه السلطان على ذلك بإثني عشر ألفا من مثاقيل التبر، بالإضافة إلى ما كان له من الأثر عند هذا السلطان[3].

ومن خلال ما ذكر أن أبا إسحاق الساحلي كان له أثر في تطوير الفن المعماري في بلاد السودان، حيث أشرف على عمارة مساجد جاو وبقى هذا المسجد نحو ثلاثمائة سنة، كان مبنيا من الطوب المحروق ومسندا بالآجر، وبنى قاعة الاجتماعات بقصر منسى موسى في مالي بالحجر، وزخرفها بالخشب المطعم

(1) المقري: المصدر السابق-ج-2ص667.
أحمد سيد الباز: المرجع السابق-ص157.

(2) ابن بطوطة: المصدر السابق – ص696، إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية-ص148.

(3) **ابن خلدون: (عبد الرحمان): 732هـ-808-هـ/ 1332م-1406-م**،تاريخ ابن خلدون،المعروف بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) -دار الكتب العلمية ط1 بيروت- لبنان -1413هـ/ 1992م -ج-6ص239، السيد أحمد الباز: المرجع السابق-ص157.

بالذهب والفضة، كما أدخل الساحلي نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن الهرمية الشكل، وكانت المباني قبل ذلك تبنى بالخشب[1]، وساهم الساحلي بذلك في توسيع مدينة جنـي وتنبكتو وإدخال مواد جديدة للبناء، وساعدت أفكاره المعماريون المغاربة في تخطيط مدينتي جني وجاو، فقد امتازت هاتان المدينتان بالشوارع الضيقة والبيوت ذات السطوح العالية والأبواب الضخمة وهذه المظاهر الأساسية في مدن الأندلس وشمال إفريقيا[2].

ورغم أن المصادر لم تذكر أسماء فقهاء الأندلس الذين استقروا ببلاد السودان، إلا أن كتب أكبر العلماء كانت تدرس في مملكة مالي منها كتب «الشفا» وللقاضي عياض[3].

## 4 –فقهاء وعلماء مصر في مملكة مالي

إن العلاقات الثقافية بين مصر والسودان الغربي كانت قوية منذ أقدم العصور وقد أشار إلى ذلك الرحالة الإنجليزي «**ديـبوا**» *Félix Dubois* عند رحلته لمالي خلال القرن التاسع عشر الميلادي إلى هذه العلاقات والتي ترجع جذورها إلى عهد الفراعنة[4].

---

(1) Basil Davidson : Op,cit T2-P 100

– ابراهم علي طرخان: دولـة مالي الإسلاميـة–ص155، عبد الرحمـن زكـي: المصدر السـابق –ص108.

(2) – نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية–ص146.

– حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق–ص105.

(3) – حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية–ص148.

– أحمد السيد الباز :المرجع السابق–ص156.

(4) فيليكس ديبوا: المرجع السابق–ص79.

وفي العهد الإسلامي ازدادت هذه العلاقات فانتشر الإسلام واللغة العربية، وأسهم الحج في تنمية العلاقات الثقافية والعلمية بين السودان الغربي ومصر، حيث كان كبار العلماء من السودان الغربي في طريقهم إلى مكة المكرمة وعودتهم منها يقيمون فترة في القاهرة للدراسة بالأزهر[1]. فقد حج إلى مكة كثير من مشاهير سلاطين المسلمين في هذه الجهات واتصلوا أثناء مرورهم بمصر وبحكامها ووجوه الناس والعلماء، وكان لهم مع مصر مراسلات وديوان الإنشـا. وملوك مالي المعروفين الذين مروا بمصر خلال حجتهم: برمندانه ومنسى ولى بن ماري جاطة الأول وساكورة ومنسى موسى ومنسى سليمان، واشتهر منسى موسى بجلب عدد من العلماء والفقهاء والكتب أثناء حجته[2].

وتبرز أهمية الحج في أن جموع الحجيج القادمين من المغرب وبلاد السودان ثم القاهرة، كانت قوافلهم تضم عددا كبيرا من العلماء الذين كانوا يحرصون في أيام إقامتهم بالقاهرة على التردد على جامع الأزهر، وكان عدد منهم يتخلف عن القافلة رغبة منه في تعميق صلاته بعلماء الأزهر[3].

ونتيجة لرحلات الحج الطويلة وحاجة أهل السودان المارين بمصر إلى مكان للاستراحـة

والاستفادة من العلوم الشرعية وغيرها، احتاجت وفودهم الكثيرة إلى مكان ثابت ينزلون فيه خلال رحلاتهم، ومن أشهر المناطق التي أقاموها

(1) – محمد عوض محمد:المرجع السابق– ص82.

(2) – **المقريـــزي: (تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي): 845هـ/ 1441م**: الذهب المسبوك في ذكر من حج بين الخلفاء والملوك حققه الدين أيال مطبعة التأليف والترجمة–القاهرة–مصر 1955–. ص112––113. – ابن خلدون: العبر–ج–6ص 238ـ 239، حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقة–ص188، ابراهيم علي طرخان: مملكة مالي الإسلامية–ص168.

(3) أحمد السيد الباز: المرجع السابق –ص164.

حي خاص بهم وهو حي «**بـولاق**» بالقاهرة وحي للتكارتة أنشئ في العهد الفاطمي386هـ/ 996م وأشتهر ببولاق التكرور نسبة إلى أحد الصالحين وهو الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري، وكان ممن يعتقد فيه الخير والصلاح، فلما توفي بنى له مسجدا دفن فيه وعرف باسم جامع التكروري[1]. ولما تحول مجرى النيل إلى ناحية بولاق سنة 790هـ/ 1388م خشي الناس أن تعمر المياه الضريح والجامع فحولوا مجرى النيل[2].

وفي أواخر العهد الأيوبي أنشأ أبو رفيق مدرسة في طنطا مصر، عرفت باسمه وخصصت لتدريس الفقه المالكي، استخدمها حجاج التكرور للإقامة بها عند مرورهم بمصر لأداء فريضة الحج، وصار لهذه المدرسة في بلاد التكرور سمعة طيبة وكانوا يبعثون إليها بالأموال في كثير من السنين[3].

وفي عصر المماليك بمصر والذي تزامن مع تأسيس مملكة مالي الإسلامية سنة 665هـ/ 1266م استعاد الأزهر مكانته في عهد الظاهر بيبرس بإعادة خطبة الجمعة به[4]، ولم يلبث أن أصبح أكبر جامعة إسلامية في مصر وفي العالم الإسلامي وتبوأ الزعامة الفكرية والثقافية وإن غلبت الصبغة الدينية على برامجه وحلقاته[5].

---

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار -ج-2ص326.
- محمد عبد العال:المرجع السابق، ص36.
- أحمد شلبي: المرجع السابق، ج، 6، ص 254.

(2)المقريزي:المواعظ والاعتبار، ج2، ص326، محمد عوض محمد: المرجع السابق، ص83.
- إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية-ص169.

(3) المقريزي: المصدر نفسه ج-2ص365، إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق-ص169.

(4) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، (د ط)، بيروت، 1418هـ / 1997م ج2 ص 42.

(5) محمد أحمد أمين: المرجع السابق- ص297-298.

واجتذب الطلاب من كل مكان ومن بينهم طلاب وعلماء السودان الغربي، الذين عرفوا بالتكرور والذين اختصوا بأحد أروقة الأزهر حيث كان لهم رواق خاص بهم[1].

وأندمج الطلبة التكارتـة في القاهرة بالمجتمع المصري ولم يعيشوا بمعزل عن المجتمع وكسبوا أرزاقهم من الحرف التي زاولوها ومن الحوانيت التي عملوا بها[2].

ومن أشهر التكارتة الذين وفدوا إلى مصر وأخذوا العلم منها في عهد مملكة مالي الشيخ بن عبد الله التكروري، حيث اشتغل بتدريس الحديث بالقاهرة ودمشق حتى وفاته سنة 731هـ/ 1330م[3] والشيخ رشيد الأسود التكروري الذي اتخذ من جامـع راشدة مكانا للخلوة والانقطاع والعبادة والذي توفي سنة 796هـ/ 1393م[4].

وأوردت كتب التراجم وخاصة كتب طبقات المالكية سير العديد من رجالات السودان الغربي الذين وجلوا إلى مصر سواء لتلقي العلم أو للتدريس بها، ومن هؤلاء الشيخ فاتح بن عثمان التكروري (ت695هـ/ 1293م) والشيخ ألقر التكروري(ت897هـ/ 1453م) والفقيه صبح التكروري (ت731هـ/ 1330م)[5].

(1) – أحمد السيد الباز: المرجع السابق–ص 164.

(2) – محمد عوض الله: المرجع السابق – ص84.

(3) – ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة –ج–2ص204.
–السيد أحمد الباز: المرجع السابق –ص168–169.
–محمد محمد أمين: المرجع السابق–ص300.

(4) – المقريزي: السلوك–ج–3ص45، المقريزي: المواعظ والإعتبار – ج–2ص282.
محمد أحمد أمين: علاقات دولتي مالي وسنغاي بمصر–ص301.

(5) – ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة–ج–2ص204.

ورغم ازدياد عدد التكارتة إلا أنهم كانوا يحضون بالرعاية والكرم، ومن كثرتهم أخصهم السلطان المملوكى خوان خاص سنة 677هـ/ 1288م[1].

و تقلد بعضهم مناصب إدارية في بعض دواوين الحكومة، حيث عين أحدهم في منصب كبير وكان لهم ترجمان كبير بمصر وهو الحاج بوسن[2].

كما كان للتكارتة جالية كبيرة بمصر، كان للمصريين جالية في مملكة مالي، وكان أكثرية أفرادها من التجار والعلماء، وازداد عددهم حتى أصبحوا يشكلون طائفة قائمة بذاتها.

فقد أشار ابن بطوطة عند إقامته بمدينة مالي إلى وجود أطباء مصريين بها، فقد ذكر أنه عندما تناول طعام على شكل عصيدة مرض بسببها ولم يسعفه سوى طبيب مصري قدم له دواء يسمى «بيادرا» يتمثل في عروق نبات مخلوط بالأنيسون والسكر فشربه وشفي وقد يكون صحبه قد مات من تناوله نفس الطعام[3].

ولاشك في نمو الصلات الثقافية بين مصر ومملكة مالي أن يكون عدد فقهاء وعلماء مصر تنقلوا إلى مالي للتدريس بها، فقد كانت مدينة تنبكتو وجامعها تجذب إليها أساليب الأزهر في التعليم، كما أن منسى موسى لما كان مارا بالقاهرة اشترى كتبا لنقلها إلى بلاده وتعزيز الجانب الثقافي بين أهله[4]، وهذه إشارة على وجود علماء وفقهاء مصريين في مالي قد تكون المصادر أغلقت أسماءهم.

---

(1) – محمد عبد العال: المرجع السابق–ص37.

(2) – ابن خلدون: المصدر السابق–ج–6ص201، محمد محمد أمين: المرجع السابق–ص301.

(3) – ابن بطوطة: المصدر السابق–ج–4ص696، حامد عمار: المرجع السابق– ص95.

(4) – عبد العزيز كامل: العروبة والحضارة الإفريقية في منظور جديد مجلة معهد البحوث والدراسات العربية– الجامعة العربية القاهرة العدد الثاني 1392 هـ / 1972 م، ص237.

كما ذكر بن بطوطة أنه التقى بفقيه مصري هو شمس الدين بن المنقويش المصري وهو الرجل الذي أرسله ليستأجر له دارا بمالي عند اقترابه منها[1].

وورد عند بن حجر في كتابه أنباء العمر أن من العلماء المصريين الذين رحلوا إلى بلاد السودان الغربي علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي ثم المصري، الذي رحل إلى بلاد التكرور وأقرأ أهلها القرآن فحصل له مال، ثم عاد إلى مصر حوالي سنة723هـ/ 1323م[2].

و أخيرا يتضح من خلال ما استعرض أن العلاقات المصرية المالية كانت متينة، مكنت من تنقل التكارتة إلى مصر والاستقرار بها من أجل العلم أو التجارة أو الحج، في المقابل تنقل كثير من المصريين إلى مالي منهم العلماء حيث صادف ابن بطوطة البعض منهم الطبيب الذي قام بشفائه والفقيه الذي رافقه إلى مالي، وقد يكون بعض العلماء الذين استوطنوا بالمملكة لم تذكر أنبائهم في المصادر المكتوبة خاصة العلماء المتخرجين من الأزهر.

## 5 – فقهاء وعلماء الحجاز في مملكة مالي

دخل عدد كبير من أهل السودان إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، واستغل هؤلاء وجودهم بالمناطق المقدسة للإطلاع ومعرفة ما ألفه علماء المشرق والتزود منهم بزاد العلم.

ولذلك كان الحج من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين فرص الالتقاء والتبادل الثقافي، وقد حرص سلاطين الدول الإسلامية في السودان الغربي

(1) – ابن بطوطة: المصدر السابق–ص296.

(2) – شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: الغمر بأنباء العمر – تحقيق لجنة إحياء التراث المجلس الأعلى للشِون الإسلامية – القاهرة 1392–هـ/ 1972م – ج2 ص616، محمد محمد أمين: المرجع السابق–ص301.

وشعوبها لأداء هذه الفريضة، ورغم ما يكابدونه من مشاق طول الطريق ووعورته، وكانوا يسيرون في طرق معروفة لقوافل الحجيج وهي في الحقيقة نفس طرق القوافل التجارية، وأهمها:

-طريق صوب الشمال عبر ساحل المحيط ثم ساحل البحر المتوسط ثم الاتجاه شرقا تجاه مصر ومنها عبر المحيط الأحمر إلى الحجاز، وهو الطريق الأكثر استعمالا.

-طريق صوب الشرق إلى السودان وادي النيل ثم ساحل البحر الأحمر والحجاز[1].

وفي عهد مملكة مالي رحل كثير من علماء وفقهاء الحجاز إلى السودان الغربي واستقروا هناك. فدخلوا البلاد عن طريق الرحلات والقوافل والوفود العائدة من الحج خاصة من السلاطين والملوك.

فمن عادة حكام تلك البلاد أن يصطحبوا معهم عند عودتهم إلى بلادهم بعد أداء مناسك الحج، عددا من الأشراف والفقهاء للإقامة في بلادهم بسبب الروابط الدينية التي تربطهم ببلاد الحجاز، فيزدادون في وسط رعاياهم إجلالا وإكبارا، وكانت لسلاطين مالي صلات أخوة واحترام مع الفقهاء والعلماء الذين دخلوا مملكتهم وأقاموا بها[2].

إن الملك منسى موسى، أشهر ملوك مالي عندما زار الأماكن المقدسة وعند عودته أصطحب معه العلماء والفقهاء من الحجاز منهم الفقيه عبد الرحمن التميمي المسمى المكي، فأقام عنده بتنبكتو، وحضر دروس الفقه ومختلف العلوم في مسجد سنكرى، ولما رأى أن علماء المدينة من أهل السودان

(1) - أحمد السيد الباز: المرجع السابق-ص174.

(2) - حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية-ص228.

يفوقونه علما ولم يستطع مجاراتهم في العلم، ذهب إلى مدينة فاس لدراسة الفقه المالكي هناك، وبعد تعلمه رجع إلى مدينـة تنبكتـو[1].

وتدل هذه الرواية على المستوى العلمي الكبير الذي وصل إليه علماء تنبكتو، وأنهم لا يقلون عن مستوى علماء الحواضر الإسلامية الأخرى في المشرق والمغرب منها مكة المكرمة، إن لم يكونوا قد تفوقوا عليهم في بعض النواحي[2].

وأخيرا نستنتج مما ذكر أن الجالية العربية والبربرية التي كانت تسكن السودان الغربي في عهد مملكة مالي، كانت تتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع السوداني وبين الطبقة الحاكمة. ومن ضمن هذه الجالية الفقهاء والعلماء الذين كانوا يشكلون جماعة كبيرة ويحضون بالاحترام والتقدير من طرف العامة والسلاطين، وتقلدوا مختلف المناصب الإدارية وحتى السياسية منها منصب القضاء.

ونتيجة لهذه المكانة كانوا يتدخلون لحل بعض المشاكل السياسية لما لهم من تأثير على حكام هذه البلاد بسبب تفوقهم العلمي والمعرفة الواسعة للفقه الإسلامي، كما كان لهم فضل كبير في انتشار الإسلام واللغة العربية والعادات والتقاليد الإسلامية.

ومما تبين في البحث أن الفقهاء والعلماء المغاربة طوروا في العملية التعليمية وألفوا الكتب وشيدوا المساجد وبنوا المدارس، فكان لهم الفضل في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وتقلدوا المناصب في الدولة أهمها

(1) – السعدي: المصدر السابق–ص51.
– الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية–ص152.
(2) – محمد عوض محمد: المرجع السابق–ص90.
– حسن أحمد محمود: انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقية–ص189.

منصب القضاء، وحولوا بعض المراكز الثقافية إلى منارات علمية في المنطقة تشع منها الثقافة العربية الإسلامية أشهرها جامعة سنكري في تنبكتو تم تأسيسها سنة 854هـ/ 1450م والتي أصبحت تضاهى في مستواها العلمي القيروويين بفاس والأزهر بمصر. وكان للفقهاء نفوذا كبيرا فباستطاعتهم تلطيخ سمعة حاكم مثل ما حدث مع «سني علي» أو تحسين صورته كما فعلوا مع الإسقيا محمد الأول. فالفقيه كان له تأثير على نفوس العامة لسموه العلمي وتفقهه في الدين ولأخلاقه العالية ومنصبه في الدولة، ولهذا كان السلاطين يمنحون العلماء الامتيازات والهدايا ويزودوهم حتى بالحراس لضمان سلامتهم، ووصل حد احترامهم من العامة أن ينسب لهم الكرامات وإقامة الأضرحة لمن مات منهم.

## المصادر والمراجع

**1 – حسن عيسى عبد الطاهـر**: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني الزهراء للإعلام العربي–ط1 – القاهرة 1915–

**2 – محمد عبد العالي أحمد**: منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجة الشهيرة جامعة القاهرة 1991–م.– 2 .

**محمود كعـت (بن الحاج المتوكل كعت الكرني التنبكتي الوعكري)**:–تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس – طبع هوداس ودولافوس 1964.

**3 – الأمين محمد عوض اللـه**: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغاي – دار المجتمع العلمي جدة1399هـ/ 1979م.

**4 – السعـــدي (عبد الرحمان بن عبد نعيم قداح**: حضاري الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية – ط–3 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

**5 – مادهويـا تيكـار**: الوثنية والإسلام – ترجمة أحم فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، 1995 .

**6 – أرنولـد توماس**: الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسين إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي–مكتبة النهضة المصرية 1970.

**7 – ابن بطوطة** (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي) 704هـ779–هـ/ 1304–1377م–رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمصار) دار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1400–هـ/ 1980م.

إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية–الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973.

**8 – مسعود عمر**

**9 – محمد علي**: تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي فيما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين/ الرابع عاشر والسادس عشر الميلاديين – منشورات الدعوة الإسلامية العالمية – طرابلس – ليبيا – ط1–2003.

**10 – البكـــري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز)432 487هـ/ 1040 1094م**:المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) مكتبة أمريكا والمشرق ( د ط) باريس 1965

**11 – الدرجيـــني**:طبقات مشايخ المغرب – تحقيق اسماعيل العربي–الجزائر 198511 .

**12 – القلقشنـــدي**: **( أبو العباس أحمد بن علي): ت 821هـ/ 1418م**، صبح الاعشى في صناعة الإنشا–تحقيق وتعليق نبيل خالد الخطيب – دار الكتب العلمية، ط1 بيروت لبنان1407هـ/ 1987م

**13 – ابن خلدون: (عبد الرحمان): 732هـ808–هـ/ 1332م1406–م**، تاريخ ابن خلدون، المعروف بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) –دار الكتب العلمية ط1 بيروت– لبنان – 1413هـ/ 1992م.

**14 – المقريـزي: (تقي الدين ابي العباس أحمد بن علي): 845هـ/ 1441م**: الذهب المسبوك في ذكر من حج بين الخلفاء والملوك حققه الدين أيال مطبعة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 1955.

**15** – شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني: الغمر بأنباء العمر – تحقيق لجنة إحياء التراث المجلس الأعلى للشِون الإسلامية – القاهرة 1392–هـ/ 1972م.

**16** – عبد العزيز كامل: العروبة والحضارة الإفريقية في منظور جديد مجلة معهد البحوث والدراسات العربية– الجامعة العربية القاهرة العدد الثاني 1392 هـ / 1972 م.

**17 – مارمـــول كربخـال**:إفريقيا – الجزء الثالث–ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي، عمار زبير، محمد الاخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، دار النشر للمعرفة – الرباط.

**18 – المقري (أحمد بن محمد) ت 544هـ/ 1149**نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب–تحقيق عزا لدين عبد الحميد، مصر، 1949.

# دور العلماء الميزابيين في الحركة السياسية والفكرية بإفريقيا، الشيخ إبراهيم اطفيش وإسهاماته بزنجبار أنموذجا.

الأستاذ معمر شعشوع
كلية العلوم الإنسانية - جامعة الشلف -

## مقدمة

العلاقات بين المغاربة والأفارقة قديمة تعود إلى عصور ضاربة في العمق التاريخي والحضاري، وتعززت هذه العلاقة وتوطد ت بدخول الإسلام إلى القارة الإفريقية حين توالت الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا وغربها، وتردد التجار المسلمين على السواحل الإفريقية، وبذلك تجسد التقارب المغاربي الإفريقي في جوانب مختلفة كالمبادلات التجارية والتفاعل الثقافي والإجتماعي، فكان التأثير والتأثر الحضاري واضحا عبر مختلف العصور.

ومن أبرز العناصر المغاربية التي أثرت في المجتمع الإفريقي العلماء الإباضيون من بني ميزاب[1] بالجزائر، الذين ساهموا بمجهوداتهم في نشر الثقافة الإسلامية، وتنشيط الحركة الإسلامية بإفريقيا، ونخص بالذكر والدراسة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش من خلال رحلاته إلى زنجبار وجهوده في نشر الفكر والتراث بهذا القطر الإسلامي. ولعل السؤال الذي يتوجب طرحه هنا، ما هي أبعاد زيارة الشيخ إلى زنجبار ؟ وما هي علاقته بأعيان المنطقة؟ وهل كان لهذه الزيارة صدى ؟

(1) نسبة الى وادي ميزاب بنواحي مدينة غرداية بالجزائر.

## 1 – أهمية الموقع الجغرافي والإستراتيجي لزنجبار

أصل كلمة زنجبار تعني «بر الزنج»، وتدعى الجزيرة الكبرى تشمل مجموعة جزر مطلة على المحيط الهندي شرق إفريقيا، وتتشكل من أرخبيل يضم أنغوجا وجزيرة بمبا وماسيمبا[1]، وتتميز بمناخها الإستوائي، وتزخر بالتنوع الطبيعي حيت تحتوي على أشجار الجوز الهندي، وتشتهر بمنتجاتها الزراعية وخاصة الثوم الذي نال شهرة عالمية.

وتذكر المصادر أن الرحالة ابن بطوطة زار زنجبار عام 1331م وأعجب بمدنها خاصة مدينة «كليوة» ووصفها بأنها أكثر المدن جمالا وأحسنها بناءا في العالم[2]، وهذه لها أكثر من دلالة على أن المنطقة تمتاز بموقع جغرافي واستراتيجي، الشيء الذي جعلها منطقة جذب للسكان من مختلف أصقاع العالم.

## 2 – لمحة عن الوجود العربي بزنجبار

لاشك أن الوجود العربي قديم بإفريقيا، وكان قبل انتشار الإسلام حيث يقول الأستاذ إبراهيم محمد أن ما أورده ابن خلدون يُشكِّل جزءاً من علاقةٍ عربيةٍ قديمةٍ بمنطقة شمال وغرب إفريقيا، أمَّا الشَّواهد على الصلات العربية مع شرق إفريقيا، فقد بدأ التَّفاعل بين سكان سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي وشبه الجزيرة العربية ومصر منذ آمادٍ بعيدة، ترمز لها هجرات العرب العاربة، وكذلك بعثة الملكة المصرية (حتشبسوت) إلى بلاد بُنْت Punt طلباً للعطور والبخور قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عام. فتاريخ الصومال هو تاريخ التَّفاعل

(1) للمزيد أنظر الموسوعة العالمية ويكيبيديا.

(2) أبو عبد الله ابن محمد اللاواتي( ابن بطوطة)،تحفة النظار في غرائب الأمصار، ص253

المستمر بين إفريقيا وشبه الجزيرة العربية، إذ كانت الصومال هي الأسبق في استقبال الدعوة الإسلامية، ومن المُرجَّح أنَّ ذلك يعود لعلاقات الصومال القديمة ببلاد العرب وبحكم وجود جالياتٍ عربيةٍ على ساحل الصومال منذ انهيار سد مأرب وما تلا ذلك[1].

ولما دخل الإسلام إلى شرق إفريقيا حدث تغيير جذري في المجتمع الزنجباري، في النظم السياسية والاجتماعية والثقافية، وانصهر السكان المحليون مع الهجرات العربية منذ النصف الأخير من القرن الهجري .

وامتد التأثير الإباضي على المنطقة في مرحلة مبكرة حيث أشار البكري إلى المسالك والطرق التجارية للتجار الإباضيين في عمق الصحراء الإفريقية وصولا إلى الساحل الشرقي لإفريقيا، وكثيرا ما كانوا يترددون على هذه المناطق بغرض التجارة، ثم تطورت العلاقة إلى المصاهر والاندماج الاجتماعي.

وسيطرت قوى مختلفة على الساحل الشرقي لإفريقيا من احتلال ألماني وبرتغالي، إلى أن فتحها العمانيون، في عام 1832م قرر سلطان عمان سيد بن سعيد[2] ضم زنجبار التي انبهر بموقعها الجغرافي والاستراتيجي ومواردها الطبيعية[3].

(1) ابراهيم محمد احمد بلولة، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام،مجلة دراسات دعوية العدد 09، فبراير 2005،ص66

(2) عن أسرة وحكم البوسعديون أنظر عبد الله بن محمد الطائي، تاريخ عمان السياسي،عمان،مكتبة الربيعان للنشر والتوزيع،ط2009.

(3) باسم رحال،الجزيرة التي زارها ابن بطوطة،مجلة منشأ، عمان،العدد 85،تاريخ النشر13/ 9/ 1993م،ص85.

## 3 -التواصل الحضاري والثقافي بين الجزائر وزنجيبار

إن الحديث عن العلاقات الجزائرية مع إفريقيا وخاصة منطقة زنجبار له خصوصية، حيث تعود إلى عصور قديمة قبل وصول الأوربيين، وساهم الوجود الجزائري بهذه المنطقة من توطيد العلاقات التاريخية والحضارية.

وتذكر المصادر أن الشيخ أمحمد أطفيش[1] الملقب بقطب الأمة كانت له علاقات مبكرة مع علماء وأعيان زنجبار، فقد كانت له اتصالات مع سيف ناصر الخروصي (ت1341هـ/ 1923م)، أحد العلماء البارزين في زنجبار في الفقه الإباضي، وأحد قضاة السطان برغش بن سعيد[2].

كما كانت للشيخ القطب علاقات متينة مع السلطان برغش بن سعيد الذي اهتم بطبع بطبع كتب قيمة للقطب ككتاب التفسير، ونظرا لتضلعه في مختلف العلوم النقلية والعقلية فقد أهدى له السلطان الزنجباري برغش وسام الشرف لتفوقه في إحدى المسابقات العالمية وفكه لغز الماء وتقديرا لجهوده العلمية[3].

---

(1) هو أحد علماء بني يزقن، سمي بالقطب لسعة علمه وتمكنه في العلوم الدينية، ولد عام 1237هـ/ 1818م، تكون تكوينا عصاميا بمسقط رأسه، اهتم بالتدريس ونشر العلم بوادي ميزاب، سافر إلى المشرق العربي لأداء مناسك الحج، وزار في طريقه الحواضر العلمية كجامع الزيتونة بتونس، والأزهر بمصر، أهدى إليه السلطان عبد الحميد الثاني نيشانا في إحدى المسابقات بين معاصريه، ترك العديد من المؤلفات، قام بتحقيق بعضها الشيخ إبراهيم اطفيش، توفي القطب عام 1332هـ/ 1914م، للمزيد العودة إلى كتاب محمد علي دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة،ج1، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ط2007، ص80.، وأيضا العودة إلى بكير بن سعيد أغوست، قطب الأئمة أمحمد بن يوسف اطفيش، المطبعة العربية، الجزائر 1989م.

(2) السلطان برغش بن سعيد ولد عام 1837م، تولى حكم زنجبار عام 1870م حتى وفاته عام 1888م، حاز على أوسمة علمية من بريطانيا عام 1875م.

(3) كان السلطان عبد الحميد الثاني أيضا اهدى له وسام الشرف في نفس المسابقة العالمية في حل لغز الماء.

وكثيرا ما كان يجمع الشيخ اطفيش[1] في مراسلاته بين السلطان الزنجباري والسلطان العماني والإشادة بهم، والدعاء لهم في مؤلفاته كما هو الحال في كتاب شرح النيل[2].

وتعززت العلاقات أكثر في عصر ابن أخ القطب أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، الذي أثر في المجتمع الزنجباري فكريا واجتماعيا وسياسيا، فمن هو الشيخ أبو إسحاق؟

ولد الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش بقرية بني يزقن بضواحي مدينة غرداية عام 1304هـ الموافق لعام 1886م، في وسط عائلة علمية متدينة، نشأ وتربى في أحضان عائلته، والتي كان من أبرز علمائها القطب محمد بن يوسف اطفيش، حفظ القرآن الكريم وعمره إحدى عشر سنة، وتشبع بمسقط رأسه بمبادئ الدين الإسلامي ومختلف العلوم[3]، ثم انتقل إلى العاصمة وتتلمذ على يد الشيخ عبد القادر المجاوي[4] .

---

(1) كلمة اطفيش لقبه العائلي، أصلها بربري وتعني ( خذ تعالى كل)، للمزيد طالع الحاج بن احمد كروم، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، منشورات جمعية أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدم التراث، الجزائر، غرداية، ط1431هـ/ 2010م.ص6.

(2) امحمد بن يوسف اطفيش، كتاب النيل وشفاء العليل، تحقيق إبراهيم اطفيش،وزارة التراث القومي والثقافة،سلطنة عمان .ج01،ط1406هـ/ 198615،ص464.

(3) مجموعة باحثين، معجم أعلام الاباضية، ج2، منشورات عالم المعرفة،الجزائر،ط2008، ص ص، 24،25.للمزيد أيضا العودة إلى كتاب عبد الله بن محمد بوراس الناصري، سبيل الخلود، أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، مطبعة الشهاب، الجزائر (قسنطينة)، ط1965م، ص 7

(4) ولد عبد القادر المجاوي بمدينة تلمسان عام 1267هـ/ 1848م، أتم دراسته بمدينة فاس وطنجة وجامع القرويين بالمغرب الأقصى، عاد إلى الجزائر بعد أداء مناسك الحج،وتولى التدريس بقسنطينة، ثم انتقل إلى العاصمة للتدريس بالمدرسة الثعالبية، وعين أيضا إماما خطيبا بجامع سيدي رمضان بالجزائر العاصمة، عرف بسعة علمه حيث وصفه أحد تلامذته بن أبي شنب بأنه «صاحب المعارف الواسعة»، ينتمي إلى المجاوي لمدرسة الشيخ محمد عبده، ترك العديد من المؤلفات في اللغة والنحو والشريعة الإسلامية، للمزيد العودة إلى كتاب محمد علي دبوز،نهضة الجزائر / ج01،ص82 وما يليها.

وفي عام 1917م انتقل إلى تونس لإتمام الدراسة بجامع الزيتونة[1]، ونال إعجاب شيوخه وأساتذته لسعة علمه وأخلاقه، ثم انضم في صفوف الحركة الوطنية التونسية، وكان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الحر الدستوري، الذي كان يتزعمه الشيخ عبد العزيز الثعالبي.

كما كان يشرف على البعثات الطلابية الميزابية بتونس رفقة الشيخ أبو اليقظان، وساهم أيضا في الكتابة على أعمدة الصحافة التونسية، وناهض السياسة الاستعمارية في الجزائر وأقطار المغرب العربي، الشيء الذي أقلق السلطات الفرنسية التي قررت نفيه من تونس إلى مصر عام 1923م، وهي نفس الفترة التي نفي فيها الأمير خالد الجزائري الذي كانت تربطه علاقات العمل والنضال السياسي.

وعندما نزل بأرض مصر ربط علاقات الصداقة والعمل مع أبرز أعلام المشرق العربي، فكان على اتصال بمحب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح، ومد له يد المساعدة لتأسيس مجلة المنهاج التي كانت تطبع بالمطبعة السلفية منذ عام 1344هـ/ 1925م، والتي كانت تعتبر منبر سياسي وفكري لفضح السياسة الاستعمارية، وفضاء لقضايا العالم العربي والإسلامي[2].

---

(1) الملاحظ أن هجرة العلماء خلال هذه المرحلة كانت قصرية تداخلت فيها العديد من العوامل السياسية والعلمية والاقتصادية، فقد تعرضوا لضروب من المضايقات والمتابعة من السلطات الاستعمارية بسبب مواقفهم المعارضة لسياسة فرنسها وقوانينها الجائرة، ومنع حرية التعبير، كما أن هجرة العلماء إلى تونس أو بلاد المشرق العربي كان لسبب دراسي وعلمي بحت لانعدام مؤسسات تعليمية كجامع الزيتونة بتونس والأزهر الشريف بمصر والحجاز وغيرها من الجامعات الإسلامية.، للمزيد عن هذا الموضع انظر: خير الدين شترة،الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة (1900–1956) ج1، دار البصائر، الجزائر،ط2009، ص23.

(2) عن هذه المواضيع وغيرها انظرمجلة المنهاج . للشيخ ابراهيم اطفي شالت اسسها بالقاهرة عام 1925م

كما شارك الشيخ إبراهيم اطفيش في المؤتمر الإسلامي بالقدس عام 1931م، ودافع عن القضية الفلسطينية، وندد بسياسة الإحتلال الايطالي بليبيا، ودعى المسلمين إلى الوحدة لمواجهة الإمبريالية الغربية.

وفي أواخر الخمسينات من القرن الماضي شغلته القضية العمانية، وسافر إلى الأمم المتحدة للمطالبة باستقلال عمان، وعرض القضية في المحافل الدولية لما كان يمتاز به من حنكة سياسية.

أصيب الشيخ إبراهيم اطفيش بمرض ألزمه الفراش بعد إجراء عملية جراحية، واشتد عليه المرض إلى أن وافته المنية يوم 20شعبان 1385هـ الموافق ل13ديسمبر 1965م، ووري الثرى بمقبرة آل الشماخي بالقاهرة، وحضر جنازته جمع غفير من أعلام وشخصيات بارزة في المشرق العربي[3].

وترك الشيخ مآثر علمية غزيرة منها مقالات متنوعة في مجلة المنهاج، وكتاب الدعاية إلى سبيل المؤمنين، كتاب الصوم بالتلفون والتلغراف، رسالة الفرق بين الإباضية والخوارج، وكتاب النقد الجليل في العتب الجميل، ورسالة عمان الإباضية.

وله مؤلفات أخرى مفقودة من بينها تأويل المتشابه وصلاة السفر، وتفسير الفاتحة وتاريخ الإباضية ...الخ، ولم يصلنا شيء من هذه المآثر التي ضاعت في طي النسيان أو الإهمال .

أما عن الأعمال المحققة فقد كان النصيب الأكبر فيها تحقيق مآثر عمه القطب امحمد بن يوسف اطفيش، إضافة إلى تحقيق مؤلفات أخرى لعلماء بارزين في المشرق العربي.

(3) محمد ناصر،مشايخي كما عرفتهم، دار الوئام،الجزائر ط 1429 / 2008، ص45.

## جهود الشيخ أبي إسحاق في زنجبار

كانت للشيخ أبي إسحاق اتصالات مع حكام زنجبار، تدل عليها الرسائل الودية بينه وبين السلطان برغش بن سعيد، ويرجح الأستاذ ميحي عبد الحق[1] أن هذه المراسلات وقعت بينه وبين السلطان علي بن حمود سنة 1329هـ/ 1911م، واستمرت هذه العلاقات الودية إلى أن توجت بزيارة الشيخ أبي إسحاق الى زنجبار عام 1948م من قبل الجمعية العربية التي كانت تعنى بالشؤون العلمية والثقافية، والتي أسستها الجاليات العربية العمانية بزنجبار.

وكانت هذه الجمعية منبرا فكريا وثقافيا لكل أعلام الفكر من أصقاع العالم العربي والإسلامي، ولم يكن نشاطها مقتصرا على شخصيات إباضية، فقد وجهت دعوات إلى علماء من مصر وكان من بين هؤلاء حسيب الله وحرمه.

ثم وجهت دعوة إلى السيخ أبي إسحاق الذي جاء قادما من مصر عام 1948م، ووصل مدينة «بومباسا» والتي كانت تابعة آنذاك لزنجبار، واستقبل الشيخ بحفاوة كبيرة من قبل واليها «المبارك الهنائي» الذي استضافه ورحب به.

وأثناء تواجده بزنجبار قام الشيخ أبي إسحاق بنشاط مكثف، فقد ألقى محاضرات ودروس في مجلس أحد العلماء الشيخ سالم الرواحي، حيث خصص له برزة (مجلس علم)، حضره جمع غفير من العرب وغير العرب المسلمين، وكان عنوان المحاضرة ﴿ألهاكم التكاثر﴾ استنادا إلى الآية القرآنية، عاتبهم فيها على إهمال الدعوة إلى الله والتقاعس على نشر الإسلام، والتهافت على الدنيا وملذاتها، في الوقت الذي اشتدت حركة التنصير بإفريقيا وهذا يعني

(1) ميحي عبد الحقّ جهود الشيخ أبي إسحاق اطفيش في الحضارة الإسلامية في شرق إفريقيا. اليومين الدراسيين بتاريخ 25و26 مارس 2009 بغرداية،ورقة غير منشورة).

انه لم يكن مطمئنا على حال الإسلام في هذه الربوع، وينبه إلى أخطار المنصرين والمستشرقين الذين يتربصون بالدين الإسلامي[1].

الزيارة الثانية للشيخ أبي إسحاق كانت عام 1960م بدعوة وإلحاح من أعيان وعلماء زنجبار، حيت كان ينظرون إليه على أنه مرجعا فقهيا للإباضيين، وكان نشاط الشيخ مكثفا خلال هذه الفترة، خاصة وأنه لم يكن راضيا على حال الإسلام والمسلمين بمنطقة زنجبار التي كان يعتبرها همزة وصل لنشر الإسلام بباقي المناطق الإفريقية، لهذا ركز جهوده في تعميق مفهوم المبادئ الإسلامية في المجتمع الزنجباري.

ووضع الشيخ نصب أعينه تربية الناشئة وتقوية الشعور الديني لديهم وتعليمهم الدين الإسلامي الصحيح، فاهتم بطباعة الكتب الدينية وكتب التراث الإسلامي وتوزيعها بأقاليم زنجبار، والمطبعة الوحيدة التي كانت تطبع كانت منذ عهد السلطان برغش ففي سنة 1297هـ طبعت ستة عشر مجلدا وبين سبعين كتاب في الشريعة الإسلامية والفقه الاباضي[2] وكان بنو رواحة يعتنون ببيع الكتب وتوزيعها على المدارس القرآنية المنتشرة بزنجبار.

إلى جانب ذلك اهتم بجانب الدعوة الإسلامية والتذكير بقيم مبادئ الدين الإسلامي، وكتب مقالات في الصحافة يشيد بالإسلام وروح التسامح والتعاون بين المسلمين، وكان يرد بقوة على خصومه الذين كانوا يتهمون الاباضيين بأنهم خوارج وعبيديين في إحدى المقالات بجريدة «الجيل الجديد»بالقاهرة بتاريخ 24/ 11/ 1952.

---

(1) يبدو أن بعض الجاليات العربية لم ترق لها هذه المحاضرة واحتجوا على الشيخ آبي اسحاق، كيف يلقي محاضرة تخدش مشاعرهم وهم يستضيفونه .

(2) أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الاسلامي،بيروت، دار الغرب الاسلامي،1424هـ/ 2003م،ص381.

كما ألقى دروس ومحاضرات بنوادي الجمعية العربية المتواجدة بأقاليم زنجبار، فالقي محاضرة مميزة حضرها جمع غفير من الإباضيين والشافعيين والحنفيين بعنوان تفسير «إن أعطيناك الكوثر»، لمدة ساعتين، وأبهر الحاضرين بهذه المحاضرة وعلق عليها أحدهم بأن الجالية العربية خرجت مشبعة ومقتنعة لن تسأل بعدها عالما في التفسير.

ولم ينس الشيخ اطفيش المرأة المسلمة التي لها دور خطير في المجتمع الإسلامي، فكانت له محاضرة بنادي السيدات بالجمعية العربية، منوها بجهود المرأة المسلمة في تربية الناشئة ونشر الدعوة الإسلامية.

وتجدر الإشارة هنا أن حرم الشيخ السيدة سعاد العمرية[1] قامت بنشاط مكثف في توعية النساء المسلمات بزنجبار، وساعدته في مجال الدعوة الإسلامية، وحتى بعد وفاة زوجها عام 1965م استقرت بزنجبار لمواصلة نشاطها الدعوي وتركت أثرا واضحا في نساء زنجبار لما كانت تتقنه من لغات ساحلية وعربية وانجليزية.

وعندما حدثت فتنة 1964م التي غذتها بريطانيا وعمقت الخلاف بين حكام زنجبار والأشقاء العرب والأفارقة، وقامت حركة عنصرية ضد العرب والمسلمين صادروا أملاكهم، وتم إعلان زنجبار جمهورية ثم الاتحاد مع تنزانيا، وذكرت المصادر أنه تم ضرب التراث العربي الإسلامي وإغراق أمهات الكتب في المياه، شبيهة بالأعمال البربرية التي قام بها التتار في غزوهم لبغداد وحرق الكتب ورميها في نهري دجلة والفرات.

---

(1) سعاد العمرية عمانية الأصل هاجرت مع عائلتها الى زنجبار، ثم انتقلت الى مصر وأكملت تعليمها هناك، وهاجرت أيضا إلى انكلترا حيث تحصلت على شهادة البكالوريا، تزوجها الشيخ أبي إسحاق اطفيش وحملت معه هم الدعوة الإسلامية في شرق إفريقيا،توفيت عام 1996م ودفنت بعمان.للمزيد أنظر، سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني،قصة نجاح، عمان،ط1431،01هـ/ 2010م.

وكان الشيخ أبي إسحاق وهو بمصر يتابع هذه الأحداث الأليمة عن كثب وتأسف كثيرا عن ما آلت إليه أحوال المسلمين بشرق إفريقيا، وحزن الشيخ حزنا شديدا ولم يرى أبي إسحاق ضاحكا وكان يبكي ويتألم من هذه الحادثة التي آلمته كثيرا[1]، وكأن العرب والمسلمين لم يتعظوا ويتنبهوا لنداءه من مخاطر الحركة الاستعمارية والتنصيرية التي تهدد الإسلام ووجودهم بشرق إفريقيا.

## خاتمة

كان لزيارة الشيخ أبي إسحاق صدى واسع في دفع الحركة السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية بزنجبار، ويمكن تلخيص نتائج هذه الزيارة فيما يلي:

– ظهور حركة تعليمية نشطة لبعث الإسلام وتنمية الشعور الديني في أوساط الشباب المسلم.

– التفاعل الحضاري والثقافي بين العرب والأفارفة.

– إحياء التراث الاباضي ونشر اللغة العربية داخل المجتمع الزنجباري.

– يعد الشيخ أبي إسحاق مرجعا فقهيا للمذهب الاباضي، وعلى يده تتلمذ العديد من العلماء منهم سماحة مفتي سلطنة عمان احمد خليلي ومفتي زنجبار، ومفتي جزر القمر (رغم أنه شافعي).

– ظهور الحركة السياسية بزنجبار، وتشكلت المنظمات والأحزاب السياسية كحزب زنجبار الوطني. وغليان الساحة السياسية بزنجبار.

– دعوة الشيخ أبي إسحاق الى وحدة المسلمين والتعايش بين المذاهب، فقد كان هناك تواجد للاباضيين والشافعيين جنبا الى جنب وفي تسامح وتعاون.

---

(1) ميحي عبد الحقّ جهود الشيخ أبي إسحاق اطفيش في الحضارة الإسلامية في شرق إفريقيا. اليومين الدراسيين بتاريخ 25و26 مارس 2009 بغرداية،ورقة غير منشورة).

– تعزيز الروابط الاجتماعية من خلال الزواج والمصاهرة بين العرب والأفارقة، وكان الشيخ من بين العلماء الذين جسدوا نماذج رائعة من العلاقات الاجتماعية عندما من إحدى نساء زنجبار «سعيدة العمرية» التي أعانته في مجال نشر الدعوة الإسلامية.

إذا فالشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لم يكن يؤمن بالحدود السياسية والجغرافية والمذهبية، وكان همه وحدة العالم الإسلامي ونصرة المسلمين، ومد جسور التواصل الحضاري والتاريخي بين المسلمين في مختلف أصقاع العالم الاسلامي وخاصة إقليم شرق افريقيا المهدد بحركة تنصيرية واستعمارية خطيرة، لكن كيف يكون موقفه لو شاهد حال المسلمين في عصرنا اليوم من تشتت وفتن واقتتال بينهم؟ واضمحلال الروابط الدينية والحضارية والثقافية بين المسلمين، نسال الله أن يبعث من يجدد لهذه الامة دينها ومجدها وقوتها.

## مصادر ومراجع البحث :

### أ) المصادر

1 – اطفيش أحمد بن يوسف، كتاب النيل وشفاء العليل، تحقيق إبراهيم اطفيش، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان .ج01، ط1406هـ/ 198615.
2 – اطفيش ابو إسحاق إبراهيم، أبو إسحاق إبراهيم، المنهاج(1925/ 1931)، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ط2010.
3 – اللواتي أبوعبد الله بن محمد، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار( مخطوط).

### ب) الكتب :

1 – أغوست بكير بن سعيد، قطب الأئمة أحمد اطفيش، الجزائر، المطبعة العربية، 1989.
2 – بوراس الناصري عبدالله بن محمد، سبيل الخلود أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، الجزائر، مطبعة الشهاب، ط1965م.
3 – بن محمد الطائي عبد الله، تاريخ عمان السياسي، عمان، مكتبة الربيعان للنشر والتوزيع، ط2009 .
4 – سعد الله أبو القاسم، بحوث في التاريخ العربي الاسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1424هـ/ 2003م.
5 – شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة(1900/ 1965)، ج01، الجزائر، دار البصائر، ط2009.
6 – الشيباني السلطان بن مبارك محمد، قصة نجاح، عمان، 1431هـ/ 2010م.
7 – علي دبوز محمد، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج01، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة، ط2007.
8 – كروم الحاج بن أحمد، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش،، الجزائر، منشورات جمعية أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، ط1431هـ/ 2010م.
9 – ناصر محمد، مشايخي كما عرفتهم، الجزائر، دار الوئام، ط1429هـ/ 2008م.

### ج) المجلات:

1 – أحمد بلولة إبراهيم محمد، «الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء وأثرها في نشر الإسلام»، مجلة دراسات دعوية، العدد 09، فيفري 2005.
2 – رحال بسام، «الجزيرة التي زارها ابن بطوطة»، مجلة منشأ، عمان العدد 85، سبتمبر 1993م.

### د)المعاجم:

1 – مجموعة باحثين، معجم أعلام الاباضية، ج2، الجزائر، ممنشورات عالم المعرفة، ط2008.

## و) الملتقيات والندوات:

1 – ميحي عبد الحق، «جهود الشيخ أبي إسحاق اطفيش في الحضارة الإسلامية في شرق إفريقيا، ملتقى الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش العالم العامل يومي 25و26 مارس 2009، غرداية ( ورقة غير منشورة).

الباب الثالث:

# الطرق الصوفية الجزائرية وامتدادها الإفريقي

# التواصل الروحي بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء «الطريقة القادرية نموذجا»

أ:بن حيدة يوسف
جامعة سيدي بلعباس

تعددت مجالات التواصل بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، واحتل التصوف دورا هاما في هذا الإتصال، واكتسى أهمية بالغة نظرا لمساهمته في صياغة ملامح التواصل الثقافي بين المنطقتين، ورسم المظاهر المتعلقة بالأبعاد الثقافية وتدعيم جسور التواصل في مختلف المجالات، ويتمثل نشاط الطرق الصوفية في نشر الدعوة الإسلامية بالسودان الغربي، حيث أصبح غالبية سكانها ينتمون إلى طريقة من الطرق، والتي بدأت تظهر في المنطقة ابتداءا من القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر فظهرت الطريقة القادرية والتيجانية والسنوسية[1].

والتواصل الروحي هو محصلة لما مرت به العلاقات المغاربية الإفريقية في المجال التجاري والثقافي والحضاري، ولم تقف الصحراء الكبرى الممتدة بين السودان الغربي والمغرب الأوسط عائقا دون التواصل، بل شكلت جسرا رابطا بين الضفتين، وعبر هذا الجسر تدفقت الهجرات المتبادلة، حيث نمت وازدهرت في عهد امبرطورية غانا ومالي وسنغاي، وتبلورت في المظهر الطرقي بشكل واسع في القرن الخامس عشر وبشكل أوسع في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

---

(1) جلال يحيى، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ا لمكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة الإسكندرية، 1999، ص12.

وأسهمت عوامل متعددة في انتشار الإسلام بإفريقيا جنوب الصحراء إضافة التجارة التي شكلت عنصر ارتباط بين العرب وسكان الصحراء الإفريقية، نجد أن الهجرات القبلية ساهمت في إخصاب العلاقات المغاربية الإفريقية، ومنه شكل الفضاء الممتد من نهر السنغال والحوض الأوسط لنهر النيجر إلى شمال إفريقيا مجالا خصبا ومتيسرا لتحركات متنوعة كان من ضمنها علماء متصوفة وفدواإلى المنطقة لتعليم القرءان الكريم والعلوم الأخرى، ووجدوا في هذه المناطق وغيرها فضاء مناسبا لنشر الدعوة الإسلامية فمال هؤلاء إلى الزهد والتصوف، وتمكنوا من غرس البذور الأولى للثقافة الصوفية[1].

وتجسدت إسهامات الحركة الصوفية في تدعيم التواصل بين سكان المنطقتين، والمساهمة في إيجاد فضاء ديني وثقافي، وتدعيم استمرارية العلاقات بين شمال إفريقيا وجنوب الصحراء من خلال نشاط شيوخها الذين استطاعوا أن ينشروا مبادئ الدين الإسلامي ويرفعوا رايته بالدعوة والتعليم في المنطقة، وبدأ نشاط الحركات الصوفية يتوسع تدريجيا وبالذات في المناطق التي يوجد بها فراغ روحي فوجد الأفارقة بالإلتفاف حول شيخ الطريقة والإنضمام لحلقات الذكر ما يشبع غريزتهم في البحث عن الأمان لتحقيق كمال الأخلاق[2].

وأصبح الفرد الإفريقي مسلما ومنتسبا إلى طريقة من الطرق الصوفية، وهذا ماجعل بول مارتي يرجع نجاح الفرق الدينية في استقطاب الإفريقيين إلى طبيعة

---

(1) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني، من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)**، مكتبة المنتدى الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ، 1987، ص250.

(2) عطية مخزوم الفيتوري، **دراسات في تاريخ إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الاسلام)**، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي، ط1، 1998.

الإفريقي الذي لا يستطيع أن يحيا في هذه الدنيا آملا نيل الثواب في الآخرة إلا إذا سار وراء رجل قوي قديس حلت عليه البركة الإلهية[1].

واحتلت الطريقة القادرية كغيرها من الطرق الصوفية مجالا واسعا في القارة الإفريقية، ويرجع ذلك الى الإرتباط مع إفريقيا الشمالية التي ساهمت في نشر مبادئ الطريقة بالمنطقة وتواصلت معها في مظهر روحي ساهم في رسم العلاقة الصوفية بين بلاد المغرب الممثل في المغرب الأوسط (الجزائر) وبلاد السودان الغربي[2].

## 1) نشأة الطريقة القادرية

تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ محي الدين عبد القادر بن أبي صالح المولود في مدينة جيلان (471 هـ/ 1077م)[3]، وكانت نشأته في بلاد جبلية أكسبته شدة المراس، وساهمت في تسيير حياته من حيث قوة إرادته في طريق التصوف وخشونة معيشته، واستقر ببغداد سنة(488هـ/ 1095م)ومنها كانت انطلاقتة في القرن الخامس الهجري، حيث ساهمت شهرته العلمية وورعه ومكانته واعتدال مبادئه وسنيتها في نجاح طريقته وبداية انتشارها، ودعم نشاطه ببناء مدرسة استقطب فيها العديد من الأتباع الذين اتبعوا نهجه وتقلد أبناؤه من بعده نشر مبادئ الطريقة[4].

(1) paul marty.*Etudes sur Lislame et les tribusd soudan* .paris1962 p 51

(2) بلاد السودان أو بلاد التكرور تمتد من المحيط الأ طلنتي غربا إلى بحيرة تشاد شرقا، ومن الشمال بين الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى إلى مقدمة نطاق الغابات الاستوائية، انظر: أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، «**البلدان**» تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية ط1، المجلدالاول 2002، ص360.

(3) إبراهيم عبد الرزاق، **الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، دا ر الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، القاهرة، 2004، ص33، 34.

(4) التل عمر سليم عبد القادر، **متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي**، دراسة تاريخية، دار المأمون للنشر، عمان الأردن، ط1، 2009، ص103.

وتقوم القادرية على أسس ومبادئ وبرنامج تربوي يؤكد اتباع كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والتوازن بين الشريعة والتصوف، فكل حقيقة تخالف الشريعة فهي مردودة، وتؤكد على طهارة الظاهر والباطن، والإهتمام بالذكر باعتباره أساس الطريق حيث تطرق الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى آداب الأذكار وحدد فتراتها الزمنية وأنواعها مؤكدا على تزكية الروح وتطهيرها بقوله «أما تربية الأرواح، فروح الجسماني نربى في الأول، وروح الرواني مربى في القلب، ثم روح السلطاني مربى في الفؤاد، ثم روح القدس مربى في السر وهو الواسطة بينه وبين الحق، ومترجم من الحق إلى الخلق لأنه أهل الله ومحرمه»[1].

وامتدت الطريقة زمانا ومكانا فتناقلها الحجاج شرقا وغربا وتنافسوا في نشرها بين المسلمين حتى صار الشيخ عبد القادر الجيلاني يذكر اسمه مقرونا بعبارات التقدير والإجلال مثل «آية الله» «غوث الله» وغيرها من دلالات التقدير والإجلال[2].

## 2) انتقال الطريقة القادرية إلى بلادالمغرب

عرفت القادرية امتدادا وانتشارا في مختلف مناطق العالم الإسلامي، حيث استقطب الشيخ عبد القادر الجيلاني أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء، وكان انتشار طريقته ينطلق من نشاطه حيث كان يرسل رسلا إلى مختلف البلدان لينشروا تعاليمها ومبادئها، وكان الناس يقصدونه إلى بغداد ليلبسوا الخرقة من يده، كماساهم أبناؤه وتلاميذه من بعده في نشر طريقته انطلاقا من احترام الناس

(1) ( ) أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلاني الشافعي الحنبلي، **سر الأسرار مظهر الأنوار في ما يحتاجه الأبرار**، تحقيق خالد محمد عدنان الزرعي، محمد غسان نصوح عزقول، دار بن القيم، دار السنابل، دمشق، 1993، ص137.

(2) Deppont et Xavier coppolani. *Les confreries religieuses musulmane*, *Typographie Etlthographie*, Adolphe, Jourdan, Libraire éditeur s .Alger.1897.p294..

لهم، الخاصة منهم والعامة، وقد اشتهر من أبنائه عبد الرزاق (528ه/ 603هـ)، وعبد العزيز (ت602هـ)، وكان يساعدهم أتباع والدهم المتعاطفين معهم[1]، فتوسعت الطريقة خارج بغداد ببلاد الجزيرة ومصر والشام وبلاد المغرب[2].

وانتقلت الطريقة القادرية إلى بلاد المغرب مع بداية القرن السادس الهجري على يد الشيخ أبي مدين شعيب(ت594هـ/ 1198م)، والذي انتقل إلى المشرق فلقي بعض الأشياخ المقتدى بهم فأخذ عنهم واستفاد من علمهم، فالتقى بتاج العلماء وأعرف العارفين أبي محمد سيدي عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه بالحرم الشريف كثيرا من الحديث وألبسه خرقة التصوف وأودعه كثيرا من أسراره وحلّاه ملابس أنواره وأمره بالدعوة إلى الله، وكان الشيخ أبو مدين شعيب يفتخر بصحبة الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويعده من أفضل مشايخه[3].

ولماعاد الشيخ أبومدين إلى بجاية في 559هـ، واستقر بها بعد رحلة مشرقية زاره كثير من علماء عصره وأخذوا عنه الطريقة كما علمها لطلابه، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الطريقة تؤدي دورها الإشعاعي والتربوي بمختلف مناطق بلاد المغرب [4].

وتشكلت فروع القادرية في مدن متعددة بالجزائر، وأصبحت لها زوايا ومساجد وأضرحة وقباب، ويذكر سعد الله بأن أول من أسس فرعا للقادرية في

(1) سبنسر ترمنجهام، **الفرق الصوفية في الإسلام**، ترجمة ودراسة وتعليق عبدالقادر البحرواي، دارالنهظة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص80.

(2).التل، المرجع السابق، ص122.

(3).أحمد التادلي الصومعي، **كتاب المعزى في مناقب أبي يعزى**، تحقيق : علي الجاوي، مطبعةالمعارف الجديدة، الرباط، 1996ص143.

(4) عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص34، 33.

الجزائر هو الشيخ مصطفى بن مختار الغريسي سنة 1200 [1]، غير أن الروايات تؤكد على أول من أدخل القادرية لبلاد المغرب أبو مدين شعيب.

وامتلكت القادرية أوقافا متنوعة بالجزائر كانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد، ويرجع ذلك إلى تعدد الفروع التي أصبحت تتصل مباشرة ببغداد من خلال إجازة وسلسلة تردان من هناك، ويمثلها مقدم في الزاوية الفرعية[2].

### 3) انتقال الطريقة القادرية إلى إفريقيا جنوب الصحراء

يرجع انتشار الطريقة القادرية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء إلى شخصية العالم الشيخ عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت940هـ/ 1533م) الذي قام بتأسيسها على طريقة القطب القادري عبد الرحمان الثعالبي[3]، ويعتبر من أشهر دعاة القادرية الذي اتجه بجهوده إلى الجزء الأوسط من الصحراء وبلاد الهوسا[4].

حيث ترجع الروايات أن الشيخ أعمر بن الشيخ أحمد البكاي الكنتي (ت959هـ/ 1552م) التقى في أحد أسفاره بالشيخ عبد الكريم المغيلي، فلازمه وأخذ عنه الورد القادري، وتنقل معه في رحلاته والتقيا بالشيخ السّيوطي خلال رحلتهما إلى المشرق لأداء مناسك الحج، ومنحهما هذا الشيخ الورد القادري وأمرهما بنشر تعاليم الشيخ عبدالقادر الجيلاني ببلادهما على حد تعبير بول مارتي[5].

---

(1).أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج4، (1830/ 1954)، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص43.

(2).نفسه، ص43.

(3) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص33.

(4) إلهام محمد علي ذهني، **جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الإستعمار الفرنسي (1850/ 1914)**، دار المريخ للنشر، الرياض، 1988، ص31.

(5) بول مارتي، **كنتة الشرقيون**، تعريب وتعليق محمد محمود ولد وادي، مطبعة زيد بمن ثا بت، دمشق، دون سنة طبع.ص33.

وربما لا نكون مغالين إذا قلنا أن الشيخ اعمر أصبح الرئيس الأعلى للطريقة القادرية ببلاد التكرور، حيث قام إخوته وأبناؤه من بعده بنشر الطريقة في مختلف الأصقاع الإفريقية[1].

وتركت الرحلة التي جمعت الشيخين المغيلي والشيخ اعمر أثرا في التواصل الثقافي والصوفي بين المغرب الأوسط والسودان الغربي وشكلت نقطة اطلاق وتوسع لنشاط الطريقة بالمنطقة.

كما تذكر الروايات أيضا أن انتقال القادرية إلى غرب افريقية يرجع إلى القرن الخامس عشر بواسطة المهاجرين الذين قدموا من توات وهي واحة في النصف الغربي من الصحراء ثم انتقلوا إلى ولاتة ثم تمبكتو التي أصبحت مركزا رئيسيا لهم، كما انتشرت في أرجاء السودان الغربي من السنغال حتى مصب نهر النيجر، ووجد دعاة القادرية الظروف المناسبة لنشر الحركة الصوفية وممارسة نشاطهم الديني والثقافي وخاصة التعليمي[2].

وتوطدت الطريقة القادرية في السودان الغربي، وأخذت مسالكها عبر الطرق التجارية التي كانت تسلكها من تمبكتو إلى الخرطوم إلى قردفان إلى دارفور[3]، ونهضت مراكز أساسية لتنظيم القادرية في كل من تمبو، وكنكان وفولتا جانون، وموسرودو، وفي بلاد المادنجو، وكانت هذه المدن تؤلف مراكز دينية وسط شعب وثني رحب بالقادرية [4].

---

(1) محمد ضريف، **الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية من (1800/ 1956م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، الدار البيضاء، **المغرب، 2002، ص87**.

(2).عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص32.

(3) عمار هلال، **الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب القارة السمراء**، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص111.

(4) علي ذهني، المرجع السابق، ص32.

وامتدت القادرية إلى منطقة النيجر عن طريق الفقيه محمد الأنصاري، ومن ثم أسس شيوخ الكنتى في أوائل القرن الثاني عشر مدينة مبروك التي صارت مركزا لنشر الطريقة القادرية، وأسهم فقهاؤها الذين تزعموا القيادة الدينية في القرن الثامن عشر وتوسعوا خارج مجال االقبيلة بقيادة الشيخ المختار الكنتي (1793/ 1811م) الذي أصبح قطبا للقادرية، وأيّدت قبائل الطوارق الحركة الصوفية بزعامة القادرية مما أسهم في انتشارها بشكل أوسع وأعمق في غرب إفريقية [1].

وساهم ذلك في انتشار الإسلام بين الشعوب الزنجية وحتى زعمائها، وكان للمدن دور كبير في هذا النشاط حيث أصبحت مدينة **كان** مركزا كبيرا لنشاط الطريقة القادرية ومنها توسعت نحو حوض السنغال ثم الجنوب الشرقي حيث منطقة الفولتا، ومنها الى بلاد الهوسا التي أسهم في نشرها الشيخ عبد الله أسكيا[2].

ونجحت الطريقة القادرية في استقطاب سكان المنطقة في فولتا جالون على يد السيد الكبير التارازي الذي عمل على نشرها في غامبيا وغينيا الفرنسية وليبيريا وغانا[3].

## 4) الطرق الفرعية المنبثقة عن القادرية

تفرعت عن الطريقة القادرية ببلاد المغرب والسودان الغربي طرق جديدة أهمها:

- **البكائية الكنتية** : تنسب إلى مؤسسها الشيخ سيد أعمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي المولود سنة (960هـ/ 1552 م)، وهي فرع من القادرية، وتطورت هذه الطريقة بشكل كبير وبلغت أقصى مراتب الازدهار والانتشار مع الشيخ

(1) عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص33.

(2) نفسه، ص33.

(3) علي ذهني، المرجع السابق، ص32.

سيدي المختارالكنتي(ت 1226هـ – 1869م[1]، ويقع المقر الرئيسي للطريقة في تومبوكتو، وقد انتشرت في الجهات الغربية والجنوبية من الجزائر، سيما في توات وكنتة والقورارة وبلاد الطوارق[2].

– **الطريقة الفاضلية**: تنسب إلى الشيخ محمد الفاضل بن مامين القلقمي المتوفى سنة ( 1286هـ، 1869) وهي فرع من الطريقة القادرية رغم ما يكتنف ذلك من غموض، وتقدم هذه الطائفة سلسلة صوفية تختلف باختلاف شيوخها ولا تتصل بغيرها من الطوائف والفروع القادرية وتتميز بعدم التشدد في الأوراد والأذكار، ولا تفرض على أتباعها وردا معينا ولا الجهر بالذكر، ولا ينسب لها أي تعصب مذهبي وعداء للطرق الصوفية السنية وتركزت في مناطق بالصحراء كأزواد وولاتة والنعمة وبلاد القبلة وموريتانيا[3]، وارتبط نشاطها بالشيخان ماء العينين، وسعد أبيه وهما من أبرز زعماء الفاضلية على الإطلاق وحتى من أشهر شيوخ القادرية الذين اهتموا بقضية السيطرة الاستعمارية على البلاد الشنقيطية، سواء كان بالقبول والموالاة أو بالرفض والمحاربة[4].

– **الطريقة العينية**: تنسب إلى الشيخ ماء العينين، وهي إمتداد للطريقة الفاضلية، انتشرت هذه الطريقة بالساقية الحمراء[5]ووادي الذهب والسمارة، وازداد نفوذها نظرا للعلاقة التي جمعته مع سلطان مراكش، إضافة إلى المؤلفات التي تركها الشيخ ماء العينين ونشاط الزواية التي أسسها في الساقية الحمراء

(1) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص ص 33، 34.

(2) سعد الله، المرجع السابق، ص277.

(3) أنظر: عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 134 وما بعدها. بنعبد الله، المرجع السابق، ج2، ص 226.

(4) المرجع نفسه ص226.

(5) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 201، 202.

وإتخذها مقرا له بعد عام 1864 إلى عام 1871م، وزاوية السمارة التي أصبحت مركزا هاما للدراسات القرءانية وتحتوي على أكثر من خمسة آلاف مخطوط[1].

## 5) أبرز مظاهـــر الصلات الروحية

### - السند الصوفي ورمزيته في التواصل

ترتبط الطريقة الصوفية بسند متصل أوسلسلة روحية تتمثل في سلسلة من الشيوخ تبدأ من الشيخ المرشد إلى شيخه المباشر لتترقى إلى بعض كبار الشيوخ من أمثال الشيخ الجنيد ثم إلى التابعين.

ولعل السّند يعتبر من أهم المرجعيات الأساسية في التنظيم الطرقي نتيجة التطور الذي عرفته في الفترات الأخيرة حيث ارتبط بلبس الخرقة، والسّلسلة القادرية تصل إلى الإمام علي كأعلى سند صوفي، حيث يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أن هناك وثيقة ترجع إلى 1875(1292هـ) تذكر شجرة النسب القادرية وسلسلتها حيث تنتهي إلى الإمام علي وآدم عليه السلام[2].

واستنادا إلى رواية أبي مدين شعيب التي ذكرها ابن مريم في كتابه «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان».. «وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل عليه السلام عن رب العالمين»[3]، كما يذكر السيوطي في كتابه تأييد الحقيقة العلية أن طريق

---

(1) بن عبد الله، المرجع السابق، ج2، ص 226.

(2) سعد الله، المرجع السابق، ص43.

(3) أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد «ابن مريم» «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص115

التصوف يتصل بسيّد القوم الجنيد عن طريق سري السقطي، وسري عن معروف الكرخي، ومعروف عن داوود الطائي، وداوود لقي التابعين وهكذا كان يذكر إسناد الطريقة [1].

وتتدرج حلقات السلسلة الصوفية للطريقة القادرية ببلاد المغرب بين المغيلي وأبي مدين شعيب وعلي بن أبي طالب كما تقدمها السلسلة الصوفية الكنتية وبعض كتب مناقب التصوف كما يلي : الشيخ عبد الكريم المغيلي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، أبو العباس عبد الرحمان الثعالبي، محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي، محمد بن أبي بكر بن مرزوق التجيبي، أبوحامد الغزالي، علي بن حرزهم، أبومدين شعيب، عبد السلام بن مشيش، محي الدين بن عربي الحاتمي، صفاء الدين السّهروردي علي بن هيتا، عبد القادر الجيلي، أبو الوفا، أبو أحمد الشنبكي، الشلبي، الجنيد، أبو الحسن سري السّقطي، معروف الكرخي، الحسن البصري، علي بن أبي طالب [2].

وانطلاقا من السند المذكور الذي تختلف حوله سلسلة المشايخ غير أنه يمثل أثر التواصل القادري بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء من خلال الشيخ أبومدين شعيب، والشيخ المغيلي، متصلا بأحمد البكاي وابنه الشيخ اعمر الذي وصفه بول مارتي بالرئيس الأعلى للقادرية، كما أطلق اسم أبيه على الطريقة الفرعية المسماة بالبكائية التي نشأت في زاويتهم بتوات في نهاية القرن الخامس عشر [3].

---

(1) أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، تصحيح عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، المطبعة الإسلامية، عبد المعطي أحمد الحسني، 1934، ص12.

(2) ضريف، المرجع السابق، ص86.

(3) بول مارتي، المرجع السابق، ص34

وشكل اتصال الشيخ اعمر بن أحمد البكاي بالشيخ عبد الكريم المغيلي وأخذه الورد القادري عنه مساهمة كبيرة في نشر الطريقة القادرية وترسيخ مبادئها وتدعيم مسار الحركة الإسلامية الصوفية ببلاد السودان الغربي، ووضع الأسس والدّعائم للقادرية التي أصبحت مرجعيتها مغاربية في الشيخ عبد الكريم المغيلي والذي اعتبره بول مارتي أيضا الرئيس الأعلى للطريقة القادرية وتتصل به في سندها [1].

وكان للشيخ عبد الكريم المغيلي فضل ومكانة عند ملوك السودان الغربي وبخاصة ملوك كانو وكاتشينا ببلاد الهوسا، وملك السنغاي «أسكياالحاج»، وظل أثره واضحا في مختلف المجالات بما فيها السياسة الشرعية والاقتصاد، حيث ساهم بدور إصلاحي في الإمارات وكذا تعيين القضاة وإقامة الحدود الشرعية، وإصلاح أمور المجتمع الدينية والدنيوية والثقافية والتعليمية، وتكوين الأئمة والمرشدين والفقهاء والدعاة، وانتقلت كانو في عهده إلى مصاف الدول وازدادت أهمية خاصة تمثلت في تأثيرها الخارجي وفي وصولها مرحلة من الزعامة بين الولايات الأخرى[2].

ومن المؤلفات التي تركها المغيلي نذكر:«تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين» و«أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي» و«البدر المنير في علوم التفسير» و«مصباح الأرواح في أصول الفلاح» و«حكا م أهل الذمة »، وصار له شأن كبير في المنطقة واستمر تأثيره بعد حوالي ثلاثة قرون عند خلفاء الدولة العثمانية الفودية، حيث تعتبر كتبه ورسائله وفتاواه المشكاة التي يستنيرون بها والمعلم الذي به يهتدون، فيستدلون بأقواله وأرائه في كل ما تركوه من أعمال ومصنفات[3].

(1) المرجع نفسه، ص34.

(2) الفيتوري، الرجع السابق، ص 216.

(3) عبد الرزاق، المرجع السابق، ص35.

وتنقل الروايات عن الشيخ عثمان الفودي اتصاله بالسند القادري المغيلي بقوله : «(سندنا المتصل إليه – رضي الله عنه – الذي جاءنا من سيدي محمد المختار بن أبي بكر الكنتي الأموي، وهو سند ورد السلسلة القادرية، أجازني به الشيخ العالم نوح، وهو عن شيخه سيدي محمد المختار المذكور، وهو عن شيخه سيدي محمد الشريف علي بن أحمد، وهوعن شيخه سيدي أبي النقاب السيد الأمير لقب به لأنه كان يلثم، وهو عن شيخه أخيه سيدي أحمد، وهو عن شيخه سيدي علي بن أحمد، وهو عن شيبخه أبيه سيدي أحمد وهو عن شيخه الرقاد، وهو عن شيخه أحمد الفيرم، وهو عن شيخه عمر بن سيدي أحمد البكاء وهو عن شيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي رضي الله تعالى عنه، وقدر اتصالنا به الإتصال الحسن في البرزخ وفي الآخرة كما قدر اتصالنا به في الدنيا الإتصال المعنوي الذي هو هذا السند[1].

ومن خلال السند الصوفي أصبحت الطريقة القادرية ترتبط كغيرها بسلسلة متواترة من الشيوخ الذين قاموا بنشر الطريقة القادرية، والتي شكلت بسندها تواصلا روحيا بين المغرب الأوسط ممثلا في الشيخ عبد الكريم المغيلي والسودان االغربي في الشيخ اعمر البكاي.

ونظرا لأهمية السند في الترتيب الصوفي فإن رجال الزوايا وشيوخ التصوف قد وجدوا لأنفسهم سلسلة تربطهم بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو أحد الشيوخ بهدف كسب تأييد لدعوته ونشاطه وهذا ما يؤكد رمزية السند وأهميته في الطريقة حتى تحافظ على استمراريتها.

(1) مارتي، المرجع السابق، ص34، انظر أيضا:ضريف، المرجع السابق، ص89.

## - الأذكار والأوراد القادرية

يعتبر الذكر من المقومات الأساسية للطريقة، وهو التخلص من الغفلة والنسيان وحضور القلب مع الحق، مع ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أوترديد صفة من صفاته، أوحكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله للتقرب إلى الله تعالى[1].

وقد وردت آيات وأحاديث في مشروعية الذكر وفضله منها قوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[2] وقوله أيضا ﴿ياأيها الذين ءامنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا..﴾[3]، والذكر نوعان ذكر باللسان وذكر بالقلب، وأضاف المتصوفة ذكر ثالث هو الذكر الموصل إلى استدامة ذكر القلب.

والذكر الخاص يستدعي إذنا من الشيخ المربي بالنظر إلى مافيه من نورانية خاصة وتأثير بالغ، أما الورد فهو قراءة أذكار معينة وتكون في أوقات منتظمة فيقال أوراد الليل، أوأورادالصباح، وقد يعرف الورد بالحزب، وتكون هذه القراءة مصحوبة بالسماع، وسلسلة الورد تعتبر عهدا للإنتظام في سلك الطريقة[4].

وترتكز الطريقة القادرية في نظامها على تربية المريدين وتطهير نفوسهم بالأذكار والأوراد وأنواع الرياضة الروحية، وتهذيب النفوس، وتنظيم العلاقة بين الشيخ والمريد، وتتضمن أذكارها ما تدارسوه من شيوخهم بسند متصل.

---

(1) عبدالقادر عيسى، **حقائق عن التصوف**، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص103، 102

(2) سورة البقرة، الآية152.

(3) سورةالأحزاب، الآية41.

(4) أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري، **الرسالة القشيرية**، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط2005، 3، ص256.

وقد قسم الشيخ عبد القادر الجيلاني الأذكار إلى أنواع :ذكر اللسان وذكر النفس وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السّر، والذّكر الخفي والذّكر أخفى الخفي، وبيان خاصية كل ذكر، كما وضع شروطا للذكر منها أن يكون الذاكر على وضوء تام، وأن يذكر بصوت قويّ حتى تحصل أنوار الذكر في بواطن الذاكرين، وتصير قلوبهم أحياء بهذه الأنوار حياة أبدية أخروية[1].

ويتضمن الورد الذي تقوم عليه الطريقة: الإستغفار(100مرة) والتسبيح (100مرة)، والصلاة على النبي المختار(100مرة)، وقول لاإله إلاالله (100مرة)، كما تتلى هذه الأذكار والأوراد في أوقات محددة[2]، وتسمى هذه الأذكار والدعوات بالورد الكبير، ومنها ما يقرأ خمس مرات في اليوم عقب كل صلاة فرض، ومنها مايقرأ مرة في الأسبوع عقب صلاة العصر ويسمى الوظيفة [3].

كما يقرأ أتباع القادرية المقربين الفاتحة بعد الصلوات الخمس، ويصلون على النبي عليه الصلاة والسلام (121مرة ) في شكل جماعي، و(سبحان الله، والحمدلله، ولا إله إلا الله، والله أكبر121مرة)، وسورة ياسين إصافة إلى أدعية أخرى وقراءات[4].

واهتمت الطريقة القادرية بتهذيب النفوس وتنظيم العلاقة بين المريدين والشيوخ المربين، مرتكزة في ذلك على مبادئ ومأثورات كآثار الطوسي، والرسالة القشيرية للقشيري، وغيرها من كتب التصوف، ولا تختلف الأوراد والأذكار التي اعتمدها شيوخ القادرية بالسودان الغربي في صيغتها وعددها عن

(1) عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص82، 83.

(2) إسماعيل بن السيد محمد القادري، الفيوضات الربانية في المآثروالاوراد القادرية، تهذيب ومراجعةعبدالهادي قطش، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2004، ص13.

(3) عبد الحي القادري، **الزاوية القادرية عبر التاريخ والعصور**، الطبعة الأولى، تطوان، 1968

(4) سعد الله، المرجع السابق، ص43.

أوراد الزوايا القادرية بالمغرب الأوسط أو الزاوية الأم ببغداد اختلافا كثيرا رغم ما طرأ عليها من اجتهادات، حيث تضمنت مايلي:

_ (التسبيح مئة مرة) – (الحمد لله مئة مرة) – (الله أكبر مئة مرة) – (الحمد لله سيد الكون مئة مرة)[1] وتنطلق هذه الأذكار من سند صوفي، مما جعلها تشكل رمزية دينية تتقاطع من خلالها الطريقة القادرية بين المنطقتين وتحافظ على استمراريتها من خلال الإقبال عليها من الخاصة والعامة، فحققت انتشارا واسعا لم يقتصر على السودان الغربي فقط بل تجاوزه إلى مختلف الأصقاع الإفريقية.

وبالإضافة إلى الأوراد التي تعتبر إلزامية والمعروفة **بالوظيفة** فهناك عدد من الأدعية الإختيارية التي تتلى في جلسات معينة وتوسلات وابتهالات تقرأ جماعيا عقب صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر، وتساهم الأوراد والأذكار في تزكية النفوس وتطهيرها ولعل الأذكار والأوراد كان لها أثر كبير في جذب الإفريقي بشدة للطرق الصوفية وخاصة القادرية، فالإلتفات حول الشيخ والإشتراك في حلقات الذكر أو ما يسمى **بالحضرة** يملأ الفراغ الروحي عند الإفريقي، ويحتل جزءا من وقت فراغهم، وخصوصا في المساء حيث الإنشاد الديني والحركات الإيقاعية في الذكر والتي تستهوي الإفريقيين الذين تعودوا على التعبير بالرقص في أوجه حياتهم كافة وخاصة الدينية منها[2]، وهذا شكل رمزية في الإقبال على الأذكار والحضرة التي ساهمت في تدعيم التواصل الروحي.

---

(1) ضريف، المرجع السابق، ص224.

(2) حورية توفيق مجاهد، **تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا**، الأبعاد والوسائل، مجلة قراءات إفريقية، العدد السادس، سبتمبر 2010، المنتدى الاسلامي، لندن. ص23.

### - المدارس والمؤسسات الدينية

شكلت المؤسسات الدينة والمتمثلة في المدارس والزوايا والمساجد حلقة وصل روحية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، حيث كان شيوخ الطريقة القادرية ودعاتها يدعون إلى الدين والعلم ويرسلون من يودّ المزيد من العلم إلى المدن في شمال إفريقيا كالقيروان وفاس وتلمسان وبجاية، كما كانوا يؤسسون المدارس والزوايا ويشرفون عليها ويستقبلون الطلبة والمريدين[1].

وارتبطت المدارس بغرب افريقيا ارتباطا شديدا بالدين، وألحقت المدارس بالرباطات، وأصبحت المدارس ملحقة بالمساجد فكان إلى جانب كل مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأطفال، وكانت هناك أمكنة لنوم الطلاب الذين يأتون من مناطق بعيدة، وقدعرف السودان الغربي زوايا ومؤسسات دينية مرتبطة بالمساجد لتعليم الأطفال، أما القرى النائية فكان يتم التدريس فيها في غرف أحد القادرين[2].

وقد ساهمت الزوايا بدور كبير في نشاط القادرية وتوسعها، ومن أهم الزوايا بالجزائر نذكر زاوية سي الأحول بوادي خير في وادي الشلف، وزاوية عميش بالوادي، وزاوية الرويسات بورقلة[3]، كما عرفت إفريقيا في القرن السادس عشر إنشاء مراكز وزوايا لنشر تعاليم الإسلام ومبادئ الطريق الصوفي، حيث شكلت الزوايا الصوفية حلقة للتواصل بين الجزائر وبلاد التكرور نظرا لخصوصيتها

---

(1).نعيم قداح، **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص89

(2) عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430-515هـ/ 1038-1121م مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن عربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ط، 1988، ص167.

(3).سعد الله، المرجع السابق، ص48، 49.

التربوية والتعليمية فإنها تقوم بالتوجيه الروحي وتمثل مؤسسة للطريقة الصوفية ينبني عليها نشاطها.

وعرفت منطقة السودان الغربي على غرار بلاد المغرب انتشار واسعا للزوايا وشكلت منطقة ولاتة وكانت تدعى (بيرو) في الجنوب من الصحراء مركز اللقادرية حيث قدم إليها في القرن التاسع الهجري أحمد البكاي(ت920هـ/ 1591م)[1]، وساهم في تأسيس الطريقة البكائية التي امتد نفوذها إلى تومبكتو في القرن الخامس عشر حيث زاوية أحمد البكاي بتومبكتو[2].

وقد تنوع نشاط المؤسسات الدينية وبخاصة الزوايا، ولم يقتصر على تربية المريدين بالأذكار والأوراد بل شمل اهتمامها بعلوم الظاهر وتقديم الشريعة على الحقيقة، حيث تشابهت موادها التدريسية عمّا كان متداولا في فاس وتلمسان وبجاية، حيث نجد (رسالة مختصر خليل ) في الفقه، و(جامع الأصول لابن الحاجب)، و(مقدمة ابن أجروم )، في النحو..، كما نالت كتب التصوف نصيبا من الإهتمام مثل (مقدمة الأخضري )، (خاتمة بن عاشر)، (خاتمة التصوف لمحمد البدالي )، (مطهرة القلوب لمحمد مولود بن أحمد فال)[3].

وتناولت مؤلفات المتصوفة مباحث الشريعة والحقيقة، وما يدور من جدل بين الفقهاء وشيوخ التصوف، واهتموا بتوضيح أسماء الله الحسنى وبيان شرفها، والمدائح والمواعظ النبوية والأذكار، وأكدوا على ضرورة تعلم العلوم والجمع بين الفقه والتصوف.

---

(1) النحوي، المرجع السابق، ص241.

(2) سعد الله، المرجع السابق، ص48.

(3) النحوي، المرجع السابق، ص253

ومن أهم الزوايا التي شكلت محورا للتواصل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء زاوية الهاشمي بن أحمد الشريف بعميش بوادي سوف والتي قام شيخها بنشاط كبير في تجنيد الأتباع ونشر الطريقة إلى أقصى الجنوب وربط علاقات مع السودان وغات، وتجنيد العديد من سكان سوف الذين يمارسون التجارة بالصحراء[1].

كما كان للزوايا بالجنوب الغربي وخاصة الزوايا التواتية كبير في تدعيم التواصل الروحي، ومن أهمها زاوية كنتة القادرية التي الشيخ مختار الكنتي أبرز شيوخها، حيث اهتمت بمختلف العلوم الدينية بما فيها التصوف، وزاوية الشيخ ابن عبد الكريم التي بناها الشيخ عبد الكريم أحد أجدادهم وقد عمرت بهم زاوية قبيلة كنتة[2]، ونجحت في بلوغ هدفها الذي اتبعته داخل منطقة توات، فقد كان طموحها أن تنقل عطاءها وإشعاعها الروحي خارج المنطقة، وتساهم في نشر الإسلام في القارة الإفريقية والتمكين لمبادئ الدين الإسلامي ومعالمه الحضارية السامية، فوصلت بذلك إلى مناطق عديدة كالهوسا وتمبكتو، وشنقيط[3].

كما ساهمت في العلاقات التي بينها وبين هذه البلدان من خلال مخازنها واحتضانها للتعامل التجاري، وإشرافها على الطرق لمؤدية إليها، وهذا ماجعل من المبادلات التجارية عاملا أساسيا في ازدهار العلاقة بين الزوايا التواتية وزوايا البلدان الأخرى من شنقيط والساقية الحمراء وولاتة وغيرها من مدن السودان الغربي.

---

(1) سعد الله، المرجع السابق، ص48.

(2) نفسه، ص 278 .

(3) النحوي، المرجع السابق، ص241

ومن أهم الزوايا التي اضطلعت بهذا الدور زاوية الشيخ مولاي سليمان بن علي الإدريسي[1]، وزاوية الشيخ المغيلي، وزاوية المختار بن الأعمش الجاكاني السوساني التي كانت قبلة لطلاب العلم من مناطق شنقيط وإقليم الأزواد[2].

وقد عرف المغرب الأوسط تأسيس عدة زوايا خاصة في القرن التاسع الهجري والتي شكلت استقطابا شعبيا، ومن بينها زاوية محمد بن عمر الهواري، وإبراهيم التازي بمدينة وهران، وزاوية الثعالبي في مدينة الجزائر، حيث شكلت هذه الزوايا قبلة للزوار من مختلف المناطق طلبا للدعوات والتماس البركات ودفع الزكوات وقضاء مختلف الحاجات[3].

ورغم الاختلاف الموجود بين الزوايا التعليمية والزوايا الأضرحة التي كان لها دور كبير في التقاء العلماء وتواصلهم الصوفي، حيث كانت المزارات مقصودة من مشارق الأرض ومغاربها، وشملت شيوخ الصوفية والمرابطين للتبرك فنجد أن ضريح أبي مدين شعيب بالعباد بتلمسان شكل مركزا للتدريب الصوفي خلال حياة الشيخ وبعدها وكان الناس يلتقون فيه للعلم، ويعيشون العزلة كما زوّد بمنشآت دينية أقامها سلاطين بني مرين وخاصة السلطان أبو الحسن المريني عند استيلائه على تلمسان في (738هـ/ 1337م) حيث أقام بجانب الضريح مسجد كبير ومدرسة وحمامات[4]، كما شكلت زاوية الثعالبي

(1) قداح، المرجع السابق، ص90.

(2) صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشاطها** ، دار البراق، بيروت، لبنان، 2002، ص 532-536.

(3) بوداود عبيد، **التصوف بالمغرب الأوسط مابين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15هـ)**، دراسة في التاريخ السوسيو ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص100.

(4).جورج مارسي، **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصورالوسطى**، ترجمة محمد مصطفى هيكل، مراجعة مصطفى أبوضيف محمد، مطبعة الانتصار، منشأت الاسكندرية، 1991، ص333، 334.

بمدينة الجزائر، نقطة للإلتقاء بين مشايخ التصوف وبخاصة مشايخ القادرية، وحرصهم على الأخذ من بعضهم البعض مبادئ التصوف، وأسرار الطريق [1].

ومع أننا لا نملك قائمة بأسماء شخصيات من السودان الغربي قدمت إلى المنطقة للزيارة، فإن هذا لا ينفي استقطاب المنطقة لأتباع القادرية نظرا للمرجعية الصوفية القادرية والتي يشكل الشيخ أبومدين شعيب، والشيخ عبد الرحمان الثعالبي أحد ركائزها ومرجعياتها في بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي من خلال السند الصوفي.

ومن هنا اكتسبت التجربة الصوفية ببلاد المغرب أهميتها وخصوصيتها المتميزة التي ساهمت في انتشار الطريقة وتواصلها بمناطق متعددة وبخاصة بلاد السودان الغربي، وتوظيفها للعامل الديني من خلال القيام بمد قنوات الحوار والتواصل الصوفي وصيانة نسيج العلاقات الحضارية بين المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء، إذ وجد هذا الأسلوب الديني قبولا من طرف الأفارقة، وساعد على تغلغل طقوس الزوايا المغربية وتعاليمها الصوفية في الجزء الجنوبي والغربي لإفريقيا بشكل خاص، مما جعلها تلعب دورا تاريخيا في مواجهة التحديات، بزعامة شيوخها ومرابطيها عن طريق تعليم الطلبة مبادئ الدين من قرءان وأحاديث وأذكار وأوراد تتلى جماعة، إضافة إلى التأطير والتنظيم المحكم الذي جعل الطّرقية تعرف ازدهارا كبيرا في إفريقيا الغربية، وتساهم بشكل أساسي في ارتباط الأفراد بالإنتساب إلى إحدى الطرق الصوفية.

---

(1) عماربن خروف، **العلاقات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن (10هـ/ 16م)**، ج2، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص163

## – قبيلة كنتة والطريقة القادرية البكائية الكنتية

– **قبيلة كنتة** : ارتبطت قبيلة كنتة بالطريقة القادرية، حيث ساهمت هذه القبيلة في انتقال الطريقة إلى إفريقيا جنوب الصحراء عندما انتقلت إلى واحة توات في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، واهتمت بالشأن الديني والتعليم الإسلامي، وارتبط اسمها كغيرها من قبائل الزوايا (جمع زاوي) بالعديد من المراكز الحضرية التي أقاموها في ودان، شنقيط، وتشيت، وولاتة[1] المركز الحضاري القديم للثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي وأول مركز لهم لنشر الطريقة القادرية الصوفية القادرية في المنطقة[2].

حيث شكلت هذه القبيلة والمجال الجغرافي الذي تمتد فوقه إطارا طبيعيا وبشريا، وهمزة وصل بين الجزائر وصحرائها وبلاد السودان الغربي، وساهمت في تعزيز روابط التواصل الصوفي القادري الذي بدأ يتطور تدريجيا من خلال الدور الذي قامت به القبيلة على المستوى الديني المفعم بروح التصوف، والدور الإقتصادي التجاري بوقوعها في مفترق الطرق التجارية الصحراوية بمنطقة توات شمال الصحراء.

ويرجع دور كنتة الصوفي إلى الشيخ أحمد البكاي، والذي يرتبط نسب قبيلته بالفاتح عقبة بن نافع الفهري[3]، وقد كان لنشاط الشيخ الدعوي أثر كبير بالمنطقة، حيث يقول عنه المستشرق الفرنسي بول مارتي في كتابه الشهير «كنتة الشرقيون:(..أنه جعل من كنتة دعاة الإسلام والمشرفين الروحيين على القبائل الصحراوية، وهي حركة انساحت في بلاد الزنج، وعملت على تحقيق أول

(1) ( ).بول مارتي، المرجع السابق، ص24

(2).عمار هلال، المرجع السابق، ص110.

(3). سعدالله، المرجع السابق، ص277.

إسلام الزنوج وقد كان دوره عظيما، وانصرفت جماعات كنتة من بعده نحوهذه الرسالة، وهي الدعوة والإرادة الدينية...فقد كان هذا أرومة كنتة ومنشأ سموهم والأساس الذي قامت فوقه قوتهم والسبب الأول لرفعة مكانتهم..)[1].

ولعل النشاط الذي قامت به قبيلة كنتة بزعامة شيوخها كان له الأثر الكبير في انتشار الطريقة القادرية في الأصقاع الإفريقية، وتدعيم التواصل الروحي بين منطقة إفريقيا جنوب الصحراء وبلاد المغرب بشكل عام، والجزائر بشكل خاص، حيث تمكنت القادرية في ظرف وجيز أن تنشأ زوايا في غدامس وغات وتوات ومرزوق، وكان شيوخ الكنتة يزورون برنو ويطبقون تعاليم الطريقة القادرية، ونجحت في الجمع بين العرب البيضانيين والطوارق السودانيين[2].

- **الطريقة القادرية البكائية الكنتية** : نشأت الطريقة القادرية البكائية في الصحراء الكبرى، والساحل السوداني في نهاية القرن الخامس عشر على يد الشيخ سيدي أحمد البكاي حوالي سنة( 960هـ/ 1533م)[3]، والذي أخذ الورد القادري عن الشيخ عبد الكريم المغيلي في رحلتهما ألى المشرق لأداء مناسك الحج.

وبعد وفاة الشيخ عبد الكريم المغيلي حوالي سنة (940هـ/ 1533م)، أصبح سلطة الطريقة ومشيختها للشيخ سيدي اعمر البكاي في مجال جغرافي واسع شمل الصحراء وبلاد التكرور، وقد نجحت الطريقة في توسعاتها وامتداد نفوذها، وشقّت طريقها إلى بلاد السودان الغربي، مستندة في ذلك إلى قاعدة قبلية متينة، وساهم أبناء الشيخ سيدي عمر وإخوته وأحفاده في نشرها بين

(1) المرجع نفسه، ص56.

(2) عبد الرزاق إبراهيم، المرجع لسابق، ص33

(3) النحوي، المرجع السابق، ص515.

القبائل الصنهاجية والشعوب الزنجية، وشملت مختلف الأصقاع الصحراوية والإفريقية[1].

كما قامت بدور كبير في توفير الأمن للغرباء من خلال تمركز أهم فروعها بتوات وأولاف وسالي، وهذا ما جعلها تتوفر على أملاك كبيرة عبر عنها دوفيريه بأن البكائية هي مفتاح الطريق من الجزائر إلى توات ومنها إلى تومبكتو[2].

وقد بلغت الطريقة البكائية الكنتية أوجها وازدهارها في عهد الشيخ المختار الكبير(ت 1226هـ/ 1811م)[3]، فقد حققت الطريقة نجاحا في ترسيخ مبادئها وتنفيذ مشاريعها وفتحت مجالا واسعا لامتداداتها، وتمكنت القادرية من قلوب الكثير من الشعوب والممالك الإفريقية البيضانية والسودانية واستولت على نفوس أبنائها عن طريق المريدين الذين نقلوا لبلدانهم أخبار الشيوخ الكنتيين ونشاطهم وأعمالهم العلمية وحكمهم ومواعظهم وأصبح مصطلح الكنتية يرادف مصطلح الإسلام في الذيوع والانتشار.

طوكان لإسهامات الشيخ محمد المختار الكنتي دور كبير في نشاطه الدعوي حيث بلغت مؤلفاته حوالي ألف واثنين وتسعين كتابا حسب الروايات، كما كان له الفضل في بلورة الطريقة القادرية الصوفية، وصبغها بالطابع الإفريقي، وفي زيادة عدد أتباعها وترك العديد من التصانيف التي اعتنت بالتربية الصوفية ومناهجها والتي اختصت بالأذكار حيث ترك إجازة في الأوراد الأحزاب وإجازة في الورد ورسالة إلى أحد مريديه، وقد ساهم هذا التراث الذي تركه الشيخ في

(1) بول مارتي، المرجع السابق، ص33

(2) سعد الله، المرجع السابق، ص278.نقلا عن دوفيريه، ص321.

(3) النحوي، المرجع السابق، ص521

إثراء الطريقة وتدعيم نفوذها، وامتدادها في إقليم توات والأزواد[1]، وكان يتردد إلى مناطق كنتة طلاب وأتباع من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى لأخذ الورد القادري وهذا ما يؤكد ملمح التواصل الذي توسع بين منطقة إفريقيا جنوب الصحراء والجزائر في القرن الثامن عشر والتاسع عشر[2].

كما أصبح الشيخ أحمد البكاي الحفيد المولود سنة(1803م) – تلميذ جده الشيخ المختار الكنتي – شيخ الطريقة البكائية في سنة 1847، يتمتع بنفوذ روحي وزمني كبير، وكان له تأثير كبيرفي أتباعه، فقد أعدّ حملة عسكرية لمواجهة الفرنسيين بعد احتلالهم لورقلة، لكن نصحه بارث بالعدول عن ذلك، فقام بإرسال رسالة احتجاجية يحذرهم فيها من التوسع في الصحراء[3]، مما يبرز حجم التأثير القادري ونفوذه كذا تأثيره المتبادل من خلال العلاقة الروحية بين الزوايا القادرية، والمساهمة في دفع الخطر الخارجي.

## الخاتمة

نجحت الطريقة القادرية في توسيع امتدادها ونفوذها إلى بلاد السودان الغربي، ولعبت دورا بالغ الأهمية في نشر الإسلام عن طريق شيوخها وزواياها، واجتذبت أعدادا هائلة من السودانيين تحت ألويتها وتحت سلطة روحية يمثلها شيخ الطريقة مكونين جماعة روحية خالصة تربطهم أسس الطريقة وتزرع فيهم القيم الفاضلة، ويرجع الباحثون الأوربيون وفي مقدمتهم بول مارتي على أن

(1) حوتية محمد، الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا خلال القرنين 18/ 19، منشورات جامعة أدرار، الملتقى الدولي الحادي عشر التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة، ج2، 2008/ 2009، ص216.

(2) الفيتوري، المرجع السابق، ص145

(3) سعد الله، المرجع السابق، ص280، 279.

انتشار الطرقية بين السودانيين يرجع إلى الطبيعة النفسية للأفارقة حيث يأملون نيل الثواب في الآخرة باتباع شيخ يتمتع بكرامات والبركة الإلهية، بينما يرجع القادريون انتشار طريقتهم إلى أسس الطريقة القائمة على الأخلاق والتمسك بقواعد الإسلام [1].

كماأسهمت في خلق فضاء ديني وثقافي مكّن مع مرور الزمن من تكريس الإستمرارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء وباقي مناطق القارة، مما حدى بالبعض إلى القول بأن الجزء الشمالي لإفريقيا يعتبر بمثابة المرجعية الدينية للجزء الجنوبي للقارة السمراء.

وشكلت القادرية نموذجا من نماذج التواصل الروحي بين المنطقتين عن طريق تدعيم التفاف الناس حول شيوخ الطريقة والاهتمام بأخذ الورد القادري، والإنضمام لحلقات الذكر، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والتمسك بمبادئ الدين الإسلامي مما هيّأ الأجواء المناسبة لتمركز العديد من الزوايا وقيامها بنشاط ثقافي وتربوي واجتماعي في مختلف أرجاء إفريقيا، والمساهمة بنصيب هام في تحديد ودعم الروابط الدينية بين سكان الجزائر والشعوب الإفريقية.

إضافة إلى نجاحها في التأثير الفاعل والحاضر في كافة الشرائح والطبقات الإجتماعية على اختلافها، ولاشك أيضا في أنها قدمت خدمات جليلة بإسهامها في تعميق الثوابت ومبادئ الدين، واستطاعت أن تجمع بين كيانات سياسية مختلفة اشتهرت بالعداء فيما بينها، كحالة بورنو وأمراء الفولان في سوكوتو، وبين القبائل، واستطاعت أن تشكل مساحة تمتد من مشارف الصحراء شمالا إلى أواسط القارة الإفريقية، ومن المحيط الأطلسي غربا إلى بحيرة تشاد شرقا ضامة منطقة السودان الغربي ككل.

---

(1) قداح، المرجع السابق، ص96.

ولاشك أن هذا الإمتداد الجغرافي والإنتشار الواسع لم يكن ليتحقق إلا بالدعم المتواصل والصلات الروحية التي كانت تجمع المنطقة ببلاد المغرب بشكل عام والجزائر بشكل خاص، لتزول معها المعيقات التضاريسية، وتصبح الصحراء محورا للتواصل والتأثير في التقارب والإشتراك في عناصر وثوابت ترسخت معها روابط الوحدة والإنتماء.

# قائمة المصادر والمراجع

## أ) المصادر

-**القرآن الكريم** (سورة البقرة، الآية152، سورة الأحزاب، الآية41).

-(ابن مريم ) أبي عبدالله محمد بن محمد بن أحمد «**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**»، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.

- ( السيوطي) أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية**، تصحيح عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، المطبعة الإسلامية، عبد المعطي أحمد الحسني، الاسكندرية، 1934.

- (الصومعي) أحمد التادلي، **كتاب المعزى في مناقب أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996.

- ( القشيري )أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان، **الرسالة القشيرية**، تحقيق خليل منصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 2005.

- (اليعقوبي) أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح «**البلدان**»، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، ط1، المجلدالأول، 2002.

**ب) المراجع :**

- (التل) عمر سليم عبد القادر، **متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي**، دراسة تاريخية، دار المأمون للنشر، عمان الأردن ط1، 2009.

- (الدباغ) محمد، **دراسات في التراث**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.2007.

- (الفيتوري) عطية مخزوم، **دراسات في تاريخ إفريقيا وجنوب الصحراء(مرحلةانتشارالإسلام)**، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي، ط1، ط، 1998.

- (القادري) إسماعيل بن السيد محمد القادري، **الفيوضات الربانية في المآثر والأورادالقادرية**، تهذيب ومراجعة عبد الهادي قطش، دارالهدى، عينمليلة، الجزائر، 2004.

- ( القادري)، عبد الحي، **الزاوية القادرية عبر التاريخ العصور**.الطبعة الأولى، تطوان، 1968.

-(العقبي) صلاح مؤيد، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر**، تاريخها ونشاطها، دار البراق بيروت، لبنان، 2002.

- (النحوي) الخليل، **بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني، من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)**، مكتبة المنتدى الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

- (بن خروف ) عمار، **العلاقات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن (10هـ، 16م)**، ج2، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.

- ترمنجهام سبنسر، **الفرق الصوفية في الإسلام**، ترجمةودراسة وتعليق عبدالقادر البحرواي، دارالنهظة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997.

_ (د ندش ) عصمت عبد اللطيف، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430-515هـ/ 1038-1121م)** مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن عربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988.

( ذهني) إلهام محمد علي، جهاد الممالك الإسلامية في **غرب إفريقيا ضد الإستعمار الفرنسي، (1850 - 1914)**، دار المريخ للنشر، الرياض، 1988.

(سعد الله ) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، (1830 - 1954)**، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

-(ضريف) محمد، **الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، (1956 - 1800)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالمحمدية، الدار البيضاء، المغرب، 2002.

- (عبد الرزاق) إبراهيم، عبدالله، **الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى القاهرة، 2004.

- (عيسى )عبد القادر، **حقائق عن التصوف**، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

(قداح ) نعيم، **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

- (مارتي) بول، **كنتة الشرقيون**، تعريب وتعليق محمد محمود ولد وادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، دون سنة طبع.

- (مارسي) جورج، بلاد **المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمد مصطفى هيكل، مراجعة مصطفى أبوضيف محمد، مطبعة الانتصار، منشأت الاسكندرية، 1991.

- (هلال) عمار، **الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب القارة السمراء**، وزارة الثقافة، الجزائر 2007.

_ (هيكل) محمد مصطفى، مراجعة مصطفى أبوضيف محمد، مطبعة الانتصار، منشأت الاسكندرية، 1991.

- (يحيى) جلال، تاريخ **إفريقيا الحديث والمعاصر**، المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة الإسكندرية، 1999.

**جـ) الملتقيات والمجلات:**

- (حوتية) محمد، **الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا خلال القرنين 18/ 19**، منشورات جامعة أدرار، الملتقى الدولي الحادي عشر التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة، ج2، 2008/ 2009.

- (مجاهد) حورية توفيق، **تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا، الأبعاد والوسائل**، مجلة قراءات إفريقية، العدد السادس، المنتدى الاسلامي، لندن. سبتمبر 2010

- paul marty.*Etudes sur Lislam et les tribusd soudan,*Pris1962.

- OcuaveDeppont et Xavier coppolani.*Les confreries religieuses musulmanes*, *Typographie Etlthographie*, Adolphe, Jourdan, Libraire éditeur, Alger, 1897.

# أثر الطريقة التجانية في نشر وتثبت الإسلام بإفريقيا

**المشارك: الدكتور محمد عبد الحليم بيشي،**
**قسم العقائد والأديان، جامعة الجزائر1**

## الملخص

عرفت الجزائر دورا مشهودا في الوصول بالإسلام إلى الأعماق الإفريقية في الصحراء الكبرى وحوض النيجر والسنغال منذ الأيام الأولى لرسوخ الإسلام بها. حيث كانت الحواضر العلمية في ورجلان وتوات والزيبان وميزاب وتلمسان مراكز إشعاع حضاري خرّجت الدعاة والقضاة والتجار الذين وصلوا أعماق افريقيا بالأصقاع المغربية. كما أن أفذاذ العلماء وطئوا بأقدامهم مواطن القبائل الوثنية في بلاد الفلاّن والتكرور والهوسا. وأسهموا في نشر الإسلام، ومن هؤلاء أبو يعقوب الورجلاني الإباضي، وكذا محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي أسهم بجلاء في نشأة الإمارات الإسلامية بحوض النيجر وإمبراطورية مالي.

وفي العصر الحديث كان الدور للمؤسسات الصوفية التى أسهم رجالاتها في وصل العالم الإفريقي بالعالم المغاربي. ومن بين هذه الطرق المهمة الطريق التجانية لمؤسسها أبي العباس أحمد التجاني الذي عمل وخلفاؤه على تثبيت الهوية الإسلامية ومحاربة الاستعمار في إفريقيا. بل إن مدافع المستعمرين لم تهزمها إلا سبح المتصوفة التجانيين والقادريين التي تآزرت مع سيوف المقاتلين.

ولتقييم هذا الدور للزاوية التجانية في إفريقيا فإننا سنتناول في هذه الورقة جذور ومظاهر وأثار ذلك الدور التجاني، والكلام عن أبرز رجالاته وعلمائه

لبيان قوة المرجعية الجزائرية في البلدان الإفريقية. مستعينين بالمصادر التجانية والمراجع المختلفة المنجزة حولها في إفريقيا. لعلنا نستطيع إحياء تلك الروابط القديمة التي هدمها الاستعمار وأتت عليها الدولة الحديثة. وستقسم الورقة إلى الأتي :

أولا : نشأة الطريقة التجانية في الجزائر.

ثانيا: أسس الطريقة وميراثها الأدبي والعلمي.

ثالثا: الأعلام الجزائريون الناشرون للطريقة في إفريقيا.

رابعا: الحضور التجاني في إفريقيا ومظاهره.

## أولا: نشأة الطريقة التجانية في الجزائر

في العهد العثماني الذي حفظ للجزائر إسلامها وصان حدودها من الطامعين الصليبيين من الاسبان والبرتغال والجمهوريات الايطالية الصاعدة وفرسان مالطا والقديس يوحنا، هذا العهد الذي دام قرابة ثلاثة قرون (1518 1830–م)[1]. كانت ولادة الطريقة التجانية في الصحراء الوسطى في مدينة عين ماضي بالأغواط.

وللاقتراب من معرفة الطريقة الصوفية التي تعد أكبر الطرق في العالم الاسلامي تابعا، كما أنها من الطرق الحديثة زمانا، ولكنها الأكثر من حيث التأليف والتدوين والتأصيل، يجدر بنا أن نتعرف على الاطار الزماني والمكاني والشخصي للمؤسس الشيخ أبي العباس أحمد بن محمدالتجاني الحسني.

(1) –لمعرفة العهد التركي انظر المهدي بوعبدلي وناصر الدين سعيدوني،الجزائر في التاريخ،العهد العثماني ج4،ص 14

## الإطار الزماني

عاصر الشيخ أبو العباس أحمد التجاني عصر الدايات الأتراك الذي يعد أطول العهود في أنظمة الحكم التركية في الجزائر إذ استمر من سة (1671 – 1830م)[1] الذي امتاز بثبات أنظمته الإدارية، إلا أن عيبه الأكبر كان في السياسة المالية الضرائبية التي ضج منها السكان، والتي قادت إلى حملة احتجاجات كان أعنفها ما قامت به الطريقة الدرقاوية في ثورتها المعروفة في الغرب بقيادة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي، ومن الشرق مع الداعي بلحرش الدوقاوي[2].

كما أسهمت الطريقة التجانية أيضا بثورتها ضد بايلك الغرب في أواخر العهد العثماني والتي قادها محمد الكبير بن الشيخ أحمد التجاني ضد بايليك الغرب سنة1827.[3]

إضافة إلى ذلك عرفت الجزائر حركة جهادية واسعة ضد الاسبان المحتلين لمدينة وهران والمرسى الكبير المحتلين منذ 1509. حيث كان التحرير الأخير على يد على يد الباي محمد عثمان الكبير سنة1791م[4]، تحرير أسهم فيه الطلبة والعلماء المتصوفة بجلاء من خلال مشاركتهم الفاعلة بالحال واللسان والسنان

(1) –انظر في عصر الدايات مبارك الميلي:تاريخ الجزائر في القديم والحديث.ج3ص181.

(2) –ناصر الدين سعيدوني:ورقات جزائرية.ص308/ مذكرات الشريف الزهار ص84–87/ المزاري:طلوع سعد السعود ج1ص299.

(3) –انظر تلمساني بن يوسف:الطريقة التجانية وعلاقتها ببايلك الغرب/ مذكرات الشريف الزهار ص 159/ الزياني:دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران.ص241 / المزاري:طلوع سعد السعود ج1ص352.

(4) – الميلي:تاريخ الجزائر ج3ص340.

كما هو شأن العلامة أبي راس المعسكري الذي ساهم في تحرير وهران[1]. مع العديد من طلبة الزوايا وأتباع الطرق في الغرب الجزائري[2].

في هذا الظرف الزماني ولد الامام أبو العباس التجاني سنة 1737م[3]، حيث عاصر أوج عهد الدايات الذين حكموا الجزائر من دار السلطان (الجزائر العاصمة) ومدوا حكمهم على باقي الجزائر بنظام البايلك (قسنطينة، التيطري، معسكر) إلا أن هذا النظام لم يكن ملتحما بالشعب المغلوب الذي لايعرف قادته إلا بقنطرة الضرائب والمكوس والغرامات. مما دفع إلى تلك القطيعة التي ستكون نتائجها وخيمة في الاستعمار الفرنسي الذي وجد سلطة هشة مقطوعة الأواصر عن باقي الساكنة الجزائرية.

## الاطار المكاني

المكان هو سهوب بلدة عين ماضي (80 كلم غرب الأغواط) وهي بلدة عامرة اختطها العرب الهلاليون. وتعود نسبتها إلى ماضي بن يقرب الرياحي. الذي أسكنها أهله وذريته في القرن الرابع الهجري.

ومع مرور الزمن صارت مركز جذب ومحلا لعبور القوافل من الشمال إلى الجنوب، وممرا مهما لقوافل الحجيج المغربية وخاصة سكان السوس الأقصى والأطلس الكبير وسجلماسة، إذ كان خط الحجيج يبدأ من فقيق ثم أبو سمعون، الغسول، عين ماضي، تاجموت، برج الغيران، سيدي خالد، بسكرة، سيدي عقبة، توزر بتونس وهكذا.

---

(1) –أبو راس المعسكري:عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ج2ص174.

(2) –الراشدي : الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني–المقدمة للمهدي بوعبدلي:–ص12.

(3) – في ترجمة التجاني انظر:الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف.ج1ص281/ عادل نويهض:معجم أعلام الجزائر.ص62.

ولأهميتها العلمية والتجارية وصفها الرحالة المغاربة أمثال العلامة العياشي الذي ذكرها في وصف عودته من طريق الحج سنة( 1074 هـ) بما يدل على أنها كانت حاضرة علمية حيث قال: ارتحل الناس من الأغواط بعدما تشاجروا في أي طريق يسلكون، فمالت طائفة إلى طريق عين ماضي وكان لي فيها أرب لبيع بعض الكتب ولقاء الأصحاب.»[1]

فلازمة هذا الوصف يدل على رواج سوق المعرفة بها وكثرة الدارسين للعلم والمشتغلين به.

كما ذكرها العلامة أبو عبد الله الحضيكي في رحلته الحجازية(1189هـ) ووصفها بقوله: «ولبعض أهلها نوع من مخالطة العلم.»[2]

وجاء ذكرها عند العلامة الدرعي (1129هـ 1718م) أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته الناصرية حيث ذكر غارة السلطان عبد الملك السعدي وكيف شتت شمل عين ماضي وفرض عليهم مغارم فادحة.

وقال:«وعين الماضي أهلها كلهم طلبة، وجلهم طلبة علم يقرؤون خليلا... وهم عاكفون على قراءة الفقه ويعظم صغيرهم كبيرهم»[3]

كما تكلم عنها ابن هطال في رحلة محمد الكبير باي وهران أيام مصطفى باشا (1797) وكيف أخضع أهلها لسلطان الدولة التركية[4].

ومن المتأخرين العلامة ابن الدين الأغواطي الذي ذكر «بأنها محاطة بأسوار

(1) –العياشي:ماء الموائد،الرحلة العياشية للبقاع الحجازية،ج2ص530.

(2) –الحضيكي:الرحلة الحجازية.ص74.

(3) –الدرعي:الرحلة الناصرية .ص 130–131.

(4) –ابن هطال:رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري.ص55. وانظر:أحمد توفيق المدني:محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766–1791)ص55.

تشبه أسوار طرابلس ولها بابان عظيمان ولحاكمها الذي يسمى ولد التجاني حوالي مائة عبد، وخزنة مليئة بالنقود... وله حمام في وسط البلدة، ومن بين أملاكه الفخمة سروج وتحف مطرزة بالذهب كما أنه يملك مكتبة عامرة.»[1]

فالبلدة كانت عامرة آهلة تهيأت لها الظروف بأن تكون من أهم المدن جنوب جبال العمور، إذ كانت محل جذب للقبائل البدوية المرتحلة في سهوبها ووديانها.ومما يدل على أهميتها الاقتصادية تجريد الاتراك لعدة حملات عسكرية ضدها لاستخلاص الضرائب مما يدل على أهميتها الاقتصادية والثقافية في الجزائر العثمانية.

فهذه الشواهد من الملاحظات الواردة في كتب الرحلات والبلدان، وكذا من الحوادث السياسية التي تدل على تزاحم السلط الجزائرية تارة والمغربية أخرى على اخضاع المدينة وأهلها يدل على مركزيتها الاقتصادية والعلمية في الجنوب الوهراني. ولا أدل على ما سبق من هجرة الشيخ أبي العباس التجاني من بلده بعد مضايقات الأتراك العديدة له، وهو ما سيقود إلى مصادمات عديدة بين السلطة التركية والطرق الصوفية كالدرقارية والتجانية وحتى القادرية التي توجست منها السلطات التركية، وقتلت بعض شيوخها، وفرضت الإقامة الجبرية على شخص محي الدين الحسني وابنه الأمير عبد القادر في وهران[2].

## الإطار الشخصي

إن المؤسس والمؤطر للطريقة التيجانية هو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الحسني التيجاني الماضوي، وقد ولد في بلدة عين ماضي سنة (1150هـ- 1737م) في بيئة علمية وارفة. حيث حفظ القرآن ولما يتجاوز سبع

(1) – سعد الله أبو القاسم:أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر.ج2ص252.

(2) – فؤاد صالح السيد:الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا.ص35.

سنوات، ثم حفظ المتون الفقهية المتداولة على مذهب الامام مالك، وكذا الفنون العقدية على مذهب السادة الأشاعرة كما هو الشأن أنذاك في الحواضر العلمية الجزائرية.

وتميز بنبوغ شديد في المعارف الفقهية جعله يخرق المعتاد من العكوف على الأقوال الفقهية المالكية تبعا لسنن التقليد الجاري. حيث انفرد باختيارات علمية خارج المذهب تبعا للدليل والسنة، وقد وصفه صاحب شجرة النور الزكية بقوله: « اشتغل بطلب العلوم الأصولية والفروعية والأدبية حتى رأس فيها وحصل أسرار معانيها، وقرأ على الشيخ المبروك بن أبي العافية التجاني الماضوي مختصر خليل والرسالة والمقدمة لابن رشد والأخضري، فكان يدرس ويفتي وله أجوبة في فنون من العلم أبدى فيها وأعاد وحرر المعقول والمنقول فأفاد»[1].

والذي يدل على هذه الرئاسة العلمية، والاجتهاد الذي قفز على مقررات المذهب المالكي بالعودة إلى الأصول كثرة الاختيارات ودقة الاستنباطات في القرآن والسنة والتي رفعت من المنتج العلمي الطريقة حتى جعلتها أكثر الطرق كتابة وتأليفا في زمن وصف بالانحطاط والانكباب على المختصرات والحواشي والطرر. حيث أثر عن الشيخ دعوته إلى تنقيح الكتب وإعادة الدرس الفقهي إلى أصالته، حيث قال: «ما أحوج الناس في هذا الزمان إلى عالم أو علماء ينقحون لهم كتب الفقه من الحشو الذي فيها»[2].

أما المسار العلمي للشيخ فيمكن تلخيصه بعد مرحلة الطلب في بلده في رحلاته العديدة إلى حواضر تلمسان وفاس، ثم رحلة الحج التي عرف فيها أحوال العالم الاسلامي ولقي فيها الشيوخ المبرزين الذين أجازوه في علوم الفقه والحديث والتصوف.

(1) – مخلوف محمد :شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، رقم1513.ص378.

(2) –الطيب السفياني:الإفادة الاحمدية،حلرف الميم،كلمة186.ص123.

إلا أن أهم بلدة استكمل فيها معارفه العلمية والعملية التربوية هي فاس التي بقي فيها ستة عشرة سنة كاملة، وبعدها عاد منها شهابا واريا من العلم والدين فتصدر للتدريس في:

1 – بلدة الأبيض سيدي الشيخ – مقر الطريقة البوشيخية– التي مكث فيها خمس سنوات مدرسا.

2 – تلمسان: حيث تصدر للاقراء والتعليم بجامعها الكبير.

3 – سوسة بتونس : والتي مكث بها سنة كاملة مدرسا للحكم العطائية أثناء سفره للحج (1186–1188هـ)

4 – تلمسان: التي تصدر بها ثانية للتدريس بعد عودته من الحج.

5 – الشلالة: (قرية جنوب البيض) درّس بها بعد تضييق الترك عليه في تلمسان.

6 – أبو سمغون : وهي مدينة جنوب البيض، حيث استقر وتصدر المشيخة، وبها جاءه الفتح العرفاني، ومكث بها ثلاثة عشرة سنة كاملة (1199–1212).

7 – فاس: التي هاجر إليها عقب هجوم الاتراك على مدينة عين ماضي سنة (1213هـ) ومكث بها مدرسا وشيخا ومربيا سبعة عشر سنة كاملة إلى أن وافاه الأجل سنة (ـ1230هـ1815م).

## المسار الصوفي

نشأ الشيخ أبو العباس أحمد التجاني في بيئة صوفية سنية، سادت فيها الطرق الصوفية التي كانت ملجأ وملاذ الناس من جور السلط السياسية المتعاقبة، حيث ينذر أن تجد عالما غير منتسب لأحد المشارب الصوفية. وعلى مسلك من سبقه فقد اجتهد التجاني في رحلاته إلى لقاء شيوخ التصوف، ففي فاس أخذ الأوراد عن الطرق المعروفة منها:

– الطريقة الطيبية: حيث التقى في مدينة وزان صاحبها مولاي الطيب بن محمد.

– الطريقة القادرية: التي أخذها عن شيوخها بفاس وبجامع القرويين.

– الطريقة الناصرية: عندما التقى الولي الصالح أحمد بن عبد الله التزاني.

– الطريقة الرحمانية: حيث التقى صاحبها محمد بن عبد الرحمن الأزهري الخلوتي بجرجرة أثناء مسيره لآداء فريضة الحج[1].

لكن أهم الشيوخ الذين تأثر بهم هم:

– الولي الصالح عبد الله بن العربي المعني الأندلسي (ت1188هـ) بمدينة فاس.

– الولي الملامتي أحمد الطواش (1204) بتازة بالمغرب.

– الشيخ محمد الكردي المصري بمصر، والذي أخذ عنه عديد المعارف الصوفية.

–الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان بالمدينة المنورة أثناء آداء فريضة الحج[2].

أما المرحلة الأخيرة من التصوف فتمت في بلدة أبو سمغون بالصحراء الجزائرية حيث جاءه الفتح سنة (1196–1781م) حيث تأسست رسميا الطريقة الأحمدية التجانية التي قامت على فكرة خاتمية الولاية في شخص أبي العباس، والتزام الذكر والعبادة بالتربية وأكل الحلال والحفاظ على الصلوات واجتناب المحرمات.

(1) –عبد الباقي مفتاح:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه ص72.

(2) –أكنسوس محمد بن أحمد:الجواب المسكت.ص6

## مؤلفات الشيخ التجاني

لم يترك الشيخ مؤلفات كثيرة في التصوف والعلم، حيث انصرف إلى اعداد الدعاة والمربين إلا أن أهم الآثار المتداولة لدى التجانيين من تراث الشيخ هي:

ا-الكناش: وهو مجموعة وصايا وأوراد يتداولها خلفاء الطريقة.

ب- شرح همزية البوصيري أملاه على تلميذه علي حرازم.

ج-فتاوى متفرقة في كتاب جواهر المعاني لعلي حرازم وكتاب الجامع لمحمد بن المشري.

د- آراء عقدية وصوفية تضمنها كتاب علي حرازم: جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض أبي العباس التجاني[1].

## ثانيا: أسس الطريقة وميراثها الأدبي والعلمي

الطريقة التجانية طريقة مفردة لا تنتمي إلى أي من المشربين الصوفيين الكبيرين والذين تناسلت منهما أغلب الطرق الصوفية أي القادرية والشاذلية، وهي أقرب في المشرب العقدي إلى نهج الشيخ الاكبر محي الدين في الحقائق العلوية، كما أنها أقرب إلى السلوكات السنية في الشعائر والعبادات.

الشروط الملازمة لمريد الطريقة الاحمدية التيجانية :

1 – دوام المحافظة على الصلوات الخمس في الجماعات والقيام بالتكاليف الشرعية.

2 – عدم مقاطعة الخلق وخاصة المريدين التيجانية.

3 – احترام العلماء والصالحين والشيوخ ومن انتسب إليهم.

(1) –عبد الباقي مفتاح:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه ص130

4 – اعتماد عقائد أهل السنة والجماعة والالتزام بمذاهبهم الفقهية.

5 –عدم الأمن من مكر الله تعالى إلى الممات[1].

6 – مداومة الالتزام بالورد إلى الممات بعد أخذه من قدرة في الطريق وهذه الأوراد تختلف بين اللزوم والاختيار.

## الأوراد اللازمة

الورد المعلوم يقرأ كل يوم بعد صلاتي الصبح والعصر، ويشمل قراءة الفاتحة ثم الاستغفار مائة مرة ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة والهيللة مائة مرة.

الوظيفة الصغرى: تقرأ مرة أو مرتين جماعة وفرادى ليلا ونهارا، وهو:

– الفاتحة، ثم الاستغفار بصيغة «استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ثلاثين مرة.

– صلاة الفاتح: خمسين مرة.الهيللة: مائة مرة.

– صلاة جوهرة الكمال: اثنا عشرة مرة ثم يختم بالدعاء.

أما وسائل التربية الروحية فهي: الذكر الكثير بالأوراد والوظائف المختلفة.

– إقامة الصلاة والمحافظة على أوقاتها وطهارتها وخشوعها.

– تدبر القرآن الكريم إذ هو المعين لكل العلوم والمعارف ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

– التعلق بالقدوة المربي القائم على مراقبة سلوك المريد في هذا الطريق الصوفي.

---

(1) –عبد الرحمان طالب:الشيخ سيدي أحمد التجاني ومنهجياته في التفسير والفتوى والتربية. ص17

فبهذه الوسائل الروحية القائمة تهدف الطريقة في تربيتها للمريد إلى التالي:

– تزكية النفس والانتقال بها من إلى حال النفس المطمئنة بذكر الله تعالى، وتهديها من كدر المعاصي والتحلي بالفضائل والترقي في مراتب الكمال.

– التدريب على اتباع السنة النبوية قولا وعملا، حالا ومقالا.

– تجسيم مقام الاحسان المرتبط بدوام المراقبة لله تعالى في الأحوال والأقوال والاعمال تحقيقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم»الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[1]

– تسوير المريد التجاني بحائط سني محكم لكثرة الأوراد والأذكار، وآداء الوظائف والواجبات الشرعية، وخاصة الصلاة المكتوبة والنوافل المرغوبة[2].

تتظافر الكتب التربوية في الطريقة على مركزية التزكية القائمة على العلم الشرعي المطهر من الأدران في السلوكات، ولهذا تشيد بالعلم والمربي والشيخ المزكي وهو ما يقود إلى الترقي في الكمالات، إذ أن مقام إسلام الاستقامة التي تورتها الآداب التجانية يقوم على قسمين:

الأول: الاستقامة الخاصة وهي استقامة السير في نهج المشاهدة من غير التفات إلى غير الله، وهي ما يعبر عنه الصوفية بوحدة الشهود.

الثاني: الاستقامة العامة وهي المتعلقة بالمظاهر والرسوم وهي: اعتدال السير على نهج السنة من غير تحريف، واستواء السلوك على سبيل الشرع من غير تبديل ولا تغيير[3]، وهاتان الاستقامتان لا بد لهما من شروط تالية:

---

(1) –صحيح البخاري:كتاب الإيمان رقم 50/ صحيح مسلم:كتاب الإيمان رقم9.

(2) – أحمد التجاني صل:التربية الروحية في الطريقة التجانية.(أعمال الملتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية)ص26

(3) –التشيتي:ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية.ص116.

1 – مواصلة أهل السنة ومجانبة أهل البدعة.

2 – تعلم العلم النافع الهادي إلى وظائف الشرع والداعي إلى أحكام السنة.

3 – تسليم النظر للشارع عليه السلام في جميع ما صدر عنه.

4 – استعمال آثار السنة من قول أو فعل أو مقصد باعتدال وسير.

5 – بناء كل حركة وسكون من أمور السنة على قصد القربة وحسن المعاملة لله تعالى[1].

وهذه الآداب والشرائط وغيرها مثبوتة في مجمل تراث الطريقة شرقا وغربا ومن أهم المصادر التربوية الواردة في الموضوع ما يأتي:

– كتاب الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة لمحمد فتحا السوسي النظيفي[2].

– الهداية الربانية في فقه الطريقة التجانية لمحمد السيد المصري.

– الفتح الرباني فيما يحتاجه المريد التجاني لمحمد بن عبد الله الصطفاوي.

– مفتاح السعادة الأبدية في مطالب الأحمدية للحاج أبو بكر زيد الفوتي الحلوي.

– الخلاصة الوافية في شرح الأوراد التجانية لمحمد سعد الرباطي.

إن المتصفح للطريقة يجدها تتميز عن غيرها من الطرائق الصوفية بجملة أشياء أكسبها ذلك الانتشار الواسع رغم تأخرها الزمني نسبيا وهي:

–الاهتمام بالعلم الشرعي والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد والاستدراك على السابقين.

---

(1) –المصدر السابق ص116–117.

(2) – السوسي النظيفي الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة .ج1ص12

- رفع الحرج وعدم التكليف بالأثقال في التربية من حيث قلة الوظائف والأوراد إذا ما قورنت بغيرها.

-الاهتمام بالسنة ومجانبة البدع والخرافات ومحاربة الفلكور الذي أحاط بالتصوف.

واستفصالا لما سبق فقد حفلت أدبيات الطريقة بالتركيز على المعاني السالفة، ومن ذلك ما ساقه عمر بن قدور الجزائري في رد ترهات بعض منتسبي الطرق، مثل ما سرده في القواعد المنقولة عن أبي العباس التجاني نحو قوله: «لنا قاعدة واحدة تنبنى جميع الأحوال عليها أنه لا حكم إلا لله ورسوله، ولا عبرة في الحكم إلا بقول الله أو قول رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وأن أقاويل العلماء كلها بطلة إلا ما كان مستندا لقول الله ورسوله»[1].

وقوله في تأييد مقالته ما أثر عن الشيخ التجاني : «إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه.»[2]

ولأجل ذلك وقف التجانية موقف المعارض لما شاع من بدع وخرافات وادعاءات ألصقت بالتصوف[3] نحو:

البدع العالقة بزيارة الأولياء: «والتي هي عمل مندوب إذا تجرد من كافة المحظورات والممنوعات شرعا، والمؤدية إلى الإشراك بمقام الربوبية كالاعتقاد في الولي القدرة على النفع والضر وتقديم الهدية له بهذه النية الفاسدة، وكالتمسح بالآثار والأعتاب وتقبيلها.»[4]

(1) – عمر بن قدور:الإبداء والإعادة في مسلك سائق السعادة.ص290.

(2) – المرجع نفسه ض278.

(3) – سكيرج العياشي:طرق المنفعة بالأجوبة عن الأسئلة الأربعة.ص2

(4) – عمر بن قدور:الإبداء والإعادة في مسلك سائق السعادة. ض251.

ونحو ذلك المبالغة في بناء القبب والضرائح والزوايا وفي ذلك يقول عمر بن قدور موضحا موقف الطريقة السني: «فالمشايخ الكمل غير راضين بما بني على مقابرهم العالية والثوابت المزخرفة، وانما بلاء الابتداع عم العامة والملوك وأحبار السوء فعملوا بأغلبة آرائهم على اقامتها، ولم ينفع فيهم نصح صالح متمسك بما ورد في صريح السنة.»[1]

وفي السياق كانت الحملة على الخرافات التي شاعت في الأعصر المتأخرة والتي هي منابذة لروح التصوف «ودليل ذلك ما هو مشاهد من انكباب العامة على الاماكن الخالية وينابيع المياه الحارة من سكنى الأرواح والجن والشياطين، والرحلة إلى زيارتها والتبرك بحجاراتها وأشجارها، وذبح القربان عندها وتبخيرها، وطلب قضاء الحاجات منها، وكزيارة كثير من الأضرحة ومنها ما هو مجهول الأصل أو مزور وذبح القربان لها لأغراض في النفوس، وكالاعتقاد في الزنوج والسحرة والكهان وما جرى مجراهم من كتبة الحروز وأرباب الرموز. كل تلك الاعتقادات والخرافات سارية في العامة ومالكة لقلوبها من غير داع طرقي ولا عامل صوفي»[2].

ولأجل هذه الروح السنية السلفية اعتبر بعض الباحثين أن الموقف العلمي للحركة الوهابية والطريقة التجانية يتقاربان، وهو ما يفسر لديهم احتضان السلطان سليمان أبو الربيع العلوي ملك المغرب للطريقة التجانية وانخراطه فيها وترحيبه بقدوم الشيخ التجاني هربا من اضطهاد الأتراك بالجزائر[3]، كل ذلك يعود إلى تشبثه بتعاليم الكتاب والسنة الرافضة لكل أشكال البدع، مما

(1) –المرجع نفسه ص253.

(2) –المرجع نفسه ص271.

(3) – السلاوي:الاستقصا الأخبار دول المغرب الأقصى.ج3ص213.

جعله يقدم على اتخاذ قرارات جرئية ضد رجال الطرق والزوايا لما ثبت لديه أن الكثير من ممارساتهم خارجة عن السنة[1]، وقد كان هذا السلطان معروفا بشدة ورعه وحبه للحديث واستقدامه لمشايخ القراء وأعيان العلماء لشرح الحديث[2].

وتتمة لكل ما سبق فقد دخل رجال الطريقة في خلاف وجدل علمي طويل حول بعض القضايا التي انفردت بها الطريقة مثل القول بخاتمية الولاية في شخص أبي العباس، وكذا الفضل الوارد في صلاة الفاتح، ومنع انتساب المريد التجاني لغير هذه الطريقة، واستعر الجدال بينهم وبين باقي الطرق وبعض الفقهاء، والشاهد في الموضوع أن الكتب التجانية وعلى خلاف المتداول الصوفي زمانها حفلت بالنصوص القرآنية والحديثية في الانتصار لمقالاتها، وشواهد ذلك كثيرة مثل كتب شيخ الاسلام ابراهيم الرياحي.والحافظ التجاني المصري.وسكيرج العياشي.

## ثالثا: الاعلام الجزائريون الناشرون للطريقة في افريقيا

على الرغم من الولادة المتأخرة للطريقة التجانية في سلسلة الطرق الصوفية الكثيرة المتفرعة من القادرية والشاذلية، وعلى الرغم من كثرة المعارضين لها من داخل حقل المتصوفة ومن خارجها، إلا أنها وجدت لها قدما راسخة في السودان الأوسط والغربي، أي من افريقيا جنوب الصحراء. والتي لم تكن خلوا من طرائق صوفية تعيش فيها بل وتدين بها ممالك وإمارات إسلامية متعددة[3].

(1) –الازمي أحمد:الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي.ج1ص132.

(2) –– السلاوي:الاستقصا ج3ص200.

(3) –انظر مسعود عمر:تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي.ص70.

والسؤال المهم في الموضوع متعلق بمسببات اكتساح التجانية للربوع الافريقية وعلل النجاح التي كتب لهذه الطريقة دون غيرها.

إن الشق الأول من الجواب متعلق بهذا المبحث وهو الدور الفعال الذي قام به الرواد والاعلام الحاملون للطريقة التجانية من الجزائريين والمغاربة عموما في الدفع بالمنهج التجاني التربوي قدما حتى صارت افريقيا تجانية في أغلبها، وصار اسم الإسلام قرينا باسم التجانية.

بل إن الاستعمار الفرنسي الحديث لم تهزمه في إفريقيا مدافع المقاتلين، إذ لا مقارنة في القوة الإعدادية ولا العددية، وانما كانت هزيمته بسبح المتصوفة التجانيين التي تزاوجت مع الحراب التقليدية والبنادق البسيطة.

إن عمل الأعلام الجزائريين والمغاربة يتمثل في التبشير بالجديد الصوفي في الطريقة عن طريق مسارين تناسلت منهما الزوايا والمدارس التجانية.

**المسار الأول**: رحلة الحج أي خط فاس – عين ماضي – تماسين – القاهرة – مكة – وفي هذا المسار برز لدينا أعلام كثير اعتنقوا الطريقة وصاروا من أعلامها المنافحين فيها، ويمكن الاستشهاد هنا بشخصيتين علميتين هما:

**أ–شيخ الاسلام ابراهيم الرياحي**:أبو اسحاق ابراهيم عبد القادر الطرابلسي العلوي، ولد سنة 1180هـ وتوفي سنة1266هـ[1]، أخذ العلوم بتونس وبرز على أقرانه، وعند وفود علي حرازم تلميذ الشيخ التجاني على تونس قاصدا الحج التقاه وأخذ عنه الطريقة، ثم انتدبه حمودة باشا باي تونس سفيرا للمغرب لأجل جلب الميرة لتونس أيام المجاعة سنة 1218هـ، وهناك التقى الشيخ أحمد التجاني.وقد ألف الرياحي كتبا كثيرة في الطريقة وفي غيرها منها «مبرد الصوارم

(1) –كحالة عمر رضا:معجم المؤلفين ج1ص37.

والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التجاني من أهل السنة[1].

وفي توصيف الشيخ الزيتوني «محمد مناشو» في رده على صاحب المنار رشيد رضا في انتقاده للتجانية جاء ما يبرز دور العلماء في نشر الطريقة.في قوله: «إن طريقة التجاني لم تنتشر بواسطة الملوك بل بواسطة العلماء، فقد كان أول ناشر لها بيننا رأس الفتوى والأمام الأكبر بالجامع الأعظم شيخ شيوخ القطر مولانا الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي مجيز علماء المشرق والمغرب، وتداول سنده بعده من شيوخ الفتوى والقضاء بالمذهبين الحنفي والمالكي ما يزيد عن الأربعين من آل بيرم وآل النيفروآل الخوجة وآل الشاهد وآل الشريف وآل حسين وآل جعيط وسواهم جمهور عظيم من أئمة ومدرسين وأمراء ووزراء وسراة فضلاء.»[2]

**ب-الشيخ محمد الحافظ التجاني المصري (1315 - 1398هـ)**

عالم متصوف مصري، أخذ أوراد الخلوتية، وتبحر في العلوم الشرعية، كما أخذ أوراد الشاذلية والنقشبندية. لكنه استقر على التجانية حيث كانت القاهرة معبر طرق ووسائل الحج لتجانية المغرب وافريقيا، فقام بجهد عظيم لنشر الطريقة وتصحيح الدخيل عليها من البدع والشوائب إذ كان مبرزا في علم الحديث.

أسس مجلة طريق الحق والتي بقيت تخدم التصوف وطرائقه ثلاثين سنة كاملة، خلّف كتبا مهمة في الطريقة منها: قصد السبل في الطريقة التجانية، رد أكاذيب المفترين على أهل اليقين، الانتصاف في رد الانكار على الطريق، وتخريج أحاديث جواهر المعاني. هذا فضلا عن أعماله الضخمة في علم

(1) -سكيرج:كشف الحجاب ص132.

(2) -مناشو محمد: رسالة فتح الأبصار على مواقع عثار صاحب المنار.ص31.

الرواية مثل : ترتيب وتقريب مسند الإمام أحمد على حروف العجم، وكتابه: الاستدراك على المستدرك[1].

**المسار الثاني:الرحلات الدعوية**: وذلك بعديد الرجالات الجزائريين الذين ساروا بالطريقة قدما إلى الأعماق الإفريقية من خلال مؤلفاتهم أو رحلاتهم للدعوة إلى الاسلام بين الوثنيين أو المسلمين حديثي العهد بالاسلام، وهم من العدد بمكان. إلا أنه يمكننا الوقوف عند جملة نماذج علمية صوفية من علماء الطريقة نحو الآتي:

**أ-محمد المشري السائحي**: من قبيلة أولاد السائح الأشراف المرتادين للعرق الشرقي، والمتوزعين اليوم على نواحي تقرت والطيبات وورقلة.

التقى الشيخ التجاني عند عودته من الحج بتلمسان سنة 1188هـ، وصار يؤم الشيخ في الصلوات وعاد إلى مواطنه الأولى وأسهم في نشر الطريقة في الجنوب الشرقي، وفي تونس، وعنه أخذ علامة قسنطينة محمود بن المطمطية.

وقد توفي في حياة الشيخ التجاني بعين ماضي سنة 1224 هـ، وعزاه الشيخ ونعاه بنفسه، وترك لنا أحد أهم المؤلفات في التصوف وهو: الجامع لدرر العلم الفائضة من القطب المكتوم، كما خلف كتابا في شرح الصلوات النبوية. وهو: السراج الوهاج لاقتطاف ثمرة ياقوتة المحتاج»[2].

والشاهد أن محمد بن المشري كان سفيرا للشيخ التجاني في الصحراء الجزائرية واستطاع بسياحته وتقلله من الدنيا أن يوجد للطريقة مراكز متقدمة سيكون لزواياها الدور الأبرز في الدفع بالطريقة إلى الأعماق الافريقية.

---

(1) -انظر عبد الباقي مفتاح:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه.ص 288.

(2) -سكيرج:كشف الحجاب ص149.

**ب-محمد بن الفضيل التواتي**:من أوائل رواد الشيخ وأصحابه، حيث أن الشيخ التجاني وبعد ضغط الأتراك في الشمال نزل إلى واحات توات إلى تيكورارين – قرب تيميمون- وهناك أخذ عنه وصار من مقدمي الطريقة وقد اهتم التواتي بنشر الطريقة بين بدو الطوارق الذين نقلوا الطريقة إلى مالي والنيجر[1]بفضل القوافل التجارية التي كانت تسري بين مدن توات وشمال مالي، وهي خطوط تجارية قديمة أسهمت في ربط الصحراء الجزائرية ببلاد الفلان والتكرور[2]، ودلائل ذلك كثيرة، ومن أشهرها الخط العلمي الذي قاده الامام محمد بن عبد الكريم المغيلي[3] ودوره الرائد في نشر الاسلام ودعم الإمارات الاسلامية في حوض النيجر وبلاد الهوسا.

**-ج الشريف محمد الأخضر التواتي**: من تلامذة الشيخ بوطيبة الطاهر التلمساني، والذي نشر الطريقة في الأعماق الصحراوية ومنها إلى إفريقيا الغربية.

**د-الحاج بن عمر التجاني بن محمد الكبير**: أحد الأفداذ من السجادة التجانية، ولد في مطلع القرن العشرين وأخذ العلوم الشرعية ببلدة عين ماضي. وبعد الحرب العالمية الثانية في سنة 1948 خرج في بعثة علمية تجانية وساح في الأعماق الافريقية ثلاث سنوات وأسلم على يديه خلق لا يحصون، وأجاز الكثيرين في الطريقة.وفي ثورة الجزائر اعتقل سنة 1957 حتى الاستقلال، ثم اعتكف معنزلا الخلق إلى أن توفي سنة 1967، وقد ألف كتبا عن هذه الرحلة

(1) – عبد الباقي مفتاح:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه ص181

(2) عبد القادر زبادية:الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية،ص27.

(3) -التنبكتي:كفاية المحتاج،ج2ص294. ابن مريم:البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان،ص253

الدعوية العلامة أحمد العناية بعنوان الرحلة العمرية[1].

كما ألف هو كتابين مركزين بالانجليزية والفرنسية هما: الجواب الواضح، ومفتاح الجنة[2].

وقد مدحه محمد العيد آل خليفة التجاني الإصلاحي بقوله:

يـا ابـن التجاني المضيىء بنوره
وشـبـيـهـه فـي الـبـأس والإقـدام

كـن ضـامـنـا لـي عـفـو جـدك إنني
قـد هـمـت عـن واديـه بـعـض هيام

فـي فـتـرة الـقـلـب هـارونـيـة
بـالـسـحـر أضـغـاتـيـة الأحـلام.

وقد سبقه في هذه الرحلة الخليفة العام الطيب بن علال الذي تولى الخلافة سنة 1935، وقام برحلة إلى افريقيا وزار زوايا التجانية سنة 1947، ودامت ستة أشهر كاملة تفقد فيها الحضور والأحباب التجانيين في السنغال ونيجيريا .

## رابعا: الحضور التجاني في إفريقيا ومظاهره.

اختلفت أشكال الحضور الصوفي التجاني في افريقيا جنوب الصحراء وتنوعت مظاهره من حضور علمي وآخر سياسي وثالث عسكري جهادي، ولكن اللافت من كل هذا هو قوة هذا الحضور في البلدان الافريقية حتى صار الاسلام قرين التجانية في بلدان مثل السنيغال ونيجيريا ودارفور والسودان.

(1) -أحمد العناية التجاني:الرحلة العمرية-مخطوط زاوية عين ماضي-

(2) -عبد الباقي مفتاح:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه ص263.

ولم يكن هذا الحضور بضربه لازب، وإنما هو محصلة جهود كبيرة من دعاة التجانية من الجزائر والمغرب أو حتى من الافارقة من شعوب الفلان والتكرور والهوسا وغيرهم.

إذ أنه رغم الظهور المتأخر للطريقة عن مثيلاتها إلا أن نجاحاتها في تأطير السكان بتحسين تسليكهم في الطريقة وإفهامهم مبادئ الإسلام وتربيتهم على قيمه الكريمة ومثله العالية، ثم في الوقوف بقوة أمام المد الاستعماري الكاسح الفرنسي من غربها والانجليزي من شرقها وجنوبها، وكذا في السير بالدعوة قدما بين الوثنيين في الأدغال الافريقية حتى دانت عديد القبائل بالاسلام دينا في الأعصر المتأخرة أي القرنين 19-20م

وهذا على الرغم من الوافد الاستعماري الذي تزاوج فيه المدفع بالصليب، والذي كانت أرتاله العسكرية تحوي في مؤخرتها وفود القس والرهبان والمبشرين، ورغم القوة العسكرية الكاسحة وكذا الطفرة الصناعية والمغريات الحضارية إلا أن روح الاسلام وصدق كلمات الله كانت أقوى من تلك المخططات. فانسابت الدعوة الاسلامية انسيابا غريبا بين جموع الوثنيين[1]، ولم يكن هناك قوة أو سيف مصلت، وإنما صبر ومصابرة ومرابطة الدعاة المسلمين والعلماء والمتصوفة والتجار الصادقين. وقد تنوع هذا الحضور التجاني الجزائري إلى وجهتين:

## الحضور العلمي التربوي

وذلك بإنشاء الزوايا والمساجد والرباطات والمعاهد العلمية والمدارس القرآنية في مختلف الأرجاء الافريقية في السينغال ومالي والنيجر وتشاد

(1) – أرنولد توماس:الدعوة إلى الإسلام. ص370.

ودارفور وساحل العاج وفولتا العليا، وقد بلغت نسب الحضور التيجاني أوجها في هاته البلدان التي تزاوج فيها الاسلام بالتجانية[1].

وبرز لدينا علماء ودعاة كثير وشعراء عديدون ساروا بالدعوة الاسلامية قدما، وأثروا الحياة العلمية ووقفوا سدا منيعا ضد التبشير النصراني القادم من الغزو الاستعماري، بل إنه ليس من المجازفة القول بأن بقاء الإسلام حيا في افريقيا إنما كان بجهود هؤلاء المتصوفة، من أمثال هولاء آل أنياس الشيخ إبراهيم شيخ الإسلام (ت1975م) الذي أسس عديد المعاهد الإسلامية التي يتزاوج فيها التعليم الديني بالمدني، والذي اشتغل بدحر افتراءات المبشرين في مثل كتابه «الرد على المطران لفيفري في هجائه للإسلام»[2]. وكذا أخيه الحاج محمد بن عبد الله (1881–1959م) الشاعر المشهور الذي خلف ديوان مرآة الصفا في مدح النبي. وكذلك الحاج عباس صل الشاعر الذي مدح النبي بأزيد من ثلاثة آلاف بيت شعري.وكذلك الحاج مالك سي(ت1922م)، وغيرهم من العلماء الذين خدموا الدعوة الإسلامية في القارة الإفريقية المنسية.

والشاهد على ذلك ما قاله مؤلف حاضر العالم الاسلامي: «ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهل ماسينة في السودان وأهالي فوتاتور وفوتاجالون وصروا من أشد أنصار الإسلام، وانظموا تحت راية الحاج عمر، فكانوا طيلة أربعين سنة هم سادة السودان من تنبكتو إلى الاقيانوس الأطلنطي»[3].

---

(1) –تبلغ نسب التجانيين في السنغال تسعين في المائة،وفي نيجريا 65/ النيجر 80/ ساحل العاج 70/ مالي80/ غينيا كوناكري 80.انظر طالب عبد الرحمان:الرحلة الإفريقية التجانية.

(2) –عبد الباقي مفتاح:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه ص252.

(3) –لوتروب ستودارد:حاضر العالم الإسلامي.ج2ص397.

## الحضور العسكري الجهادي

ويمكن التمثيل بهذا الحضور الجهادي بأنموذج لإمارات ودول مسلمة ولدت في حوض النيجر والسينغال، وخاضت حروبا عديدة ضد الوافد الاستعماري الفرنسي خاصة، وذيوله في إفريقيا الغربية.

وأبرز مثال على هذا الدولة الاسلامية التجانية التي أقام أركانها الشيخ عمر الفوتي المولود سنة (1213–1796) وهو أحد الأعلام البارزين للدعوة الاسلامية في العصر الحديث.حيث نال حظا من علوم اللغة والشريعة – في بلاده فوتاتور– واجتمع في رحلة الحج سنة(1826م)بالشيخ محمدالغالي( خليفة الشيخ التجاني في بلاد الحرمين) وصحبه ثلاث سنين ثم عاد إلى افريقيا شهابا واريا من الدين .وبحرا متفجرا من العلم. وقد وضع نصب عينيه إحياء للاسلام دينا ودولة في تلك الأصقاع المشتتة.

«فبناء على عقلانية الشيخ عمرالفوتي وواقعيته واستنارته ونظرا بأهمية الرسالة التي كان عليه تنفيذها تجاه شعوب المنطقة الذين كانوا يرزحون تحت وطأة الظلم والطغيان فسوف لن يتردد في توظيف سواعد أنصاره ومريديه لتحقيق هدفه القاضي بإعلان الجهاد ضد الفساد، لأن الحكام تجاوز المدى في البغي، وضد الوثنية التي لا تزال تحتفظ ببعض الجيوب بين نهري السينغال والنيجر، وضد المسيحية المثمتلة في الهجمة الاستعمارية الفرنسية.»[1]

ولاستجلاء عمل الشيخ عمر الفوتي التجاني فإنه يمكن أن نقسم جهوده إلى محورين:

**1 –المحور الفكري الدعوي**: وهو الذي نشط فيه قبل تأسيسه للدولة وانشائها، وفيه أبان عن عارضة قوية في المناحي الصوفية والتربوية، كما خاض

(1) –الازمي:الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي.ج2ص575.

في مجالات الخلاف الفقهي والصوفي المسلكي مع شيوخ القادرية في تلك النواحي، ومن أهم رسائله وكتبه السياسية والتربوية ما يأتي:

– رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم، وهو انتاج صوفي ضخم في مناصرة الطريقة وذكر شروطها وأركانها وآدابها التربوية وأذكارها وطرائق السلوك فيها.

– تذكرة المسترشدين في التوحيد.

– عاديات المذنبين في الدعوة والإصلاح والإرشاد.

– الأجوبة في الطريقة التيجانية.

– المقاصد السنية لكل موفق من الدعاة إلى الله من الراعي والرعية، وهو من المؤلفات المهمة في المقاصد التربوية وفقه الأولويات في تنزيل الأحكام الشرعية[1].

**2 – المحور الجهادي السياسي**: وهو المحور الذي تجسدت فيه السيرة العملية للمجاهد عمرالفوتي[2]. سيرة استعاد فيها دور المصلحين في المغرب الإسلامي من أمثال عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين، والمهدي بن تومرت مؤسس الموحدين، والأمير عبد القادر في الجزائر الحديثة.

ابتدأ عمل الفوتي تربويا صوفيا علميا في جذب الأنصار لمشروعه السياسي الباغي إقامة دولة اسلامية وسط هذا الجو الموار بمختلف الامارات والقبائل المتفرقة، وكذا الاستعمار المتربص في الموانئ الافريقية فكان عمله مقسما إلى مراحل أهمها:

---

(1) –المصدر نفسه ج2ص203.

(2) –الحافظ التجاني:الحاج عمر الفوتي سلطان الدولة التجانية لغرب إفريقيا.ص97.

-مرحلة الاستكشاف: وذلك بالاطلاع على الأوضاع السياسية في حوض النيجر والسينيغال، حيث زار إمارة «برنو» (شمال نيجيريا) سنة 1833 التي بقي بها ثلاث سنوات والتقى بالشيخ محمد الأمين الكانيمي، ثم زار إمارة سوكوتو وإقام عند سلطانها «محمد بيلو القادري»، ثم إمارة «ماسينا» التي لم يلق منها الترحيب[1]، وفي كل هذه الرحلات كان يلحظ مدى التدهور الذي وصلت إليه الحياة الاسلامية.

- **مرحلة الاعداد العملي**: وذلك بتأسيسه رباطا تربويا في منطقة دينكراي سنة 1849 حيث تجمع لديه العديد من الأنصار، في تجربة استعادت عمل مهدي المرابطين عبد الله بن ياسين، وشرع في بناء التحصينات والقلاع، والإعداد للمعركة. إلا أن ملك «طامبا» طلب منه تدمير تحصيناته رغم أنه كان يدفع له الضرائب اللازمة.

- **مرحلة الجهاد**: التي ابتدأت من إعلان ملك طامبا «يامبا سافو» الحرب على التجانيين سنة 1852، والتي كانت بدايتها انتصارات متوالية، كما أخضع إمارة «كارثا» إلا أن إمارة «ماسينا القادرية» أعاقته في كثير من أعماله.

وفي مفارقة جد غريبة في أن القادرية التي كانت مجاهدة في الجزائر صارت مهادنة، والتجانية المهادنة في الجزائر كانت مقاومة في الغرب الافريقي[2].

وعند اشتداد التغلغل الفرنسي في السينغال خلال أعوام 1857 – 1859 اضطر الحاج عمرالفوتي أن يوقف تقدمه غربا ويستكمل بناء دولته شرقا بفتح مدينة

(1) – يحي بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين. ص137.

(2) – سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي.ج، 4 ص195.

تنبكتوعام 1863 [1]، إلا أنه وفي غمار حروبه ضد إمارتي البامبارا والفولاني في سيقو اغتيل سنة 1865، بعدما خلف سلطنة إسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفتشيين[2].

ولم يستطع خلفاؤه وأبناؤه استكمال مشروعه تحت الضغط الفرنسي ونتائج مؤتمر برلين الثاني( 1884–1885 )والذي أطلق اليد الفرنسية في افريقيا الغربية.

فسقطت الدولة العمرية التجانية بوفاة ابنه أحمدو عام (1898 م) لتبدأ مرحلة الاستعمار الفرنسي الكامل والذي أطبق على افريقيا الغربية قرنا كاملا.

والشاهد فيما سبق أن الحضور التجاني العلمي والسياسي كان له الأثر البارز في إبقاء جذوة الإسلام والدعوة الإسلامية حية بالبلاد الإفريقية بما كان للتأثير الجزائري القديم والحديث من مختلف المعاهد والطرائق والزوايا.دور يحتاج إلى مزيد التنقيب والبحث والجهد من أجل ربط الجزائر بأعماقها في الصحراء وإفريقيا.

(1) – يحي بوعزيز:تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية ص138.

(2) – لوتروب ستودارد:حاضر العالم الإسلامي.2ص397.

## المصادر والمراجع


1 – أرنولد توماس:الدعوة إلى الإسلام(ت حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل البجاوي) ط3، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1971.

2 – الأزمي أحمد:الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي.ط1، المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2000.

3 – أكنسوس محمد بن أحمد:الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريقة الإمام التجاني بلا تثبت. سلسلة الكتاب التجاني، الجزائر، تغزوت، 1999.

4 – البخاري محمد ابن إسماعيل:الجامع الصحيح، (ت صدقي جميل العطار)، لبنان، دار الفكر، 2003.

5 – بوعزيز يحي:تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين.الجزائر، دار البصائر، 2007.

6 – التشيتي عبيدة بن أنبوجة:ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التجانية. ط1،، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008

7 –التنبكتي:كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج( ت علي عمر).ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2004.

8 –الجزائري عمر بن قدور:الإبداء والإعادة في مسلك سائق السعادة.(ت محمد عبد الحليم بيشي)، ط1، الجزائر، دار البصائر، 2011.

9 –الحضيكي:الرحلة الحجازية(ت عبد العالي لمدبر)، ط1، الرباط، الرابطة المحمدية للعلماء، نشر مركز الدراسات والأبحاث وإحياء الثراث، 2011.

10 –الحفناوي أبو القاسم:تعريف الخلف برجال السلف.الجزائر، موفم للنشر، 1991.

11 – الدرعي أحمد بن ناصر:الرحلة الناصرية(1709–1710م)(ت عبد الحفيظ ملوكي)ط1، أبو ظبي، دار السويدي، 2011.

12 – الراشدي أحمد بن سحنون:الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني(ت المهدي بوعبدلي)، قسنطينة، مطبعة البعث، 1973.

13 –أبو راس المعسكري:عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ط1، (ت محمد غانم)وهران، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية.2008.

14 – زبادية عبد القادر:الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1998.

15 –الزهار أحمد الشريف:مذكرات نقيب الأشراف 1754–1830.(ت أحمد توفيق المدني)ط2، الجزائر، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع.1980.

16 – الزياني محمد بن يوسف:دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران.(ت المهدي بوعبدلي)الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1978.

17 – سعد الله أبو القاسم:أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر.ط3،، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990

18 – سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي.ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.

19 – سعيدوني ناصر الدين :ورقات جزائرية.، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.

20 – السفياني الطيب:الإفادة الاحمدية، لمريد السعادة الأبدية(ت محمد الحافظ التجاني)ط، صر، 1389هـ.

21 –سكيرج العياشي: كشف الحجاب عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب.بيروت، المكتبة الشعبية، 2002.

22 –سكيرج العياشي:طرق المنفعة بالأجوبة عن الأسئلة الأربعة.سلسلة الكتاب التجاني، الجزائر، تغزوت، 1999.

23 – السلاوي:الاستقصاء الأخبار دول المغرب الأقصى.ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 2010

24 – السيد فؤاد صالح:الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

25 – السوسي النظيفي: الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة.ط1، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 2005.

26 – طالب عبد الرحمان:الشيخ سيدي أحمد التجاني ومنهجياته في التفسير والفتوى والتربية. وهران، 2004.

27 – العياشي:ماء الموائد – الرحلة العياشية للبقاع الحجازية(ت أحمد فريد المزيدي)، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2011.

28 – كحالةعمر رضا:معجم المؤلفين، ط1، بيروت، دار الرسالة، 1993.

29 – لوتروب ستودارد:حاضر العالم الإسلامي(ت عجاج نويهض)بيروت، دار الفكر.

30 – مخلوف محمد :شجرة النور الزكية في طبقات المالكية.بيروت، دار الفكر – د، ت.

31 – المدني أحمد توفيق:محمد عثمان باشا داي الجزائر(1766–1791) الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

32 – ابن مريم التلمساني المديوني:البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان.(ت محمد بن أبي شنب)الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985.

33 – المزاري الأغا بن عودة:طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا(ت يحي بوعزيز)، ط1 بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

34 – مسعود عمر محمد علي :تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، ط1، طرابلس، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 2003.

35 –مسلم بن الحجاج النيسابوري:صحيح مسلم (ت جميل العطار)ط1، لبنان، دار الفكر، 2000

36 –مفتاح عبد الباقي:أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه.ط1،، بيروت، دار الكتب العلمية، 2008.

37 –مناشو محمد: رسالة فتح الأبصار على مواقع عثار صاحب المنار.تونس، المكتبة التجانية.

38 – المهدي بوعبدلي وناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ج4، .الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

39 –الميلي مبارك:تاريخ الجزائر في القديم والحديث.الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية.1964.

40 – نويهض عادل:معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر.ط2، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، 1980.

41 – ابن هطال:رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري(ت محمد بن عبد الكريم الجزائري)، القاهرة، .1969

42 –.(أعمال الماتقى الدولي الثاني للطريقة التجانية) الخطاب الصوفي زمن العولمة.قمار الوادي، 2008.

# دور علماء صحراء الجزائر وطرقهم الصوفية في نشر الإسلام وثقافة السلم في غرب إفريقيا، الطريقة التيجانية في النيجر نموذجا

**الدكتور نورالدين بوكرديد، أستاذ بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة**

## مقدمـــة

لقد قام علماء الصحراء الجزائرية بدور الإصلاح والدعوة والتربية والتعليم في غرب إفريقيا، كما قاموا بدور آخر وهو رعايةُ الإسلام في تلك الديار بحكم القرب والجِوار وحماية ظهره والدفاع عن وجوده والعمل على إرساخ جذوره وتثبيت دعائمه وتصحيح مسيرته باستمرار. كما قاموا بنسج روابط حضارية وفكرية بين الحواضر العلمية الجزائرية وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء كالعلامة المغيلي مثلا، مما سمح على مر العصور بتعزيز التلاقح الفكري، وبث حركية حضارية أدت إلى نشأة العديد من المدن، وتطوير خطوط التجارة، وازدهار النشاط الاقتصادي. ولذلك فإن الحضور الصحراوي وتأثيره القوي كانا واضحين عبر التاريخ. **فأين تجلىَّ هذا الحضور والتأثير؟ وما دور الحركات الصوفية الصحراوية الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا ؟**

## المبحث الأول : ملامح ومعالم تأثير علماء صحراء الجزائر في غرب إفريقيا

**أ-الحضور الدائم والتأثير القوي لعلماء الصحراء الجزائرية يتجلى في الطابع المذهبي للإسلام** الذي انتشر في أفريقيا الغربية وظل قائماً على حاله

إلى يوم الناس هذا. فالإسلامُ في هذه المنطقة إسلامٌ سُنِّيٌّ على مذهب الإمام مالك رحمه الله المشهور بوسَطيَّته واعتداله، وعلى العقيدة التوحيدية السَّلفية إلى عصر المرابطين والعقيدة الأشعرية ابتداءً من عصر الموحِّدين. وكان للمرابطين وفقهائهم ودُعاتهم من علماء الصحراء دورٌ أساسيٌّ في تثبيت هذا المذهب السُّنّي وعقيدة التوحيد الصافية في نفوس الأفارقة. والعلماءُ والفقهاءُ الذي توافدوا على المنطقة من الشمال الإفريقي بعد ذلك وعلى مرّ العصور، كانوا جميعاً من أصحاب هذا المذهب وهذه العقيدة، وحتى الفرقُ والمذاهبُ الصوفية التي انتشرت هنالك كانت فرقاً سُنية مُعتدلة كالقادرية والتيجانية. ومناهجُ التعليم التي وُضِعت وطُبِّقت عبر المراحل التاريخية المختلفة كانت تقوم على أساس كتُب الفقه المالكي بأُصوله وفروعه وشروحه وحواشيه. وكلُّ العلماء الذين برَّزوا واشتهروا في السودان الغربي كانوا من فقهاء المالكية وعلمائها بلا استثناء. لذلك نجد أسماءهم تملأ كتبَ طبقات المالكية «**كالديباج**» لابن فرحون، و«**نيل الابتهاج وكفاية المحتاج**» للتُّنبكتي، و«**شجرة النور**» لابن مَخلوف، وغيرها[1].

**ب- مناهج التعليم ومصادره ومراجعه.** فهي في أغلبها صحراوية جزائرية مغاربية روحاً وجَسَداً. والمنهجُ الصحراوي الجزائري في التعليم يبرزُ منذ الدخول إلى الكُتّاب والبدء في حفظ القرآن برواية ورش، إلى تعلُّم الكتابة بالخط المغربي المعروف والمتميِّز بشكله ورسمه ونُقَطه وترتيب حروفه، إلى حفظ المتون الفقهية واللغوية والأدبية، ثم مرحلة التبحُّر في مختلف العلوم باستخدام المصادر والمراجع الصحراوية الجزائرية والمغربية والأندلسية في

(1) انظر : د. عبد العلي الودغيري .دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن بالغرب الإفريقي، ص2.

غالب الأحيان، باستثناء بعض المصادر السُنية المشرقية (المالكية وغيرها) كان المغاربةُ أنفُسُهم يعتمدونها ويرجعون إليها «**كمختصر**» خليل وشروحه وكتب السيوطي وابن حجر... وغيرها[1].

**ج- الطُّرُق الصوفية التي انتشرت بأفريقيا الغربية: فكلُّها طرُقٌ جزائرية كالقادرية والتيجانية.** أما القادرية فهي وإن كان منشأُها مشرقياً (نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني)؛ إلا أنها تَكيَّفت واصطبغت بالصبغة الصحراوية الجزائرية منذ أن دخلت إلى الجزائر في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) - فيما قيل - **على يد الشيخ أبي مدين شُعيب الغَوث دفين تلمسان بالجزائر،** وأخذت بعضُ فروعها أسماء جزائرية. **وكان الذين نشروها في السودان الغربي هم الشيوخُ الكُنتيّون الذين أقامت أُسرتُهم فترة بمنطقة توات،** ثم تعمَّقوا في قلب الصحراء ومناطق من السودان الغربي، **ومنهم أحمد البَكاء وابنُه الشيخ عمر** الذي أصبح - **كما يقول بول مارتي : «الرئيس الأعلى للطريقة»** وأطلق اسم أبيه على فرع القادرية الذي هو مؤسِّسُه، ويقصد الطريقة البكائية التي نشأت في زاويتهم بتوات. وفي عهد الشيخ المختار بن أحمد الكنتي المعروف بالكُنتي الكبير (ت. 1811 هـ) أُحدِثَ في أزواد فرعٌ آخر جديد للطريقة القادرية سُمِّي بالطريقة المُختارية نسبة إلى الشيخ المختار، على أن الشيخ عمر نفسه أخذ الطريقة عن الداعية الكبير أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي اعتبره بول مارتي أيضاً «الرئيس الأعلى للطريقة القادرية في الغرب الإفريقي» كله. **وكان الشيخ عثمان بن فودي نفسه قادريَّ الطريقة، وقد أوصل سلسلةَ سنده**

(1) انظر : مجلة التاريخ العربي، ع 11، بعنوان: «ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية» للشيخ عثمان بن فودي؛ وانظر أيضاً: رسالة في التعريف بالمصطفى التورودي للشيخ عبد الله بن القاضي محمد الحاج، تحقيق عبد العلي الودغيري، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، (2003 م).

**في هذه الطريقة بالشيخ المغيلي**. ولا شكَّ أن تأثير الطرق الصوفية الجزائرية في هذه المنطقة تأثير قويٌّ جداً ما يزال فاعلاً وحاضراً في كافة الطبقات والشرائح الاجتماعية على اختلافها، ولا شكَّ أيضاً في أنها قامت بأدوار وأدَّت خدماتٍ جليلةً بإسهامها الكبير في نشر الدين والثقافة والتعليم العربيَّين الإسلاميَّين، من جهة، وبصمود رجالها في وجه الغزو الاستعماري والثقافي في العصر الحديث من جهة أخرى[1].

**د – دور علماء الصحراء الجزائرية وفقهائها ودُعاتها** : سواءٌ منهم الذين كان تأثيرُهم مباشراً بحضورهم في أرض السودان أو الحضورِ إليهم في أرض الصحراء، أم غيرَ مُباشِر بواسطة كتُبهم ومؤلفاتهم التي انتشرت واشتهرت في أفريقيا الغربية، وأصبحت تمثِّل المصادرَ والمراجع المعوَّل عليها والمتونَ التي لا بد من حفظها واستظهارها والاستشهاد بأقوالها ونصوصها.

**وكان لعلماء توات – وخاصة أسرة الكُنتيّين – حظوةٌ خاصة عند ملوك بُرنو الإسلامية** ويعتبرونهم من المرابطين وينظرون إليهم نظرة إكبار وتعظيم، ويسعون لاستقدامهم إليهم وإغرائهم بالإقامة بينهم. وقد احتفظت لنا بعضُ المصادر بنصّ رسالة وجَّهها أحدُ سلاطين برنو سنة 843 هـ إلى هؤلاء المرابطين في منطقة توات يقول فيها :« فقد عجبنا من أمركم لماذا تركتم عادة كبرائكم؟ لماذا قصَّرتم عن النزول وإرسال البعثات إلى بلادنا منذ عهدكم مع كبيرنا.... فأنتم لم تعودوا إلينا منذ ذلك الحين... فعليكم أن تأتوا إذن كعادتكم... لأن البلاد بلادكم كما كانت بلاد أسلافكم..» [2].

---

(1) انظر المراجع السابقة نقلا عن : د. عبد العلي الودغيري، دور المغرب في نشر الإسلام ولغة القرآن بالغرب الإفريقي، ص4.

(2) انظر النص منقولاً في: الدكتور مهدي رزق الله أحمد، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي غربي إفريقيا،، ص: 719 ط. الرياض، 1998 م.

ومن أشهر مشاهير العلماء الذين قدموا من توات، فزاروا المنطقة وأقاموا فيها واحتفظت لنا كتبُ التاريخ بأسمائهم: نذكر في مقدمتهم **أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي (909 هـ)** صاحب التصانيف والرسائل والأجوبة المعروفة. **كانت له حظوةٌ كبيرة عند ملوك كانُو وكاتشينا ببلاد الهوسا، وملك السُنغاي أسكيا الحاج. كما كانت له اليدُ الطُّولى في رسم خطوط السياسة الشرعية لهذه الإمارات وتعيين القضاة وإقامة الحُدود الشرعية، وإصلاح أمور المجتمع الدينية والدنيوية والتعليمية والثقافية، وتكوين الأئمة والمُرشدين والفقهاء والدعاة، وتقديم المشورة والنّصح للحكّام وذوي الأمر الذين كانوا ينزلون عند رأيه وأحكامه ومشورته** ولا يُمضون شيئاً ذا بال إلا بموافقته. وقد ترك المغيلي مجموعة فتاوى ورسائل فيها تحديدٌ وتوجيه لمعالم الطريق التي ينبغي أن يسلكها الحُكام في سائر أمورهم، فصار له شأن كبيرٌ عندهم، واستمرَّ تأثيره أجيالاً من بعده حتى وجدنا خلفاء الدولة العُثمانية الفوديوية بعد حوالي ثلاثة قرون يعتبرون كتبَه ورسائله وفتاواه المِشكاةَ التي بها يستنيرون، والمَعلَمَ الذي به يهتدون، فلا يفترون عن ذكره والاحتجاج بأقواله وأرائه في كل ما تركوه من أعمال ومصنَّفات. ويندر جداً أن تجد كتاباً من كتب تاريخ السودان الغربي قديماً أوحديثاً، خالياً من ذكر المغيلي ومآثره. ولم يكن المغيلي وحده صاحب الشأن والتأثير، فقد جاء آخرون أيضاً وكان لهم دورٌ كبير في الحياة العلمية والثقافية بكانو وكانشينا، **منهم الفقيه البلبالي (مخلوف بن علي بن صالح) (ت. بعد 949 هـ)، وعبد الرحمان سُقَّين (ت. 956 هـ) تلميذ ابن غازي وغيرهما. وما هؤلاء الذين ذكرناهم سوى عيِّنة ممن احتفظ التاريخُ بأسمائهم، من العلماء والفقهاء الذين وفدوا إلى إفريقيا وتركوا فيها بعض آثارهم وبصماتهم**[1]. مع العلم أن كتابة تاريخ العلم والعلماء في المنطقة لم تبدأ في الظهور إلا مع أوائل القرن العاشر الهجري، أي مع ظهور كتاب كعت المسمى «**تاريخ الفتاش**» الذي

(1) أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، ص: 223.

بدأ صاحبُه في كتابته سنة 925 هـ، وما تبعه من مؤلفات أخرى ككتابَي أحمد بابا التنبكتي «**النَّيل والكفاية**»، وتاريخ السعدي المعروف «**بتاريخ السودان**»، ثم «**تذكرة النسيان**»، وما تبعها من بقية الكتب الأخرى؛ أما قبل ذلك فلم تكن لدينا وثائق أو فهارس بها أسماء العلماء. ولذلك لا غرابة أن تضيع أسماءُ الكثير من العلماء والفقهاء الصحراويين الذين أسهموا في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية وبناء النهضة العلمية طيلة القرون التسعة الأولى، إلا ما جاء عَرضاً على لسان بعض الرَّحالة والمؤرخين والجغرافيّين ممن دخلوا المنطقة (كابن بطوطة وابن الوزّان) أو وصفوها من بعيد كالبكري والعُمَري والإدريسي والمقريزي وابن خلدون وسواهم[1].

**هـ – العنصر البشري الطارئ على العناصر السُّكانية المحلّية : فقد كان سكانُ السودان الغربي يتكوَّنون أساساً من عنصر زِنجي إفريقي قديم وهو الغالب، وعنصر بربري قادم من الصحراء في فترات سابقة للإسلام** وهو يمثل أقلية من البيضان. ولكنه بعد دخول الإسلام أصبح العنصر البربري الصحراوي القادم من الشمال يتقَّوى جيلاً بعد جيل، ولا سيما في العصر المرابطي وما بعده. **وليس التوارقُ المنتشرون في عدد من دول جنوب الصحراء (وخاصة في مالي والنيجر وتشاد وبوركينا فاسو..) إلا من هؤلاء الملثَّمين القدامى، وهم خليطٌ من البربر والعرب المُتبربرين. ولقد كان لهم دور كبير في تأسيس دول وممالك في مالي وغيرها. على أن العنصر الزِّنجي نفسه كثيراً ما وجدنا قبائل منه تحاول ربط نسبها بالعرب (من أبناء عقبة أو عرب اليمن الحِميريّين أو ترفع نسبها إلى علي بن أبي طالب)**[2].

---

(1) المرجع نفسه، ص225.

(2) راجع كتاب الدكتور عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية غرب إفريقية، ص. 101؛ وكتاب أسكيا الحاج محمد، للدكتور منصور فاي، ص. 173.

## المبحث الثاني : دور الحركات الصوفية في نشر الإسلام وثقافته في النيجر ،الطريقة التجانية نموذجا

الهدف من هذا المبحث تسليط الضوء على الدور البارز الذي لعبته الطريقة التجانية الجزائرية في نشر الإسلام وثقافته في المجتمع النيجري المعاصر.

### المطلب الأول: العلاقة بين الحركات الصوفية في صحراء الجزائر وانتشار الإسلام في غرب أفريقيا

إن لكل من الطريقة القادرية والطريقة التيجانية دور كبير في نشر الإسلام وثقافته في الزوايا والكتاتيب القرآنية وحلقات الذكر التي تقام عقب الصلوات الخمس وفي أيام محددة مشهورة بين مريدي الطرق الصوفية التي تكون خاصة في يوم الجمعة، وفي بعض المناسبات الخاصة التي تستقطب العديد من المريدين الجدد إليها ولزواياها المتواجدة والمترامية في إقليمي توات والأزواد سواء للتعليم أو الإطعام من جهة أو تنظيم حياة الناس من جهة أخرى، ولا ننسى ركب الحج في الأماكن التي يتجمع بها زوار بيت الله الحرام بالأزواد ثم توات والمدة الزمنية التي كان يستغرقها الركب والتي تدوم في الغالب سنة، وقد بذل علماء كنتة جهوداً في نشر الطريقة البكائية على نطاق واسع بإقليم الأزواد وحوض نهر النيجر فقد ألف الشـيخ المختار الكبير أكثر من ثلاث مئة رسالة عن الإسلام والمسلمين بالأزواد وغرب إفريقيا وصارت مبادئه التي حملها طلابه من أبرز الأسباب التي أسهمت في انتـشار الإسلام بين الشعوب الإفريقية في حوض نهر النيجر وغرب إفريقيا[1].

(1) محمد حوتية، الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا خلال القرنين 18 و19هـ، ص2، الملتقى 11 حول التصوف الإسلامي والتحديات المعاصرة، الذي تم تنظيمه أيام 09-11 نوفمبر 2008 بجامعة أدرار، الموقع الإلكتروني للأبيض سيدي الشيخ.

إن انتشار الإسلام في السنغال، ومالي، والنيجر، وغينيا، وغانا، ونيجيريا، وتشاد.. إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية التي كانت متواجدة في صحراء الجزائر.. فكانت الزوايا والتي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الأفريقية وقلبها[1]. ومرد هذا خصوصا إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد، وعيشهم بين العامة والفقراء، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى[2]. وعلى العموم، فقد ثبت تاريخيا أن التجار المتنقلين «جُولا» قاموا بنشر العقيدة الإسلامية أثناء أسفارهم وتجوالهم، لكن الدور الأول يرجع في ذلك إلى شيوخ (صوفية) أفارقة وعرب وبربر الصحراء أبلوا البلاء الحسن في هذا المجال[3]. فقد عم الإسلام في المنطقة – غربي أفريقيا- بفضل شجاعة وتفاني هؤلاء الرجال المتواضعون من الشيوخ المخلصين.. الذين كانوا يسلكون أوعر المسالك»[4]. وخلاصة القول إن انتشار الإسلام وثقافته في غرب أفريقيا قد بدأ، في الأوساط الصوفية، منذ الفتوحات التي قادها الشيخ الحاج عمر الفوتي، ولا زالت جهود العلماء (الصوفية) مستمرة لنشر تعاليم الدين الحق كجهود عائلة نياس في

(1) عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي،، ص: 25، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975 (15)، عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة كتاب الأمة (12)، الدوحة، 1986، ص: 63.

(2) لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة، يمكن الرجوع إلى قنسان مونتي في كتابه الشهير: الإسلام الأسود (بالفرنسية) والذي صدرت ترجمته إلى العربية بعنوان: الإسلام في إفريقيا السوداء.

(3) سي السعيد، الانتشار العالمي للطريقة التجانية وثمرة جهودها في التربية الروحية والاجتماعية، ص: 13، أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006م

(4) د. زكريا الرباني، ص4 ،دور الحركات الصوفية في نشر الإسلام وثقافته في النيجر المعاصر، من أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006

السنغال التي تخطو خطى المربي بحق الشيخ إبراهيم نياس الذي جاب العالم غربا وشرقا طالبا العلم وناشرا له، وترك مؤلفات عديدة ومريدين يعدون بالملايين، وغيرها من العائلات الكريمة الأخرى في بقية الأقطار الأفريقية الأخرى[1].

## المطلب الثاني : التعريف بالطريقة التيجانية وكيفية انتشارها بغرب إفريقيا

احتلت الطريقة التيجانية المكانة المرموقة في الوسط التواتي والأزوادي وهذا ما يتوجب التعريف بها لكونها من الطرق الصوفية المنتشرة في غرب إفريقيا، وتنسب إلى الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن مختار التيجاني الذي ولد في قرية عين ماضي بالأغواط، جنوب الجزائر عام 1717م وتوفي سنة 1815م، ومن مؤلفاته : الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلاهية من فيض الحاضرة الأحمدية التيجانية، وهي بمثابة شرح للقصيدة الهمزية وياقوتة الحقائق والتعريف بسيرة الخلائق.ويمارس التيجانيون أوراد الطريقة بشكل هادئ ولا يغنون بالغناء أثناء المديح، بل يجلسون في دائرة وينشدون الأذكار في كل جمعة بعد العصر[2].

ولقد عرفت التيجانية انتشاراً واسعاً بفضل بعض القوافل التجارية التي اتخذها التيجاني وأتباعه وسيلة لنشر طريقتهم، فكانت قوافلهم التي تجوب الصحاري من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب مروراً بتوات إلى

(1) د. زكريا الرباني، ص4 ،دور الحركات الصوفية في نشر الإسلام وثقافته في النيجر المعاصر، من أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006

(2) سي السعيد، الانتشار العالمي للطريقة التجانية وثمرة جهودها في التربية الروحية والاجتماعية، في أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006، ص: 16.

تمبكتو وأغاديس بالنيجر ومنها إلى السينغال ذهاباً وإياباً تحمل البضائع، وفي الوقت نفسه تُثبِّت الدعوة بين سكان تلك المناطق وتنظم أمور المريدين وتُسهل عليهم إمكانية الدخول في الطريقة وأداء تعاليمها، بما كان يوفره الشيخ التيجاني وأتباعه من شروط روحية ومادية أمينة تستقطب الجماهير الإفريقية نحو دعوتها وتزكيتها، وكان للشيخ الحاج عمر الفوتي التكروري المتوفى سنة 1864م الدور البارز في نشر الطريفة التيجانية بغرب إفريقيا بشكل بارز من خلال ما خلفه من مؤلفات كثيرة ومن أهمها : « رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرحيم» ويعتبره التيجانيون في غرب إفريقيا المرجع الأساسي لهم[1].

## المطلب الثالث :دور الطـريقـة التجـانية في نشر الإسلام وثقافته وترسيخ الوحدة ونشر قيم السلم في النيجر

حاول شيوخ الطريقة التجانية منذ البداية، واستمروا على الدوام، أن يعملوا من أجل تعريف الناس بعقيدة الإسلام وقيمه الأخلاقية، ونشر ثقافة الإسلام، التي هي ثقافة التسامح والحوار والسلام، بين المواطنين النيجريين لجذب أكبر عدد منهم لاتجاه التصوف الإسلامي وجعلهم من أتباع ومريدي الطريقة التجانية، خاصة وأن الفكر التجاني كان ولا يزال يجد دائما تجاوبا من كثير من النيجريين الذين تستميلهم الأفكار الروحية وتستهويهم حياة التقشف والتقوى والورع. ولذا كانت الطريقة التجانية في النيجر من أقوى الحركات الصوفية التي استطاعت أن تسحر العقل النيجري دون أن تثير خلافات حول الطقوس والشعائر والفرائض طالما أنها لا تدعو إلاّ إلى حياة روحية لا يكاد يختلف

(1) إدريس بن جوبا ،واقع الطرق الصوفية بإقليم توات بين المرجعية المعرفية والممارسة العملية، ص 4، الملتقى 11 حول التصوف الإسلامي والتحديات المعاصرة، الذي تم تنظيمه أيام 09-11 نوفمبر 2008 بجامعة أدرار، الموقع الإلكتروني للأبيض سيدي الشيخ.

فيها التجاني عن القادري، حتى تمكنت هذه الحركة الصوفية في النهاية من أن تكسب أرضا شعبية ضمت عامة الناس وخاصتهم[1]، **ولقد أسهمت الطريقة التيجانية في النيجر وأتباعها في المحافظة على الوحدة الوطنية للتراب النجيري من جهة حيث أصبح المسلم الهاوساتي والزرماتي والفولاني والطارقي والعربي في النيجر يشكلون لحمة واحدة، ومن جهة أخرى أدت دورا كبيراً في المحافظة على علاقات حسن الجوار مع الجار الجزائر، ولا يخفى دور مريدي الطريقة من النيجر في مساعدة ثورة تحرير الجزائر المباركة ونيل استقلالها، وكذلك دورها في تحسين العلاقات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية بين الشعبين الجزائري والنجري إلى اليوم.**

ولقد سبق أن ترددتْ على النيجر المعاصر وفود متتالية من علماء الطريقة التجانية وتركت زياراتهم آثارا روحية عميقة نجحت في تأسيس مدرسة صوفية انخرط في سلكها أتباع ومريدون كثيرون. فكان من أبرز مشايخ الطريقة التجانية الذين طابت لهم الحياة في النيجر ودعموا الفكر التجاني فيه: شيخ الإسلام الحاج إبراهيم نياس الكولخي (1900–1975) مؤلف كتاب: «كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العباس» باللغة العربية في النصف الأول من القرن الماضي.. وهو يعد من أشمل الكتب التي تعرض دراسات وافية لمختلف المذاهب الصوفية وشتى طرقها وعامة أحوالها، مع التركيز بطبيعة الحال على تجربة الشيخ أحمد التجاني (1717–1815)[2].

(1) د. زكريا الرباني، ص4، دور الحركات الصوفية في نشر الإسلام وثقافته في النيجر المعاصر، من أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، **2006م** عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة كتاب الأمة

(2) سي السعيد، الانتشار العالمي للطريقة التجانية وثمرة جهودها في التربية الروحية والاجتماعية، ص: 13، من أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006م

ويعد فضيلة الشيخ الحاج إبراهيم نياس الكولخي، كما سبق الذكر، من العوامل الرئيسية التي أذاعت الأفكار الصوفية والطريقة التجانية بين عامة الناس من النيجريين، وخاصة الفقهاء منهم، الذين سرعان ما أدركوا ذلك التقارب الشديد بين متصوفة الطريقة التجانية المجاهدة والطرق الصوفية الأخرى في قهر الشهوات وترويض النفس والضبط الروحي وإعداد الروح للتأمل الذي لا تعكره نزوة ولا تصرفه عن الحقيقة رغبة.هذا، وقد تمكنت الطريقة التجانية، من خلال عدد من الآليات، أن تنشر الدعوة الإسلامية، وأن تجعلها مقبولة لدى الجميع بدون غزوة ولا سلاح، فهي التي حملت نورها إلى المدن والقرى، وشيوخ التجانية هم الذين صمدوا في وجه التيارات الإلحادية والانحلالية، وهم الذين وقفوا حصنا منيعا شامخا ضد الاستعمار والغزو الثقافي.

كما تعتبر حلقات التعليم القرآني والشرعي من أنجح الطرق وأفضلها التي اعتمدتها التجانية في نشر الإسلام، بل لا تزال هي الطريقة الأكثر فائدة لنشر الثقافة الإسلامية، حيث أن الشيخ الفقيه يتصل بتلاميذه مباشرة في حلقات التعليم القرآني تلاوة وحفظا. وقد انتشرت المجالس العلمية كذلك بفضل هذا الأسلوب الميسر، وفي حالات كثيرة يستعين الشيخ الفقيه بكبار تلاميذه على صغارهم، وبهذا تتسع طاقة المجالس. وبالإضافة إلى تعليم القرآن الكريم، هناك دروس الفقه والسيرة والتفسير والحديث واللغة في المساجد الجامعة، وإن كانت العناية بهذه العلوم أقل من الاعتناء بالقرآن الكريم، وذلك أمر طبيعي في مثل تلك البيئات[1].

(1) عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975، ص: 25.و عبد القادر سيلا، المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة كتاب الأمة (12)، الدوحة، 1986، ص: 63.

**كما أن لأتباع الطريقة التجانية في النيجر عناية خاصة بتحقيق التآخي والتكافل بين أفراد المجتمع النيجري المسلم، فليس تجانيا على الحقيقة من يرى نفسه أعلى من بني جنسه، بل من لوازم النظرة التجانية أن المسلمين إخوة يجب عليهم أن يتعاونوا، لأن الأخوة بين الأفراد المقبلين على الله تعالى وتبادل التآزر والتناصح والتضامن فينا بينهم دافع مهم في ابتغاء القرب من الله جل شأنه. وقد أثر هذا الفهم السامي لمعنى الأخوة في علاقة التجانيين بغيرهم من المواطنين النيجريين مما يجعلهم محل تقدير وثناء واقتداء**[1].

كما تقوم التجانية بقيادة المجتمع النيجري المسلم نحو القيم الراقية وتحي فيه المفاهيم الأخلاقية العالية، وتعمل على نشر الثقافة الإسلامية السمحة في كل الأوساط الاجتماعية، كما أنها تستنهض همم المسلمين للمحافظة على دينهم الحنيف، وتسعى جاهدة إلى نشره مما أدى إلى دخول أتباع جدد في دين الله أفواجا عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وذلك تمثلا بقوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون من المنكر وتؤمنون بالله**﴾[2]. وعلى ضوء ما سبق، **تدعو التجانية إلى ضرورة استئصال الشر والفساد، وتغيير الفرد والمجتمع، وتنمية حركة الخير والإصلاح فيه. فرسالة الطريقة التجانية رسالة مغيرة تستهدف استئصال الوجود الجاهلي، وحذف كل أشكال الفساد والانحراف من حياة الفرد والمجتمع تمهيدا لبناء الإنسان بناء فكريا وروحيا وسلوكيا، وتنظيم المجتمع تنظيما قانونيا وأخلاقيا وروحيا متماسكا**[3].

---

(1) د. زكريا الرباني، ص4، دور الحركات الصوفية في نشر الإسلام وثقافته في النيجر المعاصر، من أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006م

(2) سورة آل عمران، الآية 10.

(3) د. زكريا الرباني، دور الحركات الصوفية في نشر الإسلام وثقافته في النيجر المعاصر،، ص6، من أعمال الملتقى الدولي للإخوان التجانيين، الأغواط (الجزائر)، 2006م

كما اهتم التيجانيون في العصر الحديث بإقامة المشاريع التعليمية والثقافية ودعمها، والتعريف بقيم الإسلام العليا السمحة بالوسائل التربوية الحديثة، المرئية والمسموعة والمقروءة، بعيدا عن التدخل في الشؤون السياسية. وهذا الأمر في الحقيقة أعطاها مرونة واسعة في التحرك والانتشار. وتعكس الإنجازات التي حققتها التجانية في هذا الجانب مدى الاهتمام الذي توليه للمشروعات الثقافية الإسلامية سواء داخل المدن أو في القرى. فقد بنى شيوخ الزوايا التجانية عشرات المدارس والمعاهد والمراكز الإسلامية وكفلوا المئات من طلبة العلم ودعموا الخلاوي القرآنية بالمال والمصاحف، ووزعوا أطنانا من المواد الغذائية على هذه المدارس القرآنية. وأنشأ أيضا بعض الشيوخ الوقفيات التي تخدم الأمور الثقافية والتعليمية والدعوية. وفي هذا الإطار أيضا تمثل الأعياد والمناسبات الإسلامية، التي يهتم الشيوخ التجانيون بإحيائها كل اهتمام، وسيلة خيرة من وسائل ترسيخ الجانب الأخلاقي والثقافي في نفوس الأتباع والمريدين[1].

(1) المرجع نفسه ص7

## الخاتـــمة

لقد توصلتُ من خلال هذا البحث إلى النتائج الآتية :

1 – لقد كان لعلماء الجزائر عموماً كالشيخ المغيلي مثلاً وعلماء الصحراء خصوصاً كالكنتيين دوراً كبير في إرساء العلاقات العلمية بين الحواضر الإسلامية، « تلمسان، بجاية، الجزائر، توات وبسكرة» من جهة و« غاو، تمبكتوا، كانو، أغاديس بالسودان الغربي» من جهة أخرى وكانت لهم بصمات في إرساء العلاقات الفكرية فيها، وتتجلّى هذه البصمات وتكمن في كثير من المعالم والمآثر التي تؤرخ لهؤلاء العلماء في مسيرتهم العلمية والتعليمية والإصلاحية الطويلة، التي خاضوها في إفريقيا جنوب الصحراء وبقيت شاهدة على ما بذلوه من جهد وجهاد في نشر الإسلام والغة العربية وقيم السلم والوحدة وكذلك في محاربتهم للجهل، وتغيير للمنكر والذود عن شريعة الإسلام مما أسهم في تعزيز التلاقح الفكري، وبث حركية حضارية أدت إلى نشأة العديد من المدن، وتطوير خطوط التجارة، وازدهار النشاط الاقتصادي بين شمال القارة وجنوبها.

2 – إن للطريقة التجانية الرائدة في نشر الإسلام وثقافته دور جلي وواضح ومعروف في كل أرجاء عالمنا الإسلامي. وهذا ما أعطاها دورا خاصا في وجدان الإنسان المسلم، وأهلها بجدارة لتكون رافدا من روافد الثقافة الإسلامية. وزوايا الطريقة التجانية اليوم تتحرك وبجميع قطاعاتها ومؤسساتها من أجل دعم هذا التوجه الثقافي والمعرفي وإبراز وجه التجانية في الثقافة الإسلامية.

3 – إن انتشار الإسلام وثقافته في دول غرب أفريقيا كان بفضل جهود الزوايا الصوفية بشكل عام، والطريقة التجانية على وجه الخصوص. فالتجانية تشكل أقوى الطرق الصوفية الداعية والمروجة للثقافة الإسلامية في إفريقيا الغربية.

وهذا بحد ذاته يكفي لإعطاء فكرة واضحة عن دور التصوف الإسلامي في نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة المبنية على الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح.

4– لقد قام علماء وشيوخ صحراء الجزائر من أتباع الطريقة التجانية بدور كبير من أجل تعريف الناس في النيجر بعقيدة الإسلام وقيمه الأخلاقية، ونشر ثقافة الإسلام، التي هي ثقافة التسامح والحوار والسلام، بين المواطنين النيجريين لجذب أكبر عدد منهم لاتجاه التصوف الإسلامي وجعلهم من أتباع ومريدي الطريقة التجانية، كما حثوا أتباعهم من الطريقة التجانية في النيجر على إيلاء عناية خاصة بتحقيق التآخي والتكافل بين أفراد المجتمع النيجري المسلم وعلى قيادة المجتمع النيجري المسلم نحو القيم الراقية والمبادئ الأخلاقية العالية، كما عملوا على نشر الثقافة الإسلامية السمحة في كل الأوساط الاجتماعية، مما أدى إلى دخول أتباع جدد في دين الله أفواجا عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

5 – لقد سعى التيجانيون في النيجر إلى ضرورة استئصال الشر والفساد، وتغيير الفرد والمجتمع، وتنمية حركة الخير والإصلاح فيه تمهيدا لبناء الإنسان النجري بناء فكريا وروحيا وسلوكيا، وتنظيم المجتمع تنظيما قانونيا وأخلاقيا وروحيا متماسكا، فالمؤسسات الفكرية والثقافية التابعة للزوايا التيجانية في النيجر تساهم في بناء صرح الثقافة الإسلامية وتضطلع بدور ثقافي وحضاري إلى جانب عملها الروحي والاجتماعي على اعتبار أن الفكر التجاني فكر شامل لكل مناحي الحياة. وهي مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا. والنموذج التيجاني النجري لا يختلف عن غيره من نماذج عمل باقي الزوايا الصوفية التيجانية في غرب إفريقيا، فالكل يعمل من أجل نشر الإسلام وترسيخ ثقافته في الحياة

العملية للأفراد والجماعات، ومن ثم مصلحة الشعوب وتقدمها ورقيها وازدهارها.

6 – لقد أسهمت الطريقة التيجانية الجزائرية في النيجر وأتباعها في المحافظة على الوحدة الوطنية للتراب النجيري من جهة حيث أصبح المسلم الهاوساتي والزرماتي والفولاني والطارقي والعربي في النيجر يشكلون لحمة واحدة، ومن جهة أخرى أديت دورا كبيراً في المحافظة على علاقات حسن الجوار مع الجار الجزائر، ولا يخفى دور مريدي الطريقة من النيجر في مساعدة ثورة تحرير الجزائر المباركة ونيل استقلالها، وكذلك دورها في تحسين العلاقات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية بين الشعبين الجزائري والنجري إلى اليوم، ويبقى فقط تعزيز هذه العلاقات وتوطيدها في المستقبل بين الشعبين والبلدين.

## التوصيات المقترحة

وتتمة لهذه النتائج أرى أن هناك **توصيات واقتراحات** جديرة بالذكر تتمثل فيما يلي:

1 – ضرورة التصدي للهجمات العدائية في المجالات الفكرية والثقافية والتربوية وغيرها التي تعاني منها شعوب دول الساحل ،وذلك بنشر ثقافة السلم والمصالحة والوسطية والاعتدال والتسامح ولا يكون ذلك إلا بتفعيل كل المبادرات التي تصب في هذا الشأن خاصة ما تقوم به وزارة الشؤون الدينية من خلال ملتقياتها وكذا رابطة أئمة ودعاة الصحراء ودول الساحل التي تأسست حديثاً.

2 – إعادة النظر في أسس العمل الصوفي المشترك بين شمال الصحراء وجنوبها وأطره من أجل إعادة بنائه في ضوء التجارب الماضية ،وفي ضوء الدروس المستفادة من جهاد شيوخ الصوفية الأوائل والتحولات العالمية على الصعيدين السياسي والثقافي في آن واحد.

3 – ضرورة إدراج تراث وشخصيات علماء الصحراء ضمن مناهج المنظومة التربوية الجزائرية في جميع المراحل التعليمية لتكون مرجعاً هاماً في مختلف العلوم للأجيال الصاعدة.

4 – ينبغي للقائمين على وسائل الإعلام في الجزائر بمختلف أنواعها أن يعَرِّفوا بشخصيات وتراث علماء الجزائر الذين قدَّموا الكثير لوطنهم وأمَّتهم، وهذا لإيجاد حلقات التواصل بين ماضي الأمة وحاضرها وبينها وبين العالم الخارجي.

5 – يقع على عاتق قطاعات التعليم العالي والبحث العلمي والشؤون الدينية

والأوقاف والثقافة تنشيط حقل البحث والدراسات، وتنظيم الملتقيات العلمية وتحفيز الباحثين والدارسين لهذه الشخصيات وأمثالها، وخاصة تحقيق تراثها وإبراز الجوانب العلمية فيها التي لم تنل حقها من البحث والاستقصاء وطبع كل كتبها.

6 – أقترح تفعيل وترسيخ واستمرارية العلاقات الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية والتعليمية التي أقامها علماء الجزائر في إفريقيا الغربية كالعلاَّمة المغيلي مع الدول التي زارها هناك والتي مازالت حاضرة في عقول أبناء المنطقة إلى اليوم، وذلك بإقامة مشاريع ثقافية ودينية مشتركة، في إطار التبادل الثقافي بين الجزائر من جهة والدول التي زارها من جهة أخرى وعقد توائم بين أدرار وتلمسان وبسكرة من جهة ومدن : كانو «نيجيريا»، غاو وجني وتمبكتو «مالي»، أغاديس «النيجر» وهذا ما يعزز علاقات حسن الجوار وترسيخ أواصر الأخوة والمحبة بين الجزائر وجيرانها من دول إفريقيا جنوب الصحراء واستثمار كل ذلك في مد جسور التبادل الفكري،، وإعادة تمتين الأواصر الأخوية وتأسيس جدار ثقافي قادر على تحصين دفاعاتنا الفكرية والمذهبية، وكسر موجات التطرف الهدامة والعنيفة، ونشر قيم السلم والوسطية والتسامح والتعاون المثمر، وإحياء الروابط العلمية والثقافية والروحية بين الجزائر وأفريقيا، باعتبارها الرهان الرابح في مواجهة التحديات المختلفة.

7 – وفي الأخير أعتقد أن أحسن تكريم لهؤلاء العلماء هو تسمية الجامعات أو المساجد الكبرى أو المراكز الثقافية أو المؤسسات التربوية باسمائهم.

الباب الرابع:

# الجزائر وحركات التحرر في إفريقيا

# الأدباء في مواجهة الاستعمار
# من خلال مخطوطات تمبكتو

د. عبد القادر إدريس ميغا
مدير معهد أحمد بابا بتمبكتو

## المقدمة

كان للشعراء والخطباء مكانة مرموقة في كل مجتمع من المجتمعات حضريتها وبدويتها، وخاصة عندما أسدل الاستعمار ذيله على البلدان الضعيفة وكان هؤلاء الشعراء مقابل هذه المنزلة يدافعون عن القبيلة ويعددون مآثرها وأيامها ويرثون صرعى حروبها.

فهذه المكانة هي نفسها التي كان يتمتع بها شعراء مالي؛ إذ كان لهم دور الوساطة والتوجيه في الأمور العظام، فهم الذين يتحدثون بلسان الجميع، ويُثِيرُون حماسة المجاهدين؛ للدفاع عن حريتهم وسيادتهم عند اللزوم.

لقد جاء الغرب، الذي كان يستهدف نهب الخيرات، والقضاء على التراث الفكري، ولكنه سرعان ما اصطدم بالعلماء والشعراء والخطباء، الذين وقفوا دون تحقيق أطماعهم.

ولما فشلت فرنسا في المحاولات العسكرية الأولى على المنطقة، وأدركت أن التغلب على المسلمين والتحكم فيهم عسكريا، حدث قصير العمر، قليل التأثير، انصرفت إلى الغزو الفكري. وهذه المرحلة من أخطر المراحل، إذ أنها تهدف تحطيم العزائم، وطمس المعالم الإسلامية، وتعمية الطريق أمام المسلمين. وقد جاءت هذه المرحلة بعد دراسة عميقة التأمل، شديدة الحكمة لكيان المجتمع في مالي، والتيقن من أن الوصول إلى أهدافه دون القضاء على الدين الإسلامي، والأدباء أمر مستحيل.

ولتنفيذ هذه الخطة فضلت المواجهة المباشرة مع علماء الدين الإسلامي من ناحية ومع الأدباء من ناحية أخرى، بأن جعلت علماء المسيحية في محاربة العلماء المسلمين، وقادة الاستشراق في مجابهة الأباء.

أما التبشير، فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره. وأما الاستشراق، فإنه يعمل لنزع العقيدة الإسلامية، وإحلال مفاهيم الصداقة بين الدول الغالبة والمغلوبة، تحت اسم الحضارة والثقافة والتقدم.

ولم يزل الاستشراق والتبشير يعملان يدا في يد من أجل تحقيق هذا الغرض حتى تيقنا من فشلهما أمام أدباء المنطقة وعلمائها. ولإشادة بمكانة هؤلاء العلماء اخترت أن يكون موضوع مداخلتي «العلماء والأدباء في مواجهة الاستعمار من خلال مخطوطات تمبكتو» والغرض من ذلك إظهار دورهم في الدفاع عن الإسلام والمقدسات الإسلامية. مع التركيز على جهود الكُنْتِيِّين. وبطبيعة الحال سيتوزع البحث في قسمين: القسم الأول يتناول مَنْ يرى مقاطعة العدو الاستعماري( الاستدماري) ومحاربته للدفاع عن الإسلام. وقسم آخر يرى تقريب العدو لدراسته ومن ثم القضاء عليه من خلال مخططاته؛ حماية للإسلام والمسلمين.

ولهذا البحث دور التوضيح وتصحيح موقف كل منهما حتى لا يفهم أن من المسلمين مَنْ قَبِل المستعمرين عن رضا النفس وطمعا في وُعُودهم. وذلك بالاعتماد على المصادر الأولى لهذه الأحداث أي ما كتبه المعنيون أنفسهم مستعينا بما قاله بعض الباحثين في هذا الموضوع وعسى أن أوفق في هذه المهمة.

## التمهيد

نشأت الطرق الصوفية في إفريقيا الغربية وتطورت في ظروف دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية متنوعة تعاملت معها حسب طبيعة المواقف، بصورة

إيجابية أو سلبية. هذه الظروف ساهمت كثيرا في ظهور أدباء نبغوا في قرض الشعر وكتابة النثر بمستوى أدباء المشرق العربي. وفيما يلي حديث موجز عن هذه الظروف.

## أولا- الظروف الدينية

كانت الوثنية هي الديانة التي اعتنقها الأفارقة سودها وبيضها منذ القدم ويعتبر الإسلام الدين السماوي الثاني الذي دخل في القارة الإفريقية وآمن به الكثير منهم. ويؤكد المؤرخون أن رواد الدعوة الإسلامية في المنطقة كانوا تجارا يأتون من شمال إفريقيا ويعقدون صفقات تجارية مع أمرائها وممثليهم من وجهاء القوم، ثم توطدت العلاقات بين الطرفين واحتل المسلمون تدريجيا، مناصب هامة في الدولة.

وقد تحول الإسلام إلى طرق وطوائف دينية متناحرة فور استقراره في المنطقة، وأصبح مشايخ هذه الطرق مدار الحياة الدينية والسياسية، وكانت العامة تنسب إليهم معجزات كثيرة منها : إنزال البركة، وإحياء الأرض الميتة وغيرهما. بل اتخذ هؤلاء المشايخ أولياء ووسطاء إلى الله حتى جرى في اعتقاد بعض الناس أنه لا يأتي الخير إلا عن طريق الولي الحي أو بضريحه إن كان قد توفي.

وكانت هذه القوة الجديدة في الإسلام جد ملائمه للقبائل التي تسعى لتمكين خاصيتها السياسية والاجتماعية. ولذلك لم تلبث هذه الفكرة الصوفية أن ارتبطت بالعمل الجهادي وبالتطلع إلى الحكم لإقامة شريعة الإسلام المعتمدة على الكتاب والسنة.

وقد أورد البكري في كتابه المسالك والممالك تفاصيل دقيقة حول دور التجار والزوار العرب في نشر الإسلام في بلاد السودان، كما ذكر اعتناق مملكة

التكرور الإسلام، محددا بأن ملكها وار جابي المتوفي عام 1040، قد أسلم وأقام شرائع الإسلام وحمل شعبه عليه[1].

ثم أخذ الإسلام في الانتشار رويدا رويدا عبر السنين في غرب إفريقيا ولكن تأثيره لم يتجاوز فئات معينة. وأما انتشاره الواسع فقد جاء عن طريق شيوخ الطرق لصوفية الذين كانون يجوبون أقطار إفريقيا الغربية خاصة، مستخدمين كافة وسائل الدعوة والجهاد المتوفرة وقتئذ من تنظيم حلقات دراسية وتربوية ومجالس لتلاوة القرآن الكريم وأخرى للذكر والمدائح النبوية، ونجحوا بفضل ذلك في جذب الأوساط الشعبية إلى الإسلام وفي تكوين أجيال تتميز، بالانسجام الروحي والفكري وبالتضامن والتحابب. بيد أن هذه الحالة كانت تدفع زعماء الطرق الصوفية، أحيانا إلى معالجة قضايا سياسية قد تخدم مصالحهم في النهاية أو تسبب لها أضرارا بالغة.[2] أو تجعل الطرق الصوفية في محاربة بعضهم بعضا. وستأتي نماذج لهذه الظاهرة.

## ثانيا – الظروف السياسية

بدأت الطرق الصوفية تنتشر في بلاد السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادي ؛ وكانت تحكم هذه البلاد، حسب الأوضاع، نظم إسلامية أو وثنية، أو إدارات استعمارية . وعلى كل حال، فإن الحكام، وثنيين كانوا أو استعماريين، كان يُقلقهم وجودُ تجمعٍ صوفي مهم على رأسه زعيم روحي قوي، ولا يترددون في استخدام كل الوسائل المتاحة لإخضاعه، أو للقضاء عليه في حالة الفشل . وكان هذا الموقف السبب الرئيسي لنشوب معارك طاحنة ونزعات حادة

(1) – راجع أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا، المسالك والممالك.ص 174–175.

(2) – راجع قاسم جاخاتي: [ المغرب الإفريقي: مجلة متخصصة في التراث والدراسات الإفريقية] معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس السوسي، عدد–7 2006، ص: 30.

بين زعماء الطرق الصوفية من جهة، وبين حكام الأقطار التي سكنوا فيها من جهة أخرى . وتجدر الإشارة إلى أن استراتيجيات زعماء الطرق إزاء القضايا السياسية لم تكن متشابهة ؛ ففي الوقت الذي كان بعض زعماء الطرق يختارون حمل السلاح لمقاتلة العدو معتبرين ذلك جهادا يقومون به في سبيل الله، يرى البعض الأخر أن أسلوب الحوار والمصالحة هو أكثر فعالية وأنفع من مواجهة عسكري مع عدو متفوق عدة وعتادا.[1]

وقد جاء موقف فرنسا المعادي للإسلام وثقافته في المنطقة واضحا على لسان روبير أرنو( Robert Arnaud ) رئيس مصلحة الشؤون الإسلاميّة لمدينة دكار سنة 1912م حيث يقول : «يجب أن تكون سياسة فرنسا صارمة في إفريقيا الغربيّة، ويجب وضع حدّ لنشاط معلمي الكتاتيب القرآنيّة والمرابطين في البلاد ... فإذا تعاطفنا مع هؤلاء سنهيئ بأنفسنا اندماج الأفارقة التدريجي في الإسلام. وبهذا نكون قد أخذنا بيد الإسلام ودفعنا بعجلة تقدّمه إلى الأمام ».[2]

وبهذا نجد أن من أبرز أهداف الاستعمار مقاومة الدين الإسلامي ومحوه من التعليم، وقد تحقق له الكثير من ذلك؛ بإقصائه – إلى حين – من الدوائر والمدارس الحكومية، لكنه بقي صامدا لدى المسلمين يتعلمونه، في حلقات المساجد، وفي كتاتيب تحفيظ القرآن، وفي بيوت العلماء والسلاطين، بل اضطر الاستعمار إلى تعليمها في مدارسه ببعض بلدان المنطقة، تحت ضغط الأمراء والعلماء والسلاطين، وأنشأ في بعضها مدارس ابتدائية تتم الدراسة فيها بالعربية وبلغته، ترغيبا للأهالي في إلحاق أبنائهم بالتعليم العام».[3]

---

(1) – راجع قاسم جاخاتي: مرجع سابق 31.

(2) )– الهادي المبروك : الإسلام واللغة في مواجهة التحديات الاستعمارية، ص 109 .

(3) – راجع هارون المهدي ميغا: تعليم اللغة العربية في المدارس العربية؛ الواقع والأمل. مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص: 229.

وعلى رأس من تصدى للفرنسين علماء الطرق الصوفية بِقِسْمَيْها، حيث اختارت الطريقة التيجانية وقبيلة كلنتصر مجابهة الفرنسيين بالسلاح وتحريض الناس على الوقوف أمامهم لمنعهم من الوصول إلى أغراضهم الثقافية وطموحاتهم الاقتصادية. بينما فضلت الطريقة القادرية – نظرا إلى التفوق العسكري– التحبب والتقرب إلى المستعمرين ومن خلال ذلك الدفاع عن الإسلام والمسلمين. وساتحدث عن هذا الموضوع في حينه.

## ثالثا – الظروف الاجتماعية

كانت العادات والتقاليد الوثنية تهيمن على الحياة الاجتماعية في معظم مناطق بلاد السودان عندما بدأت الطرق الصوفية تنتشر فيها، وكان المجتمع مصنفا إلى طبقات عليا ووسطى ودنيا ؛ وكان هذا النظام يمنح للطبقة العليا حق استخدام واستغلال الطبقات التي تحتها، ويعطى للوسطى دور الوسيط بين العليا والدنيا . أما الدنيا فقد كانت عرضة للاحتقار والاستعباد ؛ وعانت كثيرا من مساوئ الرق والعبودية بسبب ضعفها وفقدان من يحميها .

وكان يحلو لوجهاء القوم الاستيلاء على قرية يسكن فيها فقراء ثم أسر وبيع بعضٍ منهم في سوق الرق والنخاسة. ومن أسباب رواج تجارة الرق في ذلك الزمن إقبال الأوروبيين والأمريكيين الشديد إلى شراء العبيد لتصديرها إلى قاراتهم لاستعمالها كأيد عاملة مجانية في مختلف نشاطاتهم اليومية. صحيح أن الإسلام لا يحرق الرق ولكنه وضع قوانين وضوابط تحول دون استرقاق الإنسان بشكل تعسفي، ويوفر للرقيق، على الأقل، أدنى حد من الحماية لكرامته وعرضه، ويتيح له فرصة استعادة حريته. وأبدى زعماء الطرق الصوفية، على الدوام، معارضتهم الشديدة لاسترقاق الأبرياء، واستعملوا كل ما كان في حوزتهم من وسائل لوقفه. وحاربت القيادة الصوفية كافة السلوكيات المنافية

للأخلاق الحسنة والذوق السليم. كما بذلت مجهودا كبيرا في مجال محو الفوارق الطبقية والعرقية.[1]

## رابعا- الظروف الاقتصادية

يعتبر الاقتصاد محور الحياة المادية للمجتمع، وإذا وجدنا اليوم دُولاً متقدمة وأخرى متأخرة أو في طريق التقدم، وإنما ذلك يترتب على التفاوت بين المستويات الاقتصادية. وقد أدركت الطرق الصوفية، أهميتها للتأثير في المجتمع ولذا كان أبناؤها يزاولون جميع النشاطات الاقتصادية التي تدر لهم مالا حلالا. وقد مارسوا، على هذا الأساس، الزراعة والتجارة والصيد والرعي واستغلال المناجم. وعرفت بلاد السودان، منذ زمن بعيد، رحلات قوافل التجار المسلمين من العرب والبربر التي كانت تأتي من دول الشمال الإفريقي وتعبر الصحراء حاملة الملح والملابس وسلعا استهلاكية أخرى، لبيعها في بلاد السودان ثم شراء بضاعة أخرى كالذهب والعبيد وغير ذلك.[2]

ولكن هذه التجارة، التي كانت أسرة كُنْتَى القادرية تسيطر على جزء كبير منها، أصابها ركود كبير بسبب المنافسة القوية التي تعرضت لها من جانب الوكالات التجارية الفرنسية التي بدأت تنتشر في كل مكان تحت حماية ورعاية الإدارة الاستعمارية.ومع ازدياد احتياجات الصناعة الفرنسية إلى المواد الخامة المتوفرة في بلاد السودان، مارس أرباب تلك الصناعة ضغوطا كبيرة على

---

(1) – راجع :

Vincent Monteil,1961, « Contribution à l'Etude de l'Islam en Afrique Noire», actes du Colloque sur les Religioons, Abidjan, P.119-132

(2) – راجع: عبدالقادر إدريس أربون ميغا: اللغة العربية: ثقافتها وأعلامها في مالي، رسالة المجستير، طرابلس، 1997، ص: 336 – 343

حكومتها لكي تضع تحت تصرف الحاكم العام للمستعمرة إمكانيات عسكرية ومادية تمكنه من بسط سيطرتها على مواقع إنتاج المواد المشار إليها وضمان حمايتها، وكان ذلك فاتحة تنفيذ مشروع إخضاع بلاد السودان لحكم استعماري شامل، ونشوب حروب كثيرة بين الفرنسيين وبين الحكام المحليين الذين رفضوا المشروع وقاوموه أشد مقاومة . وكان المشروع المذكور يتضمن إدخال محاصيل زراعية جديدة وتشجيع إنتاجها بكميات تجارية ضخمة، أبرزها الفول السودان الذي كان يشكل المادة الخامة الرئيسية لصناعات الزيوت والصابون وبعض مستحضرات التجميل في فرنسا. وأحدث إقبال الناس إلى زراعة هذا المحصول، بسبب الأرباح الهائلة التي كانوا يجنونها منها، تغيرا كبيرا في تقاليدهم الإنتاجية وعاداتهم الاستهلاكية لا يتسع المجال لعرض تفاصيله هنا.[1]

وبالجملة، فإن الخطة التي وضعتها فرنسا لاحتلال بلاد السودان بأسرها، كانت تتضمن إقامة مدارس لتكوين إطارات محلية تجندها لإقناع الشعب بقبول الوضع الجديد، وبنبذ قيمه وثقافته البالية المضرة، في نظر الفرنسيين، مع الأخذ، بدلا منها، بالقيم الحضارية والثقافية الفرنسية التي ستنقله من ظلام الهمجية إلى نور التحضر حسب الدعاية الاستعمارية في ذلك الوقت. وكل ذلك يدل على أن الاستعمار الاقتصادي كان يحمل بين طياته أبعادا حضارية وثقافية، وقد قاومت الزعامة الصوفية ببسالة جميع تلك الأنماط من الغزو الفرنسي وتكبدت بالفعل خسائر فادحة ولكنها حققت، مع ذلك، انتصارات ضمنت لرسالتها البقاء والاستمرارية.

(1) – راجع قاسم جاخاتي: مرجع سابق 34

## خامسا- دور الأدباء في المجتمع

على غرار الجزيرة العربية، موطن الثقافة العربية والدول العربية في شمال إفريقيا، فإن دولة مالي قد احتضنت شعراء نبغوا في الفنون الأدبية والأغراض الشعرية المختلفة. وكان شعرهم يدور حول الأغراض المعروفة في الجاهلية كالرثاء والحماسة والغزل، والمدح، وإن كان للشعر الصوفي الديني نصيب الأسد فيه.

ولما اشتعلت نار العصبية بين القبائل المختلفة في مالي، كان الشعر فيها المحرك الأساسي، والسلاح الحاد. ولم تمض مدة طويلة على هذه الحال حتى أرست دولة فرنسا سفن الاستعمار على أطراف دولة مالي.كان العلماء والشعراء والخطباء أكثر الناس وعيا لأهداف الاستعمار، وعواقب ذلك على الدين الإسلامي والثقافة المحلية بل وعلى الاقتصاد والحياة العامة؛ فتصدوا للدفاع عن حريتهم وكرامتهم كل واحد منهم في مجال فنه وتخصصه.

فَتوزَّعَ العلماء والأدباء بين المعارضة الشديدة وحمل السلاح للعدو وبين التظاهر والتحبب للعدو حقنا لدماء المسلمين وحفظا لأعراضهم. ومهما كانت درجة نجاح أو فشل أسلوب كل من الطرفين، فإن نقطة نجاحهم المشترك تكمن في توصلهما إلى نشر مبادئهما الدينية وتراثهما الروحي في مختلف أوساط شعوب وقبائل بلاد السودان.

ويمكننا أن نقسم إذا هؤلاء الأدباء العلماء إلى قسمين:

1 – قسم نبذ الاستعمار وتحامل عليه بشعره ونثره وذمه وذكر أخلاقه السيئة.

2 – وقسم آخر تظاهر بالحب للاستعمار ولكنه أشد كراهية وأشد محاربة له.

## القسم الأول: ويمكن أن نسمي بالشعر النضالي التحاملي

فشعراء هذا القسم كانوا يقرضون الشعر ذَمّا للمستعرين أو تحريضا للمجاهدين؛ دفعا بهم إلى ميدان القتال، مع أنهم لا يملكون من الأسلحة غير العزيمة والصبر. وهو لا يزال سلاحا حادا، يحارب به الخصم عدوه محاربة شديدة، قد يجعل العدو يتقهقر عن الهجوم، وقد يجعله منهزما معنويا مسلوب العزيمة والإدارة، ولذلك صح أن يسمي هذا النوع من الشعر شعر الحرب أو الشعر النضالي، وهو شعر في الحقيقة يجمع بين الحماسة والهجاء.

والحماسة هي أهم موضوع دار حوله الشعراء قبل الإسلام، وخلفوا فيه نتاجا ضخما صدر عن وجدانهم الحماسي الذي حمسته الحروب العديدة التي خاضتها قبائلهم، وأذكت ناره. وهذا الشعر يقوم على التعبير المباشر المتمثل في تقدير الحقائق ويكون الحديث فيه عن المجتمع أو القبيلة بضمير المتكلمين أو بضمير الغائبين[1] ويزعم هذا الفريق قبائل كلنتصار وخاصة منها أدباؤها انضم إليهم الحاج عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي وأتباعه من التجانيين في بلاد السودان.

### دراسة نماذج

1 – قصيدة قالها الشاعر محمد أحمد بن محمد بن البخاري، من البحر الرجز، ذم أفعال المستعمرين وعاتب الموالين لهم، نقتطف منها[2]:

منـي إلـى من فـي حمـى المكبل  مـن كـركل لمـا وراء المعقـل
أعيذكـم باللـه مـن فضيحـة الـد  نيـا ومـن رأيكـم المقيـل

(1) – انظر محمد عثمان علي « دراسات في أدب العرب قبل الإسلام»، منشورات الجامعة المفتوحة، دار الكتاب، ص. 184

(2) – كادي درامي: مختارات شعرية من مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي، ص 120–121

لاتشتروا دنيـــــــة بدينكم لا يرضها غير الدني الأرذل
ترجون أمن الكافرين بعدما نفاه نص المحكم المنزل
قد أخذ الله عليهم عهده أن يؤمنوا بالعربي المرسل
فنقضوا مثاقه وأنتم ترجون منهم وفا السموأل
تالله ما لكافر عهد ولا له إلبة إذا ما يأتلي
هيهات أن يومن كافر وهل ترجو سخال الضأن أمن الجأل
وفعلهم في ماض مهيمن وواعظ من قبله لم يغفل

يستعرض الشاعر في هده القصيدة حال الموالين للمستعمرين، مستغربا من سخافة آرائهم، طالبا منهم ألاّ يُغيّروا دينهم. ومن يفعل ذلك فنصيبه الفضيحة في الدنيا، والعذاب في الآخرة. وألاّ يأتمنوا النصارى في أقوالهم وأفعالهم، إذ ليسوا ممن يوفي بعهد. وقد تعهدوا بإتباع الرسول الكريم، ولكنهم سرعان ما نقضوا هذا الميثاق. وأنتنم ترجون منهم وفاءً مثل وفاءِ السموأل. ثم يحرض المسلمين على محاربة المستعمرين الكفار في صف واحد حتى لا يفشلوا.

كونوا على العدو في الله يدا ففي التنازع لزوم الفشل
بل قصة الأسد مع ثيرانه فيها لكم ذكرى وضرب مثل

ثم يحذر إخوته من الغاصبين، موضحا لهم حقيقة أمرهم، وأن من أسلم لله لن يتضرر بذلك:

وعد النصارى كذب وعدلهم جور وميرهم وخيم المأكل
وسلمهم حرب وبذل مالهم يقلب بالمكيدوالتحيل
والسم في جوارهم وقربهم ومسلم بنارهم لا يصطلي

إلى أن يقول:

والله ضامن لمن هاجر فـي سبيله سعة عيش مخضـــل
ضمان قادر كريم موســـر منا وفي العهد ذي تفضـــل
وهارب بدينه شبرا لـــــه في جنة الـفـردوس خير نزل
والموت خير للفتى من مقعد بين الأفاعي والأسـود البسل

وهنا يرد على مزاعم النصارى، التي توهم للناس بأنها هي التي تقدم لهم المعيشة. والله هو الرزاق، ذو القوة المتين، ورزقه في كل مكان، يعطيه من يهاجر في سبيله، ويضمن له الجنة يوم القيامة. ثم يثير حماس الشاب في البيت الأخير لمحاربة الظلم والجور في أسلوب بلاغي رفيع عند ما شبه النصارى بالأفاعي والأسود التي لا ترحم.

2 – قصيدة للشاعر عثمان بن حوات الأنصاري، من البحر البسيط، يمدح فيها أمير الأأنصار لحربه للفرنسيين، وهي في 186 بيتا[1]. يقول في مطلعها:

راح الزمان بأمـر مبرم همـــــم مـــا بـين مبتدئ منه ومختـتـم
بين الأحبة والأوطان أو دمـــن وفقد نادى الكرام السادة النجـم
ودار عزة من هين إلى فـــرش وبرير روضة الغرباء والعجـم
يا لائمي لا تلم فالقلب محتـــرق لو كنت تعلم ما في القلب من همم
وحق جفني يسيل الدمع من جزع والقلب للحزن والأوصال للسقم
والعين تدمع من شهر إلى سنـــة فما ارتضى البث بالدموع دون دم
يا قـائما بحذا عز أعد خبـــرا عن منزل بجناب الهين منـهدم

(1) – :كادي درامي: مرجع سابق ص:124

وهو على طريقة أمرئ القيس، يبكي لفراق الأحبة والأوطان من جراء ما ساقه الاستعمار إلى هذه البلدان من عذاب، ويخص بالذكر محبوبته عزة التي تدمع عينه من أجل فقدها.ويستمر في هذا البكاء والرثاء حتى البيت السادس عشر، فيبدأ في وصف محبوبته قائلا:

تلك الفتاة التي يلهو بها أحـــد عن السمير وعن أهل وعن رحم
كحلاء في سعة العينين واضحة لعساء في شفتيها حــوة الأدم
عجزاء مكورة براقـة قـلـق عنها الوشاح وتم الطبع في الكرم
كم من خليل وزير مصعد عذرا فوق الجبال وبين البحــر والأكم
إلــى ذراهـا مــن تــأثــفــها كأنها قرية من كثـرة الأمـــم

وهكذا يصف جسمها وزينتها وكيف كان الناس يتجمعون حولها. ثم يعود ويستغرق في بكائه محددا موقفه من فقد محبوبته معددا ذكرياته حولها.

وكم أحن حنين الثاكـلات على آثارها وحنين البعد كالعـدم
عساك إن مت في ذكراك مت على تململ ما شجا صـدر بمتهم
لما تذكرت يـوم السد نازلة مقيمة خدرها المضروب في الخيم
ونظرة سلبت قبلي فطانتــه شجا الفؤاد بنار الوجد مضرم
ردي بقية روح فات من رمقـــــي يادية خرجت في أحسن الديم
سحارة الطرف ترمي من محاسنها حب الفؤاد بسهم العين مبرهم
أرثي لقلبي بما في سحر عينيك من حبائل آخـذات الـرأس والقدم

هكذا يستمر في البكاء على المحبوبة تارة وفي وصفها تارة وفي تعداد محاسنها وذكرياته عنها تارة أخرى. ويلتفت بذلك إلى اللائمين طالبا منهم

عدم اللوم لأن حبه لها أقوى منه، بل إن حبه لها تحول إلى داء أرهقه، ثم يبرر لهذا الوجد قائلا:

تلك الفتاة التي علقتها عرضـــا ما مثلها في نساء العرب والعجم

ثم انتهى إلى غرضه وهو مدح أمير الأنصار لمقاومته الاستعمار:

ياصاح عدعن بكاء الدهر من كمد ولا تقولن على ما فات: واندمي
إذ لا ارتجاع لما قد مر من زمن بسفح دمع ولا التعداد والثكـــم
وسل عنـه لحـوز عالـــم ورع غطمطم ملك العرباء والعجم
له منازل عز من ألـــم بهـــا نفت عليه فتام الذل والهضم
لا يتقي في حذاء أرضـــه أبدا من استجار به من فجأة الدقـم
والعلم سيرته والزهـد حرفتـــه والصبر عادته عن جفوة الوجم

نراه يواصل في وصف أميرهم ومدحه مع ذكر أعماله الحسنة، ومنزلته الرفيعة. ويخلص بذلك في آخر القصيدة إلى حث الضعفاء من الناس على الهجرة من الأرض التي دنستها القوة الاستعمارية الظالمة.

أخرج فإن بلاد الله واسعـــة فيها مراغم ذي ذل وذوي ألـــم
أرضا فأرضا وإخوانا بمثلهم فالرزق أوسع في بحر وعن يهم
لا تركنن إلـى كفر ولا وطن فالكفر آخره يأتيك بالـنـدم

إن المتمعن في هذا الشعر يجده نفس الشعر العربي قبل الإسلام، وفي صدره الأول بنفس التشبيهات، والغزل، والوصف، والمدح، وذكر الأماكن والمواقع، مع العفة في الوصف والحياء في التشبيب، والتلميحات في الوداع، والصبر على مغص الفراق. ثم الدعوة إلى الحياة من جديد إذ من المستحيل أن يعود ما مضى وفات.

3 – ومن هذه الطائفة محمد أحمد بن محمد بن البخاري بن حم بن الطاهر بن سيد علي بن النجيب، كان من أكبر شعراء مالي، وقد سخر معظم شعره لخدمة وطنه ودينه. نظم قصيدة نقل فيها أخلاق النصارى السيئة وحث أهل البادية أن يحملوا أسلحتهم ويدافعوا عن سيادتهم، موضحا لهم بأن أمانة فرنسا المزعومة، وأمنهم المتظاهر به أكاذيب، ونادى قومهم أن يكونوا على عدو الله يدا واحدة. وكان هذا الشاعر أميرا لعشيرته، ولكنه فضل اللجوء إلى المغرب، على أن يكون حليفا مناصرا لفرنسا وأنشد ذلك[1] بقوله من البحر الرمل :

على القوي كتب الجهاد لكن هجرة على الضعيف الأعزال

لقد ندد كثيرا بالاستعمار وعابه على أعماله البشعة ؛ ومنها فرض الضرائب، وإهانة الوجهاء، والتفرقة بين المسلمين، وجعلهم سودا وبيضا لا يمكن التحالف أو الاتفاق بينهم. وسمى الذين كانوا يساندون فرنسا بالمتفرنسين وعاتبهم على قلة إدراكهم، وقصر فهمهم، حين انخدعوا بمكائد الاستعمار. وكل هذا في نظم جيد متماسك، اختار فيه المعاني المناسبة، والتعابير الجزلة . واستعمل فيها الأساليب البلاغية الرفيعة، من الاستعارات وحسن الخروج من فكرة إلى أخرى . وسنتحدث عنها عند النماذج للشعر النضالي .

## القسم الثاني: ويمكن تسميته بشعر الحكمة والتظاهر بحب الاستعمار

هذه الطائفة تتمحور في الطريقة القادرية بقيادة قبيلة كُنْتَى وتلامذتها؛ ولأهمية هذا القسم في نشر الإسلام عامة وأسلوبه الحكيم في الدفاع عن المسلمين –أثناء الاستعمار– فضلت الحديث عنه بشئ من التفصيل.

(1) – مخطوطة مسجلة تحت رقم 1614 في مركز أحمد بابا.

## أولا: حديث موجز عن قبيلة كُنْتَى وأهم رجالها

إن قبيلة كُنْتَى، هي إحدى القبائل العربية البربرية وهي منتشرة الآن في مالي وموريتانيا وجنوب الجزائر والمغرب؛ ويرجع نسبها إلى (عقبة بن نافع الفهري) فاتح أفريقيا.[1] وكان أكبر عالم وداعية منهم هو المختار بن أحمد ابن أبي بكر بن حبيب الله بن الوافي بن اعمر الشيخ ابن أحمد البكاي ابن امحمد المنتي الملقب بسيدي المختار الكبير الكنتي. ولد عام 1142 هجرية في مكان يدعى (كثيب أوغال) ضمن الأطراف الشرقية من بلاد شنقيط، جنوب الصحراء الكبرى، وهو موقع في الشمال الغربي لمدينة أروان من أراضي جمهورية مالي – وهذه المنطقة الآن صحراوية قاحلة ليس فيها عمران بسبب الجفاف الذي ساد المنطقة مؤخرا، وكانت في عهد المؤلف تزخر بالحياة والنشاط الإنساني. وتوفي الشيخ في سنة 1226هـ.[2]

وعن نشأة المرحوم الشيخ سيدي المختار الكنتي «الكبير» كما دعته ذريته، يقول ابنه صاحب الطرائف والتلائد:[3] «فقد كان يوم مولده سنة (1729م) بالكثير من الكرامات. وتوافد الناس حسب العادة، لتهنئة الأمة السعيدة، والتي كشفت المهد لتريهم وليدها، وكان الشيخ يروي – وهو الذي يسرد القصة بنفسه – أنه يتذكر بالتأكيد، أنه رأى في ذلك اليوم أناس ذوي بشرة بيضاء، طوال القامة، وبلغ به الأمر أنه يذكر أسماءهم».

---

(1) – راجع بول مارتي: كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودّاد– نواكشوط– موريتانيا، ص10

(2) – راجع سيدي يحي مولاي، المرحوم سيدي المختار المنتي الكبير( حياته وآثاره العلمية) بحث التخرج، قسم اللغة العربية من جامعة بماكو،20005/ 2006، ص9–10. وانظر حماه الله ولد السالم: [الشيخ سيد المختار الكنتي(1142–1226) حياته وآثاره] مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد الثاني، يوليو 2004، 177

(3) – سيد محمد الكنتي: الطرائف والتلائد (في ذكر كرامة الوالدة والوالد،) مخطوطة برقم 1235 بمركز أحمد بابا – تمبكتو – مالي

ويقول أيضا أنه نشأ يتيما، فقد ماتت أمه أمباركه بنت بادي، وله من العمر أربع سنوات ...، كما مات والده وله من العمر عشرة سنوات، وقام بتربيته وكفالته أخوه لأبيه سيدي محمد البكر الملقب بـ (أبي حامية)، الذي كان يراسله جده لأمه عبد القادر المدعو بـ (بادي)، وكان عالما صالحا، وكان يتوسم فيه الخير والنبوغ.[1]

كان لسيدي المختار رغبة شديدة لطلب العلم، غير أنه لما بلغ الثالثة عشر من عمره ذهب عن حَيِّه منتقلا بين علماء عصره مستوعبا ما عندهم من علوم، وأثناء ذلك درس المواد الأساسية حسب عادات أهله في طريقة التربية حتى استقر به المطاف عند المرحوم سيدي علي بن النجيب، وعنه أخذ الطريقة القادرية مع ما لم يتحصل عليه قبله من العلوم، وهو الذي قام بالدور الأساسي في تكوين شخصيته العلمية والروحية. أخذ منه، وساعدت على نبوغه عوامل عديدة ويأتي في صدارتها العلم والعمل حتى اكتسب مكانة علمية عالمية، واعتبر فيما بعد أبرز المجددين في القرن الثاني عشر.

وقد بدأ دراسته بحفظ القرآن الكريم. وبعض المصنفات اللغوية والأدبية، حسب عادات أهل شنقيط في التربية والتعليم المتبعة عندهم آنذاك. ثم تنقل بين حلقات الدروس المتنوعة العلوم والفنون، حتى ارتشف رحيق كل منها، وتزود من المنقول والمعقول. وسرعان ما غدا متصدرا مجالس الطلبة والعلم وحظيا بتقدير الدارسين والعلماء.[2]

### ثانيا- إشعاعه الفكري والد يني

كانت للشيخ الكنتي الكبير مع كثير من علماء المنطقة وقد كان عالما تقيا ورعا سياسيا، وأثناء الاضطرابات القبلية والدينية التي كانت تسود المنطقة، قام

(1) - راجع سيدي يحي مولاي مرجع سابق، ص: 10.

(2) - راجع حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، ص 178-179 .

بالدور المثالي في السعي قصد الصلح والتعايش السلمي بين المسلمين انطلاقا من علمه الغزير ودبلوماسيته القوية.

وقد وصفه محبه محمود محمد بقوله: «كان حكيما معلما قائدا والدا حاميا كهف الاجئين بل كان كلا للكل. وكان مبينا لفعله وقوله سديد النظر يتكلم على الأشياء كمجرب لها لِمَا ألهمه الله من العلم وهذا مع قوته ووقاره وشخصيته وتواضعه، ونَشْر السلام والسعي له. وله نظرة شاملة للتعليم صناعة ويشجع الناس عليه ويأتيه العلماء من كل جانب ومن جميع القبائل... فلسفي طبيب لغوي ماهر. جدد الطريقة القادرية وزودها بعدة أشياء من الأذكار والدعوات والابتهالات والمناجات وبنى لها زاويا كثيرة»[1] ومع ما في هذا الوصف من مبالغة إلا أنه يُعطينا فكرة عن علم المختار الكبير والعلاقة الاجتماعية التي كان يتمتع بها باستثناء بعض خصمه.

وعلى كل حال لاجدال في أنّ الشيخ سيد المختار هو علم البلاد الصحراوية والسودانية في العلم والورع خلا ل العهد الحديث. وقد أهلته لذلك مكانة علمية قلَّ من نازعه فيها وإشعاع ديني واسع، وصلات فكرية وسياسية مع مشاهير العصر، من علماء ومصلحين وسلاطين من مختلف جهات الإسلام. علاوة على تصدره لمجالس العلم والتأليف والفتوى، كانت الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض أعلام عصره كثيرة، ما بين علماء، وسلاطين، وزعماءِ قبائلَ، نذكر بعضها على سبيل المثال :

(1) – محمود محمد ددب الملقب بحمو التنبكتي الأرواني - مؤلفات الكاتب المثالي الشيخ سيد المختار المنتي الاشهير بالشيخ الكبير( 1142–1226 هـ/ 1729–1811 م) محاضرة ألقاها في جامعة كاب تاون Cape Twon بجنوب أفريقا ص: 2.

فقد كانت للشيخ الكنتي صلات وثيقة باللغوي المصري ذ ائع الصيت محمد مرتضى الحسني الزبيدي شارح القاموس ومحشي الأحياء وغيرها من التصانيف ويذ كر أن الزبيدي راسل الكنتي ومنحه وهاداه[1]، كما أجاز بعض خريجي مدارس شرق البلاد وشمالها حتى إلى توات حيث مركز الزاوية الكنتية القادرية في اقبلي، وكانت للزبيدي صلة وثيقة بشيخ هذه الزاوية المعروف بأبي نعامة الكنتي التواتي ونظرائه. كما كانت للشيخ سيد المختار الكنتي صلات وطيدة بأقطاب الخلافة الصكوتية الشيخ عثمان بن فوديه وأخيه عبد الله ووزيرهما محمد بلو. وقد استمرت هذه الصلات مع الشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي الذي خلف أباه في مقامه الفكري والسياسي[2] .

وكان الكنتي كذلك على صلة طيبة بأحمد لبو مؤسس دولة ماسنا بمدينة «حمد الله» في مالي.[3] بل تعاونا كثيرا في محاربة الأعداء. ويضاف الى ذلك شبكة من العلائق السياسية المتعددة بين الشيخ سيد المختار والقادة والأمراء في غرب الصحراء والسودان، وكذا مع محمد علي في مصر. ويذكر أنه كانت للشيخ صلات وطيدة بالدولة العثمانية التي كان يدافع عن شرعيتها الخليفية ويذكر ولاتها بالتعظيم[4].

(1) 1 راجع: البرتلي الولاتي : فتح الشكور.، تحقيق محمد حجي والكتاني . دار الغرب الاسلامي، بيروت 1981 م . ص : 153

(2) –2 راجع حماه الله ولد السالم،تحقيق الرسالة الغلاوية للشيخ سيد محمد الخليفة الكنتي،المقدمة «الرباط معهد الدراسات الإفريقية،2003 م».

(3) – راجع رسالة سيدي المختار إلى أبي بكر حول الإمامة، مخطوطة مسجلة تحت رقم : 1635 مركز أحمد بابا.

(4) – راجع سيد محمد الكنتي: الطرائف والتلائد (ذكر الحج وحديث الكنتي عن أحوال الحجاز)، مخطوطة برقم 1235 بمركز أحمد بابا تمبكتو– مالي.

وتعتبر فكرة التجديد من أهم المسائل الفكرية التي شغلت بال العلماء في غرب أفريقيا وغرب الصحراء خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، وتمحورت حول ظهور ((المجدد )).وقد ناقش الشيخ الكبير مسألة المجدد في أكثر من موضع وذكر أنه هو المجدد الذي أشار إلى صفاته الحديث النبوي. ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها )).وأنشد قصيدة جاء فيها:[1]

رأيت المصطفى في النوم حقا فبشرني وأدنـانـي إليـــه
و قل: إنّك المبعوث حقـــــا تـجـدد سنتي فـاصـبـر عليه
وأقبل بالثناء على ضيوفـــي وأخبر أنهم من صفتيـــــــه
ولوح نحوهم ببهـــاء نـــــور وأتحفهم بنظرة لحظتيـــــه

ويذكر كذلك في المجلد الثاني مُصَنَّفِه الشهير، (( فقه الأعيان))، فيقول : «وفي القرن الثالث عشر على ما يقوله أولياء الوقت: إنّ المجدد هو صاحب هذا التصنيف...»[2]

كما يبدو إنّ الآراء التجديدية للشيخ الكنتي الكبير كانت رائجة منذ بعض الوقت في الأ وساط المشرقية ولا سيما كبار النهضويين من أمثال رفاعة الطهطاوي الذي سبق أن ذكر الكنتي وأشاد به في كتابه الشهير: تخليص الإبريز في تلخيص باريز حيث استطرد نقاشا بشأن كروية الأرض كان حاضرا له بين علماء مشارقة ومغاربة، فنبه إلى أنه «ممن قال من علماء المغرب بأنّ الأرض مستديرة وأنّها سائرة، العلاّمة الشيخ المختار الكنتاوي في أرض أزوات

(1) – راجع حماه الله ولد السالم: مرجع سابق، 185

(2) – عزيز بطران، الشيخ سيد المختار الكنتي الكبير، مجلة الدراسات التاريخية، مركز جهاد اللّبيين للدراسات التاريخية العدد الثاني 1981، ص: 63.

(أزواد) بقرب بلاد تمبكتو وهو مؤلف مختصر في فقه مالك ضاها به (متن خليل) وضاها أيضا (ألفية بن مالك النحويّ ) وله غير ذلك من المصنفات في العلوم الظاهرية والباطنية كأوراد وأحزاب، كحزب الشازلي، وقد ألّف كتابا وسماه (النزاهة) وجمع فيه جملة علوم، وذكرت لمناسبة علم الهيئة، فتكلّم على كروية الأرض وعلى سيرها وضح ذلك من كلامه أنّ الأرض كورة، ولايضر اعتقاد تحركها وسكونها. مات هذا الشيخ سنة 1226 هـ على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السّلام وخلفه حفيده المسمّى باسمه»[1].

ولو لم يكن للشيخ أي تأليف ولا جهود علمية أخرى غير أنه تنبه في وقت مبكر بكروية الأرض لكفى له شرفا، فالكل يعرف ما أحدثته كروية الأرض من نزاعات بين العلماء، حيث نفيت الكثرة منهم أن تكون الأرض الثابتة والممتدة كروية أو أنها تدور، ولم يقتنعوا بذلك إلا بعد أن وقفوا على التجارب العلمية التي لا تقبل الشك ولا تترك الريب في نفس كل عاقل.

وهذا الشيخ من أكبر الرموز البارزة في المنطقة درس العلوم كلها فروعها وأصولها وفنونها فقها ونحوا وصرفا وحديثا وتفسيرا وفلكا وفلسفة وباطنا وظاهرا وغيرها حتى صار ماهرا في الجميع يقول أحمد البكاي حفيده واصفا له في قصيدة له[2]:

أو ليس قد قرأ الخلاصة لابن ما ... لك الإمـام ولم يصم رمضان

أقرأه إياها عليـــــــه جـــــده ... شيخ الطريقة وهـو ذاك الأنا

(1) محمد محمود بن ودادي، ملحق كتاب كنته الشرقيون. دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، ص ص 210-211 .

(2) -مخطوطة في مكتبة عبد القادر حيدرة، بتمبكتو غير مرقم.

**ثالثا- مؤلفاته**

لقد كرس الشيخ المختار الكبير جلَّ حياته للتـأليف، وعمّر نشاطاته جميع الأماكن والزوايا، واشتهر بغرازة التـأليف ورونق الأسلوب. وقد ترك مؤلفات قيمة ومتنوعة لا يمل القارئ من قراءتها تفوق المائة ورسائل جمة في كل الفنون في التاريخ والتصوف والفقه والتوحيد والقرآن والحديث والجهاد والسياسة والطب والعلوم والجغرافية والشعر وعلم الباطن والفلك وغيرها. وبهذا يعتبر الشيخ المختار الكبير من المكثيرين في التصنيف، بل لعله، أعظم المصنفين في البلاد الصحراوية قاطبة. يضاف لذلك جودة تحريره لمصنفاته وأصالتها الفكرية المكينة. وهو ما يرجع إلى غنى مكتبته الخاصة التي حوت من الكتب ما لم يتوفر لغيره من مؤلفي بلده، ولغته الفصحى التي جعلت الباحثين يعتبرونه وأبنائه أعظم النافرين في البلاد الموريتانية بل في العالم الإسلامي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري.[1] ولأن ذكر جميع هذه المؤلفات سيخرجنا عن الموضوع نكتفي بهذا الحديث عنها جملة، وسوف نذكر بعضها ضمن المؤلفات القادرية في مخطوطات معهد أحمد بابا ومكتبة ماما حيدر لمن يريد الاطلاع عليها.

**رابعا- دوره في المجتمع**

عرف الشيخ باهتمامه في تثقيف المجتمع وتعليمهم القرآن الكريم، حتي ذكر من سيرته أنّه كان يهتم بتثقيف النساء، ويذكر عنه الشيخ محمد المختار: إنّه ختم ( المختصر الخليلي ) تدريسا هو وزوجه في يوم واحد في خيمة واحدة: الشيخ للرّجال وزوجه للنساء. ونفس المصدر يسجل عن المترجم

(1) - راجع محمد محمود بن ودادي، ملحق كتاب كنته الشرقيون. دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، د. ت 210-211.

أنه كان يعامل الرقيق معاملة إسلامية، فيكسوهم كسوة أحرار، وينفق عليهم نفقة العيال، ويقوم عليهم بالآداب قيام السائس العالم، ويحزّر من تعذيبهم.[1] ولاشك أن في ختم تدريس القرآن الكريم في ليلة واحدة مبالغة واضحة، إلا أنه يقرب إلى أذهاننا اهتمام الشي بتدريس القرآن والتفاني في ذلك وربما كان تالقرين الكريم خلقه أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم.

وبهذه السيرة وأشباهها انتشر شهرة الشيخ المختار الكبير حيث امتدت إلى مصر، وانتهت إلى الشيخ مرتضى الزبيدي، فراسله وأمده.[2]

وبعد وفاته تسلسلت ريادة المدرسة الكنتية في عقبه، بدءً من ابنه محمد بن المختار ت سنة 1241 هـــ 1828 م. وهو لا يقصر عن والده علما وتأليفا وسلوكا. ثم خلفه ابنه المختار الخليفة أو المختار الحفيد، بن محمد بن المختار الكبير، ت سنة 1263 / ( 1847) . وبعده انتقلت الرئاسة إلى أخيه أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكبير ت 1281 / (1865). وقد كانوا – ومعهم تلاميذتهم– يتبنون الدعوة إلى إحياء السنة وإماتة البدعة.[3]

وهذا ما يفهم من قول محمد الأمين الصحراوي « ولم نجد ــ اليوم ــ طائفة على نهج السنة المحمدية إلا طريقتين: طريقة شيخنا سيدنا المختار الكنتي، وطريقة شيخنا سيدي أحمد بن ناصر، وهاتان الطريقتان عزّتا وقلتا من أجل السنة.»[4]

---

(1) – بالإضافة إلى هذا المصدر نشير إلى تأليف الشيخ المختار الكبير : ( المختصر الجامع لما تدع إليه الحاجة من الحر والعبد والمرأة والصبي ). وهو من المؤلفات الواردة ضمن اللائحة الأولى .

(2) –راجع فتح الشكور، تأليف الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولات، دار الغرب الإسلامي بيروت 1401 ـ1981 : ص153 عندترجمته .

(3) – راجع محمد المنون: حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ جامعة الحسن الثاني، العدد الرابع 1987،ص 93 نقلا عن الطارف والتالد،خ،ع، ك 588

(4) – المرجع نفسه ص 94.

وعلى هذا فإن أطر المدرسة المختارية ــ شيوخا وتلاميذ ــ جميعهم نشروا الإسلام إلى قلب أفريقية، ووقفوا سدا منيعا ضد أعلى التبشير المسيحي، وتوزّع نشاطهم بين ثلاثة مراكز:

الزواية القادرية البكائية بأزواد، وتمثل القاعدة المركزية لينتشر الدعاة منها إلى تمبكتو.

ثم الزاوية القادرية في أدرار الصحراء.

الثالثة الزاوية القادرية بولاته، ومنها انتشرت الطريقة إلى باقي أقطار السودان الغربي.[1]

وعن حماس الكنتية في نشر الإسلام بأفريقية الغربية، ورد في كتاب حاضر العالم الإسلامي أن « القادرية هم أحمس مبشري الدّيني الإسلامي في غرب أفريقية من السنيغال إلى بنين، التي بقرب مصب النيجر، وهم ينشرون الإسلام بطريقة سليمة: أي بالاستعمار والتجارة والتعليم، وتجد التجار السونينكيين والماندي المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارتا وماسينة: كلهم من مريدي الطريقة القادرية. ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم، ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط، بل وفي كل القرى فيلقنون صغار الزنج الدين الإسلام أثناء التعليم، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان، وجامع القرويين بفاس، والجامع الأزهر بمصر، فيخرجون من هناك طلبة مجازين أي أساتذة، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان»[2].

(1) – راجع محمد المنون : حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ جامعة الحسن الثاني، العدد الرابع 1987،ص : 94 نقلا عن حاضر العالم الإسلامي دار الفكر : الطبعة الثالثة 1391 / 1971 : 2/ 395.

(2) راجع المصدر نفسه 2/ 395 / 396.

وهذه شهادة قوية تبيّن أن الطريقة الكنتية ليست كما يتبادر إلى ذهن جماعات أن الطريقة كانت تناصر الاستعمار، بل طريقتها حكمة حكيمة في نشر الدعوة المحمدية، ومقاومة المد المسيحي والتدخل الأجنبي من غير لفت النظر.

**خامسا- طريقة القادرية في محاربة العدو الاستعماري**

وقد أدركت هذه الطائفة أنه لا حول ولا قوة للماليين أمام أسلحة العدو، فالأحسن التقرب إلى الاستعمار والتحبب إليهم كي لا يمس مقدسات المسلمين وينجون من تعذيبه لهم وفي ذلك حفظ للأعراض والدين، ثم استغلال هذه المكانة لنشر الوعي بين المسلمين للتمسك بدينهم **(وأن مع العسر يسرا)**.

**سادسا- نماذج شعرية لشعرء هذه الطائفة**

1 - نفتتح هذا الموضوع بالقصيدة المبطولية التي كتبها ابنه الشيخ المختار الكنتي، سيدي محمد، ت 1284ه / 1868م»، وهي تترجم هموم المدرسة الكنتية، وفيها ينذر بأزمة الصحراء، أمام التهديد الأجنبي، ويحرض على الاستعداد وجمع الكلمة أمام الخطر المشترك، وهي قصيدة مطولة[1] ومن صرخاتها :

فيا للمسلمين لهـــا أمـــورا ... لها الأكباد تنفطر انفطـــارا

تهاونتم بموقعها ومـــــا إن ... تهاونتم بها إلا اغتـــــــرارا

لصوص لا تخاف البأس منكم ... ولا العقبى فترضى أن تـــدارا

وروم عاينوا في الدين ضعفـا ... فراموا كلما راموا اختبـــارا

فإن أنتم سعيتم وانـتـدبتـــــم ... برغم منهم ازدجـروا ازدجـارا

وإن تكاسـلـتـــم وخـمتـــم ... برغم منكم ابتدروا ابتـــدارا

(1) - القصيدة كاملة في ((الوسيط )) ص 248 - 254.

فالفوكم كما يبغون فوضـــــى حيارى لا انتداب ولا ائتمـارا
ولم أعـرف سوف تـرون عمـا قليل صبح ليلكم استـنـــــارا

2 ـ الشاعر محمد بن محمود ابن الشيخ سيد أحمد ابن سيد بكر ابن القاضي سيد أحمد، ولد في تمبكتو وأصله من السوق. وينتمي نسبه إلى الشريف الحسني الفاطمي، وهو من علماء المالكية المشهورين . تولى القضاء في تمبكتو بل بلغ الدرجة الأولى من القضاء حيث وصف بقاضي القضاة. ومن علو عقله وبعد نظره أنه لما درس الأوضاع وقارن الأمور، استمال إلى العدو المستعمر متظاهرا بمحبته، لقد استغل الاستعمار مكانته الاجتماعية، لنشر ثقافته، وهو في الحقيقة قد اتخذ هذا التقرب وسيلة ناجعة لنشر الإسلام والدفاع عن المسلمين.

نظم قصيدة في 32 بيتا، ذكر فيها محاسن فرنسا ومدحها، ثم أعقب ذلك بذكر مساوئ الماليين وحروبهم القبلية قبل احتلال فرنسا. وقد رثاه تلميذه السيد أحمد بن عمار التنبكتي بقصيدة من البحر الوافر، افتتحها بالآتي :

دعي عذلي بثين فحبل ودي بـلا شـك أراه فـي الانـصـرام
دعيني واسمعي قولي فإنـي سمعتهم نعوا حبر الأنـــام
لذك قد حزنت وبت ليلـــي بلا نوم وقلبي في السقـــام
فلقد معلم الجهـــال طـــرا كذا العلماء ضوء للظـــلام

3 – ومنهم أحمد البكاي بن محمد سيدي المختار الكنتي، ولد بتمكتو ونشأ بها، تعلم علوم الدين واللغة والأدب، وهو من بيت علم وورع وتقوى.

وقد قاد هذا الشيخ قبيلة الكنته في حروب عديدة مع طوائف تجانية، وقبائل أخرى، كما أنه لسان كنته في الحروب الباردة المتمثلة في الهجاء والحماسة. وقد عثرنا على قصيدة له من البحر الكامل، يرد فيها على كل الأنصار ويهجوهم،

يقول أحمد البكاي مجيبا الشاعر أحمد سالم على هجائه كنتة، وتقع هذه القصيدة في 414 بيتا وبدايتها هي:

طرقت نفيسة والدجى لم يبخل وسنان من طول السرى في الهوجل
باتت يمثلها لعيني طيفهـــــا فأرقت لا للعارض المتهلـــــل
غيداء كنتاوية أمويـــــــــة قرشية ومن الطـــــراز الأول

هكذا يستمر في وصف محبو بته حتى يخلص إلى وصف الناقة التي تنقله إلى المحبوبة. ومن هنا يتحول إلى هجاء أحمد سالم، ووصف المعارك مع قبيلة محمد سالم وغيرها من القبائل. وفي عام 1865، توفي الشيخ أحمد البكاي بتمبكتو. وقد خلف مجموعة من الكتب، وكان أحمد البكاوي من هؤلاء الطماعين للرياسة والدنيا، ولم يكن مثل أسلافه المتصوفين، بل كان بعيدا عن هذا الزهد والتصوف. وله قصيدة أخرى في 81 بيتا، يهجو فيها قبيلة كل الأنصار. وقد خالف فيها طريقة المألوفة أي الطريقة الجاهلية المتمثلة في الافتتاح بالغزل ثم الوصف قبل الهجاء. وهو هنا دخل مباشرة في مهاجمة الأنصار وذكر فضلهم والافتخار بمحاسن الكنتيين. والقصيدة من البحر البسيط بدايتها.[1]

كفوا عن الحرب لستم أهلها أبني جالوت والتزموا الأحراث والبقرا
إن رجال بني الكنتي صولتنـــا في الحرب والضرب لا تبقى لكم أثرا
نصد عنكم إذا تؤذوا ونتركـــكم على أذاكم ولم نذكر لكم خبـــرا
ونستلين لكم واللين شيمتنـــا لغير من يبتغي لنا به الخـورا
ونأنف السب سبكم وذمكـــم ولم نبال بمن يجفو ومن هجـــرا

(1) – راجع محمد سعيد القشاط، المرجع السابق ص 21.

## سابعا- بعض كتب الطريقة القادرية مكتبتي أحمد بابا وماما حيدرا في تمبكتو

**1 – كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة** : وهذا الكتاب مسجل تحت رقم 415، مركز أحمد بابا ويحتوي على 519 صفة تمت نسخه عام 1276هـ بخط صحراوي جميل وواضح، ويوجد نسخة في مكتبة مما حيدره تحت رقم 515، وتحتوي على العقيدة الإسلامية وتمس كثيرا من المجالات العلمية.

**2 – الجرعة الصافية والنفحة الكافية** : وهذا الكتاب موضوع تحت رقم 500 في مركز أحمد بابا. وقد أشار فيه إلى أنواع العلوم، والخلوة، وخصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وطلب العلم، ودواء علل القلوب، والضيافة والوسيلة وأحوال بعض الأولياء في الشهرة، والرد على زعم بعض الملل الإسلامية.

وقد اختصر هذا الكتاب وسماه بـ [الرشفة الشافية من الجرعة الصافية] يوجد تحت الرقم 1657 في مركز أحمد بابا وتحت الرقم 137 في مكتبة مما حيدره.

**3 –كش اللبس فيما بين الروح والنفس** : والكتاب لم يكمل ويوجد في 627 صفحة في مركز أحمد بابا تحت رقم 3616.

**4 – كتاب فقه الأعيان في حقائق القرآن أو لب الألباب في حقائق السنة والكتاب** : والكتاب في جزأين مسجل تحت رقم 2845 في مركز أحمد بابا.

فبدأ الكلام في الجزء الأول الذي يحتوي على 251 ورقة عن السحاب ومعناه وكيف تأتي وزمنه والخوف منه إذا لم يأتي في زمنه، ثم تكلم على الأنواء ومنافع الماء. وأمور الجن ووجودهم، وما اختص الله به هذه الأمة، في ضبط الحديث وإسناده، وأنواع الطابع في الإنسان ومقارنتها ببعض الحيوانات، الفرق بين المياه الظاهرة والباطنة، كيفية الإلهام، أقسام الكلام.

وأما في الجزء الثاني الذي يحتوي على 467 ورقة، فقد ركز الكلام على حقوق المشايخ وعلو مناصبهم وما يجب لهم وما يجب عليهم وبيان أقسامهم وتفاوت درجاتهم، ثم تكلم على مجاهدة النفس، وما يحتاج إليه المريد وشروط الإدارة والعقبات والخوف والرجاء وحقيقته.

**5 – كتاب البرد الموشي في قطع المطامع والرشاد : (والكتاب في جزأين)**

ففي الجزء الأول المسجل تحت رقم 10215 في مركز أحمد بابا أشار الشيخ في المقدمة إلى السبب الذي جره إلى جمع هذا الكتاب فبدأ الكلام حول الخصمين إلى الحاكم وليست لدى الثاني بينه وحكم القاضي بينهما غامضا عينيه عن الحقائق. ثم تكلم على الرشوة والراشي والمرتشي وما يجر كل نوع وخطورتها في المجتمع، وتكلم على القضاء وما فيه من الخطورة، وأمر المجتمع عند جور القضاة، والأمانة وما فيها والجهل وتحريم الفلول قليله وكثيره، والهدية للشاهد والفرائض الأربعة عند جلوس الخصمين أمام القاضي (التسوية بين الخصمين، التسوية في النية، قطع الطمع آجلا وعاجلا، التصميم، وفي رواية خمسة ... الخ).

وأما في الجزء الثاني المسجل تحت رقم 10216 مركز أحمد بابا، فيتكلم عن ما يستحب للخليفة والإمام وجميع الولاة والقضاة وتخيير الوزراء والبطانة الناصحة الصادقة الصالحة، والأعوان الطيبين الصادقين الأتقياء الأصفياء.

**6 – كتاب النقاب عن أسرار فاتحة الكتاب** : وهذا الكتاب قد ألف بعد نضار الذهر، ومسجل تحت الأرقام التالية في مركز أحمد بابا : 10222 – 1418 – 1699 – 2479. ومثله في مكتبة مما حيدره تحت الرقم 4550.

وهو يحتوي على تفسير سورة الفاتحة ومحتوياتها وأسمائها وفنونها والعلوم المستخرجة منها وأسرار حروفها وغير ذلك. وقد بين فيها أن سورة

الفاتحة يشتمل على فنون من العلوم منها علم التوحيد، وعلم العظمة المتعلق بالأسماء والصفات والتجليات وأسرار الحروف وخواص الأسماء والأشكال وعلم التاريخ وعلم الهيئة وعلوم الأحكام الشرعية مفصلا لهذه العلوم.

7 – **فتح الوود في شرح المقصور والممدود** : هذا الكتاب شرح لمنظومة الإمام محمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة المعروفة (المقصور والمدود) وهي منظومة تحتوي على 157 بيتا دون المقدمة، وهي منظومة عجيبة وغريبة إذ كل بيت يحتوي على أربع كلمات اثنتان مقصورتان واثنتان ممدودتان ومتحدة الألفاظ مختلفة المعاني، فهي في غاية الأدب لكنها تحتوي على التصوف العميق ولا يمكن التصرف في هذه المنظومة إلا من يمارس الغة العربية ويضلع في أساليبها.

وهذا الكتاب نافع لإصلاح القلوب فهو مبني على التصوف في الدنيا وفيها البلاغة والتمييز بين الممدود والمقصور والفرق بين المباني باللغة العربية وبأساليب عجيبة.

وقد تم تصنيفه في عام 1201 هجرية والكتاب في 200 صفحة تقريبا، وسجل في مركز أحمد بابا تحت الرقم 2035، ونسخة أخرى مسجلة في مركز أحمد بابا تحت الرقم 1974. ويوجد نسخة تحت رقم 562 في مكتبة مما حيدره. وطبع هذا الكتاب لأول مرة في المملكة العربية السعودية بتحقيق الدكتور مأمون محمد أحمد.

8 – **كتاب العلم النافع** : وهذا الكتاب يتكلم على الأحوال القلبية، وملازمة الذكر والوفاء بالعهد، وفوائد الذكر وأنواعه، وفوائد النصيحة والنية والشكر والذكر وأعمال الجوارح، وما تجر إليه الأخلاق السيئة، والكلام حول الدين النصيحة، وعلو مكانة الأولياء ... وغير ذلك. والكتاب مسجل تحت الرقم

10219 في مركز أحمد بابا

**9 – جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار** : وفي مركز باب نيخ من الكتاب، كما يوجد منه نسخة في مكتبة مما حيدرا تحت رقم 3111.

**10 – نزهة الراوي وبغية الحاوي : وهذا الكتاب يوجد نسخة منه في مركز أحمد بابا وكذلك في مكتبة مما حيدرة تحت رقم 3076، وهو كتاب نفيس في التوحيد والسيرة**

**11 – الإرشاد في مصالح العباد : وهذا الكتاب في انتباه أهل الغلو في أمور الدين، والرد على الذين يكفرون المسلمين، والفرق الدينية، ويشير إلى مناظرات عديدة. وهذا الكتاب في جزأين ضخمين الجزء الأول تحت رقم 1834، والجزء الثاني تحت رقم 1835.**

**12 – الكوكب الوقاد في ذكر فضائل المشايخ وحقائق الأوراد : والكتاب مسجل تحت رقم 1608 في مركز أحمد بابا.**

**13 – التذييل الجليل والعادم المثيل** : الكتاب مسجل تحت رقم 1805 في مركز أحمد بابا، وهو في صفة الشيخ المربي، وغيرها وهو مثل الكوكب الوقاد. بل ذيل به المؤلف كتابه (الكوكب الوقاد).

**أجوبة لبات** : الكتاب مسجل تحت رقم 1258 في مركز أحمد بابا، ويوجد نسخة منه عند السيد باد بن محمد الكنتي في امكوال، ويقال للكتاب أيضا الأجوبة اللباتية.

**14 – نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب** : الكتاب مسجل في مركز أحمد بابا تحت الأرقام التالية : 1607 – 1614 – 1655، ويحتوي على عدة صلوات على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مثل دلائل الخيرات، وقد شرحه ابنه الشيخ سيد المختار وسماه «بالروض الخصيب في شرح نفح الطيب». وقد طبعه منذ

عدة سنوات باموي بن الفا موي **الجناوي مدير مدرسة في بوبوجولاسو**.

**15 – المرأة الميمونة** : وهو في 295 صفحة، مسجل تحت رقم 1814 في مركز أحمد بابا.

**مطية الخلاص في كلمة الإخلاص في شأن المعلم والمتعلم** : الكتاب مسجل تحت رقم 1821 في مركز أحمد بابا.

**16 – مقالة في الأولياء وكرامتهم** : الكتاب مسجل تحت رقم 2684 في مركز أحمد بابا.

**17 – سلم الرضوان بذوق حلاوة الإيمان** : الكتاب مسجل تحت رقم 713 في مركز أحمد بابا.

**18 – الأجوبة المهمة لمن له بأمر الدين همة** : وهذه الأجوبة قد طابق اسمها مضمونها وهي تختلف مع النوازل الآخرين إذ لم ترتب على أبواب الفقه كما هي عادة أكثر الأجوبة وتحتوي تقريبا على 45 مسألة في مجال التربية والكسب والزواج والتعليم وآداب الرجل مع أهل بيته وحقيقة الأخوة والزهد والزكاة والقضاء والإمامة والبيع والسلم والخلوة ودعاء الاستخارة وحكم البئر وغير ذلك من المسائل المهمة، ويوجد منها نسخ في مركز أحمد بابا وفي مكتبة مما حيدره تحت رقم 1093.

**19 – كتاب فتح الوهاب على هداية الطلاب:**

فهذا الكتاب يقع في أربعة أجزاء في الفقه المالكي وكل جزء يحتوي على أكثر من سبعمائة صفحة فقد استخرج منه عدة مسائل فقهية ورموز علمية وبطريقة سهلة وناجحة. وقد اطلعنا على الأجزاء منذ سنة 1980ميلادي من ناحية ليري في إقليم تمبكتو .

**20 – النصيحة الشافية ... الكافية:**

ويحتوي هذا الكتاب المسجل تحت الرقم 1538 في مركز أحمد بابا، على الوعظ والإرشاد والنظافة والتزيين والرفق بالنفس والإخلاص وتمام العهد ومن هم أهل الخير والصبر عند المصيبة والوفاء بالعهد والأخوة في الإسلام وأنواع النعم والإسراف والحرص والأمر بالاقتصاد والأخذ على أيدي السفهاء والإحسان إلى الجار وحقيقة الدعاء والخطورة في اختلاط الرجال بالنساء والشح والبخل والحاكم الجائر وزلة العالم وطلب العلم والأذكار وأهميتها، جمع الله الصلوات كلها في ثلاث آيات من كتابه فسبحان الله حين تمسون... الخ وآداب الدعاء واسم الله الأعظم. والكتاب بخط نوح بن الطاهر وأخيه.

**21 – منظومة لأسماء الله الحسنى:** المنظومة لامية، والكتاب مسجل تحت رقم 1254 في مركز أحمد بابا.

**22 – مقالة في الأولياء وكرامتهم:** الكتاب مسجل تحت رقم 2284 في مركز أحمد بابا.

**23 – منظومة في الذات الإلهية:** الكتاب مسجل تحت رقم 2983 في مركز أحمد بابا، وقد شرح هذه المنظومة كثير من العلماء.

**24 – فتوى في الأموال المأخوذة من اللصوص والمحاربين:** الكتاب مسجل تحت رقم 2716 في مركز أحمد بابا.

**25 – منظومة في مدح السوقيين:** الكتاب مسجل تحت رقم 2649 في مركز أحمد بابا.

**26 – منظومة في مدح عشيرته والدفاع عنها:** الكتاب مسجل تحت رقم 1752 في مركز أحمد بابا.

**27 – فتوى في شأن الدم المستقر في الجوف بعد الذبح:** الكتاب مسجل تحت رقم 1766 في مركز أحمد بابا.

**28 – منظومة في الاستسقاء:** الكتاب مسجل تحت رقم 2372 في مركز أحمد بابا.

29 – **المثلث الكنتي:** وهذا المثلث قد شرحه الشيخ سيد محمد الكنتي الذي هو ناظمه، والكتاب مسجل تحت رقم 9590 في مركز أحمد بابا.

**30 – سلم الرضوان بذوق حلاوة الإيمان:** الكتاب مسجل تحت رقم 713 في مركز أحمد بابا، وهو يحتوي على أجوبة حول آداب التعليم والتعلم وحكم المعلم، والكلام حول كلمات القرآن، ما يأمر به المعلم التلميذ من الأمور كالطهارة والصلاة والأسماء كأسماء الشهور وغيرها، وحكم التيمم لتلاوة القرآن، وحكم الاقتداء بأفعال العالم، وهل يجوز للمكلف البالغ ترك تعليم الفرائض العينية بقراءة القرآن فقط، والكلام حول حديث لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد.

**31 – قصيدة في النصيحة والإرشاد والتوسل:** الكتاب مسجل تحت رقم 338 في مركز أحمد بابا، ويحتوي على منظومة تبلغ تقريبا 304 بيتا، يذكر فيها أسماء بعض الأنبياء والأولياء وبعض الصالحين ومئاثرهم ويتوسل بهم إلى الله. مطلعها:

أمن سره نحو الملبين قد يسري ترفق بنا ولتبدل العسر باليسر

وتنتهي القصيدة بالآتي:

فاسأل رب الله عونا على التقى ورعية ما استرعيت من عبد أو حر

وثم صلاة اللـــــه ثم سلامـــه على المصطفى المختار من خير معشر

**32 – المنظومة المسماة بالسهام المسددة:** وهي دعاء مفيد في الدفاع عن الأعداء، وهو مسجل تحت الرقم 2349 في مركز أحمد بابا.

**33 – قصيدة سرد المساحة: للشيخ سيد المختار (وقيل للشيخ سيد محمد ـ والله أعلم ـ)** الكتاب مسجل تحت رقم 2701 في مركز أحمد بابا، مطلعها:

طلعت ببرجك للبرية أسعد أيـام جـاد بك الزمان الأجـود

مزن الندا بسماء كفك لم تزل يروي الظما منها الرواء المرغد

34 – **قصيدة للشيخ سيد المختار الكنتي في الوعظ والإرشاد وتربية الأولاد وحقوق الأزواج**: الكتاب مسجل تحت الرقم 4888 في مركز أحمد بابا، ومطلع القصيدة:

متى تصحو وقلبك في غرور وتسبح بالسنين وبالشهور

**الخاتمة:**

من تتبع خطوات العلماء يدرك أن لهم دورا مهما في المجتمع وإذا تُرك هذا الدور أو أُهمِل أصبح المجتمع بسير بلا دليل ولا هداية.

أن الإسلام قد قام بور القائد الناجح في محاربة المستعمرين الغاصبين وذلك بعدة طرق ووسائل استعملها العلماء والأدباء في تنوعها من أجل الدفاع عن الدين والعرض والمال.

وأن آثار الاستعمار باتت واضحة في الإنتاجات الشعرية التي تندد بالاستعباد وانتهاك حقوق الأفارقة. وأن الشعر النضالي قد تميز باستعمال مفردات معّربة مثل المتفرنس وغيرها استجابة لمقتضى الحال. وأن التظاهر بحب العدو يجعلك تتمكن منه أيما تمكُّن، ومن ثم القضاء عليه وهذا ما يوصف الآن بالحرب الباردة وهي أشد أحيانا من حرب المواجهة.

إن أدباء وعلماء البلدان الأفريقية –كغيرهم من الدول العربية – قد كتبوا كثيرا في مجالات عدة تارة لتعليم الإسلام وتارة لتثقيف الأمة وتارة أخرى

للدفاع عن هويتهم ودينهم. ومن هؤلاء أدباءٌ فعّلوا عقولهم وأذهانهم وكرسوا جهودهم لقرض الشعر فأجادوه بحيث تجد في شعرهم هذا الجدية والرؤية الانسانية والمهارة الفنية مع الطرافة والغرابة المطلوبتين في الأدب بشكل عام. وأغلب هذه الأعمال لا تزال مخطوطة لم تر النور بعد.

كما أن أغلبية هذه المؤلفات القيمة وما شابهها مهملة ومهمشة بين المكتبات وفي الصناديق أو معلقة على الأشجار ومنها ما تحت الجنادل والرمال وما غمرته الغبار ومنها ما هي معروضة للحوادث الطبيعية والكوارث والقوارض وسوء الإعارة والاستغلال والسرقة والحرقة والغرقة، فعلى هذا فإنقاذها يرجع اليوم إلى كافة الأفارقة راع ورعية وإلى العالم الإسلامي حكومات وشعوبا.

والقيام بحفظها وحمايتها لا يمكن إلا بالاهتمام التام بتقوية المراكز الثقافية ومكتبات المخطوطات وخزائنها بالوسائل الحديثة وبأصحابها ومسئوليها ومن يعمل فيها بالتكوين والتدريب المستمر.

إن هذه المؤلفات المخطوطة متفرقة ومشتتة من هنا وهناك حتى قد تجد قطعة عند زيد والقطعة الأخرى عند عمرو أو قطعة في قرية وأخرى في قرية أخرى...، فالقيام بحفظ هذه المكتبات تساهم في تزويد الثقافة والتربية والتعليم بمراجع ذات قيمة تاريخية وحضارية رفيعة. والحفظ المطلوب يشمل التنقيب وجمع المخطوطات والصيانة والترميم والتجليد والتصحيح والضبط والمقابلة والطبع والنشر والتحقيق لينتفع بها الأمة. وإقامة مثل هذه الندوات والمؤتمرات والملتقيات الفكرية والثقافية تزيد في الاهتمام بها.

# الدور النهضوي لحركات التحرر الأفريقي - حركتي الإمام المهدي السوداني والأمير عبد القادر الجزائري نموذجا (دراسة مقارنة)

الدكتور : صالح سنين صالح يعقوب
أستاذ مشارك - جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم - جمهورية السودان ولاية الجزيرة - مدني.

## المبحث الأول : الإطار النظري

### مقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وبسط الرزق لعباده وأخرج المرعى، ثم الصلاة مع أزكى التسليم على خير الورى، محمد النبي الحبيب المصطفى والرسول المجتبى، الذي أنقذ الله به البشرية من مهاوي الإذلال والردى إلى رحاب الحرية والإيمان والتقوى، وعلى آله وصحبه أولي السبق والفضل والنهى، وعلى من سار على نهجهم إلى يوم البعث والحساب والمأوى

وبعد :

فإن الله تعالى قد خلق الإنسان وكرمه، وفضله على سائر خلقه وأسجد له ملائكته الكرام وقوّمه، واستخلفه في الأرض وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾الإسراء70

وقال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾الجاثية13.

ولكي يعيش هذا الإنسان عزيزاً مكرماً يؤدي دوره الإستخلافي الرسالي ويعمر الأرض خيراَ ونهضة ونماء، أرسل الله له الرسل، وهداه إلى أفضل

وأقوم السبل، ولكن مع هذا كله فقد اقتضت حكمته تعالى أن يكون هناك صراع بين الخير والشر، ومدافعة بين الحق والباطل، وتلك سنة كونية لامناص منها قال تعالى : ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة251.

ولذلك تبقى هذه السنة الكونية ماضية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فيجور أقوام ويعدل آخرون، ويستبد شعب ويستعلي، ويتصدى له الشعب الآخر ليرد العدوان ويسترد الحرية، وإزاء هذا التدافع السُّنني تبقى صيحة الفاروق عمر مدوّية، تستنهض كل مقهور ومظلوم وصاحب حق (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

ولأجل تجلية هذا الأمر الذي يتعلق بحركات التحرر في أفريقيا التي جاهدت وكافحت وتصدت للظلم الذي ألحقه الإنسان بأخيه الإنسان، يأتي هذا البحث حاملاً العنوان التالي : **الدور النهضوي لحركات التحرر الأفريقي – حركتي الإمام المهدي السوداني والأمير عبد القادر الجزائري نموذجاً (دراسة مقارنة.)**

## أهمية البحث

ومن خلال تلك المعطيات سالفة الذكر في هذه المقدمة، تأتي أهمية البحث في هذا الموضوع الحيوي المهم ضمن المحور الخامس، لمحاور الملتقى الدولي الثالث حول (الحواضر العلمية الجزائرية وأفريقيا) ويسعدني ويشرفني جداً المشاركة في هذا المحفل العلمي المبارك، وذلك من أجل الإجابة عن الأسئلة الملحة التي تؤرق كل مسلم غيور في هذا العالم، ذلك لأن أجدادنا الفاتحين العظماء الذين جابوا أنحاء المعمورة مبشرين بقيم العدالة والحرية تحت راية التوحيد الغراء أمثال : ( عقبة بن نافع الفهري وصحبه الميامين )

حريٌ بأحفادهم أن يذودا عن تلك القيم السامية النبيلة ويرفعوا راياتها عالية فوق هامات الزمان، وحسناً فعلت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بدولة الجزائر أرض العلماء والشهداء بعقد هذا الملتقى في هذا الظرف الدقيق الذي تمر به أمتنا الإسلامية والعربية من محيطها إلى خليجها.

## مشكلة البحث

تتمحور مشكلة هذا البحث في أن كثيراً من المهتمين والباحثين لايدركون عمق العلاقة وقوة القواسم المشتركة التي تربط بين حركتي الإمام المهدي بالسودان، والأمير عبد القادر بالجزائر فضلاً عن عامة الناس، ومن هنا تبرز الأسئلة الموضوعية والملحة الآتي ذكرها.

## أسئلة البحث

هنالك سؤال جوهري يرد في هذه السانحة وهو:

– ما الرؤية والطرح الموضوعي الذي يميط للثام عن هاتين الشخصيتين ودورهما في التحرير وشحذ همم الشعوب، وإقامة دولة حرة على أنقاض الاستعمار الغاشم؟

وتتفرع عن هذا السؤال المحوري الأسئلة الفرعية التالية :

**أولاً** : من هو الأمام المهدي ؟ وما أساس دعوته ؟ وما دعائم دولته ؟ وما أثره في تشكيل السودان بحدوده وثقافته ؟

**ثانياً**: من هو الأمير عبد القادر الجزائري ؟ وما أصول فكرته ؟ ومقومات دولته ؟ وأثره في إرساء النهضة للجزائر الحديثة ؟

– ما هي القواسم المشتركة التي تجمع بين القائدين والزعيمين في الإطار الفكري وبناء الدولة ؟

– ما الدور الذي ينبغي أن تقوم به مؤسسات البحث العلمي والهيئات الرسمية والشعبية تجاه هذا الشأن المهم ؟

وتقودنا الإجابة عن تلك الأسئلة إلى الفرضيات التالية :

## فرضيات البحث

– إن حركات التحرر في أفريقيا في أغلبها ترتكز على قيم العقيدة الإسلامية والموروثات القيَمِيَّة والتقاليد المجتمعية الراسخة.

– إن النهضة الحقيقية للأمة العربية لا تقوم وتزدهر إلا على هدي الإسلام وقيمه السمحاء.

– إن الإمام المهدي قام بثورة وحركة استطاعت أن توحد الأمة السودانية تحت راية الإسلام والجهاد ضد المستعمر.

– إن الأمير عبد القادر الجزائري انطلق من قاعدة العلم المؤسس على هدي شريعة الإسلام الغراء، فمزج بين مداد العلماء ودماء الشهداء.

– إن الأمير عبد القادر استطاع أن يشحذ إرادة الشعب الجزائري ويوجه طاقاته للذود عن ترابه ودينه حتى تحقق له ماأراد.

– إن القواسم المشتركة بين الزعيمين تتجسد في أكثر من صعيد ومجال في مسيرتهما الإصلاحية الجهادية أهمها :

1 – الظرف الزماني والتاريخي.( 1807م – 1885م ).

2 – المنطلقات الفكرية والعقدية.( السلام والعقيدة السنية).

3 – التشبع بالقيم الروحية الصوفية.( القادرية والسمانية).

4 – اللغة العربية واللهجات المحلية.( الأمازيغية والنوبية).

5 – أكمل (الإمام) حفظ القرآن وعمره اثنتا عشرة سنة، كما نال (الأمير) لقب الحافظ وأجيز في علم الحديث والتفسير وأيضاً عمره اثنتا عشرة سنة.

6 – تم تخليد ذكراهما بعد رحيلهما بمؤسسات تعليمية عليا.( حيث أنشأت جامعة باسم الأمير عبد القادر بحاضرة الشرق الجزائري – مدينة قسنطينة كما أنشأت في ذات الوقت جامعة باسم الإمام المهدي بمدينة (الجزيرة أبا معقل الحركة المهدية بولاية النيل الأبيض بوسط السودان.

تلك العوامل الخمسة الرئيسة في نظري، هي التي عمقت في حركتهما روح الإخلاص، والوحدة والثبات، ونكران الذات، والتضحية والفداء، من أجل تحقيق الهد ف وبلوغ الغاية، إضافة للنقطة السادسة التي هي بمثابة رد بعض الجميل والإحسان للقائدين الكبيرين.

وبالتحقق من تلك الفرضيات فإنني أ بني خطتي لدراسة هذا الأمر على المرتكزات والأهداف التالية

## أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق الآتي :

1/ إبراز الدور الجهادي والكفاحي والنضالي لشعبي السودان والجزائر– بقيادة الزعيمين – للتحرر من قوى الاستعمار في تلك الحقبة التاريخية.

2/ تسليط الضوء على الزعيمين الأمير عبد القادر الجزائري، والإمام محمد أحمد المهدي السوداني، ميلاداً ونشأة وجهاداً.

3/ التأكيد على أهمية التواصل الشعبي في دعم أواصر المودة والإخاء بين البلدان الإسلامية باستلهام قيم الوحدة والنصرة.

وتحقيقاً لتلك الأهداف فإنني سأتناول في هذه المداخلة المضامين الآتية:–

أ) عوامل ومرتكزات النهضة الحضارية التحررية لشعوب القارة الإفريقية (الجزائر والسودان نموذجاً).

ب) السمات والخصائص لكل من القائدين ( عبد القادر – والمهدي ) من خلال سيرتهما ومسيرتهما الفكرية والجهادية والإصلاحية.

ج) الجيل الحاضر ودوره في الحفاظ على الموروث الفكري والجهادي لثورتي الجزائر والسودان من خلال التمسك بقيم الإسلام والأعراف النبيلة.

## منهج البحث

1/ سيتبع الباحث المنهج الاستقرائي التاريخي والوصفي والتحليلي لبلوغ مقصده وتحقيق مخرجاته.

2/ سيقوم الباحث بتوثيق الآيات والنصوص القرآنية في صلب البحث وذلك إجلالاً وتعظيماً للنص القرآني.

3/ بقية النصوص والاقتباسات ستوثق بهامش البحث كما هو متعارف عليه.

–4 عرض بعض الصور للقائدين وأبرز معاونيهما في ملاحق البحث.

## مصطلحات البحث

– الأمير: ويقصد به الأمير عبد القادر الجزائري

– الإمام : ويقصد به الإمام محمد أحمد المهدي السوداني.

– عوامل النهضة : ويقصد بها المرتكزات الفكرية والعقائدية.

– التحرر : ويقصد به التخلص من ربقة الاستعمار الصليبي الإنجليزي والفرنسي.

– الدراويش : ويقصد بهم أنصار الإمام المهدي.

– الخلاوي : هي الكتاتيب أوالمدارس التي يتعلم فيها الناشئة.

## هيكل البحث

تتكون خطة البحث وهيكله العام من ثلاثة مباحث تتخللها عدة مطالب فضلاً عن الخاتمة والنتائج والتوصيات والملاحق وفهرس المصادر والمراجع وذلك على النحو التالي :

**المبحث الأول : وقد تضمن الإطار النظري للبحث والذي اشتمل على :**

المقدمة، أهمية البحث، مشكلته، أسئلته، فرضياته، أهدافه، منهجه، مصطلحاته، وهيكله العام.

**المبحث الثاني : التعريف بالقائدين وأسس دعوتهما وأثرهما على حركة التحرر وبناء الدولة وبه مطلبان :**

### المطلب الأول : القائد الأمير

### (أ) اسمه ونسبه وتاريخ ميلاده

هو عبد القادر بن محيي الدين، بن مصطفىٰ بن محمد، بن المختار، بن عبد القادر، بن أحمد، بن محمد، بن عبد القوي، بن يوسف، بن أحمد، بن شعبان، بن محمد، بن إدريس الأصغر، بن إدريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن بن فاطمة بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوجة علي بن أبي طالب ابن عم الرسول، فهو إذاً من آل بيت الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم.[1]

كان عبد القادر الابن الثالث لمحي الدين (سيدي محي الدين): شيخ

(1) أنظر : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر لمحمد بن عبد القادر الجزائري، ج 1- ط المطبعة التجارية بالإسكندرية – ص 28.

الطريقة الصوفية القادرية ومؤلف «كتاب ارشاد المريدين» الموجه للمبتدئين، وأمه الزهرة بنت الشيخ سيدي بودومة شيخ زاوية حمام بوحجر، وكانت سيدة مثقفة، وقد ولد الأمير في 6 / 5 وقيل 6 / 9/ 1807م بقرية القيطنة بولاية معسكر بغرب الجزائر.[1]

## (ب) طفولته وتعليمه

كان تعليمه الديني صوفيا أجاد القراءة والكتابة وهو في سن الخامسة، كما نال الإجازة في تفسير القرآن والحديث النبوي وهو في الثانية عشرة من عمره ليحمل بعد ذلك بسنتين لقب حافظ، وبدأ بإلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية، شجعه والده على الفروسية وركوب الخيل ومقارعة الأنداد والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك فأظهر تفوقا مدهشاً، ومن ثم بعثه والده إلى وهران لطلب العلم من علمائها، حضر دروس الشيخ أحمد بن الخوجة فازداد تعمقا في الفقه كما طالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي قاضي أرزيو وقد دامت هذه الرحلة العلمية ما يقرب من السنتين (1237–1239 هـ) (1821–1823 م).بعد عودته إلى بلدة القيطنة وكان قد بلغ الخامسة عشر، بادر والده إلى تزويجه واختار ابنة عمه السيدة ( لالة )خير زوجة له فهي تجمع بين محاسن الخلق والنسب الشريف.[2]

## (ج) رحلته إلى الحج مع والده

كان محي الدين بالإضافة لكونه شيخ الطريقة القادرية ذو مكانة رفيعة بين عامة الناس ومن كبار أعيانهم وقد دفعت آرائه بالحاكم العثماني لوهران إلى تحديد إقامته ببيته وهو ما دفعه للتفكير بالخروج لأداء فريضة الحج والابتعاد

(1) المصدر السابق الصفحة نفسها.

(2) المصدر السابق – صفحة : 96–97.

عن هذا الجو المشحون بالتآمر والكيد.

أُذن لمحي الدين بالخروج لأداء فريضة الحج عام 1241 هـ/ 1825م، فخرج واصطحب معه ابنه عبد القادر وهو في سن الثامنة عشرة، فكانت الرحلة إلى تونس ثم مصر ثم الحجاز ثم البلاد الشامية ثم بغداد، ثم العودة إلى الحجاز، ثم العودة إلى الجزائر مارًا بمصر وبرقة وطرابلس ثم تونس، وأخيرًا إلى الجزائر من جديد عام 1828 م وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات، فكانت رحلة تعلم ومشاهدة ومعايشة للوطن العربي في هذه الفترة من تاريخه، وما لبث الوالد وابنه أن استقرا في قريتهم «قيطنة»، ولم يمض وقت طويل حتى تعرضت الجزائر لحملة عسكرية فرنسية شرسة.

وتمكنت فرنسا من احتلال العاصمة فعلاً وكان ذلك في 5 يوليو 1830م، واستسلم الحاكم العثماني الداي حسين، ولكن الشعب الجزائري كان له رأي آخر.[1]

## (د) البيعة للجهاد وعقد الولاء للأمير القائد.

لقد فرّق الشقاق بين الزعماء كلمة الشعب، وبحث الأهالي والعلماء عن زعيم يأخذ اللواء ويبايعونه على الجهاد ضد المستعمر الغازي، ولم يمض وقت حتى استقر الرأي على (محيي الدين الحسني) وعرضوا عليه الأمر، ولكن الرجل اعتذر عن الإمارة وقبل قيادة الجهاد، فأرسلوا إلى صاحب المغرب الأقصى **(عبد الرحمن بن هشام)** ليكونوا تحت إمارته فقبل سلطان المغرب وأرسل ابن عمه **علي بن سليمان** ليكون أميرًا على المنطقة، وقبل أن تستقر الأمور تدخلت فرنسا مهددة السلطان بالحرب، فانسحب السلطان واستدعى ابن عمه ليعود

(1) انظر : الرحلة الحجازية – محمد التونسي، تحقيق : علي الشنوفي،ط الشركة التونسية للتوزيع 1978م ص 179.

الوضع إلى نقطة الصفر من جديد.[1]

**- البيعة الأولى للأمير ناصر الدين.**

لما كان محيي الدين قد رضي بمسئولية القيادة العسكرية، فقد التفت حوله الجموع من جديد، وخاصة أنه حقق عدة انتصارات على العدو، وقد كان عبد القادر على رأس الجيش في كثير من هذه الانتصارات. اقترح (محي الدين ) إبنه (عبد القادر) لهذا المنصب وجمع الناس لبيعته تحت شجرة الدردار فقبل الحاضرون من علماء وكبراء ووجهاء القوم، وقبل الشاب تحمل هذه المسؤولية، وتمت البيعة، ولقبه والده بـ (*ناصر الدين*) واقترحوا عليه أن يكون سلطان ولكنه اختار لقب الأمير وكان ذلك في 3 رجب 1248 هـ الموافق 27 نوفمبر 1832 م وهو ابن أربعة وعشرون سنة.[2]

توجه الأمير بعد البيعة إلى مدينة (معسكر) ووقف خطيبا في مسجدها أمام الجموع الكبيرة فحث الناس على الانضباط والالتزام ودعاهم إلى الجهاد والعمل وبعد الانصراف أرسل الأمير الرسل والرسائل إلى بقية القبائل والأعيان الذين لم يحضروا البيعة لإبلاغهم بذلك، ودعوتهم إلى مبايعته أسوة بمن أدى واجب الطاعة والولاء لله نصرة للحق وتطهيراً للأرض من دنس المستعمر الباغي.

**- البيعة الثانية والوثيقة التي قلبت الموازين.**

لما ذاع خبر البيعة الأولى بادر أعيان ووجهاء ورؤساء القبائل التي لم تبايع إلى المبايعة فتمت في مسجد بمدينة معسكر يسمى حاليا بـ (**مسجد سيدي**

(1) انظر : كفاح الجزائر من خلال الوثائق – يحي بوعزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1986م، ص 357 – 359.

(2) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

**الحسان)** حيث حررت وثيقة أخرى للبيعة وقرئت على الشعب وتولى كتابتها محمود بن حوا ألمجاهدي أحد علماء المنطقة وجاء فيها :[1]

*(بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الطيب الكريم وعلى آله وأصحابه ذوي الفضل العظيم، حمداً لمن فضل أمة محمد عليه السلام وخصها بمزايا لم يعطها أحداً من الأنام، وجعلها خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكرات والأرجاس، هداهم به إلى الرشاد، وطهرهم من عبادة الأوثان والأنداد والأضداد، وجعلهم الشهداء على من سواهم من الأنام فشرف بذلك أمرهم، ورفع قدرهم، وجعل إجماعهم حجة، وسبيلهم أقوم محجة، وأوجب عليهم نصب إمام عدل، وفرض عليهم إتباعه في القول والفعل ليكف الظالم وينصر المظلوم، ويجمع شملهم بالخصوص والعموم، ويكافح بهم عدو الدين لتكون العليا كلمة المسلمين، وصلاة وسلاماً على من صدع بالحق ودعا الخلق إلى القول بالصدق وجاهد في الله حق جهاده حتى استقام المعوج وآب عن فساده، سيدنا ومولانا محمد أشرف رسول وأكرم شافع مقبول، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، وعلى آله وأصحابه أهل وداده، وسيوف جلاده، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في طاعته ونصرته، وأوضحوا شريعته وبينوا طريقته، فحازوا بذلك أسنى المراتب، ونالوا الدرجات العلى والمناصب، فهم نجوم الإهتداء، ومصابيح الإقتداء.*

*هذا ولما انقرضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط واستولى*

---

(1) انظر : مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق : محمد الصغير بناني ومحفوظ سماني ومحمد صالح الحسون، شركة دار الأمة – الجزائر ط 1998م ص 143، كذا الموسوعة الحرة ويكيبيديا على الرابط /ar.wikipedia.org/wiki .

*العدو على مدينة الجزائر ومدينة وهران، وطمحت نفسه العاتية إلى الاستيلاء على الجبال والسهول، والفدافد والتلال، وصار الناس في هرج ومرج وحيص وبيص، لا ناهي عن منكر، ولا من يعظ ويزجر، قام من وفقهم الله للهداية، وظهرت عليهم العناية من رؤساء القبائل وكبرائها، وصناديدها وزعمائها، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على كتاب الله والسنة، فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر، رأس الملة والدين قامع اعداء الله الكافرين أبا المكارم السيد عبد القادر ابن مولانا السيد( محي الدين) أيد الله به الإسلام والمسلمين، وأحيا به ما اندرس من معالم الدين، فبايعوه على كتاب الله العظيم، وسنة نبيه الكريم، ( إن الذين يبايعونك أنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) . ثم قدمت على حضرته الوفود من سائر الجهات والحدود، أولهم وآخرهم شريفهم ومشروفهم كبيرهم وصغيرهم، بيعة تامة كاملة عامة، بيعة سمع وطاعة أفراداً وجماعة، بيعة عز وتعظيم وتبجيل وتكريم، بيعة يعز الله بها الإسلام، ويحذر ها الفجار اللئام.*

*يمنعون عنه السوء بما يمنعون به أنفسهم وأولادهم وأموالهم، ويبذلون في مرضاته أرواحهم وأكبادهم، إن أمرهم سمعوا وإن نهاهم حشعوا وخضعوا، يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء، وينصرونه في السراء والضراء، فمن وفى بيعته نال مسرته واتقى مضرته ولاقى مبرته، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وخسر في يومه وأمسه، والله المسؤول في هداية الخلق إلى طريق الحق والرأفة والرفق، ولما إزدهت هذه البيعة بكمالها، وطرزت بجلالها وجمالها، كمل سرورها وتمت بدورها بوزارة أبي المحاسن السيد محمد بن السيد العربي أقام الله به أمر هذه الدولة السنية والإمامة البهية وممن حضر هذه البيعة*

*وبايع وسمع لها وتابع من القبائل الشرقية والأحياء الغربية الوزير المذكور وبنو عمه وسائر العلماء والأعيان من معسكر وقلعة هوارة وأحوازهما كبني شقران وبني غدوا وسجرارة وقبائل غريس وأحيائه وغمائره وعشائره وأعيان القبائل الشرقية كالعطاف وسنجاس وبني القصير ومرابطي مجاجة وصبيح وبني خويدم وبني العباس وعكرمة والمحال وفليته والمكاحلية وأحلافهم وأعيان مجاهر والبرجيه والدوائر والزمالة والغرابة وكافة قبائل اليعقوبية والجعافرة والحساسنة وبني خالد وبني إبراهيم ثم القبائل القبلية كأولاد شريف وأولاد الأكرد وصدامة وخلافة وغيرهم ممن يطول ذكرهم من قبائل المغرب الأوسط وعمائره سهله ووعره ثم الكل بايعوا عن أنفسهم وعن قبائلهم بالإذن العام من الخواص والعوام وقعت هذه البيعة العامة في ثلاثة عشر رمضان سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف وفي الرابع من فبراير سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة كتبها خادم الشريعة السمحاء محمد الشهير بابن حوا).*

وقد وجه الأمير بعد هذه البيعة العصماء النجلاء، خطابه الأول إلى كافة العروش قائلاً: (... وقد قبلت بيعتهم (أي أهالي وهران وما حولها) وطاعتهم، كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوى والضعيف، واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله، في13 رمضان 1248 هـ الموافق لـ 4 فبراير 1833 م ).[1]

(1) المصدر السابق – والرابط ذاته على الشبكة العنكبوتية.

## (هـ) توحيد الصف وتأسيس الدولة

– عندما تولى عبد القادر الإمارة كانت الوضعية الاقتصادية والاجتماعية صعبة، لم يكن له المال الكافي لإقامة دعائم الدولة، إضافة لذلك كان هناك المعارضون لإمارته، ولكنه لم يفقد الامل، إذ كان يدعو باستمرار إلى وحدة الصف وترك الخلافات الداخلية ونبذ الأغراض الشخصية، كان يعتبر منصبه تكليفا لا تشريفا.وفي نداء له بمسجد معسكر خطب قائلا:(إذا كنت قد رضيت بالإمارة، فإنما ليكون لي حق السير في الطليعة والسير بكم في المعارك في سبيل الله، الإمارة ليست هدفي فأنا مستعد لطاعة أيّ قائد آخر ترونه أجدر منّي وأقدر على قيادتكم شريطة أن يلتزم خدمة الدّين وتحرير الوطن)[1]

– منذ الأيام الأولى لتولّيه الإمارة كتب بيانا أرسله إلى مختلف القبائل التي لم تبايعه بعد، ومن فقرات هذا البيان أقوال منها: «بسم الله الرحمن الرحيم:والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... إلى القبائل...هداكم الله وأرشدكم ووجّهكم إلى سواء السبيل وبعد... إن قبائل كثيرة قد وافقت بالإجماع على تعييني، وانتخبتني لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدت أن تطيعني في السرّاء والضرّاء وفي الرخاء والشدّة وأن تقدّم حياتها وحياة أبنائها وأملاكها فداء للقضية المقدّسة ومن اجل ذلك تولينا هذه المسؤولية الصعبة على كره شديد، آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ومنع الفُرقَة بينهم، وتوفير الأمن العام إلى كل أهلي بالبلاد، ووقْف كل الأعمال غير الشرعية...ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على اولئك الذين منحونا السلطة المطلقة الطاعة الدائمة في كل أعمالهم التزاما بنصوص كتاب الله وتعاليمه..والأخذ بسنّة نبيّه

(1) انظر : تاريخ الرحلة والاستكشاف في البروالبحر، إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، ط1986م ص 77.

صلى الله عليه وسلم في المساواة بين القوي والضعيف، الغنيّ والفقير، لذلك ندعوكم للمشاركة في هذا العهد الذي بيننا وبينكم..وجزاؤكم على الله، وإن هدفي هو الإصلاح، إن ثقتي في الله ومنه أرجو التوفيق.[1]

– إن وحدة الأمة جعلها الأمير هي الأساس لنهضة دولته واجتهد في تحقيق هذه الوحدة رغم عراقيل الاستعمار والصعوبات التي تلقاها من بعض رؤساء القبائل الذين لم يكن وعيهم السياسي في مستوى عظمة المهمة وكانت طريقة الأمير في تحقيق الوحدة هي الإقناع أولًا ثم التذكير بمتطلبات الإيمان والجهاد، لقد كلفته حملات التوعية جهودًا كبيرة لان أكثر القبائل كانت قد اعتادت حياة الاستقلال ولم تالف الخضوع لسلطة مركزية قوية.ولكن بفضل إيمانه القوي انضمت إليه قبائل كثيرة بدون أن يطلق رصاصة واحدة لإخضاعها، بل كانت بلاغته وحجته كافيتين ليفهم الناس أهدافه في تحقيق الوحدة ومحاربة العدو، لكن عندما لا ينفع أسلوب التذكير والإقناع، يشهر سيفه ضدّ من يخرج عن صفوف المسلمين أو يساعد العدوّ لتفكيك المسلمين، وقد استصدر الأمير فتوى من العلماء تساعده في محاربة أعداء الدّين والوطن من المرجفين.

## (و) سياسة التقشف لإدارة الاقتصاد وبناء الجيش

لقد قام الأمير بإصلاحات اجتماعية كثيرة، فقد حارب الفساد الخلقي بشدّة، ومنع الخمر والميسر منعًا باتا ومنع التدخين ليبعد المجتمع عن التبذير، كما منع استعمال الذهب والفضة للرّجال لأنّه كان يكره حياة البذخ والميوعة، لقد كان الأمير يرمي إلى هدفين هما :

– تكوين جيش منظم.

– تأسيس دولة موحّدة.

(1) انظر : مذكرات الأمير – مصدر سابق ص 155.

وقد أفلح في تحقيقهما، فقد كان مساعدوه في هذه المهمة مخلصون.بدرجة كبيرة.لقد بذل الأمير وأعوانه جهدًا كبيرا لاستتباب الأمن، فبفضل نظام الشرطة الذي أنشأه قُضِي على قُطّاع الطرق الذين كانوا يهجمون على المسافرين ويتعدّون على الحرمات، فأصبح الناس يتنقّلون في أمان، فانعدمت السرقات. وأعمال النهب.[1]

## (ز) النظام الإداري لدولة الأمير

قسّم الأمير التراب الوطني الجزائري إلى ثمانية وحدات إدارية هي :

1 – مليانة.

2 – معسكر. (مدينة ميلاد القائد).

3 – تلمسان. (إحدى حواضر الغرب الجزائري).

4 – الأغواط.

5 – المدية. (بقرب العاصمة الجزائر).

6 – برج بو عريريج (إحدى حواضر الشرق الجزائري).

7 – برج حمزة (البويرة).

8 –بسكرة، (سطيف) .

كما أنشأ مصانع للأسلحة وبنى الحصون والقلاع في كل من :

(تأقدمات، معسكر، سعيدة).

لقد شكل الأمير وزارته التي كانت تتكون من خمسة وزارات وجعل مدينة معسكر مقرّا لها، واختار أفضل الرجال ممّن تميّزهم الكفاءة العلمية والمهارة

(1) انظر : كفاح الجزائر – مصدر سابق ص 311.

السياسية إلى جانب فضائلهم الخلقية، ونظّم ميزانية الدولة وفق مبدأ الزكاة لتغطية نفقات الجهاد، كما اختار رموز العَلَم الوطني وشعار للدولة (نصر من الله وفتح قريب).[1]

## (ح) عواصمه المتنقلة ومعاركه الفاصلة ومعاهداته الذكية

ولأن الأمير كان رجلاً ذكياً وقائداً محنكاً، اضطرت فرنسا إلى عقد اتفاقية هدنة معه وهي اتفاقية (دي ميشيل) في عام 1834م، وبهذه الاتفاقية اعترفت فرنسا بدولة الأمير عبد القادر، وبذلك بدأ الأمير يتجه إلى أحوال البلاد ينظم شؤونها ويعمرها ويطورها، وقد نجح الأمير في تأمين بلاده إلى الدرجة التي عبر عنها مؤرخ فرنسي بقوله: (يستطيع الطفل أن يطوف ملكه منفردًا، على رأسه تاج من ذهب، دون أن يصيبه أذى!).

وكان الأمير قد انشأ عاصمة متنقلة كأي عاصمة أوربية متطورة آنذاك سميت (الزمالة ) وكان قد أسّس قبلها عاصمة وذلك بعد غزو الجيش الفرنسي لمدينة معسكر في الحملة التي قادها «كلوزيل»، وضع الأمير خطة تقضي بالانسحاب إلى أطراف الصحراء لإقامة آخر خطوطه الدفاعية وهناك شيد العاصمة الصحراوية (تكدمت.) وقد بدأ العمل فيها بإقامة ثلاث حصون عسكرية، ثم أعقبها بالمباني والمرافق المدنية والمساجد الخ، وهناك وضع أموال الدولة التي أصبحت الآن في مأمن من غوائل الغزاة ومفاجئاتهم. وقد جلب إليها الأمير سكاناً من مختلف المناطق من الكلغوليين، وسكان آرزيو، ومستغانم، ومسرغين، والمدية.

---

(1) انظر : مفهوم التاريخ – عبد الله العروي ج2، ص –231 المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ط 1992م.

## (ط) نقض العهود سمة الكفار والمنافقين

وبعد أن استتب الأمر، وقبل أن يمر عام على الاتفاقية نقض القائد الفرنسي الهدنة، وناصره في هذه المرة بعض القبائل في مواجهة الأمير عبد القادر، ونادى الأمير في قومه بالجهاد ونظم الجميع صفوف القتال، وكانت المعارك الأولى رسالة قوية لفرنسا وخاصة موقعة «المقطع» حيث نزلت بالقوات الفرنسية هزائم قضت على قوتها الضاربة تحت قيادة «تريزيل» الحاكم الفرنسي. ولكن فرنسا أرادت الانتقام فأرسلت قوات جديدة وقيادة جديدة، واستطاعت القوات الفرنسية دخول عاصمة الأمير وهي مدينة «معسكر» وأحرقتها، ولولا مطرٌ غزيرٌ أنزله الله تعالى في ذاك اليوم ما بقى في تلك المدينة حجر على حجر، ولكن مع ذلك استطاع الأمير تحقيق مجموعة من الانتصارات دفعت فرنسا لتغيير القيادة من جديد ليأتي القائد الفرنسي الماكر الجنرال (بيجو) ولكن الأمير نجح في إحراز نصر على القائد الجديد في منطقة (وادي تافنة) أجبرت القائد الفرنسي على عقد معاهدة هدنة جديدة عُرفت باسم «معاهد تافنة» في عام 1837 م. وعاد بعدها الأمير لإصلاح حال بلاده وترميم ما أحدثته المعارك بالحصون والقلاع وتنظيم شؤون الحياة، وفي نفس الوقت كان القائد الفرنسي «بيجو» يستعد بجيوش جديدة، ويكرر الفرنسيون نقض المعاهدة في عام 1839 م، وبدأ القائد الفرنسي يلجأ إلى الوحشية في هجومه على المدنيين العزل فقتل النساء والأطفال والشيوخ، وحرق القرى والمدن التي تساند الأمير، واستطاع القائد الفرنسي أن يحقق عدة انتصارات على الأمير عبد القادر، ويضطر الأمير إلى اللجوء إلى بلاد المغرب الأقصى، ويهدد الفرنسيون السلطان المغربي، ولم يستجب السلطان لتهديدهم في أول الأمر، وساند الأمير في حركته من أجل استرداد وطنه، ولكن الفرنسيين يضربون طنجة وبوغادور بالقنابل من البحر،

وتحت وطأة الهجوم الفرنسي يضطر السلطان إلى توقيع معاهدة لالة مغنية وطرد الأمير من المغرب الأقصى.[1]

## (ي) المقاومة والعودة إلى التفاوض مع العدو

عادت فرنسا مرة أخرى إلى أن توقع معه معاهدة (دي ميشيل) في فبراير 1834 م، معترفة بسلطته في غرب الجزائر، لكن السلطات الفرنسية لم تلتزم بتلك المعاهدة، الأمر الذي اضطره إلى الاصطدام بهم مرة أخرى، فعادت فرنسا إلى المفاوضات، وعقدت معه معاهدة (تافنة) في مايو 1837 م، مما أتاح لعبد القادر الفرصة لتقوية منطقة نفوذه، وتحصين المدن وتنظيم القوات، وبث الروح الوطنية في الأهالي، والقضاء على الخونة والمتعاونين مع الاستعمار.

## العدو يستمرئ خيانة العهود ويتبع سياسة الأرض المحروقة

لما أحس العدو بأن الأمير بدأ ينظم الصفوف، سرعان ما خرق المعاهدة من جديد، فاشتبك معهم عبد القادر ورجاله أواخر عام 1839 م، فدفعت فرنسا بالقائد الفرنسي (بيجو) لتولي الأمور في الجزائر، فعمل على السيطرة على الوضع بإتباع سياسة الأرض المحروقة، فدمر المدن وأحرق المحاصيل وأهلك الدواب، وأفسد الأرض كما وصفهم الله تعالى : (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ )البقرة205

إلا أن الأمير ورفاقه استطاعوا الصمود أمام تلك الحملة الهمجية الشعواء، مُحققين عدة انتصارات، مستعينين في ذلك بالله عزوجل ثم بالمساعدات والإمدادات المغربية لهم، لذا عملت فرنسا على تحييد المغرب وإخراجه من حلبة الصراع، فأجبرت المولى عبد الرحمن سلطان المغرب، على توقيع اتفاقية

(1) انظر : كفاح الجزائر من خلال الوثائق – مصدر سابق ص 321.

تعهد فيها بعدم مساعدة الجزائريين، والقبض على الأمير عبد القادر وتسليمه للسلطات الفرنسية، حال التجائه للأراضي المغربية.

كان لتحييد المغرب ووقف مساعداته للمجاهدين الجزائريين دور كبير في إضعاف قوات الأمير عبد القادر، الأمر الذي حد من حركة قواته، ورجح كفة القوات الفرنسية، فلما نفد ما لدى الأمير من إمكانيات لم يبق أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع، حقناً لدماء من تبقى من المجاهدين والأهالي، وتجنيباً لهم من بطش الفرنسيين الذين لايرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة.[1]

ولكن مع ذلك التراجع العقلاني للأمير فقد كانت له انتصارات داوية على الجيش الفرنسي المعتدي حتى أن أحد الشعراء قال قصيدة عصماء جاء فيها:

هنيئاً لك البشرى نصرت على العدى
ودمـــــرت جيش الكفر بالقتل والخسف
وحــزت مقاماً دونــه كـــــل باسـل
يـرى الحرب ميدان الخلاعة والقصف
بجيش عظيم قـد تفرد فـي الـــوغى
له سطوة عزت وجلت عن الــوصف[2]

## (ك) الأمير بين النفي والسجن والأسر

وفي ديسمبر 1847 م اقتيد عبد القادر إلى أحد السجون بفرنسا، وفي بداية الخمسينات أفرج عنه شريطة ألا يعود إلى الجزائر، فسافر إلى تركيا ومنها إلى دمشق عام 1855 م، وعندما وصل الأمير وعائلته وأعوانه إلي دمشق، أسس ما

(1) المصدر السايق الصفحة نفسها

(2) انظر : تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر – إسماعيل العربي، مصدر سابق ص 20

عرف برباط المغاربة في حي السويقة، وهو حي ما زال موجوداً إلي اليوم.

وسرعان ما أصبح الأمير ذو مكانة بين علماء ووجهاء الشام، وقام بالتدريس في المدرسة الأشرفية، ثم الجامع الأموي، الذي كان أكبر مدرسة دينية في دمشق آنذاك، بعدها سافر الأمير للحج ثم عاد ليتفرغ للعبادة والعلم والأعمال الخيرية،.[1]

## القلب الكبير والحكمة الراجحة للأمير

وبعد أربعة أعوام من استقراره في دمشق، حدثت فتنة بين المسلمين والمسيحيين في في الشام عام 1860 واندلعت أحداث طائفية دامية، ولعب الأمير عبد القادر فيها دور رجل الإطفاء بجدارة، فاستعمل حكمته ورجاحة عقله، ففتح بيوته للاجئين إليه من المسيحيين في دمشق كخطوة رمزية وعملية على احتضانهم. وأكرمهم بسماحة الإسلام وتم وئد الفتنة، وهي مأثرة لا تزال تذكر له إلى اليوم إلى جانب كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي في بلاده الجزائر..[2]

## (ل) التراث العلمي والفكري للأمير عبد القادر.

لم يكن الأمير عبد القادر قائدا عسكريا وحسب، بل كان عالماً وفيلسوفاً ومفكرا وشاعرا، وفقيها وسياسيا محنكاً، فله مؤلفات وأقوال كبيرة في الشعر تبرز إبداعه ورقة إحساسه مع زوجه في دمشق ومكانته الأدبية والروحية، وله أيضا كتاب (المواقف) وغيره. وقد ألف في بروسة تركيا أثناء إقامته بها رسالة (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) وهو كتاب موجه لأعضاء المجمع الآسيوي

(1) انظر :شارل هنري تشرسل – حياة الأمير، ترجمة وتعليق وتقديم دكتور أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية ط 21982 ص 57 – 58.

(2) انظر : تاريخ الرحلة والاستكشاف – مصدر سابق.ص 340

بطلب من الجمعية، وذلك بعد أن منحه هذا المجمع العلمي الفرنسي قبل ذلك بقليل العضوية فيه. وكان تاريخ تأليف الرسالة في 14 رمضان 1271 / 1855 م، ثم ترجمها الفرنسي (غوستاف ديغا )إلى لغته في عام 1858 م وهو القنصل الفرنسي بدمشق آنذاك، ويحتوي الكتاب على ثلاثة أبواب (في فضل العلم والعلماء) وبه تعريف العقل وتكملة وتنبيه وخاتمة، وفي إثبات العلم الشرعي، ويتحدث فيه كذلك عن إثبات النبوة واحتياج كافة العقلاء إلى علوم الأنبياء.. وفصل ثالث (في فضل الكتابة).[1]

## (م) الوفاة والرحيل

بعد رحلة طويلة وحياة عا مرة بالبذل والعطاء، والتضحية والفداء، وافاه الأجل المحتوم بدمشق في منتصف ليلة 19 رجب 1300 هـ / 23 مايو 1883 عن عمر يناهز 76 عاما، وقد دفن بجوار الشيخ ابن عربي بالصالحية بدمشق لوصية تركها. وبعد استقلال الجزائر نقل جثمانه إلى وطنه الذي طالما ضحى في سبيله وبذل حياته ثمناً لحريته واستقلاله عام 1965 ودفن في مقبرة العالية في مربع الشهداء الذي لا يدفن فيه إلا الشخصيات الوطنية العظيمة كالرؤساء والزعماء الكبار.[2]

## المطلب الثاني : القائد الإمام

## (أ) اسمه وميلاده ونسبه ونشأته وتعليمه.

هو محمد أحمد بن عبد الله بن فحل الملقب بالمهدي، ولد عام 1259هـ/ 1843م بجزيرة (لَبَبْ )قرب مدينة دنقلا في شمال السودان، وهي

(1) انظر : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر – مصدر سابق.ص 212

(2) انظر: كفاح الجزائر – مصدر سابق.ص 280

تسمى جزيرة الأشراف، لرجوع نسب سكانها إلى السيد الحسن بن علي. من أسرة اشتهر أنها حسينية النسب، وكان أبوه فقيهًا، فتعلم القراءة والكتابة. وقد حفظ القرآن الكريم وهو في الثانية عشرة من عمره، ومات أبوه وهو صبي صغير، فعمل مع عمه في نجارة السفن، ثم انقطع بعد ذلك مدة خمسة عشرة عامًا للعبادة والتدريس، فكثر مريدوه وطلابه فانتقل إلى الخلاوي بالخرطوم، وقبل ذلك عرّج على خلاوي الغُبُش بمدينة بربر.فصار يعلم ويتعلم حتى سلك الطريقة السمانية عام 1871م.

وقد استفاد من الشيخ محمد الخير أحد مشايخ الأزهر فتعلم منه النحو والتوحيد والفقه والتصوف، وأخذ كذلك عن الشيخ محمد شريف ود نور الدايم مزيداً من الدروس في علوم الشريعة والتصوف على الطريقة السمانية، واستمر متصلاً بشيخه حتى حدثت جفوة بينه وبين شيخه، فدخل محمد أحمد في طريقة الشيخ القرشي ود الزين بأرض الجزيرة – بين النيلين الأبيض والأزرق– وكان الشيخ القرشي من أتباع الطريقة السمانية، وبعد وفاة شيخه انطلق إلى جزيرة آبا، ويتوافد عليه المريدين من مختلف بقاع السودان.[1]

## (ب) دعوته إلى المهدية

بدأ دعوته إلى المهدية سراً عام 1297هـ1880 م، وجهراً في العام التالي، وكثر أتباعه، وذاع صيته في كل السودان، وظل محمد أحمد يلقب بالفقيه، حتى أعلن عن نفسه أنه «المهدي المنتظر»، وصار يعرف بهذا الاسم منذ ذلك الحين.

(1) انظر : الموسوعة الرقمية على الشبكة العنكبوتية الرابط
**http://www.sudanway.sd/charact_almahadi.htm**.

## (ج) مذهبه وأفكاره ( البيعة)

تقوم فكرته على الإصلاح الديني والاجتماعي، عن طريق العودة إلى التشريع الإسلامي في عهوده الزاهرة، وفتح باب الاجتهاد، وإقامة الحدود الشرعية، وقد تجلى ذلك في نص البيعة التي يبايعه بها مريدوه هي: (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله، أما بعد فقد بايعنا الله وبايعناك على توحيد الله، وألا نشرك به أحداً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نأتي ببهتان ولا تعطيل في معروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها، والرضى بما عند الله رغبة في الدار الآخر، وعلى أن نقيم الجهاد ونبذل في سبيل ذلك أنفسنا وأموالنا وأولادنا ).

كان المهدي يعيش مفتوح الذهن والقلب على المرارة والظلم والفساد الذي كان يكتوي به الشعب السوداني، وشهدت الجزيرة (آبا) تكاثر المريدين والزوار وذوي الحاجات عليه فصار يرشد ويوجه السلوك[1]

## (د) إعلان الثورة وأهداف الدعوة

أعلن محمد أحمد المهدي ثورته وحركته الجهادية سنة 1881م وكان أهم أهدافها:

1/ وضع حد لتسلط الباشاوات والموظفين الأتراك والجراكسة والأوروبيين الأجانب ومن والاهم.

2/ إيقاف النهب الاستعماري لخيرات السودان وإذلال شعبه.

3/ محاربة الفساد الإداري وإرهاق الشعب السوداني بالضرائب ذات المسميات المختلفة.

---

(1) انظر : المهدي وقضية المهدية، محمد إسماعيل المقدم ص 85. وكذا المهدية وتاريخ السودان 1881 – 1899م ثيو بولد، ترجمة : محمد المصطفى حسن عبد الكريم ط/ م عبد الكريم ميرغني الثقافي.

4/ الدعوة إلى رفض السلطة العثمانية.المستبدة.

5/ الاتصال بالثورة العُرابية ( أحمد عُرابي )وتعاطفه معها، حيث كان يتفق معها لمقاومة الاستعمار البريطاني.

– ازدادت ثورة المهدي اضطراماً بانضمام العناصر الساخطة على الحكومة للدعوة الجديدة كالتجار، وزعماء القبائل، خصوصاً عبد الله التعايشي زعيم قبائل البقارة والذي أصبح فيما بعد الساعد الأيمن للمهدي وخليفته من بعده، وأطلق المهدي على أتباعه لقب الأنصار، وكان المسئول عن إدارة شئون السودان في ذلك الوقت الحكمدار رءوف باشا الذي وجد نفسه أنه لا يستطيع الاعتماد على القاهرة، فالثورة العرابية كانت مشغولة بنفسها وبالخطر المحدق بها فأرسل إلى المهدي في مقره في أبا، قائلاً له: (اذهب إلى الخرطوم، واحظَ بالمثول بين يدي سيد البلاد لكي تبرئ ساحتكم)، فرفض المهدي هذا الطلب وبدأ في إعداد العدة للمواجهة.[1]

## (هـ) بداية المعارك والمواجهات الجهادية ضد المستعمر

لقد اتسم المهدي بالجدية والحسم، فقرر فوراً أن يجابه هذا الظلم بالتخطيط السليم للجهاد والمبارزة، لأن لغة المستعمر كانت في غاية الصلف والاستفزاز، لذلك جرد نفسه للمواجهة، واستجاب أنصاره للتحدي، فكانت أولى معاركه في معقله.

(1) انظر : منشورات المهدي – تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ط/ دار الجيل – بيروت 1979م، ص 209.

### 1/ أولى المواجهات والانتصارات – معركة الجزيرة أبا: في 12 أغسطس سنة 1881م

جند رؤوف باشا كتيبة من مائتي جندي إلى (الجزيرة أبا ) معقل الإمام، بقيادة أبي السعود العقاد، ليأتوا له بالمهدي أسيراً، ولكن محمد أحمد (المهدي) كان متيقظاً، فأعد رجاله وأنصاره – وكانوا يسمون الدراويش– للقتال، فما إن نزل الجند من الباخرة التي أقلّتهم وبلغوا القرية، حتى انقض عليهم رجال المهدي، وفتكوا بهم جميعاً وكانوا 120 جندياً، وستة ضباط، أما أبو السعود فلم يكن قدغادر الباخرة بعد، خوفاً على نفسه، فلما علم بما حل بالجند انسحب إلى الخرطوم، وأخبر رءوف باشا ما فعله المهدي برجاله، وهذه أول معركة انتصر فيها المهدي. وقد ظهر بُعدَ نظره السياسي، وعبقريته العسكرية بوضوح في قراره بالهجرة بعد هذا الاشتباك من (الجزيرة آبا) إلى (جبل قدير )في جبال النوبة، ذلك أن هذه الهجرة– فضلاً عن محاكاتها لمثال النبي صلى الله علي وسلم– أدت إلى نقل الثورة من منطقة مفتوحة تعوزها وسائل الدفاع وتقع على مقربة من قوات الحكومة (الأنجلو– مصرية )إلى منطقة نائية ومحصنة من الناحية الإستراتيجية، وهي منطقة جبال النوبة الحصينة، وكانت هذه الهجرة نقطة تحول فعلية في تاريخ الحركة المهدية، تكمن أهميتها الكبرى في أن نقل الثورة من الأقاليم النهرية إلى غربي السودان ترتب عليه أن أصبح أبناء غرب السودان منذ ذلك الوقت هم أهم القادة الإداريين والعسكريين، بينما تضاءلت أهمية الأقاليم النهرية تدريجياً.[1]

(1) انظر : ويسألونك عن المهدية – للحفيد الإمام الصادق المهدي، نسخة الكترونية.، وكذا تبصرة وذكرى ص27 – موسى عبد الله حامد، بدون تاريخ طبع.

## 2/ معركة «راشد والكمين المدمر» في : 9 ديسمبر 1881

وتستمر المواجهة ويستعد العدو للثأر، فقد علم راشد بك أيمن مدير (فشودة) بوجود المهدي في جبل قدير، فاعتزم السير إليه في جيشه للقبض عليه، ولكنه أخطأ أيضاً التقدير، ولاقى بئس المصير، فقوة المهدي كانت تكمن هناك على قمم الجبال فانقضوا عليهم، فقتل راشد باشا ونحو 1400 من رجاله، وغنم المهدي جميع أسلحة الحملة وذخائرها، وهي أول الوقائع والمعارك الكبيرة التي مكنت لجيش المهدي في البلاد وجعلته مهاباً يعمل له العدو ألف حساب.[1]

## 3/ العزل والتغيير ومعركة الشلالي التي شلت قوة العدو وأظهرت كرامة المهدي:

### 29 مايو سنة 1882م

عزلت الحكومة المصرية رءوف باشا، وعينت مكانه عبد القادر باشا حلمي ناظراً وحكمداراً للسودان، وأثناء فترة التغيير، كان يتولى الأعمال (جيكلر باشا )النمساوي رئيس مصلحة التلغراف السودانية بالنيابة عن الحكمدار، فجرد حملة بقيادة يوسف باشا الشلالي مؤلفة من نحو أربعة آلاف مقاتل، فلما اقتربت من معقل المهدي في جبل قدير انقض عليها المهدي بجموع حاشدة تبلغ نحو خمسة عشر ألفا، يوم 29 مايو سنة 1882م، وباغتوا الجند ليلاً وهم نيام، ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً، وقتل يوسف باشا الشلالي، وغنم المهدي أسلحة الجيش وذخائره، فازداد بها قوة، وذاع صيطه في مختلف الأرجاء، وخاصة في كردفان والإقليم الغربي، وبالمقابل تضعضعت هيبة الحكومة، وصدق الأهالي دعوة المهدي بعد هذه الانتصارات وظهور الكرامات، وانهمرت عليه جموع السودانيين مبايعة ومؤيدة ومناصرة.

---

(1) ا لمصدر السابق ص 44-50

### 4/ تغيير استراتيجية الإمام – الزحف نحو المدن وتغيير ميزان القوى : يناير سنة 1883م

هاجم المهدي مدينة الأبيض عاصمة كردفان بجيش قوامه خمسين ألف مقاتل من أنصاره، الذين يلقبون بالدراويش، يوم 8 سبتمبر سنة 1882م، واشتبك مع الجيش المصري المؤلف من ستة آلاف مقاتل بقيادة اللواء محمد سعيد باشا حكمدار غربي السودان، انتهت المعركة بهزيمة جيش المهدي بعد أن تغير ميزان القوى، حيث فتكت بهم نيران المدفعية والبنادق، وقتل منهم عدة آلاف، وكان من القتلى شقيق المهدي، وشقيق عبد الله التعايشي.

**لا يأس.. لابد من الفتح وإن طال السفر**

برغم الخسارة لم يتخلل اليأس إلى قلوب الجيش الرسالي المدافع عن ترابه وعقيدته فعاود المهدي المحاولة مرة أخرى، وحاصرمدينة ( بارا )إحدى المواقع المهمة في إقليم كردفان، حتى سقطت في 5 يناير سنة 1883م، ثم أعاد الكرة على (الأبيض) فحاصرها وسد عليها المسالك، حتى استسلمت لجيش المهدي، ودخلها فاتحا منتصراً يوم 19 يناير سنة 1883م، وغنم مخازن الأسلحة، فكان مجموع ما غنمه في معاركه: 6400 بندقية، وثلاثة عشر مدفعاً، ومقادير كبيرة من الذخائر( ).[1]

### 5/ معركة «سنار»: يناير وفبراير سنة 1883م والدعاء سلاح المؤمن

كانت الحرب سجالاً بين قوات الحكومة والمهدي، فاعتزم الحكمدار عبد القادر باشا الخروج إليهم بنفسه، فخرج من الخرطوم في يناير سنة 1883م يقود قوة من الجند، والتقى بالثوار في غابة قرب قرية (معتوق) فأوقع بهم وهزمهم،

(1) انظر : الموسوعة الرقمية – مصدر سابق على الانترنت، نفس الرابط.

ثم انسحب بجيشه إلى منطقة مشرع الدالي شمالي سنار، ووقعت معركة كبيرة مع الثوار دامت أكثر من ثلاث ساعات، قتل فيها من الثوار نحو ألف رجل، وأصيب عبد القادر باشا إصابة طفيفة، وانتهت المعركة بتشتيت شمل الثوار، ودخل عبد القادر باشا سنار، واستولى عليها وضيق على المهدي المسالك، وشعر المهدي بخطره، فكان يدعو الله عقب كل صلاة بقوله: (يا قوي يا قادر اكفنا عبد القادر).[1]

**6/ المهدي يتمدد شرقاً بعد معركة «المرابيع» :**

**29 أبريل سنة 1883م.**

قامت الحكومة المصرية بضغوط من بريطانيا بعزل عبد القادر باشا، وتعيين علاء الدين باشا حكمداراً لعموم السودان، وإرسال نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل من فلول جيش أحمد عرابي الذي بقي بعد الاحتلال البريطاني لمصر إلى السودان، تحت قيادة رئيس أركان الجيش الجنرال الإنجليزي وليام هكس باشا (General William Hicks Pasha)، وكانت أول مواجهة للثوار مع هذا1 الجيش في المرابيع، وكانت النتيجة هزيمة الثوار مما أغرى الجنرال هكس (Hicks) بالزحف نحو المهدي في كردفان.

– قام المهدي بإرسال أحد أتباعه وهو عثمان دقنة من منطقة سواكن، إلى شرق السودان لنشر الدعوة المهدية في تلك المنطقة، والثورة على الحكومة، لكي يشتت قواتها، ونجح عثمان دقنة في مهمته، فهاجم عثمان دقنة مدينة سنكات في 5/ أغسطس سنة 1883م، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها بسبب استبسال الجيش المصري بقيادة توفيق بك في الدفاع عن المدينة، فانسحب إلى جبل أركويت، وظلت الحرب سجالاً بين جنود الحكومة وجموع

(1) انظر : ويسألونك عن المهدية – مصدر سابق – نسخة الكترونية.

الدراويش، وحاصر هؤلاء الدراويش مدينة طوكر فخرج اللواء محمود باشا طاهر في قوة من الجند تبلغ 550 رجلاً لنجدة طوكر، يصحبه الكابتن مونكريف قنصل إنجلترا في جدة، فتربص بهم الدراويش في آبار التيب يوم 5 نوفمبر سنة 1883م، فأوقعوا بهم قتلاً، وفر طاهر باشا إلى سواكن، وبعد هذه المعركة وضع عثمان دقنة سواكن تحت الحصار، فصارت القواعد المصرية الثلاث المهمة وهي: سواكن، وطوكر، وسنكات، محاصرة بجموع الدراويش، وموقفها في غاية الحرج، ثم حشد عثمان دقنة نحو ثلاثة آلاف من رجاله ونزل بهم إلى آبار طماي على نحو 20 ميلاً من سواكن، وأخذ يهاجمها، وقطع الطريق بينها وبين سنكات، وشدد الحصار على سواكن، فخرج إليه الضابط كاظم أفندي على رأس قوة من خمسمائة من الجنود السودانيين و200 من الباشبوزق والتقوا الجيشان يوم 2 ديسمبر سنة 1883م، بالقرب من طماي، حيث انتصر الدراويش ولم ينجُ من جيش كاظم باشا سوى 45 رجلاً.[1]

### 7/ نقطة التحول الكبرى ومعركة شيكان الحاسمة :

### 5 نوفمبر سنة 1883م

تعتبر معركة شيكان نقطة التحول الكبرى في تاريخ الثورة المهدية ومعاركها الجهادية، ففي الوقت الذي كان الخديوي توفيق باشا وحكومته قد عقدوا العزم على سحق المهدي الذي أصبح يسيطر على جميع المدن الرئيسية في إقليم كردفان علاوة على نفوذه في وسط البلاد وتمدده في الشرق، كانت الحكومة المصرية تنظم حملة كبرى مكونة من بقايا جيش الثائر عُرابي – بعد أن قُضِيَ عليه – بقيادة ضابط بريطاني يدعى (هكس باشا Hicks)، وكان تعداد جيشه ثلاثة

(1) انظر: السودان في العهد التركي والمصري، د. عز الدين إسماعيل ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 113.

عشر ألف مقاتل، فساربهم منطلقاً من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان، ولكنه لم يقدّر قوة خصمه ولم تعظ من أسلافه الذين قضو نحبهم تحت ضربات الجيش المهدوي. فقطع مسافة مائتي ميل، حتى بلغ يوم 5/ نوفمبر سنة 1883م وادياً مفتوحاً تحيط به من الجانبين غابة كثيفة من الأشجار، وقد أصاب جيشه العطش الشديد، فلم يكد الجيش يدخل هذا الوادي حتى أطبقت عليه جموع المجاهدين الثائرين من كل جانب، واخترقوا صفوفه، وأمعنوا في الجنود ذبحاً وقتلاً، فكانت هذه الواقعة الشرسة الدامية على العدو، حيث قتل فيها الجيش الغازي برمته، قواده، وضباطه، وجنوده، ومنهم قائد المتحرك (هكس )وأركان حربه، ولم ينجُ من القتل سوى ملازمين اثنين، وثلاثمائة جندي، اختبأوا بين الأشجار، وأخذوا أسرى مصفدين في الأغلال.[1]

ارتجت أنحاء السودان قاطبة لانتصار المهدي في واقعة شيكان، وزادت هيبته في نفوس المواطنين والأهالي، وحتى الحكام المستعمرين، وتداعت سلطة الحكومة المصرية أمام هذه الكارثة التي أصابتهم والهزيمة النكراء التي حلت بجيشهم، فبادر الحكام الأجانب الذين كانوا يتولون حكم المديريات إلى التسليم للمهدي.

### 8/ سلاطين باشا يعلن إسلامه ويبايع المهدي

على إثر هذا الانتصار الباهر الذي هز السودان كله بل حتى في الخارج (مصر وبريطانيا وتركيا )، في هذا الجو المشحون بمشاعر الزهو والانتصار من جانب، والتوتر والخيبة من جانب آخر، أعلن (رودلف سلاطين باشا) استسلامه ومن ثم إسلامه وانقياده للإمام المهدي، وكان وقتئذ حاكماً على دارفور، ثم سقطت مدينة الفاشر عاصمة المديرية في ديسمبر 1883م، ودانت دارفور كلها لسلطة

(1) المصدر السابق ص : 119

المهدي في يناير سنة 1884م، وسلمت مديرية بحر الغزال في أبريل سنة 1884م.

**المكر الكُبّار ورمز الامبراطورية ينهار**

وفي تلك الأثناء طرأ تغيير جوهري على السياسة البريطانية تجاه المسألة السودانية بعد معركة شيكان، فبينما كانت بريطانيا ترى من قبل أن المسألة تخص مصر وحدها، فإنها شعرت بعد معركة شيكان أن مصالحها الإمبراطورية تقتضي انسحاب مصر من السودان فوراً، ومن ثم أمرت الحكومة المصرية بالتخلي عن السودان وأوفدت الجنرال تشارلز غوردون كي يشرف على تنفيذ ذلك وبدأ المكر الكُبّار ولكنه سرعان ما انهار.[1]

**9/ معارك الشرق واستبسال القائد عثمان دقنة :**

**يناير 1885م.**

– في أوائل فبراير تقدمت قوة مصرية تبلغ ثلاثة آلاف وستمائة مقاتل بقيادة بيكر باشا من ترنكتات، قاصدين مدينة طوكربالإقليم الشرقي، فلما وصلوا إلى آبار التيب فاجأهم جنود المهدي وانقضوا عليهم بجموعهم الحاشدة، فقتل من الجيش المصري نحو 2300، منهم 92 ضابطاً، وشدد الثوار بعدها الحصار على سواكن حتى سقطت بعد أن قتل جميع الجنود المصريين فيها. وبعد إخلاء الجنود المصريين من السودان، عمدت القوات البريطانية لاحتلال المناطق التي تخليها القوات المصرية، فاحتلت سواكن[2]

– اجتمعت قوة إنجليزية بقيادة الجنرال جراهام (Graham) لمهاجمة جموع الدرويش في التيب فانتصرت عليهم وأوقعت بهم وأجلتهم عن آبار التيب. ثم هاجمت جموع عثمان دقنة في طماي، وانتصرت عليهم كذلك، وأخلى عثمان

(1) المصدر السابق ص: 123

(2) نفس المصدر والصفحة.

دقنه طماي، واعتصم بالجبال، وكان غرض هذه الحملة هو تأمين بريطانيا لمراكزها على البحر الأحمر، ولكن رغم الانتصارات التي أحرزها جراهام على قوات عثمان دقنة إلا أنه لم يستطع القبض عليه لأن هدف العدو الأساسي كان اقتناص القادة وأسرهم والمساومة بهم في تحقيق مكاسب سياسية، كما أنه أخفق في خطته الرامية إلى مد خط سكة حديدي من البحر الأحمر إلى مصر بأمر من الحكومة البريطانية.[1]

## 10/ المهدي يحاصر الخرطوم

استمرت ثورة المهدي توسع نفوذها في السودان وواصل زحفه حتى وصلت قواته العاصمة الخرطوم، وحاصرت الجنرال البريطاني (غوردون) في معقله، حينها أرسلت بريطانيا بالاشتراك مع مصر جيشاً لإنقاذه بقيادة الجنرال اللورد ولسلي (Wolseley)، وصلت الحملة إلى السودان عن طريق وادي حلفا، ثم انقسمت إلى جزئين، أحدهما اتخذ طريق الصحراء بقيادة الجنرال هربرت ستيوارت (Stewart)، والآخر اتخذ نهر النيل بقيادة الجنرال أرل (Earle)[2]

## معركة جانبية قبل الفتح

### - معركة أبي طليح وهذه بتلك : 17 يناير سنة 1885م

التقت الحملة الإنجليزية بجموع الدراويش في آبار أبي طليح، وهناك نشبت واقعة كبيرة انتهت بهزيمة الدروايش بعد أن حصدتهم نيران المدافع حصداً، واستمرت الحملة في زحفها حتى وصلت إلى مدينة المتمة فاحتلتها، وفي أثناء زحفها التقت بجموع الدراويش مرة أخرى، وفي هذه المرة استطاع الثوار

(1) نفس المصدر والصفحة.

(2) انظر : السودان بين يدي غوردون باشا وكتشنر، إبراهيم فوزي باشاط ط/ دار المؤيد 1391هـ ص 796

الدراويش قتل القائد الجنرال الإنجليزي ستيوارت، فتولى القيادة بعده الجنرال السير شارلس ويلسن، ثم اتجهت الحملة نحو الخرطوم عن طريق باخرتين لإنقاذ غوردون، ولكن بعد فوات الأوان.[1]

**11/ فتح الخرطوم ومصرع الطاغية غوردون.**

وكان جيش المهدي في تلك الأثناء قد استطاعوا اقتحام الخرطوم عنوة واقتداراً في 26 يناير سنة 1885م، بعد حصار طويل، قتل فيه الجنرال جوردون (Gordon) في قصره، وجُزّ رأسه وقد قتل في هذه المعركة نحو 24 ألف من سكان الخرطوم، وثمانية آلاف من الجنود المدافعين عن المدينة بعد معارك شرسة ودامية.

وكان لسقوط الخرطوم ومقتل جوردون (Gordon) دويٌّ كبير في المملكة المتحدة ومصر وفي العالم بأسره، إذ كان ذلك إيذاناً بانتهاء حكم الإستعمار، وبداية عهد جديد علا فيه شأن المهدي ووطد أركان دولته في السودان التي لم تدم طويلاً.[2]

## وفاة الإمام القائد

أصيب المهدي في يونيو سنة 1885م بحمى التهاب السحائي الشوكي، لم تمهله بضعة أيام حتى توفي في يوم 22 يونيو سنة 1885م،، بعد رحلة مباركة وموفقة في الجهاد والكفاح ضد قوى الاستعار الباغي، وتولى حكم السودان من بعده خليفته عبد الله التعايشي.[3]

---

(1) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(2) انظر :تبصرة وذكرى – مصدر سابق ص 62.

(3) نفس المصدر والصفحة.

## المبحث الثالث : عوامل النهضة الحضارية ودور الجيل الحاضر في الحفاظ على الموروث التحرري الجهادي للزعيمين الإصلاحيين ( الأمير والإمام )

### المطلب الأول : مفهوم التحرر، والنهضة، والحضارة

### (أ) مفهوم التحرر

التحرر هو : طلب الحرية وهو مصطلح يستخدم لوصف مختلف الجهود الرامية إلى الحصول على الحقوق السياسية أو المساواة، وعلى وجه التحديد في كثير من الأحيان لمجموعة محرومة تريد نيل حقوقها.

لقد أصبحت حركات التحرر الوطني ظاهرة سياسية وسمة من سمات القرن التاسع عشر والعشرين كرد فعل على الاحتلالات التي وقعت في كثير من دول العالم.

إن الكفاح الذي تقوده حركات التحرر الوطني يعادل حرباً ثورية وامتداداً للسياسة باستعمال السلاح ولها أهداف عسكرية وسياسية إيجابية، وبالواقع أنها لا تملك أسلحة حديثة أو صناعة متطورة أو جيوشاً نظامية ولكنها تملك المقومات الأساسية للتحرر الوطني وفي مقدمتها العقيدة القتالية، والإرادة الوطنية ورفض العبودية واحتلال الأجنبي.

لقد ساعد قرار تصفية الاستعمار بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 1514/ د15- المؤرخ في 14 كانون الأول 1960 تحت عنوان (إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة) على دعم الشعوب الحرة ونمو وفعالية تلك الحركات التي كان هدفها الإستراتيجي الكفاح من أجل استقلالها

وتحرير الأرض وجلاء الاحتلال، واكتسبت حركة التحرر الوطني شخصية قانونية دولية مبنية على حقّ الشعوب في تقرير مصيرها.[1]

## (ب) مفهوم النهضة

جاء في «لسان العرب» أن النهوض هو البراح من الموضع والقيام عنه. نهض، ينهض، نهضاً، ونهوضاً: قام عن مكانه، وارتفع عنه إلى العدو أسرع إليه يحاربه، وأنهضته أنا فانتهض، وانهضته، حركة للنهوض، واستنهضه لأمر كذا: إذا أمره بالنهوض له.[2]

وجاء في (الرائد) نقلاً عن المنجد في اللغة: نهض بمعنى قام، والنهضة: التجدد والانبعاث بعد تأخر وركود، وناهض مناهضة: قاوم.[3]

ومن خلال هذا المعنى اللغوي تتضح حركية النهوض وفعليته في الأشياء سواء على الصعيد الفكري والنفسي أو المادي، وفي كلا المعنيين هناك انتقال من حال إلى حال وتغيير في الهيئة والموضع وتحرك للحواس عند المرء واستحضار لطاقاته وقواه، نجد أن النهوض يرادف القيام وهو ما أورده القرآن بنفس المعنى في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ سبأ46.

وقد أطلق مصطلح (عصر النهضة) على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في أوروبا ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية 1453م، حيث نزح العلماء إلى ايطاليا، ونقلوا معهم تراث اليونان والرومان، ويدل مصطلح

---

(1) انظر : الموسوعة الحرة ويكيبيديا والرابط على الانترنت :
http://www.harrythe.com/graphics/k/candle

(2) انظر :ابن منظور، لسان العرب، ج 6 ، ص. 456. مادة نهض.

(3) انظر :جبران مسعد، الزائد، دار العلم للملايين، بيروت ط،5. 1986م، ج 2 ، ص. 163.

عصر النهضة غالباً على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية وبلغت أوج ازدهارها في القرنين (15 ـ 16) وامتدت منها إلى فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبقية دول أوربا والعالم.[1]

## مفهوم الحضارة

يعتبر مصطلح الحضارة من المصطلحات التي لم تستعمل بمعناها الحديث في الفكر العربي إلا منذ وقت قصير، ولمعرفة معنى هذا المصطلح نرجع إلى بعض المعاجم والقواميس لمعرفة الأصل اللغوي لها.

فقد جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة حضر: أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر، أي في المدن والقرى، وهي بخلاف البداوة التي تعني الإقامة المتنقلة في البوادي، فالحضارة خلاف البداوة لأنها تعني الإقامة في الحضر، وهذا النمط مناقض لخصائص وعادات البداوة، فالحضارة والبداوة نمطان متمايزان ومختلفان إلى حد التقابل.[2]

أما المعنى الذاتي المجرد للحضارة فهو كل مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابل لمرحلة الهمجية والتوحش وخشونة الطبع، حيث تصبح الحضارة نمطا من الحياة تتميز بضروب من التقدم والرقي في المجال العلمي والثقافي والأدبي والاجتماعي والسياسي.

ويرجع أصل الحضارة إلى الاستقرار الذي بدأ مع ظهور الزراعة، حيث إن هذا الاستقرار ساعد الإنسان على إنشاء المدن والأمصار والتفنن في الإعمار واكتساب العلوم والفنون، وإيجاد القوانين التي تنظم سير الدولة، وهو الذي فتح للمجتمعات أبواب التطور والتقدم والازدهار. فالحضارة مرحلة متقدمة

(1) انظر :نجيب نور الدين –مجلة المنطق – عدد رقم 58،ص 114 – بيروت لبنان 1989م

(2) انظر : ابن منظور – لسان العرب – مصدر سابق. مادة: حضر

تأتي بعد حياة الترحال والتنقل والرعي والبحث عن الماء والكلأ، وترتبط بالاستقرار في المدن وما يصحب ذلك من ظهور قيم وفنون وعلوم ونظم وأعراف وتقاليد وعادات وقوانين وشرائع.[1]

والحضارة التي نعنيها هي التي ترتكز على القيم والمثل لامجرد التطور المادي أو التقاني، حيث أن القيم هي التي تضبط السلوك الإنساني، ويمكنه من بعد أن يتعامل مع منتجات ومخرجات الحضارة المادية بمثالية وانضباط.

## المطلب الثاني : عوامل التحرر والنهوض الحضاري ومرتكزا ته، وواجب الجيل الحالي تجاه ذلك

### تمهيد

إن الأسس والمرتكزات التي نعنيها في هذا المقام، هي تلك القيم الروحية والمبادئ العقدية التي تمثل جماع الخير كله لأي مجتمع ينشد السعادة والخير في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، لذلك فقد رتبتها حسب الأولوية والأهمية بالنسبة للفرد والمجتمع والشعوب وهي إجمالاً تمثل : العلم والإيمان بالله، الطاعة لله ولرسوله، والمحبة والإتباع، الاستقامة والإحسان، العفة والعزة، الصدق والأمانة، الإيثار ونكران الذات، أما تفصيل ذلك فشرحه في النقاط التالية :

### 1 – العلم بالله ورسوخ الإيمان به

فالمجتمع العالم بالله إيمانه راسخ لا يتزحزح مهما كانت المخاطر والخطوب، وقلب أفراده مليء بالثقة بالله والتوكل عليه.والعلم هوأقصر

(1) انظر : عطية فتحي الويشي – الحضارة وإشكاليات المصطلح (مقال ) مجلة كلية الدعوة – طرابلس ع 16––1990 ص 376.

الطرق لرسوخ الإيمان ثم يأتي العمل، لأن الإيمان ليس ادعاء، بل هو إقرار بالقلب واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان.

قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الحجرات14، وثبات الإيمان وتمكنه من القلب يجسده قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾آل عمران173ثم تأتي النتيجة والعاقبة لهم.كما قال تعالى في نفس السورة ﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾آل عمران174

لذلك رأينا من خلال التتبع والإستقراء كيف ترسخ هذا المعنى لدى الزعيمين (الأمير والإمام) وبالتالي انعكس على شعوبهما جهاداً وثباتاً وتضحية.

## 2 –لزوم الطاعة والاستقامة على منهج الله

ولزوم الطاعة تعني الحرص على أداء فرائض الله وفق ماشرع لأنها تمثل رأس مال العمل الصالح للفرد والمجتمع المؤمن بصورة عامة، والحرص على ألا يفتقدنا الله حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا، ويمثل هذا جماع التقوى ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران102وطاعة ولي الأمر واجبة، لأنها من طاعة الله، إلا أن نؤمر بمعصية، وحينها فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لذلك رأينا كيف انعقدت بيعات الطاعة في المنشط والمكره للقائدين المصلحين المجاهدين ( الأمير والإمام ) وفق قاعدة الطاعة والاستقامة.

## 3 -المحبة والإتباع

المحبة ليست كلاماً يقال ،ولا ادعاء بغير فعال، ولكنها عمل واتباع لما أمر به الخالق في كل تصرف يصدر عن المخلوق.قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران31 وقال في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾المائدة54.

وحلاوة الإيمان تدرك برسوخ محبة الله تعالى في قلوب أفراد المجتمع المسلم قال النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم :( ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ،وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ،وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ،كما يكره أن يقذف في النار ).[1]، والحب في الله والبغض فيه من كمال الإيمان، ولا يتتحقق ذلك إلا بالصدق في الطاعة والانقياد للمحبوب ،كما قال الشاعر :

تعصي الإلـــه وأنـــت تظهـر حبه
هذا محال في القياس بـــــــديع
لـــو كـــان حـبـك صـــادقـــاً لأطـعـتـه
إن المحب لمن يحب مطـــــــيع.[2]

(1) انظر :صحيح البخاري 1/ 10، كتاب الوحي – باب حلاوة الإيمان حديث رقم 16.
(2) انظر : ديوان الإمام الشافعي ص 58ط.

لذلك كانت محبة الجموع للزعيمين عظيمة، لأن القائد الذي يحبه شعبه ينجح في تحقيق أهدافه وتطلعات أمته.

## 4 -الإحسان إلى الخالق والخلق

ومن سمات ومرتكزات المجتمع المسلم إحسان أفراده إلى خالقهم بالعبادة الخالصة، وإتقان العمل في أي مجال من مجالات الحياة، ذلك لأن الله تعالى خلقنا للعبادة ولا يريد منا إلا إحسان العمل وإتقانه، قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾الملك2.

وإحسان العبادة هو: الإخلاص فيها، وإحسان العمل :إتقانه وإجادته ومراقبة الله تعالى فيه.

جاء في حديث جبريل الصحيح ( الإحسان أن تعيد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك )[1]، وإن المجتمع المؤمن الصادق الملتزم المتدبر لكلام ربه يحسن إلى كل الخلق ،إنسانه، وحيوانه، وجماده ،لأن كل هذه المخلوقات مسخرة له وبالتالي وجب عليه حسن التعامل معها حين الانتفاع بها ،قال سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾الجاثية13.

لذلك يشمل الإحسان كل سلوك الإنسان حتى مع الحيوان، قال صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء ،فإذا قتلتم فأحسنو القتلة ،وإذا ذبحتم فأحسنو الذبحة وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته[2]،وفوق هذا وذاك، إحسان الظن بالله تعالى من كمال الإيمان.والمحسن حبيب إلى

(1) انظر سنن البيهقي،10/ 203 برقم 2060.

(2) انظر :صحيح مسلم6/ 72برقم 5167.

الرحمن قريب من رحمته ،قال تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة195وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾الأعراف56

لذلك رأينا كيف أن الأمير يحسن إلى رعيته، بل حتى إلى المسيحيين كما حصل حينما نفي إلى بلاد الشام، وكيف أن الإمام ماكان يود قتل الجنرال (غوردون) وقطع رقبته، إن خلق الإحسان خلق رفيع لايقوم به إلا المصلحون الذين عرفوا حق الله وحق عباده،

**5 – والاعتداد بالنفس والعفة.**

المجتمع المسلم المستقيم على الحق يُعرف بعفته إذا استُثيرت شهوته. وبعزته إذا استُفزت كرامته، والفرد فيه عفيف اليد واللسان، طاهر القلب والجنان، لايقبل الضيم والخذلان، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾المنافقون8وقال : ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾آل عمران139.وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾المائدة54

لذلك فأفراد المجتمع المسلم نفوسهم عزيزة يعتدّون بها أيّما اعتداد!

وقال أحد الحكماء في شأن الاعتداد والاعتزاز بالنفس وعدم تقليد الغرباء :

كل من أهمل ذاتيته فـــــــهو أولى النـــاس طــراً بالفنـــاء

لن يرى في الدهـــر شخصـــيته كل من قلد عيش الغـــــــرباء

وروي عن الإمام الشافعي كلام نفيس عن أصحاب الهمم العالية ورافضي المذلة والانكسار للغير أو التقليد الأعمى لهم :

أمـــطـــري جـبـــــال ســـرنـديـــــــب
وفـيـضـي آبـــار تـكـــــرور تـبـرا
أنـــا إن عشـت لسـت أعـــــدم قـوتـاً
وإذا مـــت لـســت أعـــدم قـبـــــرا
همتي هـمـت الملـــوك ونفســي
نـفـس حـــرٍ يـــرى الـمـذلـة كـفـــرا[1]

## 6 – التحلي بالصدق والأمانة

الصدق قيمة، والصدق حال، والصدق أقوال وأفعال، وهو الذي يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، وهو صفة وسمة تلازم المؤمن ولا تنفك عنه أبداًوهي عنوان المجتمع المسلم.

لذلك فهو من أخص خصائص المؤمنين، وقد أمرنا الله تعالى بأن نكون في معية الصادقين ووعدنا بالمغفرة والأجر الكبير قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾التوبة :119

والصدق يقود إلى الجنة، قال صلى الله عليه وسلم :(عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ،)[2]

جاء في مدارج السالكين ( الصدق هو سيف الله في أرضه ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته،

(1) انظر: ديوان الإمام الشافعي ص 42

(2) من حديث رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

ومن نطق به علت عند القوم كلمته، فهو روح الأعمال ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، وهو الباب الذي دخل منه الواصلون

إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاس اليقين ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين )[1]،لأجل ذلك فالأمة المسلمة أمة صادقة والصدق خلق لكل أفرادها صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، لذلك نجد أولئك القادة العظام قد صدقوا ماعاهدوا الله عليه فأكرموا بتخليد السيرة الحسنة وصاروا القدوة الحية لشعوبهم.

### 7 -الإيثار بالخير للآخرين

والإيثار خلق عظيم، وسمة وخصلة مدح الله بها رب العالمين عباده الأنصار حين آوو، ونصروا إخوانهم المهاجرين، فحريٌّ أن يتصف بهذا الخلق مجتمعنا اليوم في ظل العولمة التي سلبتنا الكثير من القيم والمكارم فالنعمل على إحياء قيمة الإيثار فهي سنة محمودة ولننبذ الأثرة والأنانية وحب الذات والشح حتى نكون من المفلحين.

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾الحشر9

والمؤمن شعاره دائماً الإيثار..لا الأثرة ،يقدم ما عنده طلباً لثواب الله.

قال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً.إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً ﴾الإنسان8-9،وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :( جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) انظر :مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ،2/ 268.للإمام بن القيم الجوزية

فقال:إني مجهود- أصابه التعب من الجوع- فأرسل إلى بعض نسائه فقالت : والذي بعثك بالحق ماعندي إلا ماء ،ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك :لا والذي بعثك بالحق ماعندي إلا ماء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :من يضيف هذا الليلة ؟ فقال رجل من الأنصار أنا يا رسول الله فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته :هل عندك شيء ؟قالت : لا، إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين ،فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال:( لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة )[1] و(الأمير والإمام )عشا زاهدَيْن مجاهدَيْن آثرا حياة المشقة والرهق من أجل أن تنعم شعوبهما بالحرية والاستقلال والكرامة وقدما النموذج في الإيثار ونكران الذات.

## واجب الجيل الحالي حيال تلك المرتكزات

بعد هذا الاستطراد والشرح والتفصيل لعلي لا أجد كبير عناء في تحديد الواجب الذي ينبغي أن يقوم به جيل اليوم للحفاظ على ذلك الإرث التليد والماضي المجيد لذلك الجيل المجاهد الفريد، الذي أرسى لنا دعائم الحرية والاستقلال الوطني، ولعل ما قامت به وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بهذا البلد المعطاء يمثل – عملياً- بعض الدور والواجب، وتبقى المسؤولية وتكملة المشوار على بقية الجهات والفعاليات الحية في المجتمع لاسيما شريحة الشباب الذين هم نصف الحاضر وكل المستقبل، فلهم أوجه رسالتي قائلاً :

1/ تمسكوا بقيم الإسلام التي قام عليها مجد آبائكم وأجدادكم.

(1) انظر: صحصح مسلم3/ 1625،برقم2054

2/ تدربوا على بذل الخير للآخرين، ودعوا الأنانية والحرص وحب الذات.

3/ تأسوا بسيرة السلف الصالح وعضّوا على سنة نبيكم بالنواجذ.

4/ تُوقُوا إلى رضوان الله والجنة كما كان دأب سلفكم الصالح، فهم عندما تاقوا إلى رضوان الله، بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل الله فحرروا الأوطان وحطموا الأوثان والصلبان وشادوا البنيان بعقيدة الإيمان.

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبلطفه تُدرأ الشرور والسيئات، وبكرمه ورحمته تُنال الخيرات وتُرفع الدرجات، وبعفوه ومغفرته تُمحى الأوزار والموبقات، ثم الصلاة مع أزكى التسليم على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبوات، المؤيد بأعظم المعجزات، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والسبق والمكرمات، وعلى من اقتفى أثرهم إلى يوم الوقفة في العرصات.

وبعد :

فإن العبرة بالخواتيم، فقد خلصت في نهاية هذا البحث- الذي بذلت فيه وسعي ولا أدعي أنني أوفيته حقه فالموضوع كبير وشائك، لأن المسائل المتصلة بالتاريخ وأخبار الرجال تحفها كثير من المغالطات واختلاف التصورات والروايات، ولكن من خلالا التتبع والاستقراء وتحليل المعلومات التي حصلت عليها من المصادر والمراجع التي توافرت لديّ، خلصت- إلى النتائج التالية :-

1/ إن دول الإستدمار والاستكبار التي تسمى بالإستعمار قد استهدفت منطقتنا العربية والإفريقية بغرض نهب الثروات والموارد الطبيعية التي تزخر بها أفريقيا والوطن العربي والإسلامي.

2/ إن الشعوب التي تسلحت بقيم الإسلام استعصت على الغزاة وكانت مقاومتها أشد وأقوى من الشعوب التي لاتنطلق مقاومتها من تلك القيم.

3/ إن الزعيمين ( الأمير والإمام )قد توحد مشربهما التربوي، حيث استقيا معاً من معين مدرسة التصوف الإسلامي الملتزم.

4/ كلا الزعيمين كانا يجيدان الخطابة الموجهة بأكثر من لغة ولهجة، توافقاً مع البيئة والمجتمع الذي نشآ فيه، فالمهدي يتحدث العربية بطلاقة وأسلوب آسر، وهو (نوبي) من شمال السودان، وكذا الأمير عبد القادر يتحدث (البربرية الأمازيغية ) وهو عربي الأرومة من غرب الجزائر.

5/ يمتاز( الأمير) بالمنطق والحنكة السياسية العالية وذلك لخلفيته الفلسفية والفقهية المتميزة، بينما يغلب الطابع الجهادي الصدامي والمجابهة المتمرسة شخصية( الأمام)حيث نجده قد خاض أكثر من عشرة معارك حربية في أربع سنوات فقط، فأولى معاركه كانت في (الجزيرة أبا)عام 1881م وآخرها كانت معركة (فتح الخرطوم ) في 1885م

6/ الحركتان تزامنتا تاريخياً (القرن التاسع عشر الميلادي ) فالأمير ولد عام (1807م)ومات عام (1883م ) وعمره 76سنةً، بينما (الإمام )ولد عام 1845م ) ومات عام (1885م) أي بعد موت (الأمير) بسنتين وعمره (40) سنة وهو في عز شبابه وقوة حركته وبداية تأسيس دولته التي لم تعش طويلاً بعد وفاته.

7/ إن صفة العزة والكرامة والاعتداد بالنفس وقوة الشكيمة والإرادة والصلابة لهي قواسم مشتركة تجمع الزعيمين( الأمير والإمام) وكذلك الشعبين الشقيقين السوداني والجزائري.

## التوصيات

1/ أوصي أولاً بجمع تراث الزعيمين القائدين ( الأمير والإمام ) في سفر واحد.

2/ أوصي بعقد ندوة دولية لمناقشة أوجه التقارب والتشابه والتماثل بين حركات التحرر الأفريقي والعربي تتبناه دولة الجزائر الشقيق بلد العلماء والشهداء والمبادرات.

3/ أوصي بتكوين جمعيات شبابية على مستوى الولايات في القطرين (السودان والجزائر) تحمل اسم الزعيمين( الإمام والأمير) تقوم بالعمل الطوعي الخدمي الثقافي والاجتماعي والفكري.

والله الموفق والمستعان.

## فهرس المصادر والمراجع


- القرآن الكريم.
1 - الحضارة واشكاليات المصطلح ( مقال )، مجلة كلية المجتمع - طرابلس - 1990م، عطية فتحي الويشي
2 - الرحلة الحجازية، محمد التونسي - تحقيق علي السنوفي ط/ الشركة التونسية للتوزيع - 1978م.
3 - السودان بين (غوردون باشا واللورد كتشنر)، إبراهيم فوزي باشاط - دار المؤيد - 1391هـ.
4 - السودان في العهد التركي المصري، عزالدين إسماعيل - الهيئة المصرية للكتاب.
5 - المهدي وقصة المهدية، محمد إسماعيل المقدم.
6 - الموسوعة الحرة ( ويكيبيديا ).
7 - الموسوعة الرقمية على الشبكة العنكبوتية.
8 - تاج العروس - للفيروز أبادي ، ط1/ دار إحياء التراث العربي.
9 - تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، إسماعيل العربي - المؤسسة العربية للكتاب - الجزائر، 1986م.
10 - تبصرة وذكرى، موسى عبد الله حامد.بدون تارخ طبع.
11 - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، محمد عبد القادر الجزائري ج 1/ المطبعة التجارية بالإسكندرية.
12 - جبران سعد، الزائد - دار العلم للملايين - بيروت ط/ 5 / 1986م.
13 - ديوان الإمام الشافعي.لأبي عبدا لله محمد بن إدريس الشافعي جمع وتعليق :محمد عفيف الزعبي ط3 - 1974م دار الجيل، بيروت.
14 - زاد المعاد في هدي خير العباد - للإمام بن القيم - ط 14/ 1407 مؤسسة الرسالة.
15 - شبكة المعلومات العنكبوتية ( الإنترنت) مواقع ومنتديات مختلفة.
16 - صحيح مسلم - للإمام مسلم بن حجاج القشيري.
17 - فتح الباري في شرح البخاري - للإمام بن حجر العسقلاني.
18 - قانون التأويل - القاضي أبوبكر بن العربي، مؤسسة علوم القرآن - بيروت.
19 - كفاح الجزائر من خلال الوثائق، يحي بوعزيز - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر.
20 - لسان العرب، لابن منظور، ط 3/ دار إحياء التراث العربي ،.
21 - مدارج السالكين - لابن القيم ط/ 1 / 1999.
- مفهوم التاريخ، عبد الله العروي - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - 1992م.
22 - منشورات المهدي، تحقيق : محمد إبراهيم أبو سليم - دار الجيل / بيروت - 1979م
23 - نجيب نور الدين، مجلة المنطق عدد رقم -58 1989م، بيروت.
24 - ويسألونك عن المهدية، نسخة الكترونية، الصادق المهدي.

25 – سعادة المستهدي بسير الإمام المهدي، إسماعيل عبد القادر الكردفاني– تحقيق الدكتور / محمد إبراهيم أبو سليم ط 2/ دار الجيل بيروت 1982.
26 – السودان عبر القرون، مكي شبيكة – دار الثقافة – بيروت.
27 – انظر: ديوان الإمام الشافعي ص 42.

# العلاقات الاجتماعية لقبيلة كنتة
# خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

**للأستاذ الدكتور محمد حوتية- الدكتور صالح بوسليم**
**الجامعة الإفريقية أحمد دراية - أدرار- جامعة غرداية**

## المقدمة

من خلال الدراسة التي سنتطرق إليها في هذه المداخلة تتمثل في الظروف الاجتماعية السائدة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، فقد تميزت هذه الفترة بعلاقات خاصة كان لها التأثير على قبيلة كنتة لا سيما يتصل منها بالنزاعات القبلية بإقليمي توات والأزواد، فقد كانت توجد بتوات قبيلتان هما أحمد وسفيان فلابد من تحالف بطون هذه القبائل مع بعضها لود الأخطار المتمثلة في تحرك القبائل من جبال الأطلس والهقار وقد ظلت قبيلة كنتة بعيدة عن الصراع القبلي الذي يميز العلاقة بمناطق توات وقد اتسم سلوك قبيلة كنتة بأسلوب الحكمة في بعض النزاعات وبتر الخصومات وهذا ما جعلها بعيدة عن أي نزاع بين القبائل العديدة المتناثرة في الأزواد اللهم فيما يتعلق بحرب (**كلنتصر**) بالأزواد مع كنتة التي سوف نتعرض لها في هذا بعدما نبين موقفهم الحيادي بين القبائل التي جعلتهم يحظون بثقة الجميع لأنهم كلما دخلوا في أي نزاع أوقفوه بعدما يتحرون عين الحقيقة فيه.

واستناداً على ما تم ذكره سنعالج العلاقات الاجتماعية لقبيلة كنتة خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

### - العلاقات الاجتماعية لقبيلة كنتة

كان شيوخ قبيلة كنتة يعرفون بالتعقل والحكمة وعدم الإفراط وتأنيب المخالف والمرتكب للمخافات حتى لا يبتعد عن السلوك الاجتماعي ويرتكب المزيد من المخالفات والجرائم فهم يرون أن نجمع وسيلة لإرجاع الفرد إلى المجتمع هجرانه لمدة يصلح فيها نفسه ويرجع إلى الامتثال لما يمليه عليه مجتمعه فيكون بذلك تأنيباً له بعد الذي سمه من وحشة الغربة[1]. كما أنهم يعتبرون العصبية القبلية نوعاً من الحمية الجاهلية التي ظلت منتشرة في الوسط الصحراوي وأورثت العداء والبغضاء إذ غالبا ما نتج عن استمرار هذه النزعات ما بين القبائل إلى إضعاف قوة هذه القبائل نفسها، هذا وقد تميز سلوك شيوخ منه بإظهار الصبر ومعاملة جماعات الطوارق بالرفق بالرغم مما تميز به هذه الجماعات من جفاوة وحب للغزو وهم في ذلك يرون أنفسهم ملزمين بالحديث الشريف«**أدبني ربي فأحسن تأديبي**».أما الهدف من إتباع هذا الأسلوب فهو تجنب العداوة والبغضاء، كما أشار إليه الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير يقوله : «**أقبل الاعتذار منهم وأترك البحث عن أمورهم**»[2].

ورغم ذلك فقد دخلت قبيلة كنتة في بعض الصراعات والحروب المحلية التي اضطرت أن تخوضها دفاعاً عن وجودها ومكانتها وهذا ما تشير إليه في النقاط الآتية:

### حـروب كنتة بالأزواد

ترجع أسباب هذه الحروب ما بين الكنتيين وكلنتصر[3] إلى مقتل أحد رجال هذه القبيلة من طرف الكنتيين. فطلبوا القتال من قبيلة كنتة فردوا عليهم :«**تسألونا**

(1) الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير، الطرائف،ص:488.

(2) الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير، الطرائف،ص:230.

(3) كلنتصر: هي إحدى قبائل الايغلاد تعيش في منطقة فراش وأم الحيران ورأس الماء بالأزواد

**عن القاتل ونحن أفضل منكم وأقوى ولا تساوواننا في شيء»**[1] فتأثرت قبيلة كلنتصر لدم مقتولها وآغارت على الكنتيين في موقع الظهرة شرق أبنكور حالياً له تن أدنان، وهكذا أصبحت المعارك سجالاً بين الطرفين ففي كل غزوة يخلف العديد من القتلى في صفوف كل قبيلة.

وعندما سئمت كلنتصر من طول هذه الغزوات ولم تتحصل على قصر يرجع لها ثأرها من الكنتيين طالبوا بالصلح واتفق شيوخ كنتة ورجال كلنتصر أن تنزل القبيلتين مع بعضهما البعض في الأماكن المشتركة طالباً للمرعى وبحثاً عن نقاط الماء، من اجل تأكيد العلاقات بين القبيلتين اتفق شيوخ القبيلتين أن ينزلوا بخيامهم في اول لقاء عند يئر تنوديك. فرحلت كلنتصر وأقامت خيامها عند هذه البئر وانتظرت قدوم الكنتيين الذين اغتنموا الفرصة وأحاطوا بهم بجسش وقتلوا أميرهمجماما بن محمد ولم يبق من كلنتصر سوى الصبيان حسبما ورد في حرب كلنتصر فاستنجدوا بقبيلة إدنان وانتابن فأغاروا على قبيلة العامون وأبنكور الكنتيين فقتلوا العديد من رجال وسلبوا الكثير من الإبل والعبيد واستحوذوا على أهم الكتب الكنتية[2] عندها تدخل شيخ الطوارق ملك الألمدن فحضر إلى تمبكتو ومعه شيوخ القبيلتين من كنتة وكلنتصر اتفقوا على صلح الطرفان وهكذا تم وضع نهاية لحروب دامية في استمرارها أكثر من نصف قرن غذتها التحالفات القبلية.

استطاع أحفاد الشيخ الكنتيين أن يحافظوا على مكانتهم بفضل محافتهم للقبائل العربية من أولاد غنام وأهل غيلان وأولاد ادرين وأولاد سليمان وبتحالفهم لجماعة الطوارق من كليثنكورت.

---

(1) محمد عبد الله ابن أحمد بلعراق، مخطوط كلنتصر وكنته، تمبكتو، مركز أحمد بابا، رقم164، ص:01.

(2) نفس المصدر، ص:06.

ومما يلاحظ أن شيوخ كنتة مع التزامهم بالدفاع عن أنفسهم إلا أنهم كانوا يفضلون السلم فقد لاحظوا أن لا فائدة ترجى من هذه الحروب فلا فرق بين المنتصر والمنهزم على حد سواء هذا ما أشار إليه الشيخ سيدي المختار الكبير الذي عايش بداية هذه الحروب وتأثيرها.

**من فتنة غشـــــت بظلمـائها أضحى بها العالـــم كالجاهل**
**وضل فيها المرء عـــن رشده زلقاً عن الحـــق إلـــى البـاطل**
**فاجعـــل لنا يارب مخرجـــاً من هولها المفتحم الهائـــل**[1]

فهو متحسر على تلك الحالة ويبدي أسفه لانفلات زمام المبادرة من أيدي العلماء الكنتيين وهو يرى أن حل مثل هذه الخلافات الحاصلة بين المسلمين يجب أن يؤخذ فيها الحكم القرآني الصريح بقوله تعالى :﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾[2].وفي نفس الوقت يوصي أبنائه على أن لاَ يتخذوا من الظلم هدفاً للحياة وأن يتمسكوا بما عرف عن السلف الصالح من الصبر ومحبة الآخرين، هذا ما تؤكده العيد من الرسائل التي وردت في مخطوط «**الطرائف والتلائد**» والتي توجه بها الشيخ سيدي المختار الكبير إلى عدة قبائل في الأزواد مثل قبيلة علوش بن هنون بن يد واد ويعيش فهو يطلب منهم عدم الخروج عن طاعة كنتة لالتزامهم بالأحكام الشرعية فيستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال الشعبية التي توصي بالعدل وتجعل منه سلوك المسلم الصالح، ولعل التربية السليمة والخصال الحميدة جعلتهم ينسجون علاقات اجتماعية مع القبائل الصحراوية.

---

(1) الشنقطي،ص:361.

(2) القرآن الكريم،سورة النساء، الآية59.

## علاقـة كنتة بالقبائل الصحراوية

وفيما يخص علاقة الكنتيين بالقبائل الصحراوية فقد تميزت بتأثيرهم الديني على الطوارق والبرابيش[1] والإيقلاد[2] النتشرين بشمال المبروك والأدرار والإرييباند وعليه فتقطن بادية الأزواد قبائل كثيرة تتحرك بإبلها وغنمها في مراعي وآبار معروفة فهم يعيشون على أغنامها وإبلهم فعند تساقط الأمطار صيفاً يتوزعون في كل بادية الأزواد وعند الجفاف يستقرون عند آبار الماء ويرتبط سكان الأزواد بحواضر تمبكتو، قاو، جني بهدف بيع منتجاتهم أو شراء حاجياتهم أو لمعرفة أحوال القبائل الصحراوية بما يحمله التجار القادمين من مختلف الجهات، فالعلاقة ما بين سكان الحضر – تمبكتو – والبادية تشدها مصالح مشتركة، وخلال هذه الفترة اختل التوازن الأمني بين بادية الأزواد ومدينة تمبكتو مما جعل سكان البادية يمارسون عمليات الغزو على حاضرة تمبكتو وكثيراً ما تدخل الكنتيون لفصل بين الطوارق والرماة[3] من ذلك عندما

---

(1) البرابيش:قبائل عربية تمتد منطقتهم بالأزواد بين تاودني شمالاً وتمبكتو جنوباً والمبروك شرقاً والعلكة غرباً،ثروتهم الأساسية الغنم وتجارة الإبل والملح الذي يسوقونه إلى تمبكتو عدد خيامهم 1500 خيمة دخلوا في معارك مع التوارق، أنظر:
JOFFRE (Joseph). – « L'occupation de Tombouctou ». – Bulletin du Comité de l'Afrique française, 1896, p.50.

(2) الإيقلاد : يتمركزون بين منطقة راس غرباً والسوس جنوباً وقوندام شرقاً لهم تأثيرات دينية على الطوارق وينقسمون إلى عدة فروع منهم،الأئمة وهم لا يحاربون ومنهم الغزاة ويسمون كلنتصر والرئيس يسمى أنقونا وتعتبر هذه القبيلة فقيرة حيث تمتلك قليلاً من الغنم وتسكن بثلاثة قرى أنبوبة، توكابونجو، بيتاجانجو، ويقوم الإيقلاديون ببعض الزراعات في هذه المنطقة أنظر: Ibid., p.51.

(3) الرماة :أصولهم مغربية ويمثلون بقايا حملة منصور وهم طبقة المولدين الذين كانوا يحكمون تمبكتو وينحدرون من المقاتلين المغاربة الذين قدموا مع جودر باشا للاستيلاء على تمبكتو، أو من المغامرين والتجار وهم من أصل مغربي أتو قبل جودر باشا أو خلال القرنيين المواليين فقطنوا منطقة تمبكتو سواء بصفة فردية أو جماعية واندمجوا في المجتمع التمبكتي بحثاً عن الثراء، =

قتل أحد سادة الطوارق بتمبكتو الملقب باتيت فحاصرها الطوارق لمدة طويلة حتى انعدمت بها المأكولات اليومية ولجأ سكانها إلى أكل الكلاب والحمير فكثرت الموتى وعم الوباء وارتفع سعر الجمل إلى ما يقارب أربعين مثقالاً من الذهب[1] وبتوسط الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير ما بين الرماة والطوارق نجحت مساعيه على أن يقدم الرماة للطوارق فدية القاتل المتمثلة في ألف ثوب وعشرة خيول وهو بهذه الوساطة أنقذ مدينة تمبوكتو وأعاد إليها الحياة من جديد وهذا مثال من عدة أمثلة تبرز الدبلوماسية الكنتية في حل المشاكل المعقدة وتنازل كل الأطراف لهم ليقوما بالوساطة فيما بين القبائل فعند وفاة محمد بن رحال البربوشي تظلم إلى الشيخ سيدي المختار الكبير أحد أبناء محمد بن رحال من أخوته، الذي كان يتولى مكوس القوافل القادمة من إقليم توات وهي محملة بالتبغ ليوزع عائد أموالها على قبيلته فمنحه الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير عدد من الامتيازات المعنوية والاقتصادية بالأزواد فرد له الاعتبار وعوض له خسائره، فهذه المواقف تبرز مكانة الكنتيين في الوسط الصحراوي بمختلف شرائحه الطبقية وبهذا أبرزت أهمية القبيلة الكنتية في هذه الأقاليم عندما غاب عنها سلطان المن بين البادية والحضارة مما أدى بشيوخها إلى أن تنزح على المدن بهدف استتباب الأمن في ربوع الأزواد.

---

= وقد التقى ابن بطوطة في تمبكتو وجاوة في عدد كبير من القرى تجاراً من كل المدن المغربية وهو يقطع نهر النيجر أو من نساء مترفات وهن من تمبكتو تزوجن من مغاربة ضبط أو تجار، ومن خلال التزواج مع نساء البلد جعلهم يكتسبون لون بشرة المنطقة وعادات جيرانهم السود خاصة السنغيين منهم، وأصبح من المسلم به هذه الطبقة أصبحت أحد العناصر العنية بتمبكتو فرفضوا أن يكونوا سنغيين كما لا يدعون أنهم مغاربة وإنما اعتبروا أنفسهم عنصر عرقي جديد وطبقة اجتماعية خاصة بتميكتو وكلمة الرماة هي تحريف للكلمة العربية رماة أنظر :
MARTY (Paul). - Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, t. 2. – Paris : s.n., 1920., p.6-7.

(1) الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير،**الطرائف**،ص:249.

رغم مكانتهم التي وصلوا إليها بإقليم الأزواد فقد ظلوا مرتبطين بوطنهم بإقليم توات فقد بعث الشيخ أحمد البطاي من إقليم توات رسالة[1] إلى الشيخ سيدي المختار الصغير تناول فيها جملة من المواضيع كالعلاقة الموجودة بين الكنتيين وسكان طرابلس وغدامس وتسوية الخلاف القائم بين قبيلة أولاد عمر بن ملوك وأهل إنغر وقد سووا خلافاتهم بواسطة حميد ولد باجودا ولد الحاج ثم تناول أخبار توات وخلافاتهم كالنزاع القائم بين تيديكلت وقصر سالي وقصر تيمي من جهة وقصر أولاد الحاج من جهة ثانية وقد توسط بينهما الشيخ سيدي أحمد البكاي فجعل من فصر مولاي هيبة بأولف التي يقطنها الشرفاء قصراً للصلح، أو منتصف الطريق الواقع بين قصر أولاد الحاج وسالي وتيديكلت قبل به أولاد الحاج وأما الصلح مع سالي وقصر تيمي فقد رفضوه لأسباب عرضوها على الشيخ سيدي أحمد البكاي ومع هذا فالرسالة تعكس صورة صادقة عن جملة من الأوضاع بإقليم توات وتبرز النزاع السائد بالإقليم ما بين قصور توات، وفي نفس الوقت توضح جهود الشيخ سيدي أحمد البكاي بهدف تطويق الخلافات، ومن وراء هذا تفهم نفوذ الكنتتين بإقليم توات رغم بعد الأزواد عن هذا الإقليم بمسافة تزيد عن الألف كيلوا متر، وفي نهاية الرسالة يمدح سيدي الشيخ المختار الصغير بقصيدة شعرية مطلعها:

دمت العلى ودمت السيدا السندا وما بالكـمـــــد النـار لـك الحسـدا

وذل شـائـنـك الأخـــــــزى وجلله ثوب الصغار ورده الردى بردا[2]

(1) الشيخ سيدي أحمد البكاي، رسالة إلى الشيخ سيدي المختار الصغير،مركز أحمد بابا،تمبكتو،رقم: 373.

(2) نفس المصدر،ص:02.

ولم تنج القصور الكنتية من عمليات الغزو ففي سنة (1262هـ/ 1807م) ذهب البرابر إلى قصر أقبلي[1] ووصلوا إلى الزاوية الكنتية بنفس القصر وبعد مفاوضات اتفقوا مع الكنتين بعدم نهبها إلا أنهم نفضوا عهدهم وأعادوا الكرة عليهم سنة ( 1265هـ / 1810م) لحوالي سبعمائة جندي فلحقهم أولاد زنان بتفلالت بالمغرب فقتلوا الكثير منهم وفي نفس السنة غزى الخنافسة أقبلي ولم يتركوا لسكانه أي شيء يأكلونه[2]. ونفس العملية تكررت عندما سلب عابدين ورجاله قافلة لشرفاء أولاد مولات من سالي – فبعد ما اقتفوا أثره علموا بنزوله بزاوية كنتة فأخبر شرفاء سالي شرفاء زاوية كنتة بما حدث وطالبوا باسترداد أموالهم من أنباء عمومتهم. غبر أنهم رفضوا تسليم ضيوفهم وعندما وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود حسم هذا النزاع شرفاء زاوية الرقاني الذين توصلوا إلى صلح رضي به الطرفان[3]. ورغم كل هذا فقد تابع الشيوخ الكنتيون بمقر إقامتهم بالأزواد مختلف الأحداث الجارية بإقليم توات وردوا عن التساؤلات التي ترد عليهم في مختلف القضايا الاجتماعية وتدخلوا في عدد منها. فالشيخ الكنتي راسل قضاة توات في عدد من المسائل التي حادوا فيها عن الشرع لحكمهم في قضية أبناء الحاج محمد بالشفعة مع ثبوت القسمة، وهناك أمثلة عديدة تبرز اهتمامهم بقضايا إقليم توات كما ارتبطوا في نفس الوقت

(1) قدم الكنتيون إلى أقبلي سنة (1163هـ/ 1749م)، وأول من أسس الزاوية الكنتية بأقبلي سيدي عبد الرحمان إبن الشيخ بونغامة، وقد ازدهرت الزاوية في عهد سيدي العابد التي كانت تزار من طرف التجار القادمين إلى أقبلي، أنظر:

VOINOT (Louis) – « Le Tidikelt : étude sur la géographie, l'histoire et les mœurs du pays ». – Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, t. 29, 1909, p.338.

(2) Ibid, p.358.

(3) MARTIN (A.G.P.). Quatre Siècles d'histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902, au Maroc de 1894 à 1912, Paris: Félix Alcan,1923,p.241

بعلاقات مختلفة مع إقليم السودان تطورت بمرور الزمن وخلقت علاقاتهم بالسودان نصائح وإرشادات في مجال الحكم.

## خلافة كنتة ببلاد السودان

ارتبط الكنتيون بعلاقات عديدة مع غرب إفريقيا وبصفة خاصة مع أمراء ماسينا باعتبارهم حكاماً يخضعون لهم من الناحية الإقليمية. أما أمراء ماسينا فقد رجعوا إليهم من الناحية الدينية والفقهية وكيفية الحكم من الناحية الشرعية وسائر الأمور العامة فكثيراً ما قدم الكنتيون نصائح لأمراء ماسينا عندما يتطلب الأمر ذات أو تظهر مؤشرات تلزمهم بمعالجة الأحداث قبل استفحالها فالشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير له مواقف عرضتها رسالته التي تناول فيها ما يجب أن يكون عليه حكام ماسينا من صفات حميدة ويطلب من أحمد لب الفلاني التشبه بعمر بن عبد العزيز الذي قال أحد رعيته: «**لو كان الأمر بالسن لكان المسلمين من هو أكبر منك**»[1] وهو بهذا يطلب من احمد الفلاني أن يكون بسيطاً ومتواضعاً ومستمعاً إلى عامة الناس حتى يتعرف إلى أحوالهم الأخلاقية فيصلح ما فسد فيها. وفي نفس الوقت يعرض عليه الأسلوب الأمثل والناجع في معالجة الانحراف الأخلاقي وذلك بمقاومة من ظهر منه. أما من تستر وستره الله فعليه ألا يتجسس عنه عملاً بالقرآن الكريم ﴿ **وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾[2] وبالنسبة للسيرة النبوية الشريفة:( **إياكم والظن فإنه أكذب الحديث** )[3].

---

(1) الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي المختار الكبير،**رسالة إلى أحمد لب**،تمبكتو،مركز أحمد بابا،رقم289،ص:06.

(2) قرآن كريم،سورة الحجرات،الآية:11.

(3) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال(إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تتجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا أو لا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً).

راجع: محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان،ج3،بيروت:دار الأحياء،ص:190.

كما ينصحه بعدم ؟إعطاء المسؤولية لمن طلبها فالتسارع إليها يؤدي إلى الخيانة والمحاباة بين الناس.

وللشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ المختار الكبير رسالة[1]إلى الأمير أحمد لب الفلاني تناولت النصيحة في اختيار الرجال الذين يجب أن يستمع إليهم ويعتد عليهم وفي نفس الوقت يوصيه أن يبتعد عن مجموعة من الناس نظراً لخطورتهم في المجتمع فعلى الحاكم أن يبعد عنه النمامين باعتباره من أفراد يقلبون الحقائق ويورطون الحكام في المظالم أما السعاية إلى السلطان فهي المهلكة لأنها تسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانه ويستشهد في أقواله بالحديث النبوي الشريف (شر الناس النمام ومصدقة شر منه)[2].

## كنتة والرحالة الأوربيين

تميزت بداية القرن التاسع عشر في أوربا بحب الاكتشاف والمغامرة من جهة الأفراد وحب السيطرة والاستعمار من طرف الحكومات الملكية والجمهورية على حد السواء فظهرت فكرة اكتشاف القارة الإفريقية للتعرف على أخوالها الطبيعية. وعليه فشكلت الجمعيات المختلفة التي تمونها الحكومات بالدرجة الأولى فوضعت خططاً قريبة المدى تحت غطاء العلاقات التجارية تهدف من وراءها إلى وضع ترتيبات لغزوها والسيطرة عليها فقد وضعت الحكومات

---

(1) الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي المختار الكبير،**رسالة إلى أحمد لب**،تمبكتو،مركز أحمد بابا،رقم3،282

(2) حديث نبوي شريف،أنظر : الشيخ عبد الرحمان السخاوي، **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**،ط1،دراسة وتحقيق الخن محمد عثمان،دار الكتاب العربي، 1985،ص:404.

لم أعثر عليه بهذا اللفظ وإنما وجدته بلفظ يتفق معه في المعنى :شر الناس ذو الوجهين.

شروطاً يتم بها اختيار الرحالة كالمستوى الدراسي والقدرة على التكيف مع مناخ إفريقيا الاستوائية الرطب ومناخ الصحراء الجاف المتميز بحرارته المرتفعة صيفاً وبرودته القاسية شتاءً وهذا ما جعل الرحالة الأوربيين المهتمين بالأقاليم الكنتية ينقسمون إلى مجموعتين الأولى نحو الأقاليم الكنتية بالصحراء الجنوبية الغربية الجزائرية، والثانية قصدت الأقاليم الكنتية بالأزواد بمناطق السودان الغربي.

فمن مكتشفي المجموعة الأولى نجد النقيب الغتجليزي قردن لنغ Gordon Laing المعروف لدى السكان بالرايس فيعتبر أول أوربي وصل غلى إقليم تيديكلت وكان قد قدم إليها من غدامس ثم عين صالح، وفي منتصف شهر ديسمبر (1241هـ – 1852م) نزل ضيفاً عند عائلة باجودا بعين صالح وقام بعدة جولات ضواحي مدينة عين صالح وتوجه إلى تمبكتو عبر مسلك أقبلي وبالقرب من أروان لقي حتفه ولم يترك أثر علمياً مسجلاً عن رحلته ثم جاء بعده جيرار رولفGerhard Rohlfs ووصل إلى تيديكلت من طريق تافيلالت ووادي الساورة وتوات ثم قصر تيمقطن بأولف الذي وصل إليه في شهر ديسمبر (1281هـ – 1864م) وقد استقبل بأولف العرب من طرف شيخ قبيلة أولاد زنان ثم توجه إلى قصر تيط وقصر إنغر ثم عين صالح وطيلة وجوده بإقليم تيديكلت كان يفكر في التوجه إلى تمبكتو لكن لم يتحقق له ذلك ورغم كل ذلك فقد سمحت له هذه الرحلة أن يتوصل إلى معلومات عديدة عن الأقاليم التي زارها والتي تقع بين محطات عين صالح فغدامس وطرابلس[1].

وبعده قدم بول صوليه Paul Soleillet على تيديكلت عن طريق المنيعة وقد نزل بمليانة شمال عين صالح التي مكث بها مدة وقد اختلف مع عبد القادر

(1) L. Volnot,op.cit,p.359.

باجودا الذي رفض استقباله مما حال دون إتمام مهمته وأضطر إلى العودة للمنيعة ولم يحصل على طائل لعدم معرفته اللغة العربية.

وبعد ثلاث سنوات ظهر مغامر آخر له أهداف استكشافية يدعى لاجور Largon الذي أراد أن يصل إلى الهقار Hoggar بتمنغست إلا أن مشروعه لم يتحقق بسبب عداوة قبائل شعانبة ورقلة له[1].

بعد هؤلاء قدم الملاوم بالا(Palat) وصل إلى المنيعة في أواخر (1303هـ – 1886م) وكان هدفه الوصول إلى السودان عبر عين صالح وقد ساعد في ذلك معرفته باللغة العربية فانتقل من المنيعة إلى تينجورارين التي وصلها في شهر جانفي (1304هـ1886–م)، فقد التقى بالشيخ بوعمامة في قصر دلدول وعن طريق تدمايت توجه إلى عين صالح إلا أنه قتل بحاسي حتو شرق أدرار وفي سنة (1306هـ – 1888م)، حاول كاميل صولي (Camille Doulé) إتمام مشروع بالا(Palat) الاستكشافي فقد غير مسلكه وخرج من طنجة بالمغرب متنكراً في شخصية رجل عربي مسلم يسمى نفسه الحاج عبد الملك وقد شك الماس في امره بتافيلالت بالمغرب وإقليم الساورة واكتشف أمره في إقليم توات فتفطن له سكان تيديكلت وفي أواخر سنة (1306هـ – 1888م)، انتهى أمره إلى القتل بحاسي إيليغنIlighen من طرف كوارق ايبانيناتن Ibatenaten بأقبلي[2].

ورغم هذا الفشل حاول فورو Fourreau مواصلة مجهود سابقيه الاستكشافية لصالح فرنسا فظهر بعين صالح سنة (1308هـ – 1890م)، ونزل بحاسي أولجين Aoulegin وبقي بعض الوقت بالجبل الأبيض مع بداية (1310هـ – 1892م)، وتقدم إلى مسيغم Messeguem وبطلب من

(1) Ibid, p.360.

(2) Ibid, p.361-362.

الحاكم العام في الجزائر قام بالتعرف على المسلك الرابط ما بين المنيعة وإقليم تيديكلت وبذلك أتم مشروع استكشاف الصحراء وأنهى مهمة الجواسيس الفرنسيين بوضعه اللمسات الأخيرة لتقدم الجيوش الفرنسية عبر هذا المسلك الصحراوي باتجاه عين صالح التي احتلتها مع بداية القرن (1318هـ – 1900م).

أما فيما يتعلق بالمجموعة الثانية من مكتشفي الأزواد التي كانت محل اهتمام الفرنسيين والإنجليز فقد اشتهر من هؤلاء ما نجو بارك Mango Park الذي قام بهمة استطلاعية حول حوض نهر النيجر ومدنه فقد وصل إلى تمبكتو بمساعدة قائد المدينة عثمان العيدي والشيخ سيدي المختار ابن الشيخ سيدي محمد الكنتي وأثناء تواجده بتمبكتو قلق عليه السكان بسبب أسئلته العديدة وزيارته لميناء كبار ليلاً. ولحرصه على وضع رسومات ومخططات عن مدينة تمبكتو مما أكد الشكوك حول مهمته فاضطر إلى مغادرة تمبكتو في شهر سبتمبر (1242هـ– 1826م)، متوجهاً إلى أوران، وفد لقس حتفه قبل وصوله إليها على يد البرابيش[1].

ظهر مكتشف آخر وهو الفرنسي روني كابيهRené caillé الذي انتحل صفة رجل مسلم وفي شهر ماي(1244هـ – 1828م)، توجه من تمبكتو نحو الصحراء الجنوبية الغربية ليصل إلى فرنسا عن طريق المغرب[2].

(1) Lieutenant, Pefontan, Histoire de Tombouctou de sa fondation a 1'occupation francaise,» Bulletin du Comite d'Etudes historiques et scientifiques de I'Afrique *Occidental Français,* janvier-*mars,1922,p.261.*

(2) Ibid, p.97-98.

ولعل أهم مكتشفي أحوال كنتة وأوضاعها هو الألماني هنري بارث Heinrich Barth [1] فقد بدأ مهمته لصالح الإنجليز سنة (1271هـ – 1854م)، واستقر بتمبكتو واتصل بالشيخ سيدي احمد البكاي وهذا ما يتطلب منا وقفة خاصة.

رافق هنري بارث في رحلته رشاردسون(Richardson)[2]وارفريق

---

(1) هنري بارث(Heinrich Barth)ألماني الأصل ولد في همبورغ في شهر فيفري (1237هـ 1821–م)، بدأ دراسته في مسقط رأسه وأكملها في برلين، درس فقه اللغة والجغرافيا العامة فجذبته طبيعة المتوسط فزار إيطاليا وصقلية سنة (1256هـ 1840–م)،وعند عودته إلى برلين حصل على الدكتوراه سنة (1260هـ 1844–م)، وفي السنة الموالية طاف حوض البحر الأبيض المتوسط فمكنته هذه الزيارة من اكتشاف فرنسا وإسبانيا والمغرب والجزائر وتونس وطرابلس ومصر السفلى وفلسطين ويوريا وقبرص والقسطنطينية وجزر اليونان –اتصلت الجمعية الإنجليزية من أجل تجارة العبيد لبريطانيا بالسودان والصحراء فبدأ رحلته من طرابلس بتاريخ 02 أفريل 1267هـ/ 1850م، وفي السنة الموالية وصل إلى مرزوق وقضى بها مدة شهر وتوجه ؟إلى آيرو منها إلى تيتلوسيت فقطن بها مدة أربعة أشهر إلى أقاديس بالنيجر وكوكا ولم تبق له أية موارد فاستقبل من طرف سلطان الورنو وتقدم نحو آدما ومع حراسة فدمها له السلطان فتجول في الغابات وقطع أحد روافد نهر النيجر (البينا) فزار يولا وعندما بعث أوراقه إلى بريطانيا تلقى إعانة من طرف الحكومة البريطانية فغادر كوكا في شهر سبتمبر (1270هـ 1853–م)، وبقي بها ثمانية أشهر في ضيافة الشيخ سيدي أحمد الكنتي وأثناء إقامته بتمبكتو انتشر خبر وفاته إلا أنه ظهر من جديد بمدينة كوكا ثم ساي وبعد مدة سنتين التقى بأول أوروبي في ديسمبر (1271هـ 1854–م)،فقضوا فصل الشتاء بمدينة كوكا وفي فاتح سبتمبر (1272هـ 1855–م)،نزل بمرسيليا بعد غياب عن أوروبا دام خمس سنوات فتوجه إلى لندن وأخرج شهاداته في كتاب من خمسة أجزاء بعنوان: اكتشاف رسالة في شمال إفريقيا ووسطها.

أنظر:

André Berthelot, (Dir.), *La* Grande Encyclopédie, *t50*, *Paris*, Lamirault, 1885-1892, p.520-521.

(2) رشاردسون(Richardson) :رحالة إنجليزي ولد بلكولن سنة (1221هـ – 1806م)، في أول الأمر حاول الذهاب إلى المغرب الأقصى، لكنه إقتصر في زيارته على المدن الساحلية وفي سنة (1261هـ – 1845م)، وصل إلى طرابلس وغدامس، وغات سنة (1266هـ – 1849م)، ثم أوطل إليه بالمرستون مهمة التحري وإستطلاع الصحراء والسودان فوصل إلى بحيرة تشاد ووافق –

(Overweg)[1] وقد توفيا بوسط إفريقيا فأكمل هنري بارث بارث (Heinrich Barth) رحلته ودخل تمبكتو فدارت حوله الشكوك لكونه نصرانياً أوربياً فأباح سكان تمبكتو وأمراء ماسينا والطوارق قتله وأخذ أمواله فدارت محاورات عديدة محورها الشيخ سيدي أحمدج البكاي الذي حماه ودافع عنه وأمراء ماسينا والطوارق القاطمين في بادية تمبكتو وبداخل المدينة عارض إقامته بها ابن عمه حمادي الكنتي.

وعليه اضطر الشيخ سيدي أحمد البكاي إن يتخذ قرار بالخروج من تمبكتو والإقامة ببابديتها بعدما تعرض بارث للهجوم من طرف مجموعة لم تكن متفقة مع الشيخ سيدي أحمد البكاي. وفي البادية لاحقه حمادي الكنتي الذي أراد مهاجمته في المخيم الذي نزل به وفي نفس الوقت طالبت إمارة ماسينا بتسليمه لها لتفعل به مثل ما فعلت بالماجور لنق (Laing) وعليه فقد وقفت إمام الشيخ سيدي البكاي كل الأطراف الفاعلة الموجودة بتمبكتو وخارجها بغية تسليم بارث لاعتباره غريباً عن هذا المجتمع الإسلامي في عاداته وتقاليده وديانته وأساليب معيشته، إلا أن الشيخ سيدي أحمد البكاي عمل ما في وسعه ليعيش ضيفه هنري بارث وقد ظهرت موافقة الرسمية في المراسلات التي بعث بها اللهجة التي سلطة القرار بماسينا، وقد نظم الشيخ سيدي أحمد البكاي قصيدة يطرح فيها عدة تساؤلات ويجيب عنها، وهي تتألف من ثلاثين بيتاً منها:

**وتنصر الضيف من كل السوق فيئة هـم أسد في النائبات وسودد**

---

بارث- وأوفريق- توفي متأثراً بمناخ المنطقة سنة (1268هـ - 1851م)،أنظر : Ibid,t 28,p.639..

(1) أدولف وارفريق(Adolf Overweg) : رحالة ألماني ولد بهامبورغ في جويلية (1238هـ - 1822م) رافق بارث ورشاد دسون (1266هـ - 1849م) توجه إلى قوبر عن طريق زندر والتقى ببارث في شهر مارس (1247هـ - 1831م) فاستطلع مناطق التشاد وتوفي في سنة (1269هـ - 1852م)،أنظر: Ibid,t25, p.639

**هم القوم في الإسلام لا يخذلونني وهـم إخوتي أجدي إليهم وأنجد**
**ولي من بني الفلان في الأرض عصبة إلى نصر دين الله نسعى ونـحفد**
**أحـب غليهم مـن بينهم ومالهم وأنفسهم جيـش الإله يؤيـد**[1]

القصيدة توضح الموقف المتقد الذي اتخذه الشيخ سيدي احمد البكاي أمام أمير ماسينا أحمد الفلاني حين حماه، ورد طلبه بتسليمه له ولقبائل الأزواد من عرب وطوارق.

وعندما أراد أن يسافر بارث Barth عرض عليه الشيخ سيدي أحمد البكاي ثلاثة مسالك ليعود بها إلى أوروبا.

الطريق الأول : يمر على أرض الغوليا لماسينا وينتهي عند المحيط الأطلسي ثم أوروبا

الطريق الثاني : يمر عبر أراضي الطوارق وينتهي بالمتوسط فأوروبا.

الطريق الثالث : عبر نهر النيجر ثم المتوسط فأوروبا.

وعند مغادرته تمبكتو زوده الشيخ سيدي أحمد البكاي بوصية إلى كل أخوانه من الطوارق والفلان تضمن له سلامة الطريق. ويدل محتوى الرسالة التي حمله بها الشيخ سيدي أحمد البكاي أنه قدم إليه بوصية من عند أحد أمراء الفلان عند دخوله إلى تمبكتو ومما جاء فيها.

**( ومنعنا منه الرجال حتى رددناه إليكم بالسلامة كما جاء من عندكم بكرامة فإن ضيف الكرام مكرم والشر على أهل الخير محرم )**[2].

---

(1) الشيخ سيدي أحمد البكاي،قصيدة شعرية ـيرد فيها على المطالبين بتسليم هنري بارث بتمبكتو،مركز أحمد بابا،رقم 814.

(2) BARTH (Heinrich.) – Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale, t. 4. – Paris : Bahné, 1861,p.45.

فالشيخ سيدي أحمد البكاي دوافع وأسباب جعلته يقف بجانب هنري بارث (Heinrich Barth)عند المحن ويحميه من الشدائد التي أحاطت به وقد استند في ذلك من الناحية الشرعية إلى القرآن الكريم : ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ** عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

أما عن السنة النبوية الشريفة فقد استند إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يكرم من جاءه مسلماً أم كافراً، ويتعرض لما حدث له عند ما جاءه شخص مغربي بتمبكتو وعاب عليه حماية بارث Barth واستشهد له بآية تمنع مودة المسلمين للنصارى ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ** بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[2].

فرد عليه الشيخ سيدي أحمد البكاي:«إنك لم تقرأ قوله تعالى» ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ** عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[3].

فاعتاظ الشيخ سيدي احمد البكاي من هؤلاء الجهلة الذين يدعون معرفة الاسلام وقال له : «أتت ممن قال فيهم المولى عز وجل» (1299هـ – 1881م) وصل الدكتور لترLenz إلى تمبكتو. وفي سنة (1305هـ – 1887م) إقترب من الملازم دوفواسو كارون Lieutenant de Vaisseau Caron وفي شهر أفريل (1312هـ – 1894م) دخل الضابط الفرنسي بونيهBonnier إلى تمبكتو بعد مقاومة عنيفة من طرف السكان.

(1) قرآن كريم،سورة الممتحنة،الآية:08.

(2) قرآن كريم،سورة المجادلة،الآية:22.

(3) نفسه،سورة الممتحنة،الآية:08.

فظاهرة الجوسسة تحت غطاء الاكتشافات من مميزات الفقرة التاسع عشر. وقد مارسها الأوروبيون تحت شعار أنهم مسلمون وبهذه الأساليب وصل كثير منهم إلى قمة الهرم الاجتماعي وتعرفوا على حقائق المجتمعات الإسلامية فعرفوا نقاط ضعفه وفوته تحت غطاء الإسلام فدونوا رحلاتهم للمناطق المهمة. ورغم عليمات القتل التي تعرض لها الأوروبيون فلم تتوقف السياسة البريطانية والفرنسية عند حدها. وإنما كلما استدعت مصالحهم الاستعمارية معرفة أي شيء إلا ونجدهم يرسلون من يقوم بهذه المهمة. وبالرغم من كل هذا فإنه لم يستطع أي واحد منهم أن يزور الإقليمين الكنتيين مع بعضهما البعض «**توات والأزواد**» وإنما هناك من تخصص في الأزواد كهنري بارث (Heinrich Barth) وفي توات مثل جيرار رولف (Gerhard Rohlfs).

## موقف كنتة من الغزو الفرنسي للصحراء الجزائرية

ارتبط إقليم الأزواد بمنطقتي شمال المغرب العربي ارتباطاً وثيقاً ساهمت فيه عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية.

فكانت القوافل التجارية بمثابة صحافة تعرض أخبار الغزو الفرنسي للجزائر وما قامت السلطات الغازية حينما أقدمت على غزو متليلي الشعانبة وورقلة واستيلائهم عليها[1] عندما طلب كان الأزواد من الشيخ سيدي محمد البكاي بالتوجه للجزائر لمحاربة فرنسا هناك، فبل قدومها إلى تمبكتو وقتل هنري بارث باعتباره جاسوسًا يعمل لصالحها.

وقد وردت على الشيخ سيدي أحمد البكاي رسائل تعبر عن موقف التواتيين الذين طالبوا فيها بإعلان الجهاد ضد فرنسا ومساندتهم له، فقد اغتنم الشيخ

(1) BARTH (Heinrich).- «Idées sur les expéditions scientifiques en Afrique». – Extrait du Bulletin de la Société de géographie, 1872.p.4.

سيدي أحمد البكاي وجود بارث بتمبكتو فكتب له رسالة للسلطات الفرنسية بالجزائر عبر فيها عن أفكار الشيخ سيدي أحمد البكاي المتضمنة لمخاطر الغزو في الصحراء الكبرى وخاصة غزو تمبكتو، فعند وصول الرسالة إلى حاكم الجزائر حللت بحذر لكتابتها من طرف أوروبي يشك في صداقته ونواياه الدخلية نحو فرنسا ونظروا إليه على أنه حليف لسكان تمبكتو وكما أن قضية غزو تمبكتو ما زالت لم تدرس بعد في المخطط الفرنسي[1].

وخلال هذه الفترة تغيرت الأوضاع داخل فرنسا فقد تم الإعلان عن الجمهورية الثانية عام 1848م، وبموجب الدستور أصبح يحكمها رئيس بالاقتراع العام لمدة أربع سنوات يجمع ما بين السلطات، أما السلطات التشريعية فمنحت لمجلس نيابي ينتخبه كل الفرنسيين لمدة ثلاث سنوات يضم 750 عضواً وفي شهر ديسمبر تم تعيين لويس نابليون إمبراطوراً على فرنسا[2] وأمام هذه التغيرات في الأوضاع الداخلية بفرنسا تركزت مساعي الشيخ احمد البكاي الدبلوماسية بالاتصال ببريطانيا ومحاولة توثيق الصلة بها من اجل تفويت الفرصة على الفرنسيين والوقوف في وجه مخططاتهم الرامية إلى احتلال هذه المنطقة من الفرنسيين وتضمن له بريطانيا مصالح عرب نهر النيجر، كل هذه الأساليب الدبلوماسية والعلاقات السياسية التي ربط بينها تعكس بعد الشيخ أحمد البكاي في الوقوف أمام الاستعمار الفرنسي الذي كان يناور من أجل الاحتلال كما تبرز حنكة الشيخ سيدي أحمد البكاي الذي أوجد منافذ استطاع أن يوازن بينها وبين مصالح منطقة بالأزواد وتوات.

---

(1) Ibid, p.6.

(2) عبد العزيز يليهان توار،عبد المجيد نعنعي،أروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية،بيروت:دار النهضة،ص:208.

## الخاتـمـة

وختاماً يتضح من الوضع الاجتماعي لقبيلة كنتة سواء ما يتصل منه بإطار الحياة الخاصة أو ما يتصل بالعلاقات الخارجية بوسطها الصحراوي أو في مجالها الجغرافي أو الاتصالات بالأوروبيين أن قبلية كنتة تتمتع بوضعية مميزة ومكانة مرموقة بإقليمي توات والأزواد ويعود ذلك بارتباطها بالعادات والتقاليد الإسلامية العربية في الوسط الصحراوي وتمكنها بالعادات الكنتية من ضيافة ورعاية ومحبة الآخرين، وقد أعطى الشيخ سيدي أحمد البكاي بعداً دولياً خاصاً لكنتة فعرف كيف يعالج أمور قبيلته وشؤونها مما جعله عاملا مؤثراً وزعيماً معترف به لدى الدول الأوروبية التي بدأت تمد نفوذها على المنطقة مثل فرنسا وإنكلترا خاصة بعد وفاة الشيخ أحمد البكاي، قامت فرنسا بفرض سياسة الأمر الواقع على الإقليمين وقد ساعدها الظرف الدولي المشجع للسياسة الاستعمارية والخلاف القادري التيجاني في الأزواد وخروج حمادي بن سيدي المختار الصغير على الزعامة الكنتية كل هذه الأسباب لم تمنع عابدين بن الشيخ سيدي أحمد البكاي من أن يجعل كنتة طرفاً في معادلة النزاع المحلي وحركة الجهاد ضد الأوروبيين، ما يؤكد تاريخ كنتة الخاص ووضعها المميز في الحياة الثقافية.

## قائمة المصادر والمراجع

**القرآن الكريم.**

**المخطوطات:**

– الشيخ سيدي أحمد البكاي، رسالة إلى الشيخ سيدي المختار الصغير، مركز أحمد بابا، تمبكتو، رقم:

– الشيخ سيدي أحمد البكاي، قصيدة شعرية ـيرد فيها على المطالبين بتسليم هنري بارث بتمبكتو، مركز أحمد بابا، رقم 814.

– الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي المختار الكبير، **رسالة إلى أحمد لب**، تمبكتو، مركز أحمد بابا، رقم289

– الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكبير، الطرائف.

**المراجع بالعربية:**

– الشيخ عبد الرحمان السخاوي، المقاصد **الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، ط1، دراسة وتحقيق الخن محمد عثمان، دار الكتاب العربي، 1985.

– عبد العزيز يليمان توار، عبد المجيد نعنعي، **أروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية**، :دار النهضة، بيروت.

– محمد فؤاد عبد الباقي، **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**، ج3، بيروت: دار الأحياء، ص:190.

## المراجع بالفرنسية

**الكتب:**

– *(A.G.P.) MARTIN.* Quatre Siècles d'histoire Marocaine *au Sahara de 1504 à 1902*, *au Maroc de 1894 à 1912*, Paris*: Félix Alcan,1923.*

– *André Berthelot*, *(Dir.)*, La *Grande Encyclopédie*, t5, Paris, *Lamirault, 1885-1892.*

*– BARTH (Heinrich.) – Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale, t. 4. – Paris : Bahné, 1861.*
*– JOFFRE (Joseph). – « L'occupation de Tombouctou ». – Bulletin du Comité de l'Afrique française, 1896.*
*– Lieutenant, Pefontan, Histoire de Tombouctou de sa fondation a 1'occupation francaise,» Bulletin du Comite d*' '*Etudes historiques et scientifiques de I' Afrique* Occidental Français, *janvier*-mars, 1922,p.261.
*– MARTY (Paul). - Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, t. 2. – Paris : s.n., 1920.*

## المقالات:

- BARTH (Heinrich).- «Idées sur les expéditions scientifiques en Afrique». – Extrait du Bulletin de la Société de géographie, 1872.
*- VOINOT (Louis) – « Le Tidikelt : étude sur la géographie, l'histoire et les mœurs du pays ». – Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, t. 29, 1909*

# دور الثورة الجزائرية في إفريقيا

**الأستاذ: بنادي محمد الطاهر**

**الرتبة: أستاذ مساعد (أ)**

**قسم العلوم الإنسانية كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة بسكـرة –**

## مقدمة

منذ الوهلة الأولى لاندلاع الثورة التحريرية، حرص قادتها على أن تكون مطالبها واضحة المعالم، ليس فقط في داخل الجزائر، بل حتى لدى الرأي العام العالمي، حتى تسد الطريق أمام مخططات الاستعمار، التي كانت ترمي إلى التعتيم عليها وتشويهها، ومن ثم إجهاضها. لقد أصدرت جبهة التحرير الوطني بيانها الخالد يوم 31/ 10/ 1954م، بينت فيه بجلاء ووضوح أهداف الثورة والمبادئ، التي ارتكزت عليها محددة إياها في غاياتها، التي كانت تتجسد في الحرية والاستقلال مبررة لجوءها إلى حمل السلاح في وجه فرنسا.

## 1 – صدى الثورة الجزائرية على إفريقيا

إن الثورة الجزائرية كان لها البعد المغاربي والعربي والإفريقي والعالمي، تم توضيح ذلك في بيان نوفمبر 1954م، وبالتحديد في الأهداف الخارجية لبرنامجها السياسي[1]، حيث جاء فيه ما يلي: «تدويل القضية الجزائرية – تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي وهو العروبة والإسلام – تأكيد محبتنا في إطار

(1) بيان أول نوفمبر 1954م، ينظر: يحى بوعزيز: ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996م، ص137.

ميثاق هيئة الأمم لجميع الشعوب، التي تؤيد حركتنا التحررية»[1]. كانت الثورة الجزائرية تسعى إلى تجسيد القيم الإنسانية، التي تناولها بيان نوفمبر التاريخي، بما فيها احترام حقوق الإنسان، والذي لم يكن بعدا وطنيا بل أصبح دوليا، وذلك بالتنسيق مع القوى التحررية في مناطق العالم المختلفة، فاكتست صفة الشرعية بمفهوم النظام الدولي، لأن هدفها كان استعادة الاستقلال، وإعادة بناء الدولة التي أزالها الاستعمار. إن هدفها الأسمى الدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهذا انطلاقا من قناعاتها التي كانت نابعة من معاناة الجزائريين طوال الحقبة الاستعمارية.

إن ثورة نوفمبر المجيدة نجحت في إيقاظ الوعي لدى الشعوب المستعمرة لدحر الاستعمار في كامل القارة، فهي لم تؤثر فقط في المستعمرات بل حتى في الدول، التي نالت استقلالها، ورفضت الانضواء تحت نفوذ الاحتلال كغينيا مثلا، التي رفضت الاستقلال الشكلي، أو ما يسمى بالاستقلال المشروط، الذي أدخلها في مواجهة مع فرنسا، حيث أصرت على الاستقلال التام ودون شروط[2].

إن الثورة الجزائرية لم تكن نموذجا لدحر الاستعمار التقليدي فقط، بل كذلك لمواجهة الاستعمار الاستيطاني، وهذا في حد ذاته كان دافعا قويا لكثير من الحركات الاستقلالية بعدم التسامح مع الاستعمار مثلما هو الحال في كل أنحاء إفريقيا، كما لعبت دورا أساسيا في إضعاف قدرات المشروع الاستعماري، الذي كان يطمح إلى المحافظة على مستعمراته مع التركيز على إخماد الثورة الجزائرية[3].

---

(1) «ميثاق الثورة»، **جريدة المقاومة الجزائرية**: عدد01، 01 نوفمبر 1956م، وزارة الإعلام والثقافة، 1984م،، ص04.

(2) إسماعيل دبش: السياسة الغربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية (1954-1962)م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص ص 23-24-30.

(3) نفسه، ص ص163-164.

لقد تخطى كفاح الشعب الجزائري حدود الوطن ممتدا إلى القارة الإفريقية برمتها، وهذا بفضل قوة الثورة العسكرية، الإعلامية، والسياسية وشرح عدالة قضيتها وتحريض الأفارقة على الثورة ضد الاستعمار[1]، فكانت السبب المباشر في إدخال الاضطرابات على النظام الاستعماري بأقطار إفريقيا[2]. إن حرب التحرير الجزائرية ما انفكت تساهم بدور محوري في محو الاستعمار لأسباب منها: الإرهاب والقهر الاستعماريين، اللذين تعرض لهما الشعب الجزائري لقرب الجزائر من فرنسا، ولوجود جيوش من المستوطنين، ونظرا لأهمية الجزائر الإستراتيجية والاقتصادية بالنسبة لها.

هذه الأسباب جعلتها تتمسك بها خاصة بعد استقلال تونس والمغرب عام 1956م، لأنها تدرك جيدا بأن انتصار الجزائر؛ هو طريق التحرر بالنسبة للشعوب الإفريقية، وأن لهيب الثورات سيطال كل مستعمراتها[3].

إن فرنسا ولتجنب هزيمة مرة في الجزائر، اضطرت إلى التخلي عن كامل إمبراطوريتها الإفريقية السابقة، إن الثورة الجزائرية تحمل شرف رسالتها التاريخية وهي العمل على تحرير كامل القارة، وتدمير النظام الاستعماري العالمي، لأن شهداء الجزائر هم شهداء إفريقيا والعالم، لذا فالثورة الجزائرية لم تبق مكتوفة الأيدي في مجال التضامن الإفريقي، بل لعبت فيه دورا عظيما ونبيلا، لقد أخلّت بالتوازن الاستعماري في إفريقيا السوداء، حيث دفع الأمر بالساسة الفرنسيين إلى دق ناقوس الخطر عام 1956م، وذلك بعد مضي سنتين من اندلاعها، فبذلوا المزيد من الجهد لمنع الانهيار الكبير للاستعمار في حالة

(1) ) (Frantz Fanon: **Pour la Révolution Africaine**, imprimerie Grouhradenez, Paris, 1er trimestre, avril 1969. PP154-155.

(2) عبد الكريم بو الصفصاف: الثورة الجزائرية ودورها في إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية، **مجلة سيرتا**: العدد06-07، جويلية 1982م، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ص44.

(3) «أربع سنوات من الأحداث السياسية»، **جريدة المجاهد**: عدد31، 01نوفمبر 1958م، ص04.

توسع الكفاح المسلح ليمس بقية أقطار إفريقيا، فدفعت به إلى إصدار قانون الإطار عام 1956م ودستور 1958م، وذلك كإجراء لتخفيف الضغط، الذي أحدثته الثورة الجزائرية في مستعمراتها، التي قويت فيها الحركة الوطنية بفضل قياداتها، واستجاب الاستعمار الفرنسي لمطالب الإفريقيين، والتي كانت عسيرة ومؤلمة له، ولنا أن نتصور قيام ثورة في غينيا وغيرها من المستعمرات في الوقت، الذي توجد فيه كل قواتها بالجزائر[1].

حقيقة إن الثورة الجزائرية أربكت الاستعمار وخلطت حساباته، وأن ثمار كفاح الجزائريين سوف لن يقطفوها لوحدهم بل يشاركهم فيها إخوانهم الأفارقة، الذين يرددون هتافا واحدا مع الجزائر وهو نريد الاستقلال[2]. إن كفاح الجزائر من أجل الاستقلال لم يبق حبيس الشمال الإفريقي، بل تعداه إلى النطاق الإفريقي[3]، فبعثت في إفريقيا السوداء روح اليقظة والصحوة، والتحرك نحو الاستقلال والحرية، فكانت صرخة شعب غينيا في 28/ 09/ 1958م، بداية الإقلاع لشعوب إفريقيا نحو التحرر والانعتاق، مما اضطر ديغول إلى التسليم بالواقع فاعترف بحق شعب غينيا في الاستقلال، والانفصال عن فرنسا رغم معاقبته له عن طريق رفع العون والمساعدة عنه بصفة كاملة ولكن شعب غينيا تحدى هذا الإجراء. واستطاعت الثورة الجزائرية أن تعيد الثقة في نفوس الغينيين، وأن تزرع فيهم روح الأمل والحياة الحرة، ونبذ التخلف والفرقة والعمل على بناء المستقبل[4].

---

(1) من دماء الجزائر طلع فجر إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: عدد81، الثلاثاء 11 جمادي الأول 1380هـ- 01 نوفمبر 1960 م، ص4.

(2) أربع سنوات من الأحداث السياسية»، **جريدة المجاهد**: المصدر السابق، ص04.

(3) أحمد بومنجل: «إفريقيا في معركة التحرير»، **جريدة المجاهد**: عدد43، جوان 1959م، ص03.

(4) يحى بوعزيز: ثورات، المرجع السابق، ص ص 415-416.

لقد كانت الثورة الجزائرية سباقة إلى الاعتراف بغينيا كدولة مستقلة بعد قيامها في شهرها الأول، وذلك بإسراع إعلان الاعتراف من قبل الحكومة الجزائرية المؤقتة[1]. إن ثورة الشعب الغيني وعلى غرار بقية المستعمرات الفرنسية، استمدت من الثورة الجزائرية قوة وإرادة على الكفاح لتحقيق الاستقلال، ودفعت بالاستعمار إلى تفاديه والاستجابة إلى مطالب الإفريقيين في الاستقلال[2].

إن مسيرة النضال التي يخوضها الشعب الجزائري كانت بمثابة اللغم، الذي نسف الوجود الفرنسي بإفريقيا، وأصبح طريق الحرية مفتوحا أمام كل المستعمرات، وهذا من شأنه أن يدفع بديغول مكرها إلى الاعتراف بوجود دول مستقلة بإفريقيا السوداء[3]. إن شعار الثورة الجزائرية كان: أيها الأفارقة إلى السلاح الموت للاستعمار الفرنسي، حيث لعب الشعب الجزائري دورا لا يستهان به في تحرير القارة برمتها، وأن حركة التحرير الوطني لن تأخذ شكلها العملي، إلا بالمشاركة الإيجابية في ثورة الجزائر، وذلك بإشعال فتيل الثورة في المستعمرات[4]. إن الثورة الجزائرية أحدثت تصدعا في الجدار الاستعماري الفرنسي، بحيث أصبح متاحا لكل مستعمرة فرنسية، أن تقضي عليه بسهولة والشعب الجزائري يعلم جيدا بأن شعوب إفريقيا تتابع عن كثب كفاحه بعطف وحماس[5].

---

(1) ك.مادهو.پانيكار: الثورة في افريقيا، ترجمة: روفائيل جرجس، مراجعة محمد محمود، الصياد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964م، ص219.

(2) إفريقيا تباغت ديغول وتعلن معركة الاستقلال»، **جريدة المجاهد**: عدد28، 28/ 08/ 1958م، ص13.

(3) فرانز فانون: من أجل افريقيا، ترجمة: محمد الميلي، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م، ص ص 146-147 .

(4) «الاستعمار الغربي يختنق في بركان إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: عدد76، الاثنين 13 ربيع الأول 1380هـ 05- سبتمبر 1960 م، ص05.

(5) «ثورتنا تقوض أسس الاستعمار في إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: عدد22، 15أفريل 1958م، ص05.

لقد تضررت فرنسا من حربها في الجزائر مما دفع فرنسوا فالنتان François Valentin، رئيس لجنة الدفاع الوطني في البرلمان الفرنسي، وأحد زعماء اليمين إلى القول: «... إن الحرب الجزائرية لا تنهك الاقتصاد الفرنسي وإنما في إمكانها أن تؤدي بالجيش إلى الإفلاس باضطرارها إلى صرف ميزانية في العمليات الحربية بينما يتعطل تجهيزه بالأسلحة الحديثة، وتدريبه على الأساليب العصرية»[1]. ولقد كان ديغول أول شخصية فرنسية أدركت هذا الخطر.

لقد أثنى الكثير من الزعماء الإفريقيين على ما حققته الثورة الجزائرية على صعيد الكفاح التحرري في إفريقيا، حيث قال الراحل نلسون مانديلا Nelson Mandela: «... الجزائر كانت وستبقى قلعة الثوار والأحرار والسند القوي لكل الشعوب المناضلة من أجل العدالة والحرية ومواقفها الأصيلة ترجمتها إلى إعطاء دعم وإسهام مباشر في تحرير القارة الإفريقية... وستظل الشعوب الإفريقية تتذكر باعتزاز للجزائر دورها في تحريرها من الاستعمار وتثمن جهودها في توحيد وتضامن القارة وشعوبها والنهوض بالتنمية الاقتصادية فيها»[2].

إن عالمية الثورة الجزائرية كانت نتاج خصائصها، وسماتها فأصبحت مثالا يحتذى به في إفريقيا، فهي التي حطمت حقيقة الإمبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار وعدّت آخر سلسلة من سلاسل هزائم فرنسا منذ بداية القرن التاسع عشر[3]، إن الثورة الجزائرية تخطت حدود الوطنية باعتبارها تجربة رائدة في مسار الكفاح التحرري والمواقف الصلبة والثابتة تجاه القضايا العالمية العادلة،

(1) «الحلف الأطلسي الذي حاربنا»، **جريدة المجاهد**: عدد58، الاثنين 27 جمادي الثانية 1379هـ- 28/ 12/ 1959م، ص10.

(2) تصريحات الأسبوع»، جريدة الخبر: 18 صفر 1419هـ الموافق لـ 13 جوان 1998م، ص02.

(3) يحى بوعزيز: ثورات، المرجع السابق، ص ص 402-411.

إن الدماء التي سالت في الجزائر من 1954م إلى 1962م، روت الأرض الإفريقية في مستعمرات فرنسا بالحرية والاستقلال[1].

## 2 – استقلال أقطار إفريقيا والثورة الجزائرية

إن غينيا من بين الدول القليلة، التي كانت مواقفها متشددة حيال الاستعمار، فأيدت وبقوة الثورة الجزائرية، وكانت وراء مواقفها المشرفة عوامل عديدة يمكن إجمالها في التالي:

– الانتماء الديني المشترك للشعبين الجزائري والغيني، وقوة تأثير الشعب الغيني على توجهات حكومته.

– القواسم المشتركة التي جمعت الشعبين، حيث تعرضا لاستعمار همجي واحد مارس عليهما شتى صنوف القهر والاستبداد.

– معاناة غينيا من وقف المعونات الفرنسية لها بعد تدمير هذه الأخيرة لكل البنية التحتية الاقتصادية والهياكل الاجتماعية ووسائل الاتصال، وهذا بعد موقفها الشجاع في رفض الانضواء تحت المجموعة الفرنسية بعد استفتاء 28/ 09/ 1958م.

كان ذلك كله يحدث في وقت يعاني فيه الشعب الجزائري من شتى أشكال القهر الاستعماري والممارسات اللاإنسانية في حقه، وكان لهذه الأحداث والمعاناة المشتركة الأثر الواضح في تضامن الشعبين القوي. كانت غينيا تملك قيادة قوية واعية ومثقفة وذات بعد نظر وطنية ومخلصة لشعبها تمثلت في شخصية أحمد سيكوتوري، التي استقطبت ملايين الغينيين، والذي عرف

(1) ريتشارد جيبسون: حركات التحرير الإفريقية، ترجمة: صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم: حلمي شعراوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص21.

بمعاداته للاستعمار وهيمنة القوى الإمبريالية ليس فقط على غينيا بل على كل القارة، فكانت مواقفه مناوئة له ومدعمة للمطالبين بالاستقلال والتحرر ومناصرة القضايا العادلة ومنها الجزائر[1]. إن من بين الدعائم القوية، التي تقوم عليها سياسة غينيا في مهاجمة سياسة فرنسا تجاه الجزائر، التأييد وبشكل مطلق للنهج التحرري، الذي اعتمده الشعب الجزائري والمطالبة بضرورة إجراء الحوار والمفاوضات مع قادة الثورة، حيث كانت كوناكري منبرا دعائيا للثورة الجزائرية في كل أنحاء إفريقيا، كما كانت علاقاتها بها متينة، حيث طالبت وفي أكثر من مناسبة باستقلال الجزائر[2].

إن سيكوتوري يجرم كل دولة أو حكومة تتردد أو تتحفظ عن الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري في كفاحه العادل، فهو يرى أن كل حكومة لا تهتم بقضية الشعب الجزائري في الدفاع عن حريته، إنما هي متواطئة مع الاستعمار في جرائمه، وأن أية حكومة تقرر بأنها غير مسؤولة إزاء القضية الجزائرية، فإن قرارها هذا ينجر عنه تأييدها للاستعمار ومناصرة الظلم[3]. ومن بين مظاهر مساندة غينيا للشعب الجزائري تأييدها لمشروع القرار الأممي الصادر في 10 ديسمبر 1957م، والذي تضمن ضرورة إيجاد حل سلمي، وذلك عن طريق التفاوض حول ما يقع في الجزائر، وهذا يظهر بأن غينيا كانت تتابع الأحداث في الجزائر، وتعترف بحق شعبها في تقرير مصيره، كما تقدمت بمشروع قرار أممي في عام 1958م مع أربع وعشرين دولة أفروأسيوية يدعو صراحة إلى مراقبة الأمم المتحدة لاستفتاء تقرير المصير في الجزائر،

(1) إسماعيل دبش: السياسة، المرجع السابق، ص166.

(2) ك. مادهو.بانيكار: الثورة، المصدر السابق، ص239.

(3) «العالم يحتفل بذكرى أول نوفمبر»، **جريدة المجاهد**: عدد04،108 جمادي الثانية 1381هـ– 13 نوفمبر 1961م، ص11.

وتتأسف مع العديد من الدول الأفروأسيوية على ما يحصل بها من عمليات عسكرية[1].

إن سيكوتوري عبر عن روح التضامن، والأخوة مع الشعب الجزائري من خلال مواقفه المتلاحقة حين قال: «إن الشعوب الإفريقية الحرة تكافح في واجهة واحدة مع الشعوب العربية التي ترتبط معها في الغالب بروابط تاريخية وثيقة، ولكي نزيد من قوتنا ونضاعف تأثيرها وفعاليتها يجب أن نسير في وحدة قوية دائمة وفي تماسك متزايد وتصميم يشتد ويتأكد كلما اشتدت الأخطار التي تهددنا»[2]. ومادامت الجزائر بلدا عربيا، فإن سيكوتوري كان واضحا في دعوته إلى الوحدة والتماسك والوقوف مع الثورة في وجه الأخطار.

إن النزاع الجزائري الفرنسي، قد طرح المشكل الاستعماري على مستوى القارة الإفريقية، وها هي غينيا المستقلة في الجهة الأخرى من إفريقيا تمدد ظل الثورة، ليغطي بقية الأقطار، التي يعتقد الاستعمار أنه يسيطر عليها[3]. وفي هذا السياق فإن اختيار غينيا ومن ورائها سيكوتوري جانب الاستقلال، لم يكن في صالح غينيا فقط، بل كان لصالح عموم إفريقيا، فهو يرى بأن الاقتراع الغيني هو الذي شق طريق الاستقلال أمام كل الأقطار المستعمرة[4]، وبضغط وإصرار من غينيا قدم مؤتمر الشعوب الإفريقية الثاني المنعقد في تونس من 25 إلى 31 جانفي 1960م توصياته حول الجزائر (ينظر الملحق رقم: 01 ص13).

---

(1) يحى بوعزيز: ثورات، المرجع السابق، ص ص 315-316-317.

(2) «انتصارات جديدة لشعوب إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: عدد51، الاثنين 19 ربيع الأول 1379هـ- 21/ 09/ 1959، ص10.

(3) فرانز فانون: من أجل، المصدر السابق، ص151.

(4) أحمد سيكوتوري: إفريقيا والثورة، ترجمة مجموعة من الاختصاصيين، مراجعة أديب اللجمي، الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1968م، ص324.

ومن أهم مظاهر التضامن الغيني مع الجزائر تصريح أحمد سيكوتوري في الدورة الإفريقية، التي ضمت رؤساء غينيا، غانا ومالي يوم 26/ 12/ 1960م قائلا: «لن نهتم بأشغالنا هذه إلا بالدفاع عن الحرية الجزائرية»[1]. إلى جانب الخطاب الشهير الذي ألقاه يوم 29 ماي 1961م عن طريق الإذاعة الغينية، خصصه للحديث عن مفاوضات إيفيان، (ينظر الملحق رقم: 02 ص14).

## خاتمة

من خلال ما سبق نستشف بأن فرنسا لم تنجح في تطبيق سياساتها في إفريقيا على الرغم من تظاهرها بمنحها هامشا من الحرية كرد للاعتبار للشعوب الأفريقية، مدعية في نفس الوقت حرصها على تجسيد المثل والقيم الإنسانية، التي دعت إليها الثورة الفرنسية عام 1789م، لكن حيلتها انطلت عليها أمام تصميم وإرادة الشعوب الإفريقية، الذي رسم طريقه نحو الحرية والانعتاق، فكان لها الاستقلال، الذي ترتبت عنه نتائج متعدية مست بقية مستعمراتها، معلنة بذلك انهيار الإمبراطورية الاستعمارية.

(1) «إفريقيا ... وأفارقة»، **جريدة المجاهد**: عدد86، الاثنين 13 رجب 1380هـ- 02/ 01/ 1961م، ص12.

# الملاحـــق

## الملحق رقم:01
## توصيات مؤتمر الشعوب الإفريقية الثاني
## بتونس من 25 إلى 31 جانفي 1960م:

1 – على الحكومات الإفريقية المستقلة التي لم تعترف حتى الآن بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية الاعتراف بها.

2 –على جميع الحكومات الإفريقية أن تخصص من ميزانيتها مساهمة منظمة لفائدة الجزائر المكافحة.

3 – يلح في طلب سحب عشرات الآلاف من جنود إفريقيا من الجزائر وهم الذين تحتفظ بهم فرنسا ضمن جيشها بتواطؤ مع قادة بلادهم ويدعو كافة الدول الإفريقية والشعوب الإفريقية بأن تبذل كل ما في وسعها لتنتهي هذه الفاجعة البغيضة بين الإخوان الأفارقة والتي نظمها الاستعمار الفرنسي.

4 – يوصي بإنشاء فرقة من المتطوعين الأفارقة بحرب الجزائر ويطلب من الدول الإفريقية المستقلة تيسير تحقيق هذا العمل.

–5 نظرا لاستفحال خطورة الحالة في الجزائر، بصورة مباغتة فإن المؤتمر يوجه نداء حثيثا للأمم المتحدة حتى تفرض السلم والاعتراف باستقلال الجزائر.

---

**المصدر: جريدة المجاهد، العدد61، الاثنين 10 شعبان 1379هـ08–/ 02/ 1960م،، ص07.**

## الملحق رقم: 02

## خطاب الرئيس الغيني أحمد سيكوتوري الذي ألقاه يوم 29 ماي 1961م عن طريق الإذاعة الغينية والمخصص للحديث عن مفاوضات إيفيان

«المفاوضات الجارية بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية من أجل إيجاد حل نهائي للمأساة، التي عرضت للخطر حياة وحقوق الشعب الجزائري منذ بضع سنوات هذه المفاوضات تسيطر منذ بضعة أيام على الأحداث السياسية العالمية، إن الموقف الذي عبر عنه الحزب الديمقراطي الغيني من هذه القضية واضح غاية الوضوح خصوصا، وأنه قائم على الاعتراف بشرعية الكفاح، الذي يقوده الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي من أجل استعادة استقلاله واسترجاع سيادته الكاملة، والواقع أن هذا الموقف لا يكتسي أية صبغة، خاصة لأنه لا يوجد الآن في إفريقيا وآسيا وبقية العالم أي حزب ولا أي منظمة نقابية، ولا أية حكومة يسيرها رجال واعون لم يبذل تأييده غير المتحرز لقضية الحرية الجزائرية ضد العقلية العسكرية الفرنسية.

فالوضعية الدولية الحالية تمتاز بعديد من المواقف التي تستنكر وتفضح الصبغة العدوانية التي يكتسيها الاستعمار ضد حياة ومصير الشعوب ومن أجل ذلك تمثل حركة تصفية الاستعمار، التي تجمع في ميدان كفاح واحد شعوبا ذات أجناس ومعتقدات وأجناسا مختلفة مظهرا من مظاهر المنظور التاريخي في العالم الحديث وميزة من مميزات عقليته السياسية.

ذلك أن الدليل قد قام على أنه لابد من القضاء على السيطرة الإمبريالية والعنف الاستعماري، ورحيل الاستعمار الحديث لكي تتمكن الإنسانية من بناء مستقبل أفضل كما أن الدليل قد قام على أن التفاوض النزيه المخلص والنية الحسنة واحترام الشرعية والمساواة واعتبار أخلاقية الأعمال وسائل ناجعة تضمن للشعوب قوة ودوام مشاريعها مهما تكن تعقيدات المشاكل، التي

تتشابك فيها مصالح مختلفة بل ومتضاربة أحيانا. إن العالم أجمع يعرف الفرق الشاسع بين الجيش، الذي تملكه فرنسا في الجزائر والوسائل البسيطة، التي يكافح بها الشعب الجزائري، وهذا الفرق في ميزان القوى عوضه من الجانب الجزائري الإيمان والإرادة والشرعية، التي تعزز الكفاح الجزائري وتدين مواقف الحكومة الفرنسية في محاولتها المحافظة على سيطرتها الاستعمارية. ومن أجل ذلك تدخلت كل الندوات الدولية ودورات المنظمة الأممية في الحرب، التي تقودها فرنسا ضد الجزائر.

ففرنسا اليوم لا تتمتع في الواقع بأي تأييد، طالما استمرت حركتها العدوانية ضد الحقوق الشرعية للشعب الجزائري والدول الاستعمارية، التي كانت تشجع علانية الحكومة الفرنسية توقفت عن إعلان مثل هذه المواقف نظرا لاستنكار الجماهير الشعبية في مختلف بلدان العالم لاستمرار هذه الحرب، ومن جهة أخرى أصبحت المطامع الاقتصادية، التي تهدف السياسة الفرنسية إلى تحقيقها في الجزائر غير خافية على أحد.

إن الجزائر بالإضافة إلى إمكانياتها الفلاحية تشتمل في المنطقة الصحراوية على موارد ضخمة تريد فرنسا استغلالها لحسابها الخاص مثل هذا الموقف، هل يمكن أن يدوم؟ كلا إنه قائم على تفوق قوة العنف، وعلى احتقار مبدأ حق الشعوب في تقرير المصير، فالسياسة الفرنسية إزاء الجزائر المجاهدة والحالة هذه لا يمكن أن تنتهي إلا إلى الفشل بكل ما يجره الفشل من عواقب سياسية واقتصادية ومعنوية ودبلوماسية. إن رغبة الحكومة الجزائرية في التفاوض لا يمكن أن تكون محل شك، فالحكومة المؤقتة للجمهورية أكدت في مناسبات عديدة لا تخلط بين مصالح الاستعمار الفرنسي ومصالح الشعب الفرنسي، كما أنها أوضحت رغبتها في التعاون النزيه الدائم مع الشعب الفرنسي والحكومة الفرنسية بمجرد أن تحترم هذه الاستقلال الوطني للجزائر، وسيادتها الكاملة.

وبما أن المفاوضات الجارية، قد تتعرض للفشل في حالة إهمال الفرنسيين للشروط السياسية، التي تقدمها الحكومة الجزائرية فإننا نعتقد أن من واجب كل الحكومات العازمة على أن تشارك مشاركة فعالة في إقرار عهد من السلم والأمن في الجزائر أن تحدد من جديد موقفها، وأن توجه نداء ملحا إلى الضمير السياسي للشعب الفرنسي الموضوع أمام اختيار حاسم بين العدالة والشرعية والحق من جهة وبين الظلم والاستبداد من جهة أخرى. إننا نريد أن نؤكد بكل قوة تضامننا المطلق مع الشعب الجزائري وممثليه الحقيقيين، لأن الجزائر أرض إفريقية والحرب القائمة المفروضة على شعبها تمس مجموع الشعوب الإفريقية الواعية للعواقب الوخيمة، التي يجرها استعباد شعب بواسطة قوة وقوانين دولة أجنبية.

إننا على يقين تام بأن استقلال الجزائر هو أحد العوامل الحاسمة لاستقلال إفريقيا، وشرط ضروري لتحديد المصير الحر لمجموع الشعوب الإفريقية، ولهذا فنحن مصممون تصميما راسخا لتقديم مساعدتنا غير المشروطة للحكومة الجزائرية من أجل استقرار السلم في الجزائر حسب الشروط والضمانات، التي حددتها الحكومة الجزائرية التي هي الممثل الوحيد للجزائر المكافحة في سبيل استعادة حقوقها القومية في السيادة والحرية.

إن الثقة المطلقة التي نضعها في أعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لها صلة وثيقة بطابع التمثيل الحقيقي للمصالح الحقيقية للشعب الجزائري هذه المصالح التي لا يمكن فصلها عن المصالح الدائمة لمجموع الشعوب الإفريقية، ونحن إذ نأمل بحرارة أن تؤدي المفاوضات إلى استقرار السلم في الجزائر واستعادة الشعب الجزائري لسيادته الوطنية نؤكد بكل عزم، وتصميم أن أي فشل محتمل لهذه المفاوضات لا يمكن بأية حال أن يغير لا طبيعة، ولا اتجاه تضامن شعب غينيا مع الشعب الجزائري وممثليه.

لقد بينا دائما أن المشكل الجزائري ليس مشكل علاقات بين الشعب والحكومة الفرنسية، بل هو يطرح عمليا مشكلة تصفية الاستعمار، تصفية حقيقية كاملة وحق الشعوب في التصرف الحر بشؤونها، وهو حق نعتبره مبدأ مقدسا وقاعدة أساسية للعلاقات الدولية السلمية، ونحن نحب من جهة أخرى أن نوجه نداء قويا إلى الحكومة الفرنسية كي تؤدي الظروف، التي أوجدتها مفاوضات إيفيان إلى السلم وإلى استقلال الجزائر. إن تاريخ العشرين سنة الأخيرة، قد كان يمثل إدانة مستمرة للعبودية التي يفرضها الاستعمار بكل أشكاله، والحكومة الفرنسية المتمسكة تمسكا بالاستقلال الفرنسي لا يمكنها أن تزعم إقامة تعاون صادق ومثمر مع الشعوب الإفريقية مادامت تعارض استقلال الجزائر بالقوة، ومادامت تخضع مصالح الشعب الجزائري لبعض المصالح الخاصة، ومادامت عملياتها العسكرية تمثل خطرا على استقلال إفريقيا.

إن الحكومة الفرنسية بعد أن تعرضت خلال خمسة عشر عاما لعملية تصفية الاستعمار، ودون أن تستطيع وقف سيرها الظافر تجد الآن في إيفيان كل الوسائل لمسايرة حركة تطور الشعوب الإفريقية، التي ما تزال خاضعة لنفوذها، وذلك لصالحها التاريخي الحقيقي.

ويجب أن نعلن بصفة واضحة أن موقف الحكومة الفرنسية نحو الرغبات الشرعية للشعب الجزائري سيحدد بشكل أقوى وأوضح موقف الشعب الغيني وحكومته من الحكومة الفرنسية. إن هذا التضامن مع الشعب الجزائري ينبعث من المصالح المشتركة لشعبينا، اللذين ينتميان لقارة واحدة ولهم ظروف تاريخية متشابهة ومصالح إنسانية متضامنة ورغبات مشتركة في التقدم والحرية واحترام حقوقها الإنسانية والاجتماعية، ومن الواضح أن الأمر في إيفيان بالنسبة للشعب الفرنسي يتعلق بمستقبل علاقاته مع الشعوب الإفريقية، ويتعلق من خلال هذه المصالح بمصالحه نفسها وبإشعاعه الفكري والثقافي ومصيره الوطني الخاص.

ولكن ندوة إيفيان تبدو أيضا بوصفها الفرصة الأخيرة، التي بقيت للحكومة الفرنسية، إذ أن فشل هذه الندوة سيبرر حل القضية حلا دوليا، فإذا لم تحل القضية الجزائرية بواسطة ندوة إيفيان طبقا لرغائب الشعب الجزائري فإن شعب غينيا وحكومته بعد سبع سنوات من الحرب الاستعمارية، سيجعل من حق سيادة الشعب الجزائري أساسا لسياسته الدولية، وموقفه من الحكومة الفرنسية والحكومات المتحالفة معها، أو التي تقدم لها المساعدة في سياسة السيطرة الاستعمارية التي تسلكها في الجزائر.

لقد قال بعض رؤساء الدول الإفريقية بأن الجنرال ديغول رئيس الجمهورية الفرنسية؛ هو الشخص الوحيد القادر على دفع الرأي العام الفرنسي، وخاصة الرأسماليين الفرنسيين إلى تغيير جوهري في موقفهم من المشكلة الجزائرية بغية تحقيق السلم على أساس الاستقلال والصداقة المتبادلة.

أما حكومة غينيا فهي تعتقد أن هذا التقدير غير صحيح؛ لأن الحوادث اليومية تكشف الواقع الذي تغطيه الخطب والتصريحات، وهو واقع اختيار الحرب إلى مالا نهاية على السلم، ولهذا فإن الحكومة الغينية لا تستطيع أن تبقى مكتوفة الأيدي، وهي تطالب الحكومة الفرنسية بكل قوة، وإلحاح أن تضع حدا للحرب في الجزائر، وأن تعترف بالحق الطبيعي للشعب الجزائري في التصرف في مصيره، كما يريد وأن تفهم أن المصالح الحقيقية لفرنسا في الجزائر، لا يمكن حفظها بدون موافقة وصداقة الشعب الجزائري وبدون التعاون الصادق النزيه مع الحكومة الجزائرية المنبثقة من الشعب الجزائري والمحرزة لثقته، فلكي تتحقق الصداقة الفرنسية الإفريقية يجب أولا أن يتحقق استقلال الجزائر».

---

**المصدر: جريدة المجاهد، العدد97، الاثنين 22 ذو الحجة 1380هـ05--06 1961م، ص12**

## المصادر والمراجع


1 – أربع سنوات من الأحداث السياسية»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، العدد31، 01/ 11/ 1958م.

2 – «الاستعمار الغربي يختنق في بركان إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد76، الاثنين 03 ربيع الأول 1380هـ الموافق لـ 05/ 09/ 1960م.

3 – «إفريقيا تباغت ديغول وتعلن معركة الاستقلال»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد28، 28/ 08/ 1958م.

4 – «إفريقيا... وأفارقة»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد86، الاثنين 13 رجب 1380هـ الموافق لـ 02/ 01/ 1961م.

5 – «انتصارات جديدة لشعوب إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد51، الاثنين 19 ربيع الأول 1379هـ الموافق لـ 21/ 09/ 1959م.

6 – بومنجل، أحمد، «إفريقيا في معركة التحرير»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد43، جوان 1959م.

7 – «ثورتنا تقوض أسس الاستعمار في إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد22، 15 أفريل 1958م.

8 – «الحلف الأطلسي الذي حاربنا»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، الاثنين 27 جمادي الثانية 1379هـ الموافق لـ 28/ 12/ 1959م.

9 – «الجزائر خط الدفاع الأمامي عن إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، العدد61، الاثنين 10 شعبان 1379هـ08–/ 02/ 1960م.

10 – «سيكوتوري ينذر الغرب على استقلال الجزائر يتوقف مصير علاقات غينيا مع فرنسا وحلفائها»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد97، الاثنين 22 ذو الحجة 1380هـ الموافق لـ 05/ 06/ 1961م.

11 – «العالم يحتفل بذكرى أول نوفمبر»، **جريدة المجاهد**: لسان حال جبهة وجيش التحرير الوطنيين (الجزائر)، عدد108، 04 جمادي الثانية 1381هـ الموافق لـ 13 نوفمبر 1961م.

12 – «من دماء الجزائر طلع فجر إفريقيا»، **جريدة المجاهد**: عدد81، الثلاثاء 11 جمادي الأول 1380هـ– 01 نوفمبر 1960م.

13 – «ميثاق الثورة»، **جريدة المقاومة الجزائرية**: عدد01، 01 نوفمبر 1956م، وزارة الإعلام والثقافة، 1984م.

14 – جيبسون، ريتشارد: **حركات التحرير الإفريقية**، ترجمة: صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم حلمي شعراوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.

15 – سيكوتوري أحمد: **إفريقيا والثورة**، ترجمة مجموعة من الاختصاصيين، مراجعة أديب اللجمي، الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1968م.

16 – فانون، فرانتز: **من أجل إفريقيا**، ترجمة: محمد الميلي، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980م.

17 – پانيكار ك.مادهو: **الثورة في إفريقيا**، ترجمة: روفائيل جرجس، مراجعة محمد محمود، الصياد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964م.

18 – بوعزيز، يحى: **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996م.

19 – دبش، إسماعيل: **السياسة الغربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية (1954–1962)م**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003م.

20 – بوالصفصاف، عبدالكريم: «الثورة الجزائرية ودورها في إزالة الاستعمار من القارة الإفريقية»، **مجلة سيرتا**: العدد06، 07/ جويلية 1982م، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينية.

21 – «تصريحات الأسبوع»، **جريدة الخبر الجزائرية**: 18صفر1419هـ، الموافق لـ 13 جوان 1998م.

22- Fanon Frantz: *Pour la Révolution Africaine*, imprimerie Grouhradenez, Paris, 1er trimestre, avril 1969.

# تلاحم النضال التحرري بين الجزائر ومالي
# (جبهة مالي نموذجا) (1960 – 1962)

من إعداد: بن علي بوبكر
جامعة بشار

**تمهيد**

عمل الاستعمار الفرنسي على فرض سيطرته على الشعوب المستعمرة، بتسليط أبشع وسائل القهر والتعذيب مستعملا كل أسلحته لتنفيذ مشاريعه، واعتبر الجيش الاستعماري التركيز على التصنيع قاعدة أساسية لكل عمل عسكري فعمد إلى السيطرة على الصحراء واستغل خيراتها مما سهل له بناء صناعة متطورة ليس في الجزائر فحسب بل أيضا في مستعمراتها الأخرى المحيطة بها، وللجيش الاستعماري دور مهم في مجال التنظيم والأمن مع استعماله كل الإمكانيات التقنية المتاحة.

وتعتبر الصحراء همزة وصل بين شمال إفريقيا وجنوبها فهي بهذه المكانة مؤهلة لأن تلعب دوراً كبيرا في مستقبل علاقات التعاون بالقارة الأفريقية يعدها لهذا الدور وضعها الجغرافي وإمكانياتها الاقتصادية ومن هنا فهي تشكل في نظر الاستعمار هدفا يجب تحقيقه بفصلها عن الشمال حتى تفقد الجزائر حدودها الجنوبية، وعملت الحكومة الفرنسية على تأسيس منظمة مشتركة للمناطق الصحراوية O. C. R. S. سنة 1957 م، حيث كانت تهدف إلى توريط البلدان الإفريقية المجاورة للجزائر في عملية فصل الصحراء تحت ستار تنظيم استغلال الثروات الصحراوية. واتخذ الاستعمار الصحراء منطقة انطلاق إلى بقية أقطار إفريقيا، ليس فقط من كون الصحراء تحتوي على ثروات وافرة، بل لأن الصحراء تحتل قلب إفريقيا من الناحية الجغرافية بحيث تمس مختلف الأقطار المجاورة للجزائر.

عرفت منطقة الحدود الجنوبية نشاط الحركة الوطنية لدى الجالية القاطنة في مالي سواء منهم الأفراد المستقرون بشكل دائم أو من يتنقلون حسب المواسم والفصول تبعًا لفصل الصيف والشتاء وفي مقدمتهم السكان الرحل، حيث تذكر تقارير الإدارة الاستعمارية أن هناك نشاط سياسي تميز بالاشتراك في جريدة البصائر التابعة لجمعية العلماء من بينهم «عبد القادر بن محمد بركة»، «الزاوي ولد محمد الخير»، «سيدي علي ولد برا»، وفي مدينة (بورام) نجد السيد «بوبكر ولد مختار» و«علي ولد العرابي»، وفي مدينة تمبكتو نجد «سيدي قومو» وأصله من تندوف يقوم بتوزيع المنشورات الوطنية ويساعده «عبد القادر بن محمد» وهو أحد التجار الكبار، وكان المناضلون يجتمعون يوميا في المساء لسماع الأخبار من القنوات العربية عن طريق المذياع، وعرف «عبد العزيز أقاسم» بنشاطه الوطني.[1]

كما عملت قيادة الثورة الجزائرية على إنشاء (المنطقة الجنوبية الصحراوية) لتعميم النشاط الثوري في كل التراب الوطني، ففكرت في فتح جبهة جديدة على أرض جمهورية مالي التي ترتبط بالصحراء من الجهة الجنوبية وذلك في بداية سنة 1960م، (حيث بعثت القيادة إلى مالي «فرانتز فانون» Fanon Frantz والرائد فرحات حميدة المدعو«زكرياء» للاطلاع على المنطقة والتفكير في إنشاء الجبهة الجنوبية، وعادا بتقرير مفصل حول المنطقة من كل النواحي)[2].

(1) Archives wilaya de Bechar. Le chef de la commune indigène de Tindouf. Les tadjakants, 1956 (non coté).

(2) GENTARI, M. **Organisation politico، administrative et militaire de la révolution Algérienne de 1954 à 1962**، volume 1 et 2, deuxième édition, Alger, office des publications universitaires,2002, p: 746.

## عوامل إنشاء الجبهة الجنوبية

إن دواعي إنشاء جبهة مالي تعود لأسباب كثيرة داخلية وخارجية عرفتها الثورة التحريرية وتمثلت أساساً في الانتصارات على كافة الأصعدة الأمر الذي دفع الحكومة الفرنسية إلى اتخاذ عدة مخططات هدفها خنق الثورة وعزلها على الشعب ومنع وصول السلاح والتموين إليها ولذلك عمدت إلى إقامة المناطق المحرمة المحتشدات، والأسلاك الشائكة المكهربة خطي شال وموريس وغيرهما من البرامج التي سعت من أجل القضاء على الثورة مدعية أن هناك أراضي ومناطق لم تصلها يد جيش التحرير، ومن هنا راحت تروج لفكرة فصل الصحراء.

فأضحى تكوين الجبهة الجنوبية الهاجس الوحيد للولاية الخامسة التاريخية باعتباره القضية المحورية في كيفية فتح جبهة في منطقة أقصى الجنوب الجزائري لحدود مالي والنيجر وإقامة مراكز لوحدات جيش التحرير الوطني لتطويق الصحراء من جهة، والاعتراف بواقع الحدود الجزائرية مع مالي والنيجر المحددة المعالم والمرسومة حتى لا تكون أطماع أجنبية مستقبلا، وشمولية الكفاح الثوري عبر كل شبر من التراب الوطني والقضاء على الأطماع الاستعمارية بفصل الصحراء عن الوطن الأم.

منذ إنشاء هيئة أركان الحرب العامة لجيش التحرير أسندت لها مهمة إعادة تنظيم جيش التحرير ورفع معنوياته وفتح جبهات جديدة على الحدود الجنوبية والشرقية وخلال الاجتماع المنعقد يوم 18 يناير 1960 بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من المناقشة والتشاور الذي يعد من أطول الاجتماعات في تاريخ الثورة، إن هذه الهيئة كان وزنها ثقيلا في كافة الميادين فكان أمامها جيش عليها أن تنظمه

وفق استراتيجية محكمة مع العلم أن هناك سيطرة كاملة للجيش الفرنسي على الحدود.[1]

وللخروج من هذا الوضع الصعب قامت باستدعاء جميع إطاراتها كما قامت بإنشاء منطقتين في البداية، منطقة العمليات الشمالية ومنطقة العمليات الجنوبية بعد أن وضعت حدود لكل من المنطقتين ووضعت على رأس كل منطقة ضابطا معروفا من جيش التحرير.

أما الخطوة الثانية إيفاد القادة لتكوين جبهة قتال جديدة على الحدود المالية الجزائرية وواصلت خطواتها بثبات يحالفهما بذلك كثير من النجاحات والتحكم في الوضع حيث أصبح لها جيش منظم متكون من عدة فيالق يزيد تعداده على 20 ألف جندي.[2]

ظلت الحكومة الاستعمارية تناور من أجل تقسيم الصحراء وإبعاد سكانها عن احتضان الثورة التحريرية مدعية أنها منطقة آمنة ولم يصلها المد التحرري بعد ولكن الواقع أثبت غير ذلك ومعارك العرق 1957 إلى غاية 1962 وموقعة سيدي مهني 1960 شاهدة على ذلك.

فعلى المستوى العسكري، كان الهدف هو إشعال الحرب بهذه المنطقة الحساسة وذلك تهديدا للشركات الأجنبية العاملة في مجال التنقيب والبحث عن المعادن والطاقة وضرب المصالح الاستراتيجية العسكرية للعدو الفرنسي

(1) قنطاري محمد، استراتيجية السياسة الفرنسية في محاولة فصل الصحراء (فصل الصحراء في السياسة الفرنسية دراسات وبحوث ) الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر، مركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م. صفحة 174.

(2) مصطفى هشماوي، جذور نوفمبر 1954م في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954م صفحات 184 – 185 – 187.

وإيجاد منافذ وممرات لتمرير الأسلحة وإنشاء قواعد خلفية للتقوية والإسناد في مناطق أقصى الجنوب.[1]

منذ بداية الثورة عزز الاستعمار قبضته على الحدود وكان يقوم بتفتيش ومراقبة القوافل التجارية على خط ( تندوف – تاودني – درعة – توات – المحاميد).[2]

أما على المستوى السياسي فكان الهدف التأكيد على وحدة التراب الوطني شماله وجنوبه لهذا سعت الثورة إلى تكوين خلايا ووحدات جيش التحرير الوطني بمنطقة أقصى الجنوب وأصبح إنشاؤها ضرورة ملحة بعد تعزيز الاستعمار قبضته على الحدود.

وبدأ الاهتمام بمسألة التموين والتسليح والاتصال بالمناطق الصحراوية والإشراف على العملية يكون من الطرف الولاية الخامسة التي لها امتداد جغرافي مع منطقة مالي، فكلف السيد عبد العزيز بوتفليقة الملقب ( عبد القادر المالي) أقاسم حمادي بفتح الطريق بين قاو وأدرار وبني عباس ومنها إلى بشار ووهران، ثم أرسل بوصوف دفعة من الأسلحة تزن 20 قنطار من الأسلحة الخفيفة ونصف الثقيلة باسم دولة غينيا تسلمها عبد العزيز بوتفليقة وبن سبقاق من الرئيس الغيني سيكوتوري ونقلها براً إلى مالي حيث نقلت إلى قاو، وبدأ ينسق مع موديبو كايتا الذي كان يكافح من أجل تحرير مالي.

أسندت المهام إلى مجموعة من السياسيين والعسكريين هم:

1 – عبد العزيز بوتفليقة ( المسؤول السياسي والعسكري ).

(1) GENTARI, Mohamed. op cit, p 746.

(2) Archives wilaya de Bechar. Le chef de post de Tindouf. Trafic caravanier, 06 septembre 1955 (non coté).

2 – أحمد قايد (نائب المسؤول العام ).

3 – عبدا لله بلهوشات (مكلف بالشؤون العسكرية).

4 – محمد شريف مساعدية ( محافظ سياسي مكلف بالإعلام ).

5 – أحمد دراية (إعلام واتصال ).

6 – عيساني شويشي (تموين وتخزين ).

7 – بشير موفق «نور الدين»(مسئول عن الصحة).

ثم عاد قايد أحمد وعمر أوصديق ثم بعد ذلك عاد السيد «عبد العزيز بوتفليقة» إلى قيادة الولاية الخامسة مكلف بالتنسيق بين القيادة العامة ومنطقة الجنوب.

– **المهام الخارجية**: على غرار الجبهات الأخرى فإن جبهة مالي اضطلعت بالمشروع سياسيا وعسكريا معتمدة على ربط الداخل بالخارج وذلك عبر شبكة مواصلات واسعة تجلت في ربط منطقتي توات وتمنراست بمركز القيادة قاو وباقي الأماكن والمناطق الأخرى في الشمال إلى قيادة الولاية الخامسة وبالتنسيق بين القيادة العامة ومنطقة الجنوب حيث أناط قائد الجبهة عبد العزيز بوتفليقة السيد أقاسم حمادي بربط منطقة توات بمركز القيادة ومنها إلى بشار ثم وهران وكلف السادة دفة محمد وبوعمامة عبد الرحمن بربط منطقة تمنراست بمركز القيادة وفى هذا الصدد تذكر المصادر أن أول من اتصلت به القيادة في مالي أقاسم عمار ودحاج عبد القادر، ثم شرع في العمل سريا مع الجزائريين في ناحية تمبكتو ثم التحق بالتنظيم أعدادا كبيرة غالبيتهم من إقليم توات والغاية من إنشاء هذه النواة الأساسية أهداف كثيرة منها :

– ديمومة الاتصال وسرعته بقيادة الثورة في الشمال.

– نشر وحدات جيش التحرير والهدف من ذلك التعبئة والتوعية والتجنيد.

– ضمان استمرارية عملية التموين.

**1 – النشاط السياسي**: اعتمدت الجبهة في عملها السياسي على تعيين مجموعة من الأشخاص تتوفر فيهم بعض السمات ومن بينهم: (أقاسم حمادي – لحبيب رحماني– ديدي عبد الكريم – مرموري محمد – بن سي حمو عبد الله بن أحمد) هذه الخلية هي التي سعت إلى تكوين لجان ومراكز مدنية مهمتها نشر الفكر الثوري ومبادئ الثورة في أوساط الجالية الجزائرية المتواجدة في الداخل والخارج وكانت هذه اللجان تحت إشراف هيئة سياسية (قسمة) 10 ثم تشكيلها من قادة الثورة بمنطقة قاو وضمت أحد عشر عضوا يترأسهم السيد الحبيب الرحماني تتألف من : السيد لحبيب الرحماني – أقاسم الحاج حمادي مسؤول ثاني – ديدي مولاي عبد الكريم – بن سي حمو عبد الله بن أمحمد – مرابطي البركة – أبا حسان الجومي – أقوجيل عبد القادر – لقصاصي عبد القادر بن سيد أحمد – أقاسم عمار – لروي بحوص – دحاج عبد القادر – فرجاني الحاج أحمد.

كما سعت الجبهة إلى تكوين اللجان المدنية في صفوف الجالية الجزائرية المقيمة بمالي والنيجر خاصة بعد تكوين المراكز العسكرية للتدريب مثل مركز كيدال الذي كان يشرف عليه كل من حمو زفزاف ومرموري محمد ومرموري عبد الصمد ومركز أقلهوك اضطلع به ما يخاف أحمد ومركز بورام تحت أشراف مولاي عبد الصمد ومركز تمبكتو تحت أشراف عبد الرحمان النقلي وبجهود هذه اللجان تم جرد الجالية الجزائرية بمالي والنيجر والاستفادة من المساعدات والاشتراكات المقدمة من طرف هذه الأسر والعائلات وتجنيد الشباب في صفوف جيش التحرير الوطني، وقد لبى الكثير نداء الوطن

والتحقوا بمراكز التدريب العسكرية كممرضين عسكريين والاتصالات والمواصلات.

أسهم التجار الناقلون الحلقة الهامة في إنجاز هذه الجبهة نظرا لعملهم الدؤوب والمتواصل والذي اكتنفته السرية التامة ومن هؤلاء أقوجيل عبد القادر وعبد الله بن سي حمو وأخيه مولاي المهدي وأقاسم مبروك ومولاي عمر أحميدة وبرابح وكابويا عبد الرحمن باعتبار هذا الأخير رجلا محوريا يربط الإقليم بالجبهة المالية سياسيا وعسكريا، كما لعب الناقلون دورا محورياً في إنجاح مهمة هذه الجبهة فبواسطتهم استمرت ونشطت بربط الداخل بالخارج فكانت تدوم الرحلة سبعة أيام، فاختيار الأشخاص كان ناجحا إلى حد بعيد وعن طريقهم وقع تلاحم وثيق بين أقاليم توات والجبهة المالية ورابط التنسيق العسكري بالولاية الخامسة عن طريق ولاية بشار والولاية السادسة مع مولاي الطيب، كابويا عبد الرحمان وحركاتي مصطفى.

2 – **النشاط العسكري**: اعتمدت قيادة الثورة في هذا المجال على التجنيد والتدريب بحيث كانوا يكتفون بتأدية القسم وتسجيل المعلومات الخاصة بالجندي والتدريب لفترة قصيرة كما عمدت الجبهة على خلط الأوراق وأساليب المراوغة لعيون فرنسا بالمنطقة، ومن بين المهام الهامة التي كلف بها بوصوف أنه أرسل دفعة من الأسلحة تزن 20 قنطاراً من الأسلحة الخفيفة ونصف الثقيلة باسم دولة غينيا تسلمها عبد العزيز بوتفليقة وبن سبقاق أحمد من الرئيس الغيني سيكوتوري ونقلها برا إلى مالي حيث نقلت إلى قاو.

و في هذا الصدد قامت قيادة الثورة بالمنطقة بإصدار أوامرها إلى قادة اللجان المدنية بمنطقة توات والمتمثلة في إحصاء كل الأسلحة التي بحوزة الشعب وجمعها وتمكينها لقيادة الثورة.

فأنشأت مصالح ومهام جديدة: مصلحة التموين والمالية ومصلحة الإعلام والاتصال ومصلحة العتاد والذخيرة وعلى رأس كل مصلحة من هذه المصالح مسؤول مكلف بإدارتها كما كان لها دور متابعة تحركات الجيش الفرنسي في كل القواعد الفرنسية : قاو- تيمياوين – تينزاواطين.

فاستطاعت الجبهة تكوين جيش وصل عدده إلى 500 مجند أما التموين والذخيرة فمهمتها للقوافل وحركة الناقلين بين الجزائر ومالي وكانت تقوم برحلتين في الشهر في اليوم الخامس واليوم العشرين من كل شهر وتذكر التقارير الاستعمارية أن خلية جبهة التحرير في (قاو) تواصل توجيهاتها للناقلين وتعريفهم بنشاطات الثورة عمر أوصديق الموجود دائما في تمبكتو بينما (سي لحبيب وحمادي أقاسم دائما في حركة مستمرة على خط محور قاو ويسافرون أحيانا إلى نيامي) وإن تأسيس هذه المراكز يهدف لغرضين هامين هما:

- تدريب وحدات جيش التحرير.
- توفير الذخيرة والاتصال.

ولم يكن اختيار هذه المراكز عشوائيا بل كان ينم عن دراسة جغرافية وجيو سياسية وذلك بمساعدة من السلطات المالية التي سهلت للقادة التنقل وحرية اختيار هذه المراكز وتوفير كل الوسائل اللازمة، ومن بين أهم المراكز مركز قاو وهو عبارة عن مبنى في وضعية جيدة وضعته السلطات المالية تحت تصرف جيش التحرير ويتألف من قسم إدارة وسجن ومخزن وجناح خاص للتسيير المدني للجبهة يشرف على تأطيره جزائريون مقيمون بقاو ويطلعون على عدة مهام من بينهم حمادي أقاسم وعبد القادر دحاج.

استطاعت الجبهة مواصلة نشاطها الدعائي في أوساط سائقي الشاحنات ( حيث تم في شهر ديسمبر 1961 جمع السائقين ومساعديهم في مقر الخلية

قرب ترانس أفريكان trans – africaine وطلبوا منهم دفع مبلغ 5000 فرنك قديم، وخطب فيهم حول أهداف سياسة الحكومة المؤقتة وقام بمخاطبتهم سي لحبيب الرحماني الذي ركز على ارتباط الصحراء بالجزائر ) وهاجم فكرة فصل الصحراء والتي ذكر أنه لا معنى لها.[1]

## نضال الجبهة في الداخل

أوكلت الجبهة للجان المدنية مهمتها السياسية والتعبئة بين صفوف التجار والمهاجرين الجزائريين وقام المحافظون السياسيون بجهود كبرى معتمدين على مبدأ الجهاد الديني لتحقيق الاستقلال وبالاعتماد على هذا العامل الروحي نجحت الجبهة في مسعاها الداخلي لارتباط معظم العائلات بذويهم في إقليم توات وتشكلت مظاهر التضامن بين سكان المنطقة وتولت خلايا اللجان المدنية للجبهة مسؤوليات أخرى اعتمدت أساسا على التوعية والاستقطاب التي كانت تتم عبر اللجان السياسية المشكلة من أعيان القصور الذين كلفوا بمهمة مواجهة السياسة الفرنسية وتحذير السكان من مغبة الوقوع والانسياق وراءها وتوزيع المناشير التي ترسلها القيادة إلى كافة المواطنين وقراءتها وشرحها والوقوف على ما جاء فيها من تعليمات ومن خلال هذه الوثائق كانت القيادة تسعى جاهدة إلى توحيد كلمة الشعب الجزائري ومحاربة كل ما يفرق بين أبناء الوطن الواحد والحث على الجهاد في سبيل الله. كما أضطلع سائقو الشاحنات ( الناقلون) بمهمة نقل الأسلحة بسرية تامة ومحكمة بعيدا عن أعين العدو الفرنسي كما كلفت القيادة بتجنيد الجزائريين في صفوف الجبهة وجيش التحرير في الداخل حيث أن كلا من قادة بوزيد وكابوية عبد الرحمن والمهدي بن سي حمو قاموا

(1) Archives wilaya de Bechar. Le sous préfet d'Adrar. Synthèse politique mensuelle, du 1 janvier au 28 janvier 1962 (non coté).

بمجهودات لربط سكان توات بالقيادة، ويذكر المجاهد أقوجيل عبد القادر أن دراية أحمد: «أبلغهم أنه يتوجب على كل واحد تجنيد خمسة أشخاص»، فاستطاعوا في فترة وجيزة تعبئة وتجنيد عشرات الشباب وسعى رؤساء هذه اللجان إلى جمع الاشتراكات وإرسالها إلى قيادة الثورة بالخارج في شكل سلع وبضائع للتجار يسافرون بها إلى الأراضي المالية ليبيعوها ويسلموا ثمنها إلى قيادة الجبهة هناك.

ولم يفرض على السكان دفع اشتراكاتهم إرغاما وإنما ترك لهم الخيار والحرية في دفعها نقدا أو عينا، كما عملت عن طريق عيونها على جمع المعلومـات والأخبار وتحركـات العدو عدتـه وعدده وأماكن تواجده وترسل في تقارير إلى القيادة عن طريق سائقي الشاحنات علما أن أهداف عسكرية حددت لمهاجمتها من قبل الثوار وتصفية قيادات عسكرية فرنسية إلا أن الظروف السياسية والعسكرية حالت دون تنفيذها.

شهد الإقليم تحولا سياسيا وتنظيما تعبويا لصالح الجبهة المالية فتشكلت اللجان المدنية والسياسية معتمدين على قواعد جبهة التحرير التي تعود في جذورها إلى سنوات 1947 / 1948 فتسابق أهالي المنطقة إلى احتضان جبهتهم وأهدافها التحررية فاهتدت القيادة إلى تشكيل وحدات جيش التحرير بالخارج وقررت توزيعهم إلى فئتين:

**الأولى**: ترسل إلى الداخل لتساهم في العمل السياسي والعسكري.

**الثانية**: تستقر بالمراكز المتاخمة للحدود الجزائرية المالية لتساهم في إدخال السلاح وبغية ألا يكتشف العدو أمر هذه الوحدات التي قرر نقلها إلى الداخل أصبح من الضروري إنشاء مراكز تكون نقاط لتمركز وحدات الجيش وعبورها.

وفي هذا الصدد، كلف السيد ديدي مولاي بإنشاء هذه المراكز بمنطقة توات

وبعد وصوله إلى أرض الوطن اتصل بأعيان المنطقة وبعد مشاورات وجلسات تنسيقية ناجحة اتفقوا على تحضير وتهيئة مراكز استقبال جيش التحرير.

وحسب المصادر الشفوية، فإن بن سي حمو عبد الله وأخاه المهدي وقفا موقفا مشرفا بدعم الجبهة ماديا ومعنويا حيث سعى بقصر سالي مع إخوانه المواطنين على إنشاء مركزين أحدهما للقيادة وثانيهما للتدريب، حيث يتسع لعدد كبير من الجنود بقصر العلوشية بسالي فأصبح الإقليم قاعدة أمامية للجبهة الجنوبية ولعب الشباب دورا رياديا في تحمل المسؤولية والسير بهذا المشروع نحو النجاح.

وحسب الشهادات والوثائق فقد قام برادعي الطيب بدور أساسي بين الجبهـة والولاية السادسة واعتمادا على الرسالة الموجهة من قيـادة أركان الحرب العامة للمنطقـة الجنوبيـة الصحراويـة في 28/ 03/ 1962 إلى برادعي الطيـب، وذلك لأمر يهمه ويهم الثورة كما جاء في الرسالة.

– ساهم أهالي عين صالح في صفوف الجبهة المالية خاصة بعد إقامة مراكـز تتم فيهـا الاتصالات والإعلام والتعبئة والتوعية إذ نجد من الذين التحقوا بالقيادة ومن أبناء المنطقة الذين عملوا بالجبهة حمو زفزاف وأخوه الذي كان رئيسا لمركز كيدال وهو من بلدة تيط وبوسيدي الشيخ والشقـة عبد القادر وأخيه عبد الرحمن وحمو واييني وغيرهم كما تجدر الإشارة أن محمد بلحاج كلف من قبل القيادة بنقل المجاهدين من مركز أقدز الذي كان مسؤولا عليه.

ولمواجهة المخططات الاستعمارية في المنطقة وبالتحديد تيديكلت (عين صالح ) حيث استطاعت مجموعة عسكرية من جيش التحرير أن تنزل بجبل تهلقمين في فيفري سنة 1957 م، بقيادة بلخير النايلي لمواجهة المشاريع الفرنسية الرامية لفصل الصحراء.

ومباشرة بعد تأسيس الجبهة الجنوبية شرعت في الاتصال بالمواطنين وحثهم على حمل السلاح ودفعهم إلى مراكز التدريب التي خصصت في عدة أماكن مثل: قاو – أقلهوك – تاسليت، وقد أطلق عليها منطقة الجنوب.

وكان مقر القيادة في (قاو) وكان لها اتصال مستمر بقيادة الولاية الخامسة عن طريق منطقة الساورة كما نجد مساهمة سكان هذه الأخيرة في تنشيط هذه الجهة، سواء من حيث تنقل سكان البادية الدائم بين فصل الشتاء والصيف نظرا لنشاطهم الرعوي منهم الرقيبات وقبائل أخرى، والنشاط التجاري الذى تميزت به قبائل جكانى ثم الطرق التجارية التي كانت تقطعها القوافل التجارية من تندوف إلى تاودني وقاو وغيرها.

وفتحت هذه الجبهة لأن المناطق الشمالية قد سدت من جهة الشرق والغرب وكان السعي حثيثاً لإيجاد منافذ ولو كانت في أقصى الجنوب.[1]

أما من ناحية تنظيم القيادة العسكرية وإدارتها فأنشأت مصالح ومهام جديدة: مصلحة التموين والمالية، مصلحة الإعلام والاتصال، ومصلحة العتاد والذخيرة.

وعلى رأس كل مصلحة من هذه مسؤول مكلف بإداراتها كما كان لها دور متابعة تحركات الجيش الفرنسي في كل من القاعدة الفرنسية: قاو– برج باجي المختار– تيمياوين– تنزاوطين. وكونت جيشا بأسلحة متنوعة عن طريق بماكو، ووصل العدد إلى 500 مجند.

أما التموين والذخيرة تكلفت به القوافل بين الجزائر ومالي وكانت تقوم برحلتين في الشهر في اليوم الخامس واليوم العشرين من كل شهر. وتذكر

(1) PATRICK, Charles R. **combats sahariens 1955-1962**, première édition, Paris, éditions jack Grancher 1993. p : 249.

التقارير الاستعمارية أن خلية جبهة التحرير في (قاو) تواصل توجيهاتها للناقلين وتعريفهم بنشاطات الثورة، مولاي عمر أوصديق موجود دائما في تمبكتو، بينما «سي لحبيب» و«حمادي أقاسم» دائما في قاو ويسافرون أحيانا إلى نيامي.

زيادة على مركز جيش التحرير في (كيدال )[1] يوجد مركز آخر في ( هبجان) الذي يتشكل من 25 إلى 30 فردا وبحوزتهم سيارات جيب، هؤلاء الأفراد ينشطون في منطقة (أقلهوك وإنتداني ) وللتضييق عليهم لجأت السلطات إلى رفع الحقوق الجمركية إلى (50 بالمائة)[2].

ومجموعة جيش التحرير المتواجدة في محيط منطقة كيدال تجمع 300 فرد وتمتلك أكثر من 50 قطعة سلاح وثلاث سيارات، ومعلومات أخرى تدل على أن عدد عناصر جبهة التحرير الموجودة في منطقة كيدال موزعة على خمس مراكز مع وجود مركز القيادة في كيدال، هذه العناصر تنشط تحت قيادة ضابط جزائري وتستعمل المهارى وما بين (20 إلى 40 سيارة)[3]

هؤلاء المناضلون لهم اتصال دائم بجبهة التحرير ببني عباس وبشار والمناطق الأخرى الجنوبية منها أدرار وتمنراست. ساهمت الحكومة المالية بعد استقلالها في تخصيص مركز كيدال وهي منطقة هامة، وجمهورية مالي توجد في طليعة إفريقيا الثورية فوجود حدود مشتركة بين الجزائر ومالي ساهم في التضامن الإفريقي وتعزيزه والخروج به من النطاق العاطفي إلى النطاق العملي الفعال المتطور هذا التضامن الطبيعي بين الجزائر ومالي الذي تقويه نظرة مشتركة إلى الأشياء والتكوين النضالي والعقائدي يرهب الاستعمار الذي

(1) مركز كيدال: منطقة استراتيجية تبعد 1200 كلم عن باماكو عاصمة مالي.

(2) Archives wilaya de Bechar. Le sous préfet d'Adrar. Synthèse politique mensuelle, période du 01 février au 28 février 1962 (non coté).

(3) A. W. B. op cit.

أدرك أنه لن يعمر طويلاً فالاستعمار يريد توجيه ضربة قاضية للتضامن الإفريقي ويتمكن من إقامة قلعة من قلاعه الحصينة في إفريقيا تكون مصدر تهديد دائم لكل محاولات التحرر والانعتاق الحقيقي.

ويعتبر (مركز قاو) أول مركز لتدريب عناصر جيش التحرير في المنطقة، ويقوم أيضا بالتجنيد، الاتصالات، النقل والتسليح، ويوجد به مركزان للتدريب، كما وضع جيش التحرير مراكز أخرى منها: مركز إنتداني: توجد به الكتيبة الأولى، مركز أنتكو: توجد به الكتيبة الثانية، مركز تاسلي: توجد به الكتيبة الثالثة.

أما في مجال النشاط السياسي فقد فتحت جبهة التحرير المكاتب المدنية وأهمها مركز كيدال، مركز أقلهوم، مركز بورام، مركز أنافس، مركز تمبوكتو، وعملية التموين تأتي من الولاية الخامسة عن طريق البحر، المغرب، إسبانيا، غينيا ثم تنقل عن طريق مالي إلى الحدود الجزائرية – المالية عن طريق الشاحنات والسيارات، وعملية النقل بين باماكو وقاو تدوم سبعة أيام، ونوع التسليح في البداية كانت أسلحة خفيفة ثم أسلحة نصف ثقيلة عن طريق الجو من بلاد عربية وإفريقية.

كما ظهرت حركات مناوئة للثورة منها حركة «محمد محمود» وهو قاضي تمبكتو الذي عمل على إثارة الخلافات بين السكان ودعوة الناس إلى حركته الموالية للاستعمار لتكريس سياسة الفصل والتجزئة وقد جندت لهذا الغرض الدنيء بأمر من حاكم الإقليم الجنرال «دوكريفكور» De Crèvecœur جميع الوسائل، ووضعت تحت تصرفه جميع الإمكانيات من أجل إنجاح هذا المشروع منها طائرة خاصة تنقله إلى المناطق التي تعنيها هذه المسألة الجوهرية بالنسبة لفرنسا، فعندما حاول الاستعمار أن يفصل الصحراء عن الشمال وأن تكون تحت الراية الفرنسية ويسيرها الصحراويون بأنفسهم بزعمهم الكاذب،

وخديعتهم المكشوفة فكلفوه بهذه المهمة، وبذلوا العطايا الجزيلة ومنحوه كل التسهيلات، وصار يجوب الأقطار الصحراوية لهذا الغرض ويغري الناس ويلبس عليهم بخطبه الرنانة.

كما أنه تمكن من أن يوقع في شراكه عددا من الشخصيات من حيث لا تدري، فَوقع له البعض على وثيقة كانت معه على أن الصحراء يجب أن تكون منفصلة عن الجزائر والمغرب ومالي، ومما يؤكد ذلك الزيارة التي قام بها إلى منطقة بشار « يوم 06 مارس 1956 حيث التقى بشيخ زاوية القنادسة برفقة رائد فرنسي ومترجم من مكتب المدينة، وأثناء المحادثات قال قاضي تمبكتو ( إن فكرتي هي أن نتحد معا لنشر لائحة نؤكد فيها أن الصحراء فرنسية وبذلك نستريح من المشوشين)، فاعتذر شيخ الزاوية بقوله( أن هذا العمل يتطلب وقتا كبيرا زيادة على ضرورة معرفة وجهة نظر جميع سكان المنطقة ولا يمكن لشخصين فقط أن يخرجا بهذا القرار).

وكانت الزيارة الثانية لقاضي تمبوكتو محمد محمود لمنطقة بشار في شهر ديسمبر 1956 حيث أجرى محادثات عديدة مع مجموعة من الشخصيات المحلية تحت رعاية الإدارة الاستعمارية التي ذكرت: ( أن الزيارة جد إيجابية).[1] لكن الحكومة المالية كانت له بالمرصاد فألقت القبض عليه وتمكنت من إيداعه السجن.[2]

## - مكانة جبهة مالي في مسار الثورة التحريرية

إن إنشاء الجبهة الجنوبية المالية لم يكن وليد الصدفة أو العشوائية بل كان يعتمد أساسا على التصدي لوحشية الاستعمار ودسائسه ومؤامراته ومواجهتها

(1) Archives wilaya de Bechar. Le chef de la c. m. de C. Bechar. Rapport mensuel, du 21 décembre 1956 au 20 janvier 1957(non coté).

(2) GENTARI, M. op cit, tome 2, p : 743.

في منطقة متميزة بخصائصها الجغرافية الصعبة والقاسية وحفاظا على ما حققته الثورة من انتصارات على الصعيد الداخلي والخارجي من أجل المحافظة والتمسك وعدم التفريط في شبر واحد من رقعة هذا الوطن فنجاح إنشاء الجبهة الجنوبية يعد انتصارا باهرا على المخططات الاستعمارية الفرنسية وخيوطها المتعفنة إذ استطاعت في فترة قصيرة تحقيق عدة أهداف وغايات استراتيجية من بينها ما يلي:

لقد سعت الجبهة الجنوبية للتأكيد على شمولية ووحدة الكفاح المسلح ضد المستعمر، وقد عبر غالبية الشعب الجزائري عن رفضه واستنكاره هذه المشاريع والمخططات بأساليب مختلفة ومتنوعة، تمثلت في احتضانهم للثورة والسير بها وتجلى ذلك في المظاهرات الشعبية المؤيدة للوحدة الوطنية وضد سياسة التجزئة والتقسيم سنة 1961 والتي عرفتها معظم المدن والقرى من التراب الوطني،[1] وعدم قبول المساومات التي تنخر جسم الأمة الموحد وتجلى ذلك في المواقف المشرفة للمشايخ والسكان بالانخراط في صفوف الجبهة واستمرار معارك العرق الغربي الكبير إلى غاية 1962.

كانت الجبهة تهدف إلى ربط جنوب الجزائر بشمالها وفتح طريق آمن جديد للتموين بالأسلحة نتيجة سياسة الغلق والتطويق والخنق لوجود خطي شال وموريس والرقابة الشديدة من طرف القوات الاستعمارية، خاصة إذا علمنا إن ما تطلبه عمليات نقل السلاح من سرية تامة وتنظيم محكم لهذا فان الجبهة قامت بدور محوري في هذا المجال لربط الولاية الخامسة من جهة وبين هيئة الأركان العامة فيما يخص نقل الأسلحة والتموين من جهة أخرى.

(1) La dépêche quotidienne d'Algérie, 06 juillet 1961.

أكدت الجبهة على رسم البعد الإفريقي للثورة ميدانيا وأصبحت بلاد الساحل الإفريقي نقطة ارتكـاز لتوطيـد العلاقـات والتعـاون مع البلـدان الإفريقية، كما كان لها الفضل في استقلال العديد من البلدان ناهيك عن التلاحـم والتآخـي ضـد العـدو المشتـرك والوقوف أمام مكائده الراميـة لابتلاع المنطقة وهذه العلاقـة الحميميـة مع الحكومتيـن والشعبين الشقيقين شكلا سندا قويا للقضية الجزائرية.

أفرزت الجبهة الجنوبية تلاحما وطنيا فتح المجال على مصراعيه لمشاركة سكان الجنوب في تحرير بلادهم وتجسيد فكرة الوحدة والتلاحم وتمكنت بواسطة المناضلين التوغل في أوساط السكان للتجنيد والدعاية وبفضل هذا العمل الاستراتيجي سقطت كل الخيارات الاستعمارية الرامية لفصل الصحراء الجزائرية.[1]

إن إنشاء الجبهـة الجنوبيـة علـى مشارف الساحـل للصحـراء الكبرى بإمكانيات محدودة جدا يعد في حد ذاته إنجازا باهرا مع تحمل المشاق والصعاب وجغرافيـة المنطقة ورغم كل ذلك أنشأت مراكز التدريب وجلبـت الأسلحة وشكلـت الكتائب والأفواج فأضحـى طريق مالي والنيجـر أضمـن وأفضل طريق لنشر الثورة ومبادئها لكونه الأقرب إلى توات، عين صالح، تمنراست والساورة.

إن إنجازات الجبهة داخليا وخارجيا يوحي إلى قوة الثورة التحريرية وشموليتها حيث استطاعت أن تعد تقريرا عسكريـا مفصـلا لكـل المراكز العسكرية الفرنسية في أدرار وتمنراست لكن سير المفاوضات عجل بوقف إطلاق النار.[2]

ونستخلص مما سبق أن سكان الصحراء ضحوا من أجل انتصار ثورة نوفمبر وكان ذلك ضربة موجعة لفرنسا مما جعلها في الأخير تستسلم وتعترف بحق الجزائريين في استقلال الجزائر ووحدته الترابية.

---

(1) –15 قنطاري محمد، المرجع السابق ص 140.

16-GENTARI, M. op cit, tome 2, p :685.

# قائمة المصادر والمراجع

## - المصادر باللغة الأجنبية:

-**Archive** :
- Archives wilaya de Bechar. Le chef de post de Tindouf. Trafic caravanier, 06 septembre 1955 (non coté).
- Archives wilaya de Bechar. Le chef de la c. m. de C. Bechar. Rapport mensuel, du 21 décembre 1956 au 20 janvier 1957(non coté).
-Archives wilaya de Bechar. Le chef de la commune indigène de Tindouf. Les tadjakants, 1956 (non coté).
- Archives wilaya de Bechar. Le sous préfet d'Adrar. Synthèse politique mensuelle, du 1 janvier au 28 janvier 1962 (non coté).
- Archives wilaya de Bechar. Le sous préfet d'Adrar. Synthèse politique mensuelle, période du 01 février au 28 février 1962 (non coté).
- La dépêche quotidienne d'Algérie, 06 juillet 1961.

## المراجع باللغة العربية:

- قنطاري محمد، استراتيجية السياسة الفرنسية في محاولة فصل الصحراء (فصل الصحراء في السياسة الفرنسية دراسات وبحوث ) الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر، مركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954
- هشماوي مصطفى، جذور نوفمبر 1954 في الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954

## - المراجع باللغة الأجنبية:

-**Les livres** :
- GENTARI, Mohamed. **Organisation politico، administrative et militaire de la révolution Algérienne de 1954 à 1962**، volume 1 et 2, deuxième édition, Alger, office des publications universitaires,2002.
- PATRICK, Charles Renaud. **Combats sahariens 1955-1962**, première édition, Paris, éditions jack Grancher 1993.

# الجزائر وبعدها الحضاري المفقود في النّيجر ومالي

بلميلود محمد الأمين : أستاذ بقسم الشريعة والقانون جامعة قسنطينة
غنية بلعربي : أستاذة بقسم علم الاجتمـاع برج بوعريريج.

## المحور: تطور الروابط الحضارية بين الجزائر وبلدان إفريقيا
## الجزائر وبعدها الحضاري المفقود في النّيجر ومالي

### مقدمة

الجزائر بلد إفريقيٌّ عربيٌّ إسلاميٌّ، فهي بوابة إفريقيا الشّمالية المطلّة على الضفّة المتوسّطيّة، والممتدّة إلى جنوبها، عبر النّيجر ومالي، وهي الجناحُ الغربيُّ للعالم الإسّلاميّ، والحامية للدّيار، حتى سُمّيت بدار الجّهاد أو الجزائر المحروسة، وبغض النظر عن الحديث في تاريخها القديم، نحاول تسليط الضوء عن تاريخها مع مجيء الفاتح عقبة بن نافع الفهّري رضي الله عنه، الذي أوصل إلينا رسالة الإسلام العالمية، والتي أحدثت السِّلم والسَّلام والتَّواصل والانّصهار بين العرب والأمازيغ بمختلف الأجناس والطَّوائف، فكان هناك نتاج حضاريٌّ وفكريٌّ بين شعوب المنطقة، حيث قدم من الشّمال الإفريقي، البدو الجزائريُّون الذين اشّتهروا في التَّاريخ باسم الطَّوارق أو الملثَّمين، وقدم تجَّار من شبه الجزيرة العربيَّة وقبائلهم الذين مرُّوا بالجزائر، ثم انزاحوا إلى الجنوب، وتوغلوا عميقا في القرى والمداشر والأرياف والأدغال والمسالك الإفريقيّة، فكان التَّأثير واضحا وجليًّا على القبائل والممالك في وسط وغرب إفريقيا، فاشتهرت مدن وحواضر إسلاميّة كانت مراكز تجاريّة وثقافيّة وعلميّة، فكانت تلمسان وتيهرت وبجاية وورقلة، إلى تمبكتو وولايات الهوسا في

نيجيريا وكانم في منطقة بحيرة تشاد، وأصبحت هذه المراكز الرئيسيّة في كنكا وتمبو بجبال فوتا جالون، ومسردو الواقعة في بلاد الماندجو، مراكز تجارية وثقافية مشهورة، كما ساهمت الطرق الصوفية مساهمة محسوسة في تكريس التواصل الجزائريّ الإفريقيّ، وتبرير مقوّماته التّاريخيّة والاجتماعيّة والدّينية والثّقافية والاقتصادية.. الخ، وكان لعامل الجغرافيا والتّراث الثّقافي الإسّلاميّ، دور بارز في تعميق هذا التواصل الجزائريّ الإفريقيّ.

وتعتبر الجزائر الامتداد الإفريقي لحدودها محورا استراتيجيا، نظرا لانعكاساته السلبية في حالة عدم الاستقرار أو العكس، وهذا ما أكدته الدساتير في موادها، أن الجزائر دولة إسلامية عربية إفريقية.

وفي عصرنا الحالي يعتبر الساحل الإفريقي والصحراء الكبرى من بين أكثر المناطق في العالم التي تشهد حالة من الانهيار للأمن الغير المسبوق، وما يخلفه من آثار سلبية على سكان بلدان المنطقة والبلدان المجاورة، حيث عرفت المنطقة تحولات هامة منذ استقلال هذه الدول، وظهور مفهوم بناء الدولة وفقا للطريقة الغربية الموروثة عن الاستعمار، مع الخصوصية الإفريقية المحلية، وما نجم عن هذه التوليفة من مشاكل[1]، حيث تشّهد المنطقة محاولات لبثّ الفرقة والانقسام، وإثارة النّعرات الطائفية، وانتشار التّطرف الفكري والديني، تستدعي بنا إعادة النّظر في بعثّ وتمتين الأواصر الإسّلاميّة، وإحياء الرّوابط العلميّة والثّقافية والروحية التي تربط بين الجزائر وإفريقيا، باعتبارها الامتداد الحضاريّ والقادر على مواجهة كل التّحديات المختلفة.

و من هنا الإشّكالية التي نحاول الانطلاقة منها هي كالآتي:

– ما مدى إمكانية وجود التّرابط وعناصر الشراكة الحضارية والفكرية

(1) بن عنتر عبد النور، **البعد المتوسطي للأمن الجزائري**،المكتبة العصرية، الجزائر، 2005 م، ص55.

والتاريخية الدينية...بين الجزائر وشعوب المنطقة، خاصة الجنوبيّة باعتبارها منطقة شاسعة الامتداد الذي يعتبر أمنها من أمن الجزائر؟ ما هي مبررات وغايات التواصل الجزائريّ الإفريقيّ؟

– لماذا يمارس التهميش والتعتيم الإعلامي على منطقة دول الساحل وكأنهم شعوب لا علاقة لهم بالإسلام ولا بالعروبة، على الرغم من أنهم قبائل عربية ومسلمة؟

## 1 – التعريف بالمنطقة

تشمل الصحراء الكبرى معظم مساحة الصحراء الغربية وصحراء الجزائر وليبيا والنيجر ومصر، ومناطق جنوب تونس والمغرب والجزء الشمالي لمالي والتشاد والسودان، أما الساحل الإفريقي فهو منطقة شبه جافة تقع بين الصحراء الكبرى في الشمال والسافانا في الجنوب، ويمتد غربا من السنغال عبر موريطانيا مالي بوكينافاسو النيجر وشمال نيجيريا تشاد السودان حتى أثيوبيا شرقا[1]. وقد عُرِفَت هذه المنطقة– غربُ أفريقيا– في العهده القديم ببلاد التّكرور، ثمّ اشتُهِر باسم السّودان الغربي قبل الاحتلال الأوروبي، ومن أهمّ ممالكها؛ مملالتّكرور، ومملكة غانا القديمة، ثمّ مملكة مالي السّابقة، وتلي هذه الممالك مملكة سنغا، وآهير، وبرنو، وبلاد هوسا ويوربا...[2].

(1) ظريف شاكر، **البعد الأمني الجزائري في منطقة الساحل والصحراء الإفريقية**، رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة باتنة، 2008–2010، ص:31.

(2) عثمان عبد السّلام الثّقافي، **الإسلام في غرب أفريقيا**، (القسم النّثري) مطبعة مدرسة سراج العلوم الإسلامية أوودي بكتى إلورن، الطبعة الأولى، 1993م، ص:2.– انظر مصطفى زغلول السّنوسي(الشّيخ) **روائع** المعلومات عن أقطار أفريقيا وبعض ما نبعت فيها من المملكات، مطابع الشّرق الأوسط، الرّياض، الطّبعة الأولى 1411هـ– 1991م، ص: 112.

ويمكن تقسيم سكّانها حسب أصولهم العرقية إلى شعوب أو مجموعات رئيسة على النّحو التّالي:- شعوب يقطنون في النِّطاق الجنوبي من الصّحراء وهم المغاربة والطّوارق والتّيدا، وشعوب تشاد، وهم زنوج اختلطوا بقبائل التيّدا، وكذلك الفولا والهوسا وهم شعوب النّطاق الشّمالي، وشعوب من سلالات الماندينجو والكرو والإيبو واليوربا، وهؤلاء هم شعوب النّطاق الجنوبي، وأمّا الولوف والتّكلور والسّيرير والجولا[1]. فهم الشّعوب السّنغالية، وشعوب الماندي وهم مجموعة لغوية وليست سلالية وتضمّ الماندينجو والسّوننكا وغيرهم[2]، وأما مجموعة الصّونغاي والزبرما والاندي[3] فهم يعيشون حول وادي النّيجر الأوسط.

و لمّا استولى على أراضيها الاستعماريون قسّموها إلى أقسام سياسية شتّى، وحدّدوها تحديداً رسمياً على حسب أغراضهم الشّخصية، واخترعوا لكلّ منها عنواناً مخصوصا[4] من بينها دولة مالي والنيجر المحاذيتين لجنوبنا الجزائري.

فالنيجر الحالية دولة استمدت تسميتها من نهر النيّجر، الذي يتدفق على امتداد الأطراف الجنوبية الغربية للبلاد. ويرجع سكان النيجر في أصولهم السلالية إلى العديد من المجموعات العرقية كما ذكرنا سابقا، ويدين أكثر من 90 بالمئة من السكان بالإسلام، يتحدث معظم سكان النيجر بلهجاتهم عرقية

(1) والولوف همّ أكثرهم تطوّراً وكانوا يؤلّفون مجموعة من خمس ممالك وينتشرون في نطاق عريض بين السّنغال وغامبيا.

(2) وقد نشأت في المنطقة الّتي يحتلّها اليوم الماندينجو دولتا غانا القديمة ومملكة مالى.

(3) وكلمة صونغاوي تطلق على البلاد وليس على النّاس وهم زنوج مخلطون بالطّوارق والمغاربة أي بالعناصر البربرية والعربية

(4) داود عبد القادر إيليغا، **الأنظمة التّعليمية الوافدة إلى غرب أفريقيا وآثارها على المجتمع**، ورقة مقدّمة إلى ((ملتقى الجامعات الأفريقية)) تقيمه جامعة أفريقيا العالمية بالسّودان يناير 2006م، ص2.

مختلفة. منها اللغة العربية[1].

أما دولة مالي فهي من الأقطار الكبرى بغربي إفريقيا. وتغطي الصحراء الكبرى النصف الشمالي منها، يقطنها العرب خاصة المغاربة والطوارق، الذين يتحدثون اللغة العربية، واللغة البربرية القديمة، ويمثل الإسلام الدين الرئيسي في مالي، إذ إن 65 % من السكان مسلمون[2].

(1) الموسوعة العربية، دائرة المعارف العالمية.ص34 .

(2) نفس المرجع، ص، 85.

## 2 – الأخطار التي تهدد المنطقة

إن منطقة الصحراء الكبرى اليوم تتهددها مخاطر عديدة، منها الداخلية والخارجية، خاصة في جانبها العقدي والديني والحضاري، حيث تشهد محاولة لتزييف الحقائق التاريخية، وقطع لأواصر الأخوة التي تجمع بين شعوب المنطقة، ومن بين هذه الأخطار ما يلي:

**– التمرّدات الداخلية ومشكلة الطوارق**

إن انتشار الظلم وغياب العدالة الاجتماعية خصوصا في الدول ذات التعدد الاثني والطائفي من جهة، ومن جهة أخرى الصراع على الثروات الطبيعية، تعتبر من العوامل المؤدية إلى اندلاع الحروب والصراعات الداخلية وتمرد الحركات المختلفة ضد السلطات المركزية، وتعتبر مشكلة الطوارق من أكبر المشكلات التي تواجهها المنطقة، حيث تشمل مجموعاتها النيجر ومالي، وبدرجة أقل الجزائر وليبيا، فهم يعانون من التهميش والظلم الاجتماعي والاضطهاد الديني، ما جعلهم يرفعون شعار استرجاع الحقوق المهضومة عن طريق العمل المسلح، والذي قد ينتقل النزاع لتشمل مناطق أخرى منها الجزائر بالأخص، حيث أصبحت المنطقة مسرحا لتدخل القوى الأجنبية التي تلعب على أوتار العرقية والطائفية، وقد عرفت المنطقة عدة تمردات أهمها: تمرد مابين 1959–1964، وتمرد مابين 1972–1973، وآخرها كانت في سنة 2012، وتبذل الجزائر جهودا دبلوماسية لاحتواء الأزمة، خاصة أن الطوارق يشكلون جزء من النسيج المجتمعي الجزائري[1].

(1) ظريف شاكر، المرجع السابق، ص ص:52–55.

### الإرهاب والجريمة المنظمة

إن الجريمة المنظمة العابرة للحدود، والإرهاب الدولي، الذي امتدت شبكته إلى المنطقة، قد تطورا بشكل سريع وفعال ومنظم، خاصة في فترة التسعينات من القرن الماضي، فبعدما كانت الجماعات ذات دوافع سياسية عبر أزمنة متعددة أصبحت ذات أبعاد دينية مشحونة بالتطرف والعصبية[1].

حيث إن جميع المؤشرات تدل على تنامي الظاهرة خارج سلطان الدولة، في ظل غياب المبادرات الإقليمية والعمل الجماعي، وميل كل دولة من الدول المعنية للتصرف الأحادي[2].

وإن صعود هذه التهديدات العابرة للحدود لم يقتصر فقط على الإرهاب، فهناك في المقابل تحديات أخرى لا تقل خطورة على أمن الدول والأفراد في المنطقة ذات الخصوصية الصحروية، فالتجارة غير الشرعية للمخدرات والأسلحة، مؤشر آخر على الفراغ في مناطق الحدود[3].

### الحملات التبشيرية وطمس معالم الحضارة الإسلامية

الغارة على العالم الإسلامي، ومنه العربي والإفريقي، وما صاحبها من التراجع والانحسار في العلاقات العربية الإفريقية، وبزور الدولة القطرية كمفهوم، وانحصار اهتماماتها في الداخل دون الأطراف، وتذبذب مؤشر العاطفة وأخوة الدين، كانت منطقة بلاد السودان الغربي ـ ومنها النيجر ومالي، تعيش تناقضاتها الذاتية، عبر ثنائيات القدر، دون مجرد تذكير من « المشارقة

(1) [11]نفس الموجع، ص ص:90-91.

(2) ظريف شاكر، المرجع السابق، ص: 88.

(3) ظريف شاكر، المرجع السابق، ص: 97.

والمغاربة « بوجود علائق تاريخية واجتماعية ... ومحبة لهم متوارثة، في هذه الديار، في ما يشبه جهلا وتعتيما إعلاميا غير مبرر[1]، إذ نجد في إعلامنا الحالي قطع التواصل بين المشرق والمغرب من جهة، وبين العرب والشعوب الإفريقية المسلمة من جهة أخرى، فيما يشبه ترسيخ القطيعة بين الشعوب المسلمة، وطمس للتواصل الحضاري الذي كان سائدا.

حيث إنَّ الاستعمار في إفريقيا قد حرص على أشياء هامة في مقدمتها، طمس معالم الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي بها، حتى لا يستطيع المسلمون التعرف عليه، وإقامة دعوى خطيرة بأنَّ هذه البلاد كانت مجهولة وغير متحضرة، وأن رجال الاستعمار الأوروبي أمثال (لفنجستون وبيكر واستانلي) هم الذين اكتشفوها، مع أنَّها كانت مكتشفةً فعلاً، وللمؤرِّخين والرَّحالة المسلمين أبحاث مسجلة عنها، وكذلك عمدوا إلى نقل التراث الإسلامي إلى العواصم الأوروبية رغبةً في إخفائه والقضاء عليه، وأقاموا حملاتٍ عنيفة ضد تجار العرب متهمين إياهم بأنَّهم تجار رقيق، وضعوا قيوداً على تنقلاتهم حتى تفسح المجال للبعثات التبشيرية، التي تدفقت على مختلف الأماكن تبني مدارسها وكنائسها ومستشفياتها، وتحاول إغراء المسلمين قبل إغراء الوثنيين بتقديم خدماتها[2].

ولما هيمنت فرنسا على غرب إفريقيا، وجدت أن اللغة العربية هي لغة الدين والثقافة والحياة الإدارية، وقد أشار إلى هذا حاكم عام لفرنسا بأفريقيا الغربية (من عام 1908–1911م) وليام بونتي (WILLIAM PONTY) في مرسومه الذي أصدره يوم 8/ 5/ 1911 الموجه إلى حكام المستعمرات التابعة له مثل النيجر والسنغال

---

(1) حبيب عمر الفهري، **من أجل تجسيد اتحاد عربي إفريقي**، ص ص:83–84

(2) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية**، دراسات دعوية، العدد 9، 2005، ص ص:82–86.

ومالي، وانطلاقا من هذه الفكرة ضد اللغة العربية والثقافة الإسلامية، كثفت السلطات الاستعمارية جهودها لاستئصال اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا الفرنسية، واستخدمت لذلك كل الوسائل المتوفرة لديها ومن ذلك فرض قيود صارمة لاستيراد الكتب العربية، حتى الحجاج قد منعوا من حمل الكتب الدينية، وتشديد الرقابة على كل المطبوعات العربية وإحصاء كتب العلماء بغرض حصرها وفرض الرقابة عليها إن زادت أم لا ؟ ومن ذلك قيامها بإحصاء كتب مكتبة الشيخ أحمد كيار، والشيخ حسن سليمان في مدينة زندر في النيجر ومراقبة المؤسسات الدينية الإسلامية[1].

أما الآثار التي تركها الاستعمار الفرنسي على الثقافة الإسلامية في المنطقة فهو ركود الأنشطة الفكرية بين صفوف المسلمين، وقلة الاهتمام بالتأليف وكتابة المقالات حتى باللغات المحلية فضلا عن العربية، وقد غرس الاحتلال قبل رحيله العداوة للثقافة الإسلامية في نفوس المثقفين بثقافتها، وأبعدوها عن الساحة الفكرية ورفعوا الثقافة الفرنسية، كما عمل الاستعمار الفرنسي على نشر الدين المسيحي الذي لم يكن له وجود في المنطقة قبل الاحتلال[2] .

**الانحسار في العلاقات العربية الإفريقية**

الغارة على العالم الإسلامي، ومنه العربي الإفريقي، صاحبها موجة من التراجع والانحسار في العلاقات العربية الإفريقية، وما تزال العلاقات العربية الإفريقية تشهد نقصا حادا بسبب ندرة المصادر والمراجع المتعلقة بتلك العلاقات، وبقاء أكثرها مخطوطات لا يصل إليها إلا قلة من الباحثين

---

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية**، ص: 2.

(2) علي يعقوب جالو، **الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا**، مقال، ص3.

وذوي الاهتمامات الخاصة، ومن هذه العلاقة المظلومة، في ميدان المعرفة والتاريخ، دور المنظمات الأهلية العربية الإفريقية في إقامة الاتحاد العربي الإفريقي وتجسيده بالفعل والممارسة، ولئن كانت هناك أسباب موضوعية في محطات التواصل والانقطاع بين العدوتين العربية الإفريقية، منها: غلبة البداوة والبنى الاجتماعية والسياسية وعدم تجاوز العلوم الدينية إلى المعارف الكونية الأخرى، فإن الذي ينبغي تسجيله أن المنظمات الأهلية العربية الافريقية أو ما اصطلح على تسميته «الإسلام الشعبي» قد عبرت بصدق عن ضرورة تعجيل خطى الاتحاد العربي الإفريقي وتجسيده واقعا ملموسا في غير ما مناسبة[1].

## التطرف الديني والفكري والعرقي

التطرف بمعناه العام، ليس بالضرورة أن يكون تطرفاً دينياً أو منحصراً بالعنف والتفجير والإرهاب بل إن له وجوه عدة : فالتخلي عن الموضوعية، وإلغاء الآخر يعد تطرفاً، والتعصب للذات تطرف، والتعصب للقبيلة أو المذهبية أو الحزبية أو القومية أو للعرق أو للجنس يعد تطرفاً، ومن ثم فإنه يعد انعكاساً لحالة تصادمية مع الذات أولاً ثم مع الآخرين[2] .

فالتعصب للرأي، ومصادرة الرأي المخالف، وانعدام الموضوعية والتشاؤم أو اليأس من الواقع وقلة التعلم والتفقه، أدى إلى الغلو في الدين والتكفير والاعتداء على الآخرين... وما تشهده المنطقة اليوم لا يمت للإسلام الحنيف بأي صلة.

---

(1) حبيب عمر الفهري، **من أجل تجسيد اتحاد عربي إفريقي**، ص:83-84.

(2) أحمد بن يوسف الدريويش، **التطرف الديني**، ص:3-6

## 3 – عناصر الشراكة الحضارية والفكرية والتاريخية الدينية... بين الجزائر وشعوب المنطقة

عرفت منطقة السهل الإفريقي وغرب إفريقيا، هجرات متوالية وموجات من المد العربي المتصل. تارة عبر التجارة وتارة باسم العقيدة ونشر الدين الحنيف وأخرى باسم الثقافة وحب الاستطلاع. وكان اليمنيون، أول الجماعات والجاليات العربية وصولا إلى جنوب الصحراء بعد سقوط سدهم العظيم في القرن الخامس الميلادي، ثم تلاحقت الموجات العربية إلى جنوب الصحراء في نفس القرن الخامس ومع الإسلام الفاتح تجلي الحضور العربي واضحا في الحواضر الإسلامية في تمبكتو والمبروك وغاوة وتغدة وأروان، الخ. أخذت مجتمعات عربية صميمة وهجينة، تتشكل في شكل نواة قبائلية وتجار ذوي علوم وخلق ودين وتجارة، في منطقة ما سيعرف بمنطقة «أزواد» شمال دولتي مالي والنيجر الحاليتين حصرا.والمتتبع لأحوال هذه القبائل ليجد حلقات التواصل في العلاقات العربية الإفريقية بشكل عام، والعلاقات الجزائرية الإفريقية بشكل خاص[1]، حيث نجد أواصر الترابط بين شعوب المنطقة الذي دعمته عامل الجغرافيا، وعامل الرسالة الإسلامية التي صهرت الجميع في قالب واحد، ووثقت دعائم الإخاء والمحبة والتكافل بين الجميع.

### أ- الروابط التاريخية

علاقات العرب بالشعوب الإفريقية قديمة قدم التاريخ، وتعود هذه العلاقات إلى أكثر من ألفي سنة، وتوثّقت وتطوَّرت مع ظُهور الإسلام، وذلك ابتداءاً من القرن السَّابع الميلادي، كما أنَّ عدداً من البربر فضَّلوا الهجرة عبر الصَّحراء

(1) حبيب عمر الفهري، **القبائل العربية شمال مالي والنيجر**، ص:5-8.

ليقيموا إلى جانب شاطئ الأطلنطي، وقد أطلق هؤلاء البربر اسم قبيلتهم (صنهاجة) أو السنغال على النهر الذي كانوا يعيشون على امتداده[1].

وإذا رجعنا إلى قبائل البربر في المغرب العربي وبالذات قبيلة صنهاجة، فيقول عنهم الدكتور أحمد مختار العبادي: «في هذه الصحراء الكبرى كانت تعيش قبائل صنهاجة اللثام البربرية... غير إن هذه القبائل الصحراوية الجنوبي كانت تختلف عن أقرباءها في الشمال، في أنها كانت تتلثم أو تتقنع، ولهذا سميت بصنهاجة اللثام»[2].

وإذا استعرضنا جميع قبائل البربر، فسوف لا نجد في شمال أفريقيا من أتخذ اللثام خطاماً له بينها سوى قبائل صنهاجة أو الملثمين، ولا نجد بقايا الصنهاجيين سوى في الطوارق، وما يؤكد هذا الكلام ما قاله المستشرق الفرنسي (الفرد بل) في كتابه الفرق الإسلامية في شمال أفريقيا، بقوله: «إن صنهاجة هذه بربرية اللغة والعادات، وأحفادهم الحاليين، هم مثلهم بدو يركبون الجمال....»[3].

و الكاهنة كما يذكر المؤرخون كابن خلدون، فهي ملكة صنهاجة القبيلة الأم للملثمين، وإذا قسمنا الصنهاجيين من حيث مناطق سكناهم شماليين وجنوبيين، فنجد أن الإسلام بدايةً قد انتشر أولاً عند الشماليين غير الملثمين الذين كانوا يسكنوا الصحراء أو:في جناح المغرب الأيمن، في الصحراء الغربية صحراء شنجيط أو ما يسمى الآن بموريتانيا...وفي هذه الصحراء كانت تعيش قبائل صنهاجة اللثام البربرية[4].

---

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية**، ص: 2.

(2) أحمد مختار العبادي، **تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، ص:268-269.

(3) حيدر طالب الأحمر، **الطوارق**، بحث في تاريخ الإسلام شمال إفريقيا، ص:14.

(4) أحمد مختار العبادي، **تاريخ المغرب والأندلس**، ص:270.

ومن بين الهجرات التي أثَّرت على التشكيلة السُّكانية لمنطقة الساحل الإفريقي، ما ذكره الدكتور إبراهيم على طرخان في كتابه (إمبراطورية البرنو الإسلامية) «وقد غزت هذا الإقليم هجراتٌ عربيةٌ من الشَّمال الشَّرقي، ومن المجموعات التي استقرت في منطقة تشاد مجموعة الكاتمبو وهي خليط من قبائل الصو والبربر، والتي لها صلة قوية بقبائل صو البربرية من سكان هضبة التبستي من ناحية فزان ويقال لهم القرعان»[1].

كل هذا يؤكد مدى الترابط العرقي لشعوب المنطقة، من أقصى شمال إفريقيا إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها.

**ب- الروابط السياسية**

يذكر الوزان في «وصف افريقيا» وغيره من الرحالة العرب الموثوقين، حضورا عربيا فاعلا للقبائل العربية في شمال مالي، وتحديدا منذ القرن السادس عشر منها، قبيلة «البرابيش» وهي إحدى القبائل العربية شمال مالي، التي توفرت لها رمزية سياسية معترف بها في مجالها الترابي حول تمبكتو منذ زمنالتي ظلت تسترشد بالطريقة القادرية المختارية، ويحكمون آل الشيخ الكنتي وآل سيدي عالي بن النجيب، وأهل أروان فيما شجر بينهم من خلاف[2].

ويعد الدكتور أبو ضيف، قبيلة كنتة، في عداد القبائل المغاربية ذات النفوذ الديني والسياسي الواسع، وذات الخصوصية التاريخية والاجتماعية المتميزة، وذلك حين يقول عنها: «على أنه كانت هناك قبيلة عربية واحدة كان لها أثر عظيم في إسلام الزنوج في منطقة جنوب الصحراء ومنطقة النيجر الوسطى،

(1) إبراهيم علي طرخان، **إمبراطورية البرنو الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975 م، ص:26-29.

(2) حبيب عمر الفهري، **القبائل العربية شمال مالي والنيجر**، ص:10.

وتلك هي قبيلة كنتة التي هاجرت في القرن التاسع الهجري من مواطنها في توات إلى أطراف تمبكتو، ومع مرور الزمن انصهرت هذه القبيلة العربية الأصل وأصبحت قبيلة مغربية تدين لها الطريقة القادرية بانتشارها في غرب افريقيا»[1]. وتتوزع فروع قبيلة كنتة على عدة دول مغاربية، وتشتهر بأنها ثلاث دوائر: أولاد سيد عمر الشيخ وهم كنتيوّ شمال مالي والنيجر، وأولاد سيدي محمد الكنتي الصغير وهم كنتيوّ موريتانيا، وأولاد الحاج بوبكر وهم في السنغال ومناطق أخرى في غرب إفريقيا[2].

كما اشتهرت قبيلة أهل السوق التي يتقاسمونها النسب الإدريسي والأنصاري والفهري، بأجيالها المتعاقبة من العلماء والشعراء والمنشئين وأسست مدينتها «السوق» على أنقاض «تادمكت» كمحاولة رائدة في مفهوم الاستقرار السياسي...

وفي الجانب الموازي، نزحت بعض القبائل العربية إلى شمال ما يعرف اليوم بـ «النيجر» وهناك شكلوا إمارات ومشيخات عربية وتشكلت إمارة «درمشاكة» بقيادة أحمد بن ابراهيم ( سيدي علي ) و«علوا» وابنه «أمادة» الذي لا يزال السلطان الرمزي لعرب شمال النيجر، وتتألف «درمشاكة» من قبائل: الزراهنة ( نسبة لجبل زرهون بالمغرب) والحاج حمة ومحمد الأمين وباعثمان، إلى جانب بيت الإمارة: آل أمادة من الزخيمات في موريتانيا[3].

وتجدر الإشارة إلى العلاقات الدبلوماسية التي كانت تمثلها السفارات بمفهوم العصر الحديث، وكانت هذه السفارات بعد الموحدين، منها الدولة

(1) مصطفى أبو ضيف أحمد، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية**، دار النشر المغربية، 1982، ط2، ص:269.

(2) مصطفى أبو ضيف أحمد، المرجع السابق، ص:269.

(3) محمد سعيد القشاط، **صحراء العرب الكبرى**، ص: 75.

المرينية في عصر السلطان أبو الحسن علي بن عثمان، حيث إن أولى السفارات التي حصلت بين المرينيين ودولة مالي كانت تلك التي أرسلها منسا موسى سنة 737هـ/ 1337م إلى بلاد المغرب وهي محملة بالهدايا القيمة، والتي غالباً ما كانت تُهدى مثيلاتها لحكام مصر وبلاد الشام، وقد استقبلت تلك السفارة من قبل السلطان أبي الحسن المريني أفضل استقبال . ويستبق ابن خلدون تاريخ تلك السفارة قائلاً أن السنة التي بدأت فيها السفارات بين المغرب والسودان هي سنة 733هـ/ 1333م دون تحديد اسم السفارة أو من كان فيها ورغم أهمية تلك السفارة إلا أن فتح تلمسان وما له من أهمية سياسية في تاريخ المغرب والذي سلب اهتمام مؤرخي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي قلل من اهتمامهم بها[1].

### ج- الروابط الاقتصادية

لعبت الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى أدواراً كبيرةً ومهمةً في تاريخ المنطقتين الواقعتين على طرفيها الشمالي والجنوبي، فقد تَّم عبرها التَّبادل التِّجاري منذ أقدم العصور، ومع نشاط الحركة التجارية اتَّصلت إفريقيا جنوبي الصحراء بحضارات العالم القديم المُطلَّة على حوض البحر الأبيض المتوسط، ومنذ الألف الأخير قبل الميلاد خرج نطاق التَّبادل التِّجاري من محيطه الدَّاخلي في إفريقيا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الذي ساهم فيه الفينيقيون واليونان والرومان، وقد خلَّف لنا هؤلاء كثيراً من المعلومات التي تُعتبر من أقدم المصادر عن مسالك الصحراء والشُّعوب القاطنة فيها ووراءها، وإلى جانب ذلك فهنالك بعض المصادر المحلية الهامَّة عن الطرق الصحراوية،

(1) علي بن عبد الله بن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب**، دار المنصورة للطباعة، الرباط، 1972، ص:278.

وهي عبارة عن النقوش والرسومات التي خلَّفتها الشُّعوب الصحراوية في فتراتٍ تاريخيةٍ مُتتالية[1].

غير أنَّ العصر الذَّهبي لمصادر الطُّرق في إفريقيا جنوب الصحراء يبدأ بدخول الإسلام في شمال إفريقيا، حيث استقرَّ المسلمون في المغرب العربي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وكثَّفوا اتصالاتهم بجنوبي الصحراء ما بين حوض بحيرة تشاد شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وقد سجّلت كتب التراث العربي معلوماتٍ غزيرةً عن هذه المنطقة، تُعتبر من المصادر الأساسية لدراسة الطرق المُؤدِّية إليها وعلاقاتها بالمغرب العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط، وقد تَضَمَّنت تلك المعلومات الأنشطة الاقتصادية والثقافية والعلاقات الاجتماعية لسكان المنطقة والأنظمة السياسية التي سادت فيها[2].

ويبدأ الدور الاقتصادي للقبائل العربية شمال مالي والنيجر، من فترة المرابطين وما تلاهم من دول ومشيخات إلى يوم الناس هذا، ويشير الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» إلى دور اقتصادي مهم لمخيمات البرابيش في شمال مالي الحالية، ولا يختلف ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عما ذكره الوزان، من دور متميز للعرب عاربة ومستعربة في اقتصاد المنطقة شمال مالي والنيجر، وكان من نتائج الاقتصاد العربي في شمال مالي والنيجر، بناء المدن وتعميرها[3]، ومع بداية القرن الحادي عشر الهجري، تأسست مدينة أروان الحالية على يد سيد أحمد أق آدة السوقي، التي تمثل الشريان الاقتصادي المتألق للقبائل العربية،

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية**، جامعة إفريقية العالمية، ، ص:107.

(2) إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص: 68.

(3) حبيب عمر الفهري، المرجع السابق، ص:19-22.

وإلى جانب هذه النهضة الاقتصادية التي وفرها بناء مدينة أروان، كانت ملجأ للعلماء والمثقفين والتجار وسوقا للكتب والمخطوطات، وظهر من رجالاتها العلماء: القاضي سن بير والقاضي سيد الوافي والعالم أحمد بن صالح وسيدي علي بن الشيخ والقاضي سيدي عالي... وكان معدن تغازة بين المغرب ومالي ملتقى لقوافل الصحراء، واشتهر سيدي الأمين بو النقام وهو عالم وتاجر من الرقاقدة حول تمبكتو، بتجارته المتألقة ما بين تغازة وتمبكتو ومراكش وسجلماسة وقبره اليوم في أروان[1].

فأشار اليعقوبي وهو أول جغرافيّ عربّي مدَّنا بمعلوماتٍ مباشرة عن الطرق الصحراوية، إلى طريق الذَّهب من سجلماسة إلى مملكة غانة عبر المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى، وتناول أيضاً الطريق الشرقيّ من فزان عبر كوار جنوباً إلى حوض بحيرة تشاد، ووضَّح نشاط الإباضية التجاري على هذا الطريق من مركزهم الصحراوي (مدينة زويلة)، وأشار إلى الأمم الإفريقية التي ارتبطت عبره، وأضاف اليعقوبّي في كتابه (التاريخ) معلوماتٍ عن الممالك الإفريقية جنوبيّ الصحراء، فتحدث عن غانة واتِّساعها، وجعل مملكة كانم ومملكة مالي ومملكة كوكو من أعظم ممالك السودان في ذلك العهد[2]. وذكر ابن حوقل أحوال المنطقة، فجاءت معلوماته دقيقة عن الجزء الغربّي من الصحراء الكبرى، ويبدو ذلك من خلال وصفه أنَّ النَّشاط التجاري ربط المنطقة كلها ربطاً تامَّاً ما بين سجلماسة وأودغست غرباً حتى زويلة شرقاً، وبين ارتباط سلع المنطقة بتجارة حوض البحر الأبيض المتوسط[3].

---

(1) حبيب عمر الفهري، المرجع السابق، 19-22.

(2) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية**، ص: 68-69.

(3) إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:70

وقد اشتهرت أربعةُ طرقٍ تجاريةٍ بين شمالي القارة وغربها ووسطها وهي: من تونس وليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد. ومن تونس إلى بلاد الهوسا. ومن الجزائر إلى أواسط نهر النّيجر. وكذلك من المغرب إلى أعالى نهر النّيجر وحوض نهر السّنغال[1].

وكانت التجارة عاملاً هاماً في تلك الصلات، حيث مثَّلت التجارة المهمَّة الرئيسية لمعظم أولئك الذين أرَّخت لهم كتب الطبقات، وكان أولئك يستقرون لفتراتٍ طويلة في مراكز وممالك جنوبيّ الصحراء، ويتجوَّلون في الأماكن الداخلية من إفريقيا، فارتبطت سيرهم بتلك الأنحاء، ويُعتبر كتاب (الورقاني أبي زكريا يحيي بن أبي بكر) (القرن الخامس الهجري) وكتاب (الوسياني أبي ربيع عبد السلام 471هـ) من أقدم طبقات الإباضيَّة التي تضمَّنت أخبار الصحراء والأنشطة الثقافية والتجارية[2].

وقد شهدت هذه المنطقة بداية تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية منذ أن توطَّد الحكم العربي في الشمال الإفريقي، أي منذ مطلع القرن الثامن للميلاد، وظلَّت هذه التأثيرات في ازدياد بفضل نشاط التجار المغاربة عبر الصحراء الكبرى، حيث كان لنشاطهم واستقرارهم، أكبر أثر في انتشار الإسلام بين قبائل الصحراء الكبرى (صنهاجة الصحراء )، وفي الجهات التي ارتادوها من إقليم السودان الغربي[3].

---

(1) حبيب عمر الفهري، **القبائل العربية في شمال مالي والنيجر**،ص: 18-27.

(2) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية**، ص:71.

(3) الفاتح الزين الشيخ إدريس، **الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان، الغربي في القرون الوسطى) ممالك غانة ومالي وسنغاي**، ص: 65.

### د- الروابط العائلية والاجتماعية

كان من الطبيعي أن ينتج عن التداخل الجغرافي والتبادل التجاري والوحدة الدينية وغير ذلك من عناصر التكامل، روابط عائلية متينة، وهجرات من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، وأن نجد قبائل وعائلات جزائرية صرفة في المبروك وقصر الشيخ وتمبكتو بمالي وولاتة وتيشيت وشنقيط وودان بموريتانيا، وأخرى افريقية في رقان وتوات وغيرها من مدن الجزائر، وأن نعثر على بقايا أسر وعائلات جزائرية أخرى ذابت في النسيج السوداني الإفريقي، أو اختلطت دماؤها الجزائرية وسحنتها بدماء الجنوب[1].

ومن بين هذه الأسر، أسرة أولاد البكاي، وهي أسرة ذات الصيت العلمي والسياسي والتجاري في مالي والنيجر والجزائر، وتنسب الأسرة إلى أولاد البكاي بن عمر الوديعة البكري الكنتي الفهري القرشي، قدمت من منطقة تقانت ( موريتانيا حاليا ) إلى أزواد ( منطقة شمال مالي والنيجر ) زمن الشيخ سيد البكاي بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار الكبير[2].

كما عرفت الحياة الاجتماعية في وسط القبائل العربية شمال مالي والنيجر، أنواعا عديدة من العادات والتقاليد والأنظمة الاجتماعية السائدة، بعضها مستوحى من الدين والبعض الآخر نتاج التلاقح بين شعوب المنطقة، فقد عرفت المنطقة الزواج الإسلامي بأركانه وشروطه، والختان، والأعياد وغيرها من المناسبات، كما عرفوا نظام الوقف وغيرها من أنظمة التكافل الاجتماعي التي تقوي الأخوة بين أفراد وشعوب المنطقة والتي حث عليه الدين الإسلامي[3].

---

(1) حبيب عمر الفهري، **القبائل العربية في شمال مالي والنيجر**،ص:27-34.

(2) حبيب عمر الفهري، المرجع السابق،ص:27-34.

(3) حبيب عمر الفهري، المرجع السابق،ص:27-34.

### ج- الروابط الدينية (الإسلام)

دخل الإسلام القارة الإفريقية من جهتين، وكان لكلٍّ جهة منهما مسارها وتكوينها وعمقها: شرق إفريقيا، وغرب إفريقيا، أمَّا شرق إفريقيا فمرجعه إلى اتصال الموانئ الإفريقية بالجزيرة العربية، ومنطقة غرب إفريقيا، فقد انتشر الإسلام فيها عن طريق قبائل البربر المغربية التي اعتنقت الإسلام، وعن طريق غرب السودان، حيث يوجد خط القوافل التجارية المسافرة إلى غرب إفريقيا، وكذلك من المغرب حيث انتشر الإسلام في السنغال ومملكة غانة القديمة، وامتد إلى داهومي (توجو حالياً) وكذلك نيجيريا وسائر دول غرب إفريقيا التي انتشر فيها الإسلام عن طريق أهل المغرب، ولم يلبث النيجيريون أن أصبحوا دعاة للإسلام في ترحالهم على الأقدام للحج سنوياً مخترقين قلب إفريقيا إلى غرب السودان فشرقه، ثم عابرين البحر الأحمر، ومن غرب إفريقيا وسّع الإسلام آفاقه وسط القارة الإفريقية[1].

وترجع أهمية التوسع الإسلامي في غرب إفريقيا إلى قيام دولة (المرابطين) في القرن الخامس الهجري، حيث تُوصف هذه الفترة بأنَّها فترة انتعاش الإسلام، وكان أبرز مظاهر هذه الحركة، الاندفاع نحو الجنوب إلى جبال أدرارس، ثم إلى بلاد موريتانيا ثم إلى نهر السنغال، حتى إذا كان القرن التاسع الهجري (15م) اتسعت حركة انتشار الإسلام واللغة العربية في هذه المناطق، ولم تلبث أن اتسعت في القرن العاشر الهجري حيث استطاع الإسلام أن ينتشر بين القبائل، ويحلّ محلّ الديانات الوثنية في السنغال، حيث اعتنق الإسلام حوالي مليون وثلاثمائة ألف من مليونين هم مجموع السكان آنذاك، وفي مالي (السودان الفرنسي سابقاً) تأسَّست في القرن الخامس الهجري (11م) دولة

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة، **طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية**، ص:78-79.

بربرية عن طريقها انتشر الإسلام في قبائل دولة مالي، فلمَّا تولَّى المغاربة حكم هذه البلاد زادت نسبة المسلمين فيها إلى أكثر من ٪60، وفي غامبيا وغينيا انتشر الإسلام انتشاراً هائلاً، وكان لقبيلتي الفولاني والإلمامية أثر كبير، فأصبحت الأغلبية الإسلامية. وكذلك في إقليم النيجر قامت دولة إسلامية واسعة، وأنشأ الطوارق سلطنة بربرية منذ القرن العاشر الهجري فانتشر الإسلام في هذه المناطق[1].

ويُرجع الكثير من الباحثين الفضل في انتشار الإسلام بين القبائل الزنجية في إفريقيا منذ القرن (18م) إلى نشاط الدعاة المسلمين، وقد وجد الزنوج في الإسلام الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي، وما يتمتعون في ظلِّه من أمنٍ خلال أسفارهم للتجارة ويُسر فرائضه، وقد بدّل الإسلام مظاهر الحياة في البقاع التي دخلها، وأسبغ روح النظافة، حيث يتميز المسلم عن بقية الناس بلباسٍ فضفاضٍ فضلاً عن تحريم لحم الخنزير، ولقد ساهمت حركة كثير من الأفارقة لأداء فريضة الحج وطلب العلم في القيروان وفاس والأزهر وفي مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة في نشر الدعوة والعلوم الإسلامية، ونهضت تلك البلاد التي أمَّها المسلمون الإفريقيون بشتى الأغراض بما ينبغي عليها من الوفاء الذي سجّله التاريخ من تيسير الرحلة وحسن الاستقبال وتيسير سبل العلم، بجانب تبادل المنافع التجارية، بل اختلطت دماء الإفريقيين السود بغيرهم من المسلمين، مماَّ زاد الرابطة ووثَّق العلاقة، فأدَّى هذا كله إلى تجاوز شهرة المدن الإفريقية الزاهرة حدود القارة الإفريقية، منها مدينة تمبكتو في مجال التعليم ونشر الثقافة الإسلامية، إذ انتشر المرابطون في القرى يعلمون القرآن الكريم والكتابة العربية، وكان أبناء المشايخ يأتون إلى تمبكتو لتحصيل العلم، فلم تكن

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:79-80.

تمبكتو سوقاً للتجارة وسط إفريقيا فحسب، بل كانت دار علمٍ انتشر ذكرها حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وصارت هذه المدينة التيً اختطت منذ عام 1077م، مركزاً للدعوة الإسلامية تَشعُّ منها إلى كل الجهات، ومنذ القرن الثاني عشر كان الإسلام قد انتشر في بلاد النيجر والسنغال الأعلى، ووصل إلى بحيرة تشاد في القرن الثالث عشر[1].

**د- رابطة اللغة العربية**

اللغة العربية واسعة الانتشار في إفريقيا، وتُعتبر لغة أم لعددٍ كبيرٍ من الشعوب الإفريقية، كما تُعتبر لغة التواصل بين العديد من القبائل الإفريقية التي لا زالت تحتفظ بلغتها الخاصة، حيث لا تستطيع هذه القبائل استخدام أي لغة مشتركة فيما بينها غير اللغة العربية، وقد ظلَّ الحرف العربي هو الأساس الذي كُتبت به معظم اللغات الإفريقية، فالسواحيلية والصومالية والفولانية والهوسا، ظلّت حتى عهدٍ قريبٍ تُكتب بالحرف العربي، وهناك مخطوطات عديدة مكتوبة بهذه اللغات محفوظة في عدد من خزانات الكتب في البلاد الإفريقية. وكانت اللغة العربية هي لغة الحكم والإدارة في معظم الدول العربية، ولم تكن معظم الدول الإفريقية إن لم نقل كلها تعرّضت إلى لغةٍ أوروبية قبل دخول الإستعمار، فما أن رحل الاستعمار حتى أصبحت هذه الدول تتبنى لغة الدولة المُستعمِرة، فالمكاتبات الرسمية في دول مثل كانم، ودَّاي، سوكوتو، مالي، غانة وغيرها كانت جميعها تكتب باللغة العربية حتى سقوط هذه الدويلات بسبب الحملة الاستعمارية الجائرة على إفريقيا[2].

(1) إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:80-81

(2) إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:83.

**هـ – الروابط العلمية والثقافية**

تواصل العلماء فيما بين الجزائر وشمال النيجر ومالي، في شكل حوارات علمية مطولة ومراسلات إخوانية؛ غايتها توحيد اللحمة وتقريب المسافات وتثقيف الناس، حيث يتحدث مخطوط مطول ينسب إلى القرن الخامس عشر الميلادي عن رسالة بعث بها سلطان برنو: كاداي ( 1440 – 1447م ) إلى بعض العلماء البارزين من ( توات ) يطلب إليهم فيها أن يرسلوا اليهم بعثات علمية الى (برنو) «(23).وكان التواصل بين علماء أزواد ( شمال مالي والنيجر ) وتمبكتو وعلماء أقبلي وتوات في الصحراء الجزائرية والصحراء المالية، وقد أخذ الشيخ محمد باي بن عمر ( الكنتي ) الإجازة عن الشيخ حمزة بن الحاج أحمد القبلاوي.

كما استمر الإنتاج الفكري لعلماء المنطقة في ازدهار حتى بداية القرن العشرين، عندما نجحت الهجمة الاستعمارية الغربية في إسقاط الدول الإسلامية في بلاد السودان الأوسط واستبدالها بدول تابعة لفلك المنظومة الاستعمارية الدولية، ومما نتج عن هذا الغزو الاستعماري، استبدال الثقافة الإسلامية العربية في تلك المنطقة بثقافة أوربية كان من أولى اهتماماتها، إطفاء نور القرآن وطمس معالم الحرف العربي كما ذكرنا سابقا.

وتجدر الإشارة إلى دور الطرق الصوفية ومساهمتها في تكريس التواصل الجزائري الإفريقي وتبرير مقوماته التاريخية والاجتماعية والدينية والثقافية والاقتصادية والأمنية ...، ومن أشهر الطرق الصوفية وأسبقها دخولا إلى بلاد السودان الغربي، الطريقة القادرية التي أدخلها إلى بلاد السودان الغربي، المصلح الجزائري الشيخ الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني وعنه أخذها سيد عمر الشيخ الكنتي، كذلك زاوية كنتة بتوات التي ما زالت إحدى بلديات

الجزائر تحمل اسمها إلى اليوم، ومن هذه الزاوية انطلق في اتجاه الصحراء عدد من المتصوفة والعلماء الجزائريين، وعملت جماعة كنتة على تأسيس مدارس تابعة للزوايا الكنتية الرئيسية بتوات: زاوية كنتة وزاوية بونعامة (زاوية الهمال) وزاوية سيدي المختار الشيخ في جديد، ومع الشيخ سيد المختار الكنتي الفهري، الذي اشتقت من اسمه من الطريقة القادرية المختارية، ثم توسعت المدارس الكنتية الجزائرية في الأفق الإفريقي، وانتشر أتباعها في عموم بلاد السودان الغربي والأوسط، مما زاد في تعميق التواصل الجزائري الإفريقي[1].

كذلك من الطرق الصوفية التي تنسب إلى أحد الجزائريين الأعلام، الطريقة التجانية التي تنسب إلى سيدي أحمد بن محمد سالم التجاني ( 1757–1815 ) المولود بقرية عين ماضي بجنوب الجزائر، وقد أخذها عنه عدد من الشناقطة «منهم أحمد ومحمد الملقب السالك ابنا الإمام. وسيدي محمد الحافظ بن المختار بن حبيب الذي لقي الشيخ التجاني في عودته من رحلة الحج، فتعلم منه وتربى لديه، وعاد إلى بلاد شنقيط 1805 م، فنشر الطريقة فيها ونشرها أتباعها في إفريقيا، فإليه ترجع جل أسانيد الطريقة التجانية في افريقيا، وينتسب الشيخ عمر بن سعيد الفوتي والحاج مالك سي، وهما من أبرز زعماء التجانية في مناطق السنغال والسودان وافريقيا الغربية، إلى الطريقة التجانية. وقد بلغت التجانية قمة انتشارها على يد الشيخ ابراهيم نياس ومريديه من الشناقطة خصوصا الشيخ الهادي بن سيدي مولود فال الذي نشر الطريقة والمعارف في نيجيريا.

فقام الشنقيطي بنشر الطريقة التجانية بين قبائل الشناقيط ثم وصلت إلى السنغال وقد سارت التجانية في بداية أمرها على نفس أساليب القادرية في الدعوة ثم تحولت إلى الجهاد بقيادة الحاج عمر الفوتي والذي يعد شخصية

(1) حبيب عمر الفهري، **مبررات التواصل الجزائري الإفريقي**، ص: 109–113.

فذة ومن دعائم الفكر والثقافة في غرب القارة الإفريقية بل يعد المجدد الأول للطريقة التجانية في غرب القارة ومن ثم في السنغال وقد اعتمد الحاج عمر الفوتي على الطريقة التجانية كمنهج عقائدي في إقامة دولة إسلامية في غرب إفريقيا[1].

وعلى العموم سيظل الإمامان الجزائريان: المغيلي والتجاني، الشمعة التي أضاءت للأفارقة طريق الحقيقة الصوفية، والكلمة الباقية في فم الزمان وآذان التاريخ، مما يزيد من مبررات التواصل الجزائري الافريقي، واستطاع أتباعهما ـ حسب عبارة المفكر العربي خليل النحوي ـ أن يقيموا لهم «دولا وأشباه دول غير معلنة أساسها شعبية عارمة تدعمها دبلوماسية حصيفة وروح سلمية تتحلل في مواجهتها قوة الرجال المسلحين»، ومن المفارقات العجيبة والصُّدف النادرة أن تتلبس الطريقة القادرية بالعائلة الكنتية والطريقة التجانية بعائلة العلامة المجدد الشيخ ابراهيم نياس الكولخي في السنغال، وكلاهما – آل نياس والكنتيون – ينحدر من ذرية الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري نزيل بسكرة بالجزائر[2].

### و- روابط الجغرافيا

تعتبر الجزائر دولة افريقية اكتسبت عروبتها بتطورات تاريخية دون انسلاخها من فضائها الإفريقي العام، حيث تعزز التواصل الجزائري الافريقي، عبر تيارين تركا بصماتهما واضحتين فيها: تيار جزائري قدم من الشمال حمل رايته البدو الجزائريون الذين اشتهروا في التاريخ باسم الطوارق أو الملثمين. وتيار تجار

---

(1) ابن عمر عمر عبيد الله، **دور الطريقة التجانية في التواصل الاجتماعيفي افريقيا** – كردفان نموذجا ص:1-2.

(2) حبيب عمر الفهري، **مبررات التواصل الجزائري الإفريقي**، ص: 109-113

شبه الجزيرة العربية وقبائلهم الذين مروا بالجزائر ثم انزاحوا إلى الجنوب وبعد الإقرار بالانتماء إلى المنطقة العربية، والمنطقة المغاربية ثم شمال الإفريقية، جاء الانتماء الخاصُّ بالقارة السمراء بعد الاستقلال بعام: «(الجزائر) جزءا لا يتجزأ من المغرب العربي، ومن العالَم العربي ومن إفريقيا». (الدستور الجزائري لعام 1963)، وكانت أسس الهُوِيَّة الجزائرية التي اعتمدت عليها السياسة الثقافية الوطنية محدَّدة تمامًا على المستوى السياسي: الإسلام، والعروبة، والإفريقانية. بعدها أدمجت الأمازيغية –وهي مكوِّن أساسي للهُوِيَّة الجزائرية– في الدستور الجزائري في عام 1996 م،بعد سنوات عديدة من الإهمال: «إن المكوِّنات الأساسية (لهوية الشعب الجزائري) هي الإسلام، والعروبة، والأمازيغية» (الدستور الجزائري لعام 1996 م). ومِن ثَمَّ أقرَّ الدستور الجزائري كل المكوِّنات الخاصَّة بالهُوِيَّة التي تحدِّد السلوكيات الاجتماعية – الثقافية للجزائريين[1].

## ي- الكفاح المشترك

قاسمت الجزائر افريقيا محنة الاستعمار ولذة الكفاح والنضال للتخلص منه، وساهم الأفارقة في جنوب الصحراء في التعبير عن عواطف صادقة جياشة منهم تجاه الجزائر، كما هو الحال مع المرحوم حبيب وافي الأرواني الذي يدير الآن ابنه حامد وزوجته الجزائرية جميلة فرجاني مستوصفا ذي خدمات طبية عالية في العاصمة النيجرية نيامي، فكانت الجزائر مسرحا للنضال وملجأ لكل الفارين من نير القهر وجور الأيام، حيث يذكر بوفيل في «الممالك الاسلامية» أن منطقة توات كانت محضنة وبساطا لكل ضعيف حتى اليهود )، فاستفادت النضالات الافريقية – عبر تواصلها مع الجزائر– من هذه الأجواء، كانت ثورة

(1) [50]حبيب عمر الفهري، **مبررات التواصل الجزائري الإفريقي**، ص: 109–113

التحرير الجزائري، رمزا للتضحية والنضال الوطني المشرق، فاسترشدت بهديها حركات التحرر الافريقي، واتخذت من تجربة الجزائر في النضال أنموذجها ومثلها سارت على خطاها وكان الشعر الافريقي حاضرا في هذه المعركة، حيث يقول سيدي الأمين بن البكاي الكنتي المتوفى 1403 هـجري في قصيدته عن الثورة التحريرية الجزائرية بقوله:

أيـــا جـبـهـة الـتـحـريـر أهـــلَ الـجـزائـر
أيـــا ذروةَ الأبـــطـــال أهـــل الـمـآثـر

لـقـد قـمـتـم والـلـيـل مـعـتـكـر الـدجـى
أفـاعـيـه فـي غـض مـن الـعـيـش خـادر

تـــرى أهـــلـــه مـــا بـيـن ســـاه وغـافـل
وعـــان ومـغـمـور ومـــاش وحـائـر

لـقـد حـزتـم قـصـب الـسـبـاق بهمة
تـقـاعـس عـن إدراكـــهـــا كـل فـاخـر

أيـــا ســاريـا بـالـلـيـل لا تـخـشـى عائقا
لـقـد خـفـقـت رايـــات أهـــل الـجـزائـر.

## الخاتمة

وفي خاتمة بحثنا هذا يمكن القول إن البعد الحضاري للجزائري يمتد إلى العمق الافريقي منذ القدم، فهو ضارب في جذور التاريخ القديم، ومما عزز هذا التواصل، الفتح الاسلامي، يد الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه، فكان هناك تمازج وتلاقح فكري بين شعوب المنطقة، جسدته معالم الترابط الفكري والديني والاجتماعي، وتجسدت معانيه، في الكفاح المشترك ضد الغزاة المستعمرين، ولا يزال هذا الصراع قائما إلى يومنا الحالي.

فعناصر الجمع والترابط بين شعوب المنطقة أقوى وأكبر مما يروج له، ومما يدبر له في منطقتنا الصحراوية الحبيبة، عن طريق بث الفكر التطرفي والطائفي، وخلق أسباب الفرقة والانقسام، فكان لزاما على شعوب المنطقة، وبالأساس الجزائر، بعث روابط التعاون مع البلدان الجنوبية وتحقيق التنمية المستهدفة للشعوب.

## قائمة المراجع:

### - المراجع والتهميش:

1 – بن عنتر عبد النور، البعد المتوسطي للأمن الجزائري، الجزائر، المكتبة العصرية، 2005، ص55.
2 – ظريف شاكر، البعد الأمني الجزائري في منطقة الساحل والصحراء الإفريقية، رسالة ماجستير، كلية الحقوق، جامعة باتنة، 2008–2010، ص:31.
3 – عثمان عبد السّلام الثّقافي، (الدّكتور)، الإسلام في غرب أفريقيا، (القسم النّثري) مطبعة مدرسة سراج العلوم الإسلامية أوودي بكتى إلورن، الطبعة الأولى، 1993م، ص:2.– انظر مصطفى زغلول السّنوسي(الشّيخ) **روائع** المعلومات عن أقطار أفريقيا وبعض ما نبعت فيها من المملكات، مطابع الشّرق الأوسط، الرّياض، الطّبعة الأولى 1411هـ – 1991م، ص: 112.
4 – والولوف همّ أكثرهم تطوّراً وكانوا يؤلّفون مجموعة من خمس ممالك وينتشرون في نطاق عريض بين السّنغال وغامبيا.
5 – وقد نشأت في المنطقة الّتي يحتلّها اليوم الماندينجو دولتا غانا القديمة ومملكة مالى.
6 – وكلمة صونغاوي تطلق على البلاد وليس على النّاس وهم زنوج مخلطون بالطّوارق والمغاربة أي بالعناصر البربرية والعربية
7 – داود عبد القادر إيليغا، الأنظمة التّعليمية الوافدة إلى غرب أفريقيا وآثارها على المجتمع ورقة مقدّمة إلى ((ملتقى الجامعات الأفريقية)) تقيمه جامعة أفريقيا العالمية بالسّودان يناير 2006م، ص2.
8 – الموسوعة العربية، دائرة المعارف العالمية.
9 – الموسوعة العربية، دائرة المعارف العالمية.
10 – ظريف شاكر، المرجع السابق، ص:52–55.
11 – ظريف شاكر، المرجع السابق، ص:90–91.
12 – ظريف شاكر، المرجع السابق، ص: 88.
13 – ظريف شاكر، المرجع السابق، ص: 97.
14 – حبيب عمر الفهري، من أجل تجسيد اتحاد عربي إفريقي، ص:83–84
15 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، دراسات دعوية، العدد 9، 2005، ص:82–86.
16 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، ص: 2.
17 – علي يعقوب جالو، الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، مقال، ص3.
18 – حبيب عمر الفهري، من أجل تجسيد اتحاد عربي إفريقي، ص:83–84.
19 – أحمد بن يوسف الدريويش، التطرف الديني، ص:3–6.

20 – حبيب عمر الفهري، القبائل العربية شمال مالي والنيجر، ص:5–8.
21 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، الهجرات والقوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، ص: 2.
22 – أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ص:268–269.
23 – حيدر طالب الأحمر، الطوارق، بحث في تاريخ الإسلام شمال إفريقيا، ص:14.
24 – أحمد مختار العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص:270.
25 – إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص:26–29.
26 – حبيب عمر الفهري، القبائل العربية شمال مالي والنيجر، ص:10.
27 – مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، دار النشر المغربية، 1982، ط2، ص:269.
28 – مصطفى أبو ضيف أحمد، المرجع السابق، ص:269.
29 – محمد سعيد القشاط، صحراء العرب الكبرى، ص: 75.
30 – علي بن عبد الله بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، دار المنصورة للطباعة، الرباط، 1972، ص:278.
31 – بشار أكرم جميل، دور السفارات في التواصل الحضاري بين المرينيين ودولة مالي الإسلامية، 1430هـ/ 2009م، ص:2–6.
32 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقية العالمية، عدد2، ص:107.
33 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص: 68.
34 – حبيب عمر الفهري، المرجع السابق، ص:19–22.
35 – حبيب عمر الفهري، المرجع السابق، 19–22.
36 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية، ص: 68–69.
37 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:70.
38 – حبيب عمر الفهري، القبائل العربية في شمال مالي والنيجر، ص: 18–27.
39 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية، ص:71.
40 – الفاتح الزين الشيخ إدريس، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان، الغربي في القرون الوسطى) ممالك غانة ومالي وسنغاي (، ص: 65.
41 – حبيب عمر الفهري، القبائل العربية في شمال مالي والنيجر، ص:27–34.
42 – حبيب عمر الفهري، المرجع السابق، ص:27–34.
43 – حبيب عمر الفهري، المرجع السابق، ص:27–34.
44 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، طرق القوافل عبر الصحراء والمماليك الإفريقية، ص:78–79.

45 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:79–80.
46 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:80–81
47 – إبراهيم محمد أحمد بلولة، المرجع السابق، ص:83.
48 – حبيب عمر الفهري، مبررات التواصل الجزائري الإفريقي، ص: 109–113.
49 – ابن عمر عمر عبيد الله، دور الطريقة التجانية في التواصل الاجتماعيفي افريقيا – كردفان نموذجا– ص:1–2.
50 – حبيب عمر الفهري، مبررات التواصل الجزائري الإفريقي، ص: 109–113
51 – حبيب عمر الفهري، مبررات التواصل الجزائري الإفريقي، ص: 109–113

# الفهـــرس

**مقدمة : الجزائر وإفريقيا: نحو استراتيجيه أمنية في الدين والثقافة والسيّاسة** ..... 3

**كلمة السيد والي ولاية بسكرة** ..... 7

**الباب الأول: الجزائر وانتشار الإسلام** ..... 11

- دخول الإسلام وانتشاره في إفريقيا ..... 13
- عقبة بن نافع وانتساب قبائل إفريقيا إليه (القبائل الفلانيين نموذجا) ..... 23

**الباب الثاني: الروابط الحضارية بين الجزائر والبلدان الإفريقية** ..... 39

- الإمتداد الفكري والثقافي لحاضرة تيهرت الرستمية عبر الصحراء الكبرى إلى بلاد السودان ..... 41
- دور توات في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ..... 69
- الإمام المغيلي وإسهامه في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الهوسا ..... 91
- أهمية التراث العلمي والثقافي المفقود لبعض علماء المغرب العربي ..... 125
- التواصل الفكري بين بلاد شنقيط وبعض الحواضر الجزائرية مدينة ولاته التاريخية – نموذجا – ..... 157
- الفقهاء والعلماء العرب والبربر في مملكة مالي بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين / الحادي عشر

والسادس عشر الميلاديين ..... 193

- دور العلماء الميزابيين في الحركة السياسية والفكرية
بإفريقيا، الشيخ إبراهيم اطفيش وإسهاماته بزنجبار أنموذجا. ..... 217

**الباب الثالث: الطرق الصوفية الجزائرية وامتدادها الإفريقي** ..... 231

- التواصل الروحي بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء ..... 233

- «الطريقة القادرية نموذجا» ..... 233

- أثر الطريقة التجانية في نشر وتثبت الإسلام بإفريقيا ..... 263

- دور علماء صحراء الجزائر وطرقهم الصوفية
في نشر الإسلام وثقافة السلم في غرب إفريقيا،
الطريقة التيجانية في النيجر نموذجاً ..... 293

**الباب الرابع: الجزائر وحركات التحرر في إفريقيا** ..... 313

- الأدباء في مواجهة الاستعمار من خلال مخطوطات تمبكتو ..... 315

- الدور النهضوي لحركات التحرر الأفريقي – حركتي الإمام المهدي
السوداني والأمير عبد القادر الجزائري نموذجاً (دراسة مقارنة) ..... 351

- العلاقات الاجتماعية لقبيلة كنتة خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر
الميلادي ..... 401

- دور الثورة الجزائرية في إفريقيا ..... 423

- تلاحم النضال التحرري بين الجزائر ومالي
(جبهة مالي نموذجا) (1960 – 1962) ..... 441

- الجزائر وبعدها الحضاري المفقود في النّيجر ومالي ..... 461